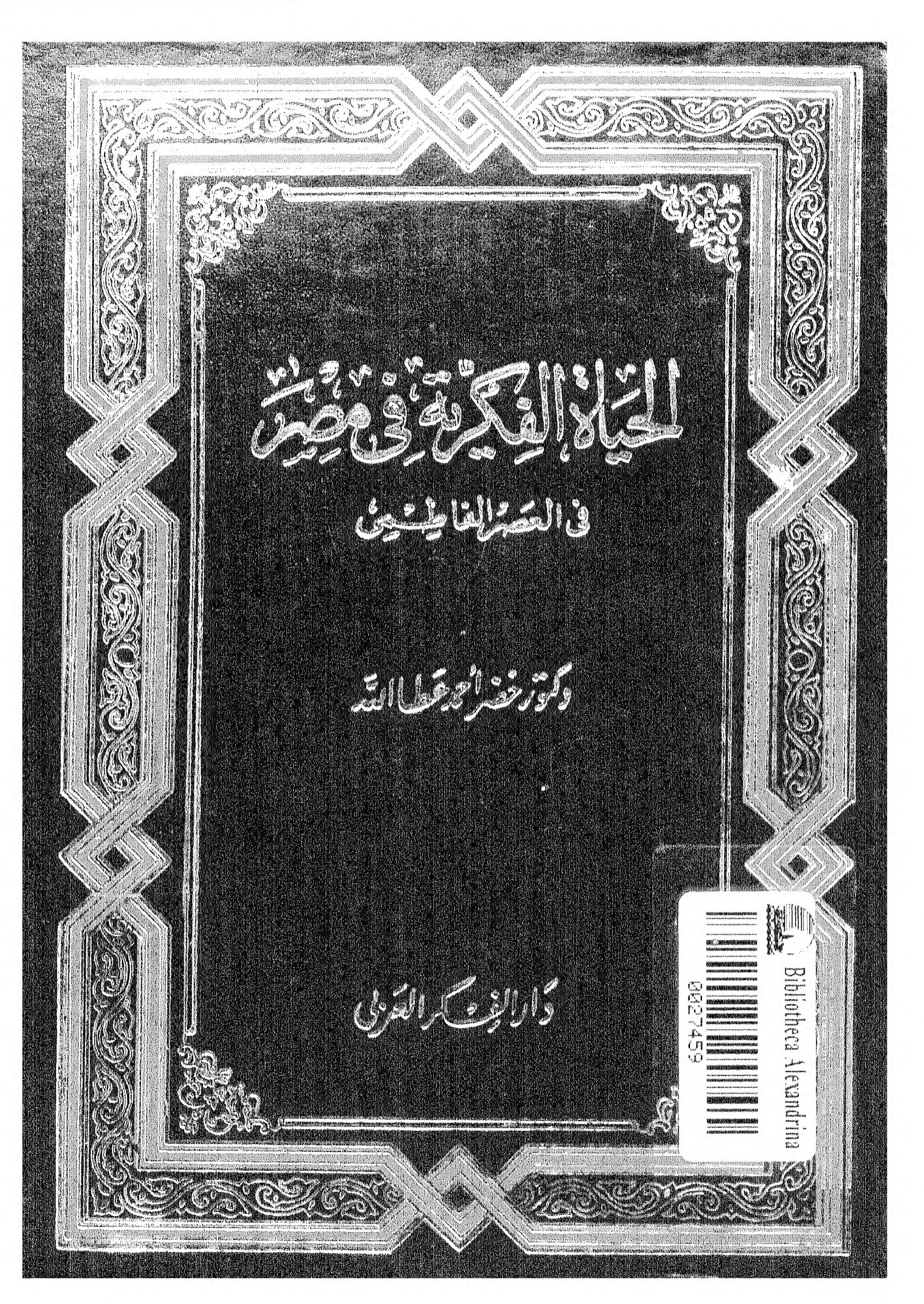

الحياة الفكرية في مصر
في العصر الفاطمي
دكتور خضر أحمد عطا الله
دار الفكر العربي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





دكتور خضر أحمد عطا الله
كلية التقنية العليـا - أبو ظبي
جامعة الامارات العربية المتحدة

الحياة الفكرية في مصر
في العصر الفاطمي

الطبعـة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت: ٣٩٢٥٥٢٣



إهداء

إلى زوجتي ..

إلى أبنائي :

أمل - إلهام - مها

أيمن - هديل - مُهند - عبدالباري



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الانسان دائما هو ابن عصره ، وبيئته ، وظروفه . والباحث لا يستطيع أبدا أن يتحرر من ظروف العصر ، وأحوال البيئة وتطورات الحياة التى عاشها ، والظروف التى أحاطت به . وقد أسعدتنى الظروف بأن أتلقى دراستى الجامعية فى مصر ، التى تفتح ذراعيها دائما لكل مسلم ، ولكل عربى ، وهى أيضا منار الفكر ومنهل الثقافة . واذا لا عجب فى أن أتجه فى بحثى هذا الى موضوع يرتبط بتاريخ مصر وبحضارتها الزاهرة . فقد أردت أن اعبر عن حبى لمصر وعرفانى بالجميل لها ، فى أن أقدم بحثا يتناول صفحات مشرقة تصور الأمجاد الحضارية السالفة ، التى أصبحت أسسا وطيدة لنهضة مصر المعاصرة .

وكانت دراستى الجامعية فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وهى الكلية العريقة فى الدراسات العربية والاسلامية ، حيث تهتم بتحقيق وحدة الفكر الاسلامى وبالتكامل العلمى والثقافة . وفى هذه الكلية الأصيلة جذبتنى دراسة عصور تاريخنا الاسلامى المجيد ، ودرست على أيدى مؤرخين أجلاء ، أذكر منهم أستاذى الجليل الدكتور محمد حلمى أحمد ، مما دفعنى الى تقديم بحثى للماجستير فى التاريخ الاسلامى الزاهر .

وحينما بدأت أحدد موضوع البحث ، اتجهت الى تاريخ مصر عامة ، وتاريخ الدولة الفاطمية خاصة . فالخلافة الفاطمية قبل كل شىء ، هى خلافة أصيلة وحينما بدأ الاسماعيليون الفاطميون جهودهم من أجل اقامة خلافة علوية فاطمية ، أرادوا أن تكون فى مصر قلب العالم الاسلامى ، مهد الحضارة حيث العراقة والأصالة . وان كانت الظروف السياسية والعسكرية فى الدولة العباسية قد حتمت على الفاطميين اقامة دولتهم فى بلاد المغرب فقد بدأت الجهود الفاطمية من أجل نقل الخلافة الى مصر ، منذ عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى ، وتكررت المحاولات حتى

نجح الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمى فى فتح مصر ، ثم اتخاذ الديار المصرية مقرا ومركزا للخلافة الفاطمية .

عمل الفاطميون على توطين الخلافة الفاطمية فى مصر ، وقد أيقنوا أن هذه الأرض الخصبة الصالحة هى خير أرض تحقق للحضارة الفاطمية البقاء والنماء ، ليجنى المسلمون ، بل العالم أجمع ، ثمار هذه الحضارة الناهضة . فرأينا جوهر الصقلى يضع اسس مدينة عظمى ، هى القاهرة ، التى ولدت عملاقة ، لترفع لواء الفكر والحضارة ، ثم يقيم جوهر الجامع الأزهر ليصبح بعد ذلك أبرز جامعات العالم ، ومقصد آلاف الدارسين من أرجاء العالم الاسلامى . وحينما خرج المعز لدين الله الفاطمى الى مصر ، خرج حاملا كنوزه وجثث آبائه مغادرا المغرب بلا عودة الى وطن خلافته الجديد . وكان مولد الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة الحاكم بأمر الله وحتى آخر خلفائهم العاضد بالله ، على أرض مصر ، وشربوا جميعا من نيلها ، وعاشوا على ترابها ، يشاركون المصريين فترات الرخاء والشدة ، على السواء . وأصبحت قاهرة الفاطميين تنافس بغداد العباسيين ، وقرطبة الأمويين . واتجه آلاف من أرباب القلم والفكر الى القاهرة ، يساهمون فى ارساء قواعد حضارة عالمية راقية .

ورأيت أن أدرس فى بحثى للماجستير الحياة الفكرية فىمصر فى العصر الفاطمى وقد ضمت مكتبتنا العربية عشرات من المؤلفات القيمة التى تناولت الجوانب المختلفة لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر . ولكن مناهل العصر الفاطمى لازالت خصبة عامرة ، لا تنضب بل تتيح الفرصة لكل باحث لتقديم المزيد والجديد . ووجدت أن الحياة الفكرية قد تحتاج الى المزيد من الأقلام لابراز النشاطات الفكرية الواسعة النطاق ، المتعددة الجوانب بعد أن صالت الأقلام وجالت فى دراسة موضوعات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العصر الفاطمى .

والفكر هو خلاصة الجهود الانسانية وعصارة العقول الناضجة ، وثمار تجارب طويلة وخبرات متعددة . والفكر الزاهر هو نتاج الاستقرار السياسى والازدهار الاجتماعى والرخاء الاقتصادى . ولذا لا يمكننا أن نفصل بين الحياة الفكرية وسائر جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى التاريخ الفاطمى ، فكلها تتفاعل فى البوتقة الفاطمية . ولذا درسنا العصر الفاطمى كعصر

متكامل ، لنصل الى المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى التطور الفكرى .

والدولة الفاطمية دولة ذات طابع عالمى ، فى مجالات السياسة والحضارة . فالامام الفاطمى يرى انه الخليفة العلوى الشرعى ، الذى يجب أن يتجه المسلمون جميعا اليه بالولاء السياسى والدينى . ومصر ، مركز الخلافة الفاطمية الجديد ، تقع عند التقاء قارات العالم الوسيط الثلاث افريقية وآسيا وأوربا ، وعند التقاء اعظم بحرين فى العصور الوسطى البحر المتوسط والبحر الأحمر . وقد نجح بعض الخلفاء الفاطميين فى جعل البحر المتوسط بحيرة فاطمية وسيطروا على بعض جزره ، وأقاموا علاقات اقتصادية وثيقة مع دول أوربية . والتبادل الاقتصادى من وسائل انتقال الفكر . ومد الفاطميون نفوذهم الى بلاد الشام والى بلاد الحجاز واليمن . وأرجاء أخرى فى العالم الاسلامى . وكان للفاطميين علاقاتهم الخارجية تراوحت بين الصداقة والعداء واثرت كلها فى الحياة الفكرية . واثرت هذه العوامل كلها فى عالمية الفكر فى العصر الفاطمى فلم يعد فكرا محليا اقليميا .

واهتم الخلفاء الفاطميون بالنهضة الفكرية ، فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة واهتموا بالمؤسسات التعليمية والفكرية وأصبحت قصورهم مراكز فكر وثقافة ، وضمت تلك القصور مكتبات ضخمة ، بذلوا المال والجهد فى جمع كتبها من أرجاء العالم . وأصبحت القاهرة كعبة العلماء والأدباء والفقهاء . وكان الأزهر منارا للعلم والثقافة . واثر الخلاف المذهبى فى الحياة الفكرية ، فانصرف كثير من اهل السنة عن مخاطر الحياة السياسية الى العلم والفكر ، وانتعشت احوال اهل الذمة فى العصر الفاطمى فكان لهم دورهم ايضا فى الحياة الفكرية الى جانب بروزهم فى مجالات السياسة والادارة . ونجحت القاهرة أن تنتزع مكانة الفسطاط القديمة فى المجال الفكرى فانصرفت الفسطاط غالبا الى النشاط الاقتصادى ، وأدت العلاقات الدولية والاتجاهات العالمية الى أنتعاش الحياة الفكرية مرة اخرى فى مدينة الاسكندرية .

وتختلف صورة الحياة الفكرية فى الدولة الفاطمية عن صورها فى العصور السابقة واللاحقة لهذه الدولة . فقد كان الفكر المصرى لا يزال فى العصرين الطولونى والاخشيدى فى مرحلة النشأة والتكوين وخاصة ان عمر الدولتين

الطولونية والاخشيدية كان قصيرا ، وواجه حكامهما كثيراً من المشاكل الداخلية والخارجية . كما كان طابع الفكر فى عصرى هاتين الدولتين يأخذ غالبا الطابع المحلى الاقليمى . كما كان العصر الأيوبى هو العصر الذى شهد مقاومة الفكر الشيعى . واحياء الفكر السنى كما أنه العصر الذى عايش الجهاد الاسلامى لمواجهة الحملات الصليبية التى أدت أيضا الى لقاء الفكر الشرقى بالفكر الغربى . وبذلك أصبح الفكر الفاطمى متميزا ، له خصائصه ، واتجاهاته ، ونتائجه .

وخلاصة القول — كان الفكر فى العصر الفاطمى مرحلة هامة متميزة من مراحل تطور الفكر الاسلامى ، وقد أرسى الفاطميون اسسا فكرية وطيدة قام عليها فكر الأجيال التالية . واذا كانت هذه المرحلة الفاطمية قد شهدت صراعا فكريا بين أهل السنة والشيعة فان هذا الخلاف وذلك الصراع كانا ظاهرة صحية فى المجالات الفكرية وهى تثبت حيوية الأمة الاسلامية ، وسعيها الى الكمال . كما أدى الخلاف احيانا الى جدال وحوار ونقاش ، أثرى النشاط الفكرى حيث انطلقت السنة الشعراء وصالت أقلام الكتاب وانعقدت المجالس الفكرية . وترك لنا المختلفون والمتصارعون انتاجا فكريا خصبا . وقد كتبت بحثى بروح الحياد العلمى ، فلم أكن سنيا ، أو شيعيا ، بل كنت مؤرخا محايدا ، أعايش الأحداث ، واصور الاتجاهات وأبحث عن الحقيقة التاريخية . وأدعو الله عز وجل أن يكون التوفيق قد حالفنى فى تقديم صورة تاريخية على أسس من المنهج العلمى فى البحث التاريخى لنشاط فكرى خصب فى عصر اسلامى زاهر .

انه عز وجل ولى كل توفيق ورشاد .

بحث فى مصادر ومراجع الرسالة

كانت دراستى الجامعية ، طوال أربع سنوات ، فى كليـة دار العلوم بجامعة القاهرة ، خير معين لى على التوصل الى المصادر الأصلية ، والى تفهم كتب التراث الاسلامى . كما أن كثيرا من المؤلفين الأقدمين كانوا يمزجون ما بين الدراسات الدينية والتاريخية والأدبية ، فحققوا بذلك وحدة الفكر الاسلامى . كما وجهنى أستاذى المشرف ــ جزاه الله خيرا ــ الى المصادر التى تهتم بالتاريخ الفاطمى بوجه خاص .

يرى المستشرق (كاترمير) (١) ان المصادر الأدبية هى خير مصدر لمعرفة تاريخ الفاطميين . أى أن الفكر الفاطمى هو مرآة صافية تنعكس عليها جوانب تاريخ الدولة الفاطمية ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وكانت كتب المقريزى (توفى سنة ٨٤٥ هـ ــ ١٤٤٢ م) فى مقدمة المصادر القديمة التى اعتمدت عليها فى بحثى ، اذ وجدت فيها مادة علمية خصبة عن العصر الفاطمى ، والمقريزى هو شيخ المؤرخين العرب فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وهو صاحب العقلية النفذة والنظرة الأمينة النفاذة التى ربطت بين الجانبين السياسى والحربى لعلم التاريخ من ناحية وبين جوانبه المختلفة ، الاجتماعية والاقتصادية والفكرية مما جعل كتابته تنفرد بمسحة فريدة من اتساع الأفق والعمق الفكرى (٢) .

والمقريزى زعيم مدرسة تاريخية باهرة شهدتها مصر فى القرن التاسع ، وخصت تاريخ مصر بأعظم جهودها ، وتخرج فيها العينى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن اياس . ومازالت آثارها بين أيدينا أعظم تراث تلقيناه فى تاريخ مصر الاسلامية (٣) .

---

(١) Quatremere : Memoire Historique sur la dynastie des Kgalifes, P.1. (Paris 1838).

نقلا عن كتاب ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر للدكتور عبد المنعم ماجد ص ١١ .

(٢) من مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب (دراسات عن المقريزى) ص ٦ .

(٣) من مقال للأستاذ عبد الله عنان فى كتب (دراسات عن المقريزى) ص ٤٤ .

ومما جعل دراسات المقريزى عن مصر ، دراسة صادقة عميقة ، انه وطنى مخلص يؤمن بحب الوطن فضلا عن ايمانه بالاستقلال فى الرأى وايمانه بضروره الاستمرار فى المناداة باصلاح الأمة كلها . وأحوالها العامة ، لا أحوال طبقة معينة دون غيرها من الطبقات ، كما اتصفت مؤلفات المقريزى أيضا بالدقة فى ايراد الحقائق والتخصص المتنوع وحسن التوزيع ، والنسبية والمنظورة (٤) .

ومن الصفات البارزة فى عرض المقريزى لتاريخ الدولة الفاطمية أنه يتبع منهجا علميا سليما ، فهو يعتمد فى كل موضوع أو ترجمة على المصادر المعاصرة للأحداث أو الوقائع أو على المصادر المعاصرة بصفة عامة للدولة الفاطمية ولكننا نراه أيضا يعتمد على مصادر متأخرة فيما اذا لم يتح له الاهتداء الى مصادر معاصرة للدولة الفاطمية .

ونجد المقريزى فى كثير من المواضع فى كتبه هو الناقد المحلل والمحايد ، ونجده احيانا متعاطفا مع الفاطميين أو مقدرا لفضلهم على الحضارة الاسلامية ، ولكن المقريزى — حقيقة — اتبع منهج تحكيم العقل وتمييز الأخبار ليصدر الحكم أخيرا مجردا من كل ميل أو هوى وهو المنهج الموضوعى (٥) .

اعتمد المقريزى على محفوظات القصور الفاطمية وخاصة عند دراسته جوانب المالية والاقتصادية وبذلك حفظ المقريزى لنا هذه الوثائق الهامة التى دثرت فيما بعد (٦) وقدم المقريزى فى مؤلفاته مادة غزيره عن العصر الفاطمى ، اتى بها من المصادر التاريخية التى عاصرتها ولكنها ضاعت ، مثل كتب : ابن زولاق، والمسبحى ، والقضاعى ، وابن المأمون ، وغيرهم (٧) .

ويصف أستاذنا المؤرخ الجليل الدكتور محمد حلمى أحمد (٨) معالجة المقريزى للجوانب المتعددة للدراسة التاريخية بانها معالجة متوازنة لاتفضل لجانب منها على الأخر ولا تميز لأحدها أو لبعضها من وجهة نظر المؤلف . فهو يعامل الأحداث

---

(٤) من مقال للدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتاب (دراسات عن المقريزى) ص ٧ — ٨ .

(٥) من رسالة دكتوراة غير منشورة للدكتور درويش النخيلى بعنوان (مصادر المقريزى فى كتاب اتعاظ الحنفا ص ١٨ — ١٩) .

(٦) Encycl. of Arabic Civilization, P. 348.

(٧) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٣١ .

(٨) مقدمة الجزء الثانى من كتاب اتعاظ الحنفا ص ١٢ .

السياسية والعسكرية معـــاملة متعادلة ، ويتحدث عن التطورات الاجتمـــاعية والاقتصادية بمثل مايتحدث عن الأحداث الدينية أو الادارية بحياد وموضوعية دون أن يخص أيا من هذه الجوانب بعناية تبرز بعضها دون البعض الآخر . أو تدل على ميل من جانب المقريزى الى الاهتمـام بناحية دون غيرها . ويتضـــح هذا المنهج فى كتاب (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفـا) فقد أراد المقريزى أن يكون كتابه هذا الذى مخصصا لمرحلة بعينها شاملا للموضوعات التاريخية المتنوعة ليمد الدارس بالمادة الغزيرة التى تتيح له معرفة شاملة متنوعة تمكنه من اشباع اتجاهه الثقافى من مورد قيم للمعرفة متعدد الاهتمامات .

ومن مؤلفات المقريزى كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) الذى اشتهر باســم (الخطط) وقد اهتم المقريزى فيه بدراســة تاريخ مصر السياسى والاقتصادى والفكرى والنظم الحكومية والمذاهب الدينية وســير الولاة والخلفــاء والسلاطين وأحوال مصر الاجتماعية (٩) .

يرى المستشرى (روزنثال) (١٠) ان كتاب الخطط هو نتيجة الاهتمام بدراسة التاريخ المحلى الدنيوى فى مصر ذلك الاهتمام الذى دفع الى تاليف كتب فيها معلومات كثيرة طوبوغرافية وثقافية وتاريخية واقتصادية مرتبة ومصنفة بشكل أنيق . ويعتبر (روزنثال) أيضا أن كتاب (الخطط) هو اعظم كتاب من هذا النوع وانه يظهر سعة اهتمام المقريزى وقراءاته الشاملة اذ أن هذا الكتاب اشمل بكثير من الكتب المشابهة التي دونها أسلاف المقريزى .

وفى كتاب (الخطط) تبدو وطنية المقريزى حين يقول فى مقدمة هذا الكتاب : « وكانت مصر هى مســقط راسى وملعب اترابى ، ومجمع ناسى ومغنى عشــيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره . ولازلت منذ شذوت العلم وأتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معـــرفة أخبـــارها ، واحب الاشراف على الاغتـــراف من آبارها .. » (١١) .

---

(٩) على ابراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط ص ١٦٩ .

(١٠) علم التاريخ عند المسلمين ص ٢١٤ .

(١١) مقدمة كتاب الخطط للمقريزى (المطبعة الأميرية . بولاق . القاهرة) .

وللمقريزى مؤلفات صغيرة ، نذكر منها كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، ويتناول تاريخ المجاعات التى حلت بمصر وفيه أهتم المقريزى باستقصاء الجوانب الاقتصادية والاجتماعية من تاريخ مصر (١٢) .

قدم المقريزى للمكتبة العربية انتاجا غزيرا فيما يرجع الفضل فيه الى عدة عوامل أولها ان المقريزى كان يمتلك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب فى مختلف العلوم والمعارف المعروفة فى ذلك العصر وثانيها توليه عدة وظائف مختلفة . أعطته الفرصة لمعرفة سير العمل بالحكومة والوقوف على النظم الادارية والمالية وأحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية . وثالثها اشتغال المقريزى بعلمى الحديث والتاريخ . وهما علمان يعتمدان أصلا على الجرح والتعديل والنقد والتحليل ، والتثبت من صحة كل قول أو رواية أو حقيقة علمية (١٣) .

ويجب الحذر فى تلقى المصادر الأصلية عن الدولة الفاطمية فى كتب غير شيعية ، ولاسيما ما كتبه عنها المؤرخون السنيون ، فقد كان أغلب هؤلاء لعداوتهم المذهبية للدولة الشيعية يظهرون تاريخ الفاطميين بمظهر مزيف . بل لم يكونوا يطلقون عليهم اسم الفاطميين ، وانما يسمونهم العبيديين نسبة الى جدهم عبيد الله المهدى ، رغبة فى نفى انتسابهم الى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت النبى . ولا نجد تاريخ دولة قد شوه من قبل مؤرخى السنة كما شوه تاريخ الفاطميين فهم فى رأى السنيين من الرافضين الذين خرجوا على الدين أو من المجوس أو من اليهود . وهذه العداوة ترجع الى نجاح الفاطميين فى تكوين خلافة مستقلة تنافس خلافة بغداد السنية (١٤) .

الف أستاذى الجليل الدكتور على حسنى الخربوطلى كتابا بعنوان (عماد الدين ادريس : الداعى والمؤرخ الفاطمى) تحدث فيه عن المدرسة الفكرية الاسماعيلية ، ونقل فيه كثيرا من آراء المفكرين الاسماعيليين المعاصرين عن الانتاج الفكرى الفاطمى . فنقل تصوير الأستاذ الهندى الشيخ رجب على الأستاذ بالجامعة السيفية بالهند للأدب الفاطمى فقال : « امتاز الأدب الفاطمى عن غيره ، وكانت له وحدة امتيازية ، ومن خصوصياته أن أعلام الأدب الفاطمى ينطقون عن الكلم البديعة

---

(١٢) على ابراهيم : استخدام المصادر ص ١٧٦ .
(١٣) من مقدمة الدكتور جمال الشيال للجزء الأول من كتاب (اتعاظ الحنفا) .
(١٤) عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٠ .

التى يعبرون بها عن التخيلات النادرة ، ويؤدون ما فى أنفسهم من تلك المعانى بألفاظ غريبة وعبارات لطيفة ، ويجمعون فى عباراتهم مـا اسـتطاعوا وأمكنهم كل ندرة وغرابة من بدائع الألفاظ وتراكيب المعانى كفعل غيرهم من أهل البلاغة فلا يكتفون بذلك فقط بل انهم مع كونهم محتوين على تلك المزايا الادبية بشأن امتيازى يعبرون عن المعقولات والحكمة والفلسفة بتلك الوحدة الامتيازية،وهذا هو الأدب الفاطمى » .

« ولا يخفى أن الأدب الفاطمى مع كونه محتويا على تلك البدائع يحتوى على فنـون ويجمع مزايا لبسـت فى غيرها . ان الادب الفاطمى حينـا يبدى التوحيد والعدل ، وحينا يفصح بالشرع والعقل ، وانه حينا يلقى الينا الباطن والتاويل وحينا الحجة والبحث » (١٥) .

وكان لقيام الدولة الفاطمية على اسس دينية ومذهبية ، اثره فى الحياة الكريمة ثم كان له اثره ايضا بعد سقوط الدولة الفاطمية فى مصر فى اخفاء المؤلفين الفاطميين لكتبهم نتيجة ما عاناه الفاطميون — بعد هذا السـقوط — من الاضطهاد فى مصر واليمن ثم الهند .

ويرى المفكر الفاطمى الهندى المعاصر ، الدكتور يوسف نجم الدين (١٦) ان اخفـاء الفكر الفاطمى جعله « نقيـا طاهرا بريا نزيهـا من دواعى الاستحسان واسـتجلاب الأغراض الذاتية من تلقائه فأصـبح يمثـل اندفاق الفكرة تفكرا فى موضوعاته من دون تلك الدواعى الخارجة غير المناسبة له . فجاء من ذلك المعنى للنزعات التى تأثرت بها القلوب ، ثم حاولت لتؤثر غيرها بتلك الحقائق ، فى نظام التخيل الذى تربى فى بيئة فاطمية محضة » .

وتحدث الدكتور يوسف نجم الدين عن خصـائص الفكر الفاطمى فقال انه : « التخيل الذى راى الدنيا وما فيها من محاسن ومساوىء كما راى الدين وما فيه من مزايا وخصائص ، فراى كلتيهما بعين الدين فى ضوء الفلسفة التى تعبر عن عمارة الدنيا والآخرة ، وابصر كلتيهما وسيلة الى ما قام بين يديه كالمثل الأعلى وهو كون الشخص الفاضل الذى هو الامام العادل من أولاد فاطمة الزهراء . فى كل عصر

---

(١٥) على حسنى الخربوطلى : عماد الدين ادريس ص ٨٧ .
(١٦) وهو مدير الجامعة السيفية بالهند . وشقيق سلطان البهرة .
(انظر كتاب عماد الدين ادريس — للدكتور الخربوطلى ص ٨٩ — ٩٠) ؛

وزمان . فكل ما انتمى اليه جاء فى مضماره ، وكل ما ادى اليه أخذ طريقا واضحا مستقيما . فكانت وجهة ممتازة ، وفكرة قائمة بذاتها جامعة لجميع الفكر فى نطاقها » (١٧) .

ومن الكتب الفاطمية التى حرصنا على الاطلاع عليها كتب القاضى النعمان بن حيون (توفى ٣٦٣ هـ — ٩٧٣ م) وهو من العلماء المسلمين الكبار وقد الف فى الوعظ والتاريخ والأخبار والسير والعقائد ، والحقائق أى التأويل والفقه (١٨) وهو خير من يصور الفكر الاسماعيلى الفاطمى .

ومن هذه المصادر الفاطمية أيضا كتاب سيرة جعفر الحاجب ، وهو جعفر بن منصور اليمن ، وهو حجة فى علوم الفاطميين وفكرهم حتى بز القاضى النعمان نفسه . وهذه السيرة وضعت فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، وتتناول نشأة الدولة ، وتؤيد حق الفاطميين فى الخلافة كما تتناول بعض الأخبار (١٩) .

كان منصور اليمن موضع ثقة الأئمة القائم والمنصور ثم المعز ، كما اصبح (باب الأبواب) فى عهد المعز ، ومن كتبه : « تأويل الزكاة » و « الشواهد والبيان » و « الكشف » و « الفترات والقرانات » وتمثل هذه الكتب الفكر الاسماعيلى (٢٠) .

ومن المصادر الفاطمية كتاب « سيرة المؤيد » للمؤيد فى الدين الشيرازى (توفى ٤٧٠ هـ — ١٠٧٨ م) وفيه يتعرض المؤلف لفترة هامة فى تاريخ الفاطميين ، فى المرحلة الوسطى منه ، فى الربع الثانى من القرن الخامس الهجرى فى أيام المستنصر . ويزيد من اهمية الكتاب أن المؤلف تنقل فى وظائف متعددة ثم شغل وظيفة داعى الدعاة المختص بالدعوة للمذهب . كما يشتمل الكتاب على رسائل كتبها المؤيد الى بعض الوزراء والولاة والقواد الفاطميين وتعتبر من الوثائق الرسمية . ثم هناك « المجالس المؤيدية » وهى ثمانمائة مجلس حول المسائل الفقهية الفاطمية (٢١) .

---

(١٧) المرجع السابق ص ٩٠ .

(١٨) كان من اشهر كتب القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ودعائم الاسلام ، والهمة فى آداب اتباع الأئمة . وشرح الأخبار والمجالس والمسايرات ، والاقتصار .

(١٩) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٤ .

(٢٠) حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ٤٨٦ .

(٢١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٥ .

ومن مصادرنا كتاب (النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية) ، وقد ألفه عمارة اليمنى (توفى ٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م) عن وزراء مصر ، وفيه قصائد تقدم صورا شيقة لحياة ونفوذ الوزراء وسيطرتهم على الخلافة الفاطمية . وقد زار عمارة مصر فى أواخر العصر الفاطمى (سنة ٥٥٠ هـ) وتشيع لهم ونال حتفه على يد صلاح الدين الأيوبى . ويصور هذا الكتاب دور الوزراء فى الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى .

ولم نغفل المصادر التى هاجمت الفاطميين حتى نعرف جميع وجهات النظر مثل كتاب « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » للحمادى اليمانى (حوالى القرن الخامس) وهو فقيه سنى دخل فى مذهب الفاطميين ليطلع على عقائدهم وكتبهم بقصد اظهار نقائض مذهبهم . ومثل كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى (توفى سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) وهو معاصر للدولة الفاطمية فى مصر ، وكتب بتعصب شديد ضدها ، فعقد فصلا عن مذهب الباطنية ويقصد به المذهب الشيعى . ومثل كتاب « فضائح الباطنية » للغزالى (توفى سنة ٥٠٥ هـ — ١١١٢ م) الذى سخر من عقائد الشيعة اذ دعاه الخليفة العباسى المستظهر بالعراق ليرد على الدعوة الفاطمية (٢٢) .

واطلعنا على المصادر التاريخية التى تهتم بتاريخ مصر وهى مصادر غير شيعية مثل كتب الكندى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم . وقد اهتم أبو المحاسن (توفى ٨٧٤ هـ — ١٤٦٩ م) بأخبار الخلفاء الفاطميين وأحوال مصر فى عهودهم ، وأبدى السيوطى (٩١١ هـ) عداء نحو الفاطميين . كما أمدنا ابن ميسر (٦٧٧ هـ) فى كتابه تاريخ مصر بأخبار كثيرة عن الخلفاء والوزراء الفاطميين .

واستفدت من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير (توفى ٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م) وقد شهد سقوط الدولة الفاطمية وأمدنا بكثير من الأخبار وكتاب « تجارب الأمم » لمسكويه (توفى ٤٢١ هـ — ١٠٣٠ م) وقد أكمل الروذراورى المعروف بأبى شجاع هذا الكتاب فقدم لنا « ذيل تجارب الأمم » والمؤلفان معاصران للفاطميين وهما من السنة . كما استفدنا من كتاب « الاشارة الى من نال الوزارة » لابن الصيرفى (توفى ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م) حيث ترجم لعدد كبير من الوزراء . كما

(٢٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

قدم ابن خلكان (توفى ٦٨١ هـ — ١٢٨١ م) فى كتابه « وفيات الأعيان » كثيرا من التراجم للخلفاء والوزراء والأعلام .

ومن حسن الحظ ان التاريخ الفاطمى قد لقى اهتماما كبيرا من أساتذة الجامعات المصرية فقدموا لمكتبتنا العربية دراسات قيمة وفى مقدمة هؤلاء العلماء الأجلاء الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور محمد جمال الدين سرور ، والدكتور على حسنى الخربوطلى ، والدكتور عبد المنعم ماجد ، والدكتور محمد كامل حسين ، وغيرهم . كما أهتم هؤلاء الأساتذة الاجلاء بتوجيه بعض تلاميذهم الى تقديم رسائل للماجستير والدكتوراه تتناول جوانب عديدة فى العصر الفاطمى مازال معظمها — للأسف — مخطوطا ، ونرجو ان تجد هذه الرسائل القيمة طريقها الى المطبعة ، وقد نجحت فى الاطلاع على بعض هذه الرسائل .

تمهيـــــد

الحياة الفكرية فى مصر قبيل قيام الدولة الفاطمية

يلقى هذا التمهيد ضوءا على الحياة الفكرية فى مصر قبيل قيام الدولة الفاطمية وسنتعرض لحياة الدولتين الطولونية والاخشيدية ومدى دورهما فى الحياة الفكرية فى مصر بايجاز : جاء احمد بن طولون الى مصر والطموح يلوح فى الأفق أمام ناظريه فتمكن بذكائه من تاسيس الدولة الطولونية حيث عمل على استقرار الحياة فى مصر وجعلها مرهوبة الجانب فقد كان احمد بن طولون أمـيرا مستنيرا . (١) يحب العلوم والآداب ويرعاها بتعضيده وحمايته ، وبجل مجالس العلم وحلقات الأدب مما شجع على أزدهار الآداب والفنون فى عهده (٢) .

وقد بدات هذه المنتديات والمجالس العلمية فى القصـور المصرية منذ ظهـرت الدولة الطولونية . ويقول ابن زلامة : انه فى عهد الطولونيين لم تكن هناك مدارس فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء ومنازل العلماء (٣) .

ولا ننسى أن جامع ابن طولون كان منذ منتصف القرن الثالث الهجري بمثابة معهد دينى جديد للدراسات الدينية والنحوية (٤) . وكانت الفسـطاط ومسـجدها الجامع أيضا مثوى الحلقات والمجاليس العلمية والأدبيـة فى هذا العصر الآن مدينـة القطائع التى شـيدها ابن طولون كانت مركزا للسياسة والادارة ومقرا للحـاكم وحاشـيته .

كذلك أغرى قيام الدولة الطولونية كثيرا من الطامحين من الكتاب والشـعراء

---

(١) تلقى ابن طولون العلم فى طرسوس . وهى مدينة افريقية قديمة . واصبحت مركزا هاما للثقافة والبحث والدرس فضلا عن أهميتها العسكرية .
(ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤ ــ ٥) .
(٢) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ١٢٤ .
(٣) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٥٣ .
(٤) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الايوبى والمملوكى الأول ص ٢١٦ .

الى مصر حيث كانوا اهــل كــرم وبذخ . فاستقدموا الشــعراء والأدباء وقربوهم ووصلوهم فكونوا حولهم بلاطا ادبيا اشبة ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين (٥) .

فالدولة الطولونية التى حكمت البلاد ثمانية وثلاثين عاما انتعشت فيها البلاد واستردت قوتها وعظمتها ، فراجت تجارتها ونشطت صــناعتها وزراعتها وقوى الجيش ، وانشىء الاسطول البحرى ، واصبحت مصر دولة عظيمة تمتد من العراق الى بلاد برقة بما فى ذلك آسيا الصغرى والشام وفلسطين .

وكان عهدها عهد نهوض بفن العمارة والزخرفة والنقش وعهد سلام ورخــاء وعناية بالمرضى والضعفاء وتشجيع للعلم والعلماء (٦) .

وقد اهتم ابن طولون بديوان الانشاء اهتماما كبيرا لحاجة الدولة آنذاك اليه التى امتدت أملاكها خارج مصر حتى حدود الدولة البيزنطية فكثر بمصر الكتاب منهم من وفد اليها أمثال احمد بن محمد الواسطى ، والحسين بن مهاجر ، واسحاق بن نصير البغدادى وقد عملوا مع (ابن عبدكان) الذى رأس مدرســة الانشاء وتخرج على يده كبار الكتاب وخلفه عليها على بن أحمد المادرائى (٧) .

وكان أحمد ابن طولون اول من اخذ فى ترتيب الملك واقامة شــعائر السلطنة بالديار المصرية ، ولما شمخ سلطانه وارتفع بها شانه ، اخذ فى ترتيب ديوان الانشاء لما يحتاج اليه فى المكاتبات والولايات فاستكتب (ابن عبدكان) فاقام منسار ديوان الانشاء ورفع مقداره ، وكان يفتتح ما يكتبه عنه فى الولايات بلفظ « ان ولى كذا » « ان أحق كذا » (٨) وعمل لدى الطولونيين محبوب بن رجك واحمد بن أيمن وأحمــد ابن يوسف المعروف بابن الداية وابن جدار . وكان ابن طولون اميل الى استخدام الكتاب المصريين كجعفر بن عبد الغفار لسهولة انجاز العمل عليهم .

كما انتعش الشعر ايام حكم الطولونيين نتيجة لتشــجيع الحكــام واغداقهم الجوائز والأعطيات على الشــعراء مما جذب الشعراء من الخارج من ناحية ونهض

---

(٥) د . مصطفى الصاوى الجوينى : ملامح الشــخصية المصرية فى الدراســات البيانية فى القرن السابع الهجرى ص ٥١ .

(٦) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٨٤ .

(٧) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ١٩ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٩ .

بالشعر المصرى من ناحية أخرى .. وعلى راس الشعراء المصريين نجد الحسين ابن عبد السلام المسمى بالجمل الاكبر ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفى ٢٥٨ هـ والحسين المسمى بالجمل الأصغر والقاسم بن يحيى بن معاوية ومنصور بن اسماعيل ابن عمر (٩) .

فقد روى المقريزى (١٠) عن القاضى ابن عمر عثمان النابلسى الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن الجزيرة » انه رأى كتابا لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فاذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافأون به من الأموال (١١) .

وبكيت دولة بنى طولون عند ذهابها أيما بكاء فقال شاعرها سعيد القاص من قصيدة طويلة رائعة :

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بنى طولون والأنجم الزهر

وفقد بنى طولون فى كل موطن
أمر على الاسلام فقدا من القطر

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر

فمن يك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليبك حزنا على مصر

ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر

وعقب سقوط الطولونيين ٢٩٢ هـ — ٩٠٥ م عادت مصر الى عهد التبعية المطلقة للعباسيين الا أن الاضطرابات استمرت فى البلاد بعد خضوعها لدار الخلافة وذلك لضعف الخلفاء العباسيين فى بغداد وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها

---

(٩) تاريخ اللغة العربية فى مصر للدكتور أحمد مختار عمر ص ٥٩ .
(١٠) الخطط . المقريزى ج ١ ص ٢٣٦ .
(١١) المجمل فى التاريخ المصرى للدكتور حسن ابراهيم ص ١٥٢ .

لاستبداد الاتراك بسبب المنافسة القائمة بين الولاة وعمال الخراج (١٢) .

وعلى اثر زوال الدولة الطولونية جاء بنو الاخشيد (١٣) محمد بن طغج (١٤) وولداه انوجور وعلى ، ثم وزيرهم الخصى النابه كافور (١٥) ، حيث استمرت دولتهم زهاء ثلث قرن ٣٢٤ هـ / ٣٥٨ هـ — ٩٣٥ م / ٩٦٩ م حماة للعلوم والآداب (١٦) .

وكان بلاط الاخشيديين فى مصر قد اشتهر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال من ظهروا فى أوائل القرن الرابع الهجرى حيث كانت الفسطاط تضم جماعة كبيرة من اقطاب المفكرين والأدباء وكانت ابهاؤها ومجالسها الأدبية حافلة زاهرة ، ففى تلك الفترة اجتمع زعماء الفكر والأدب ، ابو القاسم بن قديد الأزدى توفى ٣١٢ هـ وتلميذه أبو عمر الكندى المتوفى ٣٥٠ هـ مؤرخ الولاة والقضاة ، وابو جعفر النحاس المتوفى ٣٣٨ هـ المصرى الكاتب والشاعر ، وابو بكر الحداد المتوفى ٣٤٥ هـ قاضى مصر وأبو القاسم بن طباطبا الحسينى الشاعر المتوفى ٣٤٥ هـ وأبو بكر بن محمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى المتوفى ٣٥٨ هـ والحسن بن زولاق المؤرخ المتوفى ٣٨٧ هـ وكثيرون غيرهم . فكان لاجتماع هذه الصفوة العلمية والأدبية البارزة فى هذه الفترة اثر كبير فى ازدهار الحركة الفكرية بمصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى فكانت حلقات الأدب فى أوج نشاطها . فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء ومنازل العلماء وفى بلاط الاخشيد كانت تلقى بحوث تاريخية كل مساء (١٧) .

وكان جامع عمرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون (١٨) من اهم مراكز

---

(١٢) الدكتور على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٨٥ .

(١٣) كلمة (اخشيد) معناها (ملك الملوك) ومحمد بن طغج من أولاد ملوك فرغانة فى بلاد ما وراء النهر وكانوا يلقبون بالاخشيد (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ وما بعدها) .

(١٤) كلمة طغج معناها (عبد الرحمن) .

(١٥) وهو أبو المسك كافور وكان مملوكا للاخشيد وتولى الحكم سنتين واربعة شهور ، وكان يقرب الشعراء ويكافئهم (أبو المحاسن : النجوم الزاهر ج ٤ ص٦) .

(١٦) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٤٣ .

(١٧) الدكتور عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٥٣ .

(١٨) أقام أحمد بن طولون جامعه سنة ٢٦٣ هـ بعد بناء القطائع وهو على جبل يشكر شمال العسكر وانفق اموالا ضخمة فى بنائه (المقريزى : الخطط ص ٤٠٧ — ٤١٦) .

الثقافة فى عهد الطولونيين والاخشيديين حيث عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع (١٩) .

ونبغ فى عهد الاخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء حيث كان للعلم والأدب دولة ذات بال فى البلاط الاخشيدى فبرز من العلماء عدد كبير فى هذه الحقبة منهم أبو اسحق المروزى وكان من أئمة الدين واسع المعرفة كثير التأليف ، ومنهم على بن عبد الله المعافرى ، قاضى الاسكندرية ومن المحدثين الحسن بن رشيق المصرى الذى ولد ٢٨٣ هـ وتوفى ٣٧٠ هـ ومن النحاة أحمد بن الوليد التميمى المصرى ومن المؤرخين أبو عمر الكندى ومن الشعراء كشاجم وكثيرون سواهم من أهل العلم والأدب (٢٠) .

كما اتخذ الاخشيديون كتابا آخرين كعلى بن محمد كلا الذى سفر بينهم وبين الخليفة العباسى وكذلك سفر بينهم وبين ابن رائق . وقد وصل كتاب مصر هذا من الروعة حتى تمنتهم دار الخلافة اذ أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طيطب المحرر وابن عبد كان الكاتب ويقولون : بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (٢١) .

وقد كثر عدد الكتاب فى مصر فى عهد هاتين الدولتين من أمثال : الحسن بن رافع ويعقوب بن اسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلى بن أحمد المادرائى واسحق بن نصير العبادى وابراهيم بن عبد الله النيجرمى ومحمد بن كلا المادرائى وكلهم عاصر الدولتين واتخذ الكتابة فنا للتكسب ومؤهلا لتولى أرفع المناصب فى خدمة الأمراء مما دعا الى شدة التجويد والتنافس واتقان الصناعة (٢٢) .

لقد كانت مصر تمج بالحلقات العلمية التى استقبلت شعر أبى الطيب قبل أن تستقبل الشاعر نفسه . ثم عنيت بما قاله الشاعر فى مصر عناية أشد وجلس

---

(١٩) ارسل الخليفة العباسى المستكفى قائده محمد بن سليمان الكاتب لاستعادة مصر من الطولونيين فأشعل النيران فى القطائع ودمروا جميع مبانيها عدا الجامع (خطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٢) .

(٢٠) الدكتور أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٥ ص ١٠١ .

(٢١) القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص ١٧ .

(٢٢) المصدر السابق .

أبو الطيب بنفسه فى مسجد عمرو يدرس أدبه ويفسر شعره وخلفة على هذا الارشاد شاعر مصر وكاتبها صالح بن رشيدين (٢٣) ، وقد لازمة فى مصر شعراء وأدباء من أعلام المصريين رووا عنه شعره وتناولوا منه بالنقد والتفسير من قبل : محمد بن موسى بن عبد العزيز المعروف بابن الحلبى والملقب بسيبويه المصرى صاحب المحاورات الشهيرة مع أبى الطيب (٢٤) وعبد الله بن أبى الجرع وأبى القاسم بن أبى العفير الأنصارى وقد كانت له محاورات ومجادلات فى مجلس كافور وفى مجلس وزيره ابن حنزابه ، ومن هؤلاء كذلك أبو محمد الحسن بن على المعروف بابن وكيع التنيسى الذى الف رسالة سماها المنصف للسارق والمسروق من المتنبى (٢٥).

وكانت حلقات الفسطاط الأدبية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى حيث كان المسجد الجامع مثوى لأهم هذه الحلقات وأشهرها وأنها كانت دورية منتظمة تعقد على الأغلب فى عصر يوم الجمعة وتجمع بين الفقهاء والأدباء وينعقد فيها الجدل الكلامى أو الحوار . وكان ينتهى أحيانا الى بعض ما ينتهى اليه فى عصرنا من مرارة واتهام وتراشق . وكان بعض المفكرين والأحرار ينقمون على عصرهم وينتقدون الاعتداء على حرية الرأى والفكر وكان بعضهم يرمى بتهم المروق والالحاد . اذ أطلق لنفسه حرية البحث والرأى على نحو ما يشير اليه سيبويه المصرى فى قوله من قصيدة أوردها ابن زولاق :

أما سبيل اطراح العلم فهو على	ذى اللب أعظم من ضرب على الراس
فان سلكت سبيل العلم تطلبه	بالبحث ابت بتكفير من الناس
وان طلبت بلا بحث ولا نظر	لم تضح منه على ايقان ايناس
وانبذ مقالة من ينهاك عن نظر	نبذ الطبيب لداء القرحة الآس (٢٦)

وهذه ظاهرة فكرية خطيرة يسجلها الشاعر المصرى على عصره ، أعنى أوائل القرن الرابع الهجرى (حوالى ٣٢٠ هـ / ٣٤٠ هـ) وهى تدل على أن الجدل العلمى والأدبى . كان يرتفع يومئذ الى مرتبة الايمان والعقيدة أحيانا وينحدر أحيانا أخرى

---

(٢٣) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٩٩ .
(٢٤) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٦١ .
(٢٥) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٩٥ .
(٢٦) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص٢٣٤ـ٢٤٤ .

الي درك التراشق والمهاترة . كذلك هناك فى قول الشـاعر مـا يدل على أن بعض المفكرين والادباء كانوا يؤثرون الصمت على الجهر بآرائهم .

وقد كانت حلقات المسجد الجامع بلا ريب أهم الحلقات الادبيـة العامة ولكن هناك فى اقوال ابن زولاق ما يدل على أنها كانت تعقد أيضا فى المسـاجد الأخرى ، فمثلا كان الشـاعر الأكبر ابو الطيب المتنبى (٢٧) الذى وفد على مصر ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ليستظل بحماية بنى الاخشيد يجلس فى مسجد ابن عروس ، وهنـاك يجتمع اليـه الأدباء والشعراء وكانت حلقة المتنبى بـلا ريب من أهم مجـالس الشـعر والأدب والفلسـفة فى هذا العصر (٢٨) .

وأما من الحلقات والأبهاء الخاصة فيشير ابن زولاق الي المجالس العلميـة والأدبية التي كان يعقدها محمد بن طغج الاخشيد وولده انوجور . (٢٩) ثم مجالس الوزيرين ابى الفضل جعفر بن الفرات والحسين بن محمد المادرائى .

والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الادبية كانت يومئذ من تقـاليد الحيـاة الرفيعة وكانت نوعا من الترف الذى يأخذ به الأمـراء والعظماء والأسر الكبيرة فان لهم جميعا على نحو ما بينا من سير الأبهاء الأدبية فى تلك العصور أكبر نصيب وذكر ويرجع اليهم فى اقامتها ورعايتها اكبر الفضل (٣٠) .

وكان المسجد الجامع يومئذ كالجامعة يموج بهذه الاجتماعات العلمية والأدبيـة الشهيرة وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال وأخذت مصر تتأهب للقيام بدورها فى رعاية التفكير الاسلامى فى المشرق .

والجدير بالذكر أنه كان على حكم مصر أبو المسـك كافور (٣١) الطامح الذى

---

(٢٧) فارق المتنبى سيف الدولة الحمدانى مغاضبا . ورحل الى مصر ومدح كافور وطمع فى توليته بعض اعمال مصر . واكرمه كافور واعتذر من توليته الأعمال لاتهامه بادعاء النبوة ، فغضب المتنبى وأسرف فى هجـاء كافور (أبو المحـاسن : النجـوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦) .

(٢٨) سيبويه المصرى : كتاب أخبار سيبويه ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢٩) المصـدر السـابق ص ٣٦ .

(٣٠) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٤٤ — ٢٤٥

(٣١) تولى كافور الحكم سنة ٣٣٤ هـ وصيا على أنوجور بن الاخشيد وحمل لقب (الأستاذ) واسـتبد بالسلطة واقره الخليفة العباسى المتقى . وأراد أنوجور سـنة ٣٤٣ هـ استرداد سلطته ثم مات سنة ٣٤٩ هـ ويتهم المؤرخون كافورا بأنه سمى =

ملأ نفسه حب السلطان فقرب اليه الشعراء والحكماء ورجال التعلم وأهل الفطنة والشجاعة ليغطى ضعة أصله ويتعالى بوجودهم على العالمين فيكون شأنه فى هذا شأن ساداته وأولياء نعمته . وكان بلاط أبو المسك قبلة الطامعين والمغامرين (٣٢).

وقد جمع الاخشيديون حولهم لفيفا من الشعراء المصريين الذين وجدوا فى رعاية كافور ووزيره أبى جعفر بن الفضل بن الفرات مادفعهم الى الاحسان والتجويد (٣٣) .

روى أبو المحاسن (٣٤) فى النجوم الزاهرة عن الذهبى : « وكان كافور يدانى الشعراء ويجيزهم . وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير واخبار الدولة الأموية والعباسية وله ندماء . وكان عظيم الحرمة وله حجاب . وله جوار مغنيات . وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف . زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد . وكان كثير الهبات والخلع خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا . جيد العقل . داهية كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر » .

ومن الشعراء الذين مدحوه أبو الطيب المتنبى أشهر شعراء عصره . فارق سيف الدولة الحمدانى مغاضبا وقصد مصر ، وامتدح كافورا بأحسن المدائح طمعا فى ان يوليه بعض اعمال مصر فخلع كافور عليه . وأنزله فى داره . وعين جماعة لخدمته ، وحمل اليه كثيرا من المال . ولكنه لم يوله عملا من الأعمال معتذرا بأنه لا يستطيع ان يولى رجلا يدعى النبوة فانقلب مدح أبى الطيب هجاء كما أسرف فى مدحه من قبل (٣٥) .

ولكن المتنبى مدح كافورا بقصيدة قال فيها :

واخلاق كافور اذا شئت مدحه ... وان لم اشأ تملى على واكتب

= الى موته ثم تولى أبو الحسن على بن الاخشيد ولكن كافور احتفظ بالسلطة ومات أبو الحسن سنة ٣٥٥ هـ فانفرد كافور بالحكم وأقره الخليفة .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٤٧ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٣٠ — وما بعدها) .

(٣٢) سنية قراعة : تاريخ الأزهر فى الف عام ص ٣٥ .

(٣٣) الدكتور النعمان القاضى : كافوريات أبى الطيب دراسة نصية ص ٦٠–٦٢ .

(٣٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦ :

(٣٥) عبد الرحمن البرقوقى : شرح ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٥٤ .

اذا تـرك الانسان أهـلا وراءه ويمـم كافـورا فما يتغرب .
فتى يمـلأ الاحـلام رأيـا وحكمـة ونـادرة أحيـان يرضى ويغضـب
اذا ضـربت فى الحرب بالسيف كفه تبينت أن السـيف بالكف يضـرب
تـزيد عطـاياه على الليث كثـرة وتبيت أمـواه السـحاب فتنصـب
أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فانى أغنى منذ حين وتشـرب (٣٦)

ولما لم ينل المتنبى من كافور ما طلبه استعد للرحيل ٣٥٠ هـ وهجا كافورا قبل مغادرته مصر بيوم واحد . أشد الهجاء فى قصيدة منها :

عيـد بأية حـال عـدت يـا عيـد بمـا مضى أم لأمـر فيك تجديد
جـود الرجال من الأيدى وجـودهم من اللسـان فـلا كانوا ولا الجـود
لا تشتر العبد الا والعصـا معـه ان العبيـد لأنجـاس منـاكيد
من علـم الأسـود المخصى مكـرمة أقـوامه البيض أم آبـاؤه الصـيد
من كـل رخـو وكـاء البطن منفتق لافى الرجـال ولا النسوان معـدود
أكلما اغتال عبـد السـوء سـيده أو خـانه فله فى مصـر تمهيـد
صـار الخصى أمـام الآبقين بهـا فالحـر مسـتعبد والعبـد معبـود
العبـد ليس الحـر صـالح بـاخ لـو أنه فى ثيـاب الخز مـولود
مـا كنت أحسبنى أحيـا الى زمـن يسىء بى فيه كلب وهو محمود (٣٧)

ويقال ان المتنبى هرب من مصر فى نفس الليلة خوفا من بطش كافور وقد كان كافور عالى الهمة عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف ، روى أبو جعفر بن عبد الله بن طاهر الشريف العلوى أنه بينما كان كافور راكبا فى موكبه يوما اذ سقط سوطه فناوله الشريف اياه فقبل كافور يده (٣٨) .

ونستنتج من شعر المتنبى أن النظـام الذى كان يسـود مصر فى ذلك الوقت كان نظاما اقطاعيا مطلقا بمعنى أن كل كورة أو محافظة عليها حاكم قوى يضـمنها للوالى ومن أشهر هؤلاء الاقطاعيين عيين القائد الرومى أبو شجاع الذى كان زميلا لكافور فى الخدمة على عهد الاخشيد ويرى أنه أحق من كافور فى حكم مصر . لهذا

---

(٣٦) المرجع السـابق ج ١ ص ١٢٦ ــ ١٢٨ .
(٣٧) عبد الرحمن البرقوقى : شرح ديوان المتنبى ج ١ ص ٢٧٠ ــ ٢٧٦ .
(٣٨) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٧ .

كان كافور يلاطفه ويداريه وقد زاره المتنبى فى اقطاعه بمنطقة الفيوم ومدحه بقصيدة قال فيها :

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

كفاتك ودخول الكاف منقصة
كالشمس قلت ولا للشمس أمثال (٣٩)

على أن كافورا لم يحقق للمتنبى مطامعه الخاصة بمنحه ولاية من الولايات فهجاه كما ذكرنا سابقا .

والواقع أن ازدهار الأدب يرجع فى الغالب الى عهد كافور العبد الحبشي المحب للهو الذى حكم البلاد بعد موت مولاه ٩٤٦ م اثنتين وعشرين سنة .

وكانت هذه الحلقات تجمع الكثير من العلماء المبرزين ورجال الفكر هنا كنت ترى الكندى مؤلف كتاب « فضائل مصر » الذى يدين له المقريزى بالكثير مما كتب والبحترى النحوى المشهور وابن عاصم الذى كتب الكثير من الشعر الغنائى . وكان كافور يثنى على هؤلاء جميعا ويجيزهم . فقد نفح أحد مادحيه من الشعراء ألف دينار وثروته الضخمة كان ينفق منها بسعة على الشعراء والعلماء (٤٠) .

كما نال أصدقاؤه من الشعراء جانبا من هذه الثروة لانهم قابلوا هذا الهبات بالاطراء والمديح الذي كان ينطوى على كثير من الملق والرياء مثال ذلك أن أحد الشعراء حين نظم قصيدة ذكر فيها أن الزلازل المتكررة كانت تحدث فى ذلك العصر كما كانت ترجع الى أن مصر كانت ترقص طربا لما كان يتحلى به كافور من فضائل (٤١) .

كل هذا يوضح زيف ما أدعاه بعض المؤرخين بأن مصر لم تكن قبل الفاطميين مستعدة لانماء دوحة الأدب أو تشجيع الشعراء بالجوائز أو الصلات وكان ولاتها من قبل العباسيين بعيدين فى جملتهم عن متناول اللغة وفهم أسرار البلاغة العربية للاطلاع على محاسنها ودقائقها . أما الشعر البديع فلم يكن له مدخل الى نفوس

---

(٣٩) الدكتور أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ١٤٦ .
(٤٠) Lane-Pool : Egypt in the Middle Ages. pp. 90, 91.
(٤١) Lane-Pool : Egypt in the Middle Ages. pp. 101.

الولاة ولا منفذ الى صدر المال وقد ورد المتنبى مصر وسرعان ما ارتحل عنها حاملا فى قلبه ذلك الحقد الذى ضمنه قصائده ومضى يطلب من بلاد المشرق لشعره مستمعا ومجيزا (٤٢) . ولكن عهد كافور لم يخل من حسنات فقد أظهر نهضة أدبية وعلمية . (٤٣) فقد اتاح كافور للحياة الفكرية والأدبية فى مصر أن ترقى وتنشط ودفعها الى المضى فى طريقها الى القوة والرقى والعمق والاتساع ، وقد كانت البيئة المصرية مؤهلة لمثل هذا الرقى وهذا النشاط فميراثها الحضارى التليد وانفتاحها على بقية الأمصار الاسلامية وما يجرى فيها من حركات علمية وأدبية فى كل فروع المعرفة كفيل لها بكل ما أحرزته من ازدهار (٤٤) .

وتشهد الروايات بأن كافورا كان مثقفا وله نظر فى العربية والأدب والعلم ، وأن عددا من فضلاء العلماء عمل له وممن كان فى خدمته أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النيجرمى النحوى صاحب الزجاج (٤٥) .

وقد نقل لنا المؤرخ أبو المحاسن جانبا من أحد مجالسه الأدبية رواه ابن أذين النحوى فقال : حضرت مع أبى مجلس كافور غاصا بالناس فقام رجل فدعا له ، وقال فى دعائه ادام الله مولانا فأنكر كافور والحاضرون ذلك فقام رجل (٤٦) من أوساط الناس فقال :

لا غرو أن الحق الداعى لسيدنا	أو غص من دهش بالريف أو بهر
ومثل سيدنا حالت مهابته	بين البليغ وبين القول بالحصر
فان يكن خفض الأيام من غلط	فى موضع النصب لا من قلة البصر
فقد تفاءلت من هذا لسيدنا	والفال مأثوره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب	وأن أوقاته صفو بلا كدر .(٤٧)

---

(٤٢) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين أضواء على الفكر والتاريخ ص ١١٢ .

(٤٣) الدكتور على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٩٧ .

(٤٤) الدكتور النعمان القاضى : كافوريات أبى الطيب ص ٥١ .

(٤٥) هو أبو الفضل بن عياش كما فى تاريخ الاسلام للذهبى فى أحداث سنة ٣٥٠ هـ .

(٤٦) هو أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النيجرمى النحوى ـ تاريخ الاسلام الذهبى .

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣

ولم يكن اهتمام كافور بالحركة الفكرية والأدبية قاصرا على مجلسه فى الفسطاط وانما امتدت رعايته للعلم والأدب الى جميع أركان البيئة المصرية فظهر شعراء عديدون من مثل ابن مهران الذى ندد بمحاولات الفاطميين لغزو مصر بقيادة حباسة الكتامى (٤٨) .

وقد واكب الحركة الادبية فى مصر فى هذا العصر نوع آخر من الشعر وهو شعر المجون حيث وجدنا شاعرهم الفكه الملقب بقاضى البقر ومن شعره الماجن (٤٩) .

يارب دعنى بلا صلاح .. يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردف .. وراحتى تحت كأس راح

واشتهر فى هذا العصر أيضا أبو هريرة أحمد بن أبى عصام — وفيه يقول صاحب المغرب : « كان من شعراء الاخشيديين المصريين من أصحاب النوادر والمجون والادمان على شرب الخمر . ومن شعره فى وصف مجالس الشراب :

مجلس لا يرى الالة به غير رتل بلا وضوء وطهر
تسجد للكئوس من دون تسبيح سوى نغمة لعود وزمر (٥٠)

وروى له صاحب اليتيمة أبياتا ذكر فيها دير القصيد ومجونه به (٥١) ولكننا لا نستطيع أن نحكم حكما واضحا منها على شاعريته . كما اشتهر مع هذين الشاعرين فى نفس الحقبة ابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر ونجد فى شعره الذى رواه صاحب اليتيمة وصاحب المغرب نفس النغمة السابقة من اللهو والمجون بقوله : (٥٢) .

أترك الشرب والأنواء (٥٣) دائمة والكل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب والورد فى العود مطوى ومنثور

---

(٤٨) الدكتور النعمان القاضى : كافوريات أبى الطيب ص ٥١ .
(٤٩) ابن سعيد الاندلسى : المغرب فى حلى المغرب ص ٧٢ .
(٥٠) ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٧٣ .
(٥١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦١ .
(٥٢) ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٠٣ .
(٥٣) الأنواء : الأمطار .

فمنذ أواخر القرن الأول للهجرة أخذت الدراسات الاسلامية تقوى وتعمق فى مصر وساعد على ذلك تقدم العهد فى مصر بالحياة العقلية على اختلاف الوانها والناس جميعا يعلمون ان علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت فى الفسطاط قبل وجود بغداد (٥٤) اذ كان العلماء يفدون اليها من الكوفة والبصرة ومن بغداد بعد ذلك .

وتطلع المصريون للأخذ عن العراق علوم النحو واللغة فنبغ فى مصر عدد من العلماء وكثرت مؤلفاتهم كبنى ولاد أشهرهم الوليد الذى وفد على مصر من البصرة واستقر بها ثم رحل الى العراق وعاد الى مصر ومعه كتب أهل العراق فى النحو واللغة وكان تلميذا للخليل بن أحمد وتوفى بمصر ٢٦٣ هـ . وأتم ابنه محمد دور أبيه فرحل الى العراق وأخذ عن المبرد وثعلب وعاد يعلم الناس فى مصر العلوم العربية ووضع كتاب « المنمق فى النحو » وتوفى ٢٩٨ هـ ولكن بنى ولاد هو أبو العباس احمد بن محمد الذى رحل كذلك الى العراق وتلمذ للزجاج وكان يثنى عليه وعاد ليؤلف « المقصور والممدود » وهو الكتاب الذى خالف فيه عن طريقة الخليل مبتدئا بالألف دون العين ، وكان له مكانة رفيعة بين كتب النحو وأخذ علماء م فى تدريسه ونقده حتى أن هذا الكتاب قرىء على أبى الطيب فنقده فى بعض الموضوعات كما وضع المهلبي المتوفى ٣٨٥ هـ كتابا فى الرد عليه .

ومن علماء مصر فى تلك الفترة أحمد بن جعفر الدينورى الذى ألف « المهذب فى النحو » وصدره بالحديث عن الخلاف بين البصريين والكوفيين وقد قرأ الدينورى على المصريين أيضا كتب ابن قتيبة . (٥٥) كما قرأ عليهم وعلى بعض علماء الأندلس والمغرب كتاب سيبويه .

ونبغ فى مصر أبو جعفر احمد بن محمد النحاس النحوى المصرى فى اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمى بقليل رحل الى العراق وأخذ النحو عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش النحوى وأبى اسحاق الزجاج وابن الانبارى ونفطويه ومشهورى أدباء العراق . وكان من علماء عصره ، فقد نبغ فى التفسير واللغة والنحو والأدب والشعر ومن كتبه : كتاب اعراب

---

(٥٤) الدكتور طه حسين ـ مع المتنبى ص ٩٠ .

(٥٥) الدكتور النعمان القاضي : كافوريات أبي الطيب ص ٥٢

القرآن والناسخ والمنسوخ وكتاب التفاحية فى النحو وكتاب الكافى فى النحو ايضا وكتاب أدب الكتاب وكتاب فى الاشتقاق وتفسير ابيات سيبويه — وكتاب طبقات الشعراء .

وعلى الرغم مما اخذ عليه من الشح والتحامل على زملائه من علماء عصره — تهافت الناس على درسه واخذ العلم عليه كثير من الناس وافادوا من علمه وسعة اطلاعه وقد توفى ابو جعفر النحاس فى ذى الحجة ٢٣٨ هـ (٥٦) .

وقد ازدهرت فى مصر دراسات الحديث النبوى الشريف بشكل لم يعرف فى مصر من الأمصار وبخاصة بعد ان وفد اليها الشافعى وقد جاء ابو القاسم الكنانى المصرى الذى روى عند ابن منده والدارقطنى وغيرهما (٥٧) .

ومثل أبى بكر محمد بن احمد بن محمد بن خروف النحوى المحدث المتوفى ٣٥٤ هـ وسعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن الحافظ ابو على البغدادى ثم المصرى البزار . وقد روى عنه البخارى وتوفى ٣٥٣ هـ . ومحمد بن احمد بن محمد بن جعفر بن أبى بكر بن الحداد الكنانى المصرى الفقيه الشافعى شيخ المصريين الذى كان له وجه فى مذهب الشافعى وتوفى ٣٤٤ هـ (٥٨) ومثل ابى بكر محمد بن على بن حسن المصرى التنيسى الذى سمع النسائى وروى عنه الدارقطنى (٥٩) وتوفى ٢٦٩ هـ ومعاصر الحسن بن رشيق ابى بكر محمد العسكرى المصرى وروى عن النسائى واخذ عنه الدارقطنى كذلك عبد الغنى بن سعيد الذى يقول فيه ابن الطحان فى ذيل تاريخ ابن يونس : ما رايت عالما اكثر حديثا منه وتوفى ٣٧٠ هـ ...

وقد اجتذبت مصر كثيرا من اعلام المؤرخين كالامام ابى الحسن على بن الحسين بن على العلامة المسعودى (٦٠) الذى اقام بها الى أن مات ٣٤٩ هـ .

---

(٥٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٢ — ٨٧ .
(٥٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٠ .
(٥٨) أبو المحاسن : السابق جـ ٣ ص ٣١٣ .
(٥٩) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩٩ .
(٦٠) قضى المسعودى ربع قرن فى رحلات مستمرة بعد خروجه من وطنه بغداد — ثم استقر فى مصر فى العصر الاخشيدى حتى مات ووضع كتابيه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » و « التنبيه والاشراف » انظر كتاب المسعودى للدكتور على حسنى الخربوطلى .

وعبد الله بن جعفر بن محمد بن الورد البغدادى الذى توفى ٣٥٢ هـ (٦١)

ولو رحنا نستعرض مشاركات المصريين فى فنون المعرفة المختلفة خلال هذا العصر لاعوزنا وقت طويل ولكن نقول فى اجمال :

ان الدراسات الاسلامية والعربية قد ظفرت باهتمام المصريين منذ تعربت مصر بل وقبل أن يتم تعريبها فكثر بها عدد المشتغلين بهذه العلوم ورحلوا الى مراكز الثقافة الاسلامية والعربية فى الأمصار المختلفة ، ثم كانت مصر على هذه المعارف تدرسها وتعلق عليها وتشرحها ثم تنشرها مرة اخرى فى تلك الأمصار بعد أن تطبعها بطوابعها المتميزة التى تعكس طبيعتها ومزاجها (٦٢) . مما جعل مصر تتسع فى هذه الدراسات بالعمق والأصالة .

ويجمع المؤرخون على ان مصر فى ظل الدولتين (الطولونية والاخشيدية) قد اشتهرت بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والمؤرخين والأدباء والشعراء كالقاضى بكار بن قتيبة (٦٣) وابى الفيض ذى النون المصرى والربيع بن سليمان الشافعى وابن عبد الحكم (٦٤) .

ولذا تميزت هذه الفترة بنشاط فكرى فى مجال الفقه والعلم والأدب لأنها فترة خصبة بطوائف العلماء فى جميع المجالات حيث كانت مجالس الدولتين (الطولونية والاخشيدية) اشبه بخلية نحل فى مجالسها التى تضم علية القوم وتحظى بتقديرهم ورعايتهم .

كما كانت الفسطاط سوقا كبيرا للوراقين يسعى اليه اهل العلم والأدب . وقيل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ارسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية ، فامر كافور بعشرين الف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية

---

(٦١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٥ و ٣٣٤ .
(٦٢) الدكتور النعمان القاضى : كافوريات أبى الطيب ص ٥٧ .
(٦٣) الدكتور محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر ص ١٤٠ .
(٦٤) وهو المؤرخ المشهور صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب (انظر كتابه من التراث الاسلامي للدكتور على حسنى الخربوطلى)

وكان الفقهاء والعلماء والأدباء يلتقون فى المساجد للمناظرة وبحث المسائل الفقهيــة والأدبيــة (٦٥) .

كذلك تنافست هذه الامارات المستقلة (الطولونية والاخشيدية) فى الناحية الثقافية وعمل كل أمير بقدر ما وسعه لتشجيع العلم واستقدام العلماء واظهار بلده بمظهر التفوق فى الناحية الثقافية (٦٦) .

وقد أدى هذا الى تحقيق المرحلة التاليــة فى تاريخ تطور الثقــافة العربيــة فى مصر اذ أن مدارسها أصبحت من حيث علمائها ومن حيث انتاجها الثقافى لا تقــل عن مدارس الشام والحجاز والعراق . وظهر هذا التفوق فى الميادين الثقافية كلها فنشأت طائفة من المؤرخين المصريين لا يعنون بتاريخ الاسلام بوجه عام بل يعنون بتاريخ مصر الاقليمى ويتحدثون عن المصريين وعن حياتهم الاجتماعية والاقتصــادية ومن هؤلاء المؤرخين عبد الرحمن بن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والكندى صاحب كتاب الولاة والقضاة وابن الداية مؤرخ ابن طولون وصاحب كتاب المكافأة . بــل ظهر تفوق المدرسة المصرية فى الدراسات الأدبيــة واللغوية وفى الفقــه والحديث والتفسير . (٦٧) وظهرت طبقة جديدة ليست كبيرة العدد من العلمــاء ليســوا من العرب الذين استوطنوا مصر وانما من المصريين الذين آلت اليهم الامامة فى كثير من الميادين الثقافية أمثال ابن الغطاس وسعيد بن زياد وسعيد بن تليد ويحيى بن بكر وغيرهم. (٦٨) ورغم هذا المستوى الذى بلغته الثقافة العربية فى هذا العصر ورغــم بلوغها مستوى المدارس الاسلامية الأخرى . فان مدارس مصر الاسلامية فى ذلك العهد كانت وثيقة الصلة بالبيئات الثقافية الأخرى فى بغداد وغيرها يتبادلون العلماء والطلاب والانتاج . ولم تكن حركة توطن الثقافة العربيــة فى مصر قــد رسخت أقدامها لأن كثيرين من المشتغلين بالعلم فى مصر طوال ذلك العهد كانوا من الوافدين على مصر من البلاد العربية الاسلامية الأخرى من العراق والشام أو المغرب .

وكانت الخطوة المرتقبة فى طريق تطور الثقافة العربية هى رسوخ أقدامهــا

---

(٦٥) الدكتور على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ١٤٢ .

(٦٦) كان ظهور الدول المستقلة مظهرا للانحلال السياسى ولكنه أدى الى نهضة حضارية. انظر كتاب الحضارة الاســلامية فى الشرق للدكتور محمــد جمــال الدين سرور . وكتاب الدولة والخلافة للدكتور محمد حلمى أحمد .

(٦٧) روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٧٠

(٦٨) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٩٣ .

فى مصر وانتشارها على نطاق واسع بين اهل البلاد وظهور مدارس مصر الاسلامية وتفوقها على جميع المدارس الاسلامية الأخرى فتصبح مصر بحق زعيمة العالم الاسلامى فى ميدان الثقافة والعلم . وهذه الخطوة سيتحقق جانب منها فى العصر الفاطمى (٦٩) .

ففى اواخر عهد الدولة الاخشيدية ساءت احوال البلاد الداخلية سياسيا واقتصاديا لتعرضها لهجمات القرامطة والنوبيين ووقوعها فى أزمات اقتصادية متوالية ظلت نحو تسع سنوات (٣٥١ هـ — ٣٦٠ هـ) بسبب انخفاض ماء النيل . وقد قاست البلاد الأمرين مما اصابها من القحط والوباء واشتد الغلاء وندر وجود القمح وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعم السلب والنهب حتى ان كافورا لم يستطع ان يدفع ارزاق الجند (٧٠) . مما يسر للفاطميين مهمتهم فقد كانوا على علم بكل ذلك فانتهز الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فرصة موت كافور واخذ يستعد للغزو فأمر بحفر الآبار على طول الطريق الى مصر وفى اعداد الجيش الذى عقد لواءه لجوهر الصقلى (٧١) . ومعه مائة الف من عساكر المغرب وبأن يحضر للديار المصرية ويتسلم المدينة ويتولى عليها (٧٢) .

وهكذا سقطت الدولة الاخشيدية تحت سنابك الفاطميين الذين فتحوها بعد محاولات غزو ملحة استمرت زهاء نصف قرن .

ولم يتأت لهذه المحاولات اية فرصة للنجاح خلال حكم الاخشيد الذى استمر قرابة خمسة وثلاثين عاما استأثر بها كافور بالحكم المطلق ما يزيد على اثنتين وعشرين سنة آنا فى زمن وصايته وآنا فى امارته الشرعية الأمر الذى يظهر بجلاء ان تدبير كافور لأمر مصر هو الذى آخر غزو المعز لمصر حتى مات كافور .

وقد تكررت محاولات الفتح الفاطمى لمصر منذ عهد الخليفة الفاطمى الأول بالمغرب عبيد الله المهدى فقد ارسل ثلاث حملات ، الأولى فى سنة ٣٠١ هـ — والثانية

---

(٦٩) الدكتور حسن احمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٧٢ .

(٧٠) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧ — حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٥ .

(٧١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠ وما بعدها .

(٧٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ١ ص ٣٣ .

فى سنة ٣٠٧ هـ ــ والثالثة فى سنة ٣٢١ هـ ــ وقد استمرت الحملة الأخيرة فى عهد ابنه الخليفة القائم سنة ٣٢٤ هـ ــ وقد اخفقت الحملات الثلاث . وأرسل القائم الى الاخشيد خطابا يطلب فيه السماح بنشر الدعوة الفاطمية فى مصر . وحينما توترت العلاقات بين الاخشيد والخليفة العباسى جعل الخطبة للخليفة الفاطمى القائم . وقام مشروع مصاهرة بزواج احدى بنات الاخشيد من المنصور بن القائم وأخفق المشروع لوفاة الاخشيد والقائم سنة ٣٣٤ هـ ــ وكانت الاضطرابات الداخلية بالمغرب وخاصة ثورات الخوارج من عوامل اخفاق محاولات الفتح (٧٣) .

وكان هذا ايذانا ببداية عصر جديد هو قيام الدولة الفاطمية . التى سندرس الحياة الفكرية فى مصر فى عصرها الزاهر .

---

(٧٣) ابن الاثير : الكامل ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ خطط المقريزى ج ٢ .

الباب الأول

العوامل المؤثرة فى الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى

موقف المصريين من قيام الدولة الفاطمية فى مصر

اثر الحياة السياسية فى الاتجاهات الفكرية

المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية



مقدمة

كانت مصر تلوح للفاطميين وكأنها درة خضراء ، نظرا لموقعها الجغرافى الفريد وقربها من مراكز الأمصار الاسلامية ، ووفرة خيراتها وثروتها العظيمة .

لكل هذا فان البيئة المصرية ذات الحضارة العظيمة دفعت بالخلفاء الفاطميين ان يرنوا ببصرهم الى فتح مصر ، فأنفذ الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله الفاطمى جوهرا الصقلى ٣٥٨ هـ فتم له فتحها وتحقق له ما أراد ، وقد سبق الغزو الفاطمى دعاية واسعة النطاق لاستمالة الشعب المصرى بشتى الوسائل لمذهبهم (١) .

وكان لابد من الجدل والنقاش بين الفاطميين الشيعة والشعب المصرى السني وهذا يتضح لنا من موقف المصريين من قيام الدولة الفاطمية .

لكن طبيعة الدولة الفاطمية واتجاهاتها السياسية كان له اثر فى الحياة الفكرية فى مصر . فسرعان ما صارت مصر درة فى تاج الفاطميين وانتقل اليها كرسى الخلافة الفاطمية وعلا قدرها وذاع صيتها وطمست شهرتها الخلافة العباسية فى الشرق والأموية فى الأندلس وتعالت القاهرة المعزية على بغداد العباسية وقرطبة الأندلسية (٢) وصارت قلب العالم الاسلامى النابض ومحور نشاطها الدافق . كما أن انتشار الثقافة الاسلامية فى هذا العصر يدعو الى الاعجاب بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية الى العربية ونضج ملكات المسلمين انفسهم فى البحث والتاليف وتشجيع الخلفاء الفاطميين رجال العلم والأدب وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الاسلامى بارتحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها (٣) .

---

(١) كان الفاطميون يريدون اقامة دولتهم فى مصر لتوسطها العالم الاسلامى ولكنهم قنعوا باقامتها فى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة العباسية بالعراق . مستفيدين من سخط بربر المغرب على الحكم العباسى وقد نجحت المحاولات الأولى للفتح الفاطمى فى نشر مذهب الشيعة بين المصريين (اقرأ كثيرا من التفاصيل فى كتاب الدولة الفاطمية فى مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور) .

(٢) شحاته عيسى ابراهيم ـ القاهرة ص ٥٤ .

(٣) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٢١٠ .

ولا غرو كان من اثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة . (٤) وزخر بلاط الدولة الفاطمية بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . أضف الى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت العلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية وخير مثال لذلك ما نشاهده من الآثار التى خلفها المعتزلة ودعاة الاسماعيلية من العلماء المتصوفين وغيرهم .

وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية اخرى أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية التى يتميز بها العصر الفاطمى (٥) .

اما من المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية فقد كان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين ينقسم بصفة عامة الى سنيين وهم جمهرة المصريين قبل وفود الفاطميين الى مصر وشيعيين وهم الذين وفدوا اليها من بلاد المغرب . وقد تحول كثير من السنيين بل ومن النصارى واليهود ـ بعد اسلامهم ـ الى المذهب الشيعى طمعا فى الهبات التى كان الفاطميون يغرون بها الناس للانضمام الى مذهبهم وتقلد كثير من اليهود بعد اسلامهم وتشيعهم أرقى المناصب فى الدولة من بينها منصب الوزارة (٦) .

كما أن الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى تميزت بالبذخ والترف سواء ظهر ذلك فى الأعياد والمواسم أو الاحتفالات للخلفاء والوزراء أو مجلس الغناء والطرب (٧) . مما دفع لازدهار الحياة الفكرية فى مصر كما أن اهتمام الدولة الفاطمية فى مصر بالجوانب الاقتصادية قد جعل جانبا كبيرا من الشعب المصرى يرحب بحكم الفاطميين لمصر . وقد كان للمؤثرات الاقتصادية وخاصة فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة اثرها على الحياة الفكرية فى مصر (٨) .

---

(٤) دكتور محمد حلمى : الدولة والخلافة ج ٢ .

(٥) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢١ .

(٦) شحاته عيسى ابراهيم ـ القاهرة ص ٩٢ .

(٧) ذكر المقريزى اخبارا كثيرة عن أعياد ومواسم الفاطميين فى الجزء الأول من كتابه (الخطط) .

(٨) أنظر كتاب الدكتور راشد البراوى (الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين) طبعة القاهرة ١٩٤٨ تجد كثيرا من التفاصيل .

اما عن علاقات الدولة الفاطمية بالدول الاسلامية والأجنبية فقد دفع بالدولة الفاطمية الى تخير العناصر ذات الكفاءة التى يمكن أن تتسلح بسلاح الفكر لتعمل على أن تكون علاقتها بالعباسيين والأمويين والقرامطة والبويهيين والحجازيين وكذلك أهل صقلية وايطاليا والبيزنطيين قائمة على اساس الاحترام المتبادل .

لهذا كله فاننا سوف نتحدث عن العوامل المؤثرة فى الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى بالتفصيل .

موقف المصريين من قيام الدولة الفاطمية فى مصر

كانت ظروف مصر الداخلية مهيأة للفتح الفاطمى فقد كان من بين المصريين من يتمنى أستيلاء الفاطميين على مصر . كما انتشر المذهب الشيعى فى مدن مصر وكان بعض الاخشيديين يسمحون بالدعوة الفاطمية ويشجعونها وخاصة بعد النزاع العنيف بين الاخشيد والدولة العباسية (١) .

وربما كان المصريون هم الذين طلبوا مجىء الفاطميين بسبب سوء الحكم العباسى لبلادهم بحيث انهم سهلوا لجوهر طرد جيش العباسيين (٢)

وفى جمادى الآخرة ٣٥٨ هـ صحت الأخبار بمسير عساكر المعز من المغرب الى مصر عليها عبده جوهر الذى كتب لأهل مصر الأمان : « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من جوهر الكاتب ــ عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه . لجماعة اهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : انكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع احوالكم فعرفتم ما تقدم به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم » .

فأجابهم جوهر الى رجائهم وكتب لهم عهدا ووعد فيه أن يطلق فيه الحرية الدينية والمذهبية لجميع المصريين . واعلن المصريون ولاءهم للخليفة الفاطمى ونبذوا طاعتهم للخليفة العباسى فقد أدرك المصريون أن انتقال السلطة والنفوذ من خليفة عباسى سنى الى خليفة فاطمى شيعى لن يغير شيئا من الأوضاع السياسية أو الاقتصادية ، واقتصرت معارضة الفاطميين على الكافوريين والاخشيديين الذين آلمهم ضياع السلطة منهم . وفى ٢٧ شعبان خرج الوزير بن الفرات والاشراف والقضاة والعلماء والتجار الى الجيزة وقابلوا جوهرا وهنأوه بالفتح (٢) .

---

(١) د . على حسنى الخربوطلى ــ العزيز بالله الفاطمى ص ٢٣ .
(٢) د . عبد المنعم ماجد ــ الامام المستنصر بالله الفاطمى ص ١٣ .
(٣) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٢٤ .

وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية الفاطمية ولكن مصر لم تصبح ولاية تتبع الدولة كما كانت فى العصرين الأموى والعباسى . بل أصبحت قلب الدولة الفاطمية (٤) فقد انتقل المعز لدين الله الفاطمى الى الديار المصرية وصحبته توابيت آبائه فوصل الى الاسكندرية وقد تلقاه أعيان مصر (٥) فخطب هناك خطبة بليغة وجلس قاضى مصر ابو الطاهر الذهلى الى جنبه فسأله : هل رأيت خليفة أفضل منى ؟ فقال : لم أر أحدا من الخلائف سوى أمير المؤمنين . فقال له : احججت ؟ قال : نعم . قال : وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم - قال: وقبر أبى بكر وعمر . قال: فتحيرت ماذا أقول ، ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت : شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ونهضت اليه فسلمت عليه ورجعت فانفسح المجلس الى غيره . ثم سار من الاسكندرية الى مصر فدخلها فى خامس رمضان فنزل بالقصرين فكان أول حكومة انتهت اليه (٦) .

وقد أمر المعز لدين الله الفاطمى بعرض الكتاب على المشايخ فى سائر مدن مصر : خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمير المؤمنين) على بن ابى طالب عليه السلام واثبت اسم المعز لدين الله واسم ابنه عبد الله الأمير .. (٧) .

وجلس المعز فى قصره على سرير الذهب الذى عمله جوهر فى الايوان الجديد وأذن بدخول الأشراف أولا ثم بعدهم الأولياء وسائر وجوه الناس وجوهر قائم بين يديه يقدم للناس قوما بعد قوم ثم مضى جوهر بهديته ظاهرة يراها الناس وهى : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها بعنبر . وتسع قوق محبوبة مزينة بمثقل وثلاثة وثلاثون بغلا للنقل . ودرجات من فضة مخرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف وتسعمائة ما بين سفط وتخت (٨) فيها سائر ما أعده له من ذخائر مصر (٩) .

---

(٤) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٢٥ .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٧٣ .
(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠٠ .
(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٣٥ .
(٨) التخت وعاء تصان فيه الثياب ، فارسى معرب اللسان .
(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٣٦ .

وحمل أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى هديته وهى : احد عشر سفطا من قباع تونة (١٠) وتنيس ودمياط وخيلا وبغالا .

وقال : « كنت أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله الفاطمى ثيابا أو ينعم بالعمامة التى فيها فما عمل لخليفة قط مثلها » .

هكذا أتى الفاطميون مصر ففتحوها بسيوفهم كما غزوها بعقائدهم وميولهم واتخذوا لذلك طرقا تدل على فرط ذكائهم فاستعانوا على الترويج لدعوتهم بالسيف والقلم والسياسة والعلم والدين والأدب جميعا .

وقد اتجهوا منذ بداية أمرهم الى الجوامع فجهروا فيهما بشىء من آرائهم وبشروا فيها بجزء من عقائدهم ثم أذنوا فيهما « بحى على خير العمل » وهو أذان الشيعة وحدهم لا تعرفه فرقة غيرهم . فكان ذلك ايذانا منهم بحرب طاحنة لم يكن بد من وقوعها بين مذهب الشيعة الذى تبشر به حكومة الفاطميين ، ومذهب السنة الذى كانت عليه الكثرة المطلقة من الشعب المصرى الى ذلك الحين (١١) .

وقد قال المعز : انى لم أدخل مصر طمعا فى زيادة ملكى ولا رغبة فى المال وانما أعمل بما أمرنى الله به وبما أمر جدى محمد صلى الله عليه وسلم (١٢) .

وقد أخذت مصر تحتل مكانا مرموقا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بين الدول الاسلامية المجاورة فقد أصبحت على أيدى الفاطميين مقرا لدولة اسلامية تنافس الدولة العباسية التى امتدت رقعتها الى كثير من اقطار العالم الاسلامى فى الشرق (١٣) .

كما نجح الفاطميون فى تأسيس امبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادرا . تلك الحضارة التى اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة وفنونها وجيوشها وأساطيلها وعدالة محاكمها وتسامحها الدينى (١٤) .

وكان فى يسر ما لاقته الحكومة الفاطمية من هذا الشعب السنى انه أعلن شكه

---

(١٠) قرية قديمة كانت قريبة من تنيس ودمياط . وكانت مشهورة بثيابها وطرزها.
(١١) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٣٧ .
(١٢) أنظر نص الخطبة فى الجزء الأول من اتعاظ الحنفا ـ للمقريزى .
(١٣) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الازهر تاريخه وتطوره ص ١٢ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٣ .

فى نسب القائمين بهـا وغاظ ذلك الفـاطميين حتى قيـل ان بعض الأشراف اجتمعوا بالمعز عند وصوله الى مصر فسالوه عن نسبه فأجاب المعز بسيفه وماله (١٥) .

ولهذا فقد عانى الخلفاء الفاطميون كثيرا وبذلوا جهـدا عظيما لازالة مـا علق بأذهان الناس فى مصر من الشك فىنسبهم ، ومازالوا كذلك حتى اسـتقرت أمورهم نهائيا فى تلك البلاد ، وأمنوا على أنفسهم مكر الخلافة العباسية فى بغداد (١٦) .

وأبدى المصريون رضـاءهم لقيـام الدولة الفاطمية الغنية فى مصر ورضوا عن عهد جوهر الصـقلى لهم الذى يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم ويضمن حيـاتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ومن اغارات القرامطة طالما تعدوا على حجاجهم ومن غزوات الاغريق الذين وقع فى أيديهم أقليم كيليكيا (١٧) .

وقد أدرك الفاطميون أنهم أمام شعب له قدم فى الثقافة والحضارة منذ عهـد طويل ، أدركوا أن استسلام المصريين كان تبعية سياسية لاخضوعا يتصل بالعقيدة والمذهب ، ومن أجل هذا نجد ذلك الشعب يطلب الأمان والحرية الدينية والمذهبية من جوهر الصقلى .

وعلى هذا أدرك الفاطميون أن نشر مذهبهم بين المصريين لن يكون عملا يسيرا ومن هنا بدءوا يرسمون الخطط ويحشدون القوى والتاثير فى هذا العناء أو قل العداء الذى أظهره المصريون ضد التشيع منذ اللحظات الأولى (١٨) . وكانت خطة الفاطميين تشـمل مرحلتين : المرحلة الأولى مرحلة التعليم والتشريع ، والمرحلة الثانية مرحلة الدعوة السرية (١٩) . ولم يكن فتح مصر غنما سياسيا للفاطميين فحسـب بـل كان انتصارا للدعوة الشيعية التى ما لبث بنو العباس يطاردونها زهـاء قرنين . والتى رفع لواءها عبيد الله المهدى جد المعـز . وبدأت ظفرها السـياسى بافتتاح المغرب فكانت مسالة الامامة ما تزال سند الفاطميين وكان عليهم أن يؤيدوا هذه الدعوة وأن يثبتوا قدسيتها كما كان ملكهم الجديد فى مصر يصطبغ بنفس الصبغة الدينية العميقة

---

(١٥) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٣٧ .
(١٦) نفس المرجع السـابق .
(١٧) د . على حسنى الخربوطلى : المعز بالله الفاطمى ص ٢٧ .
(١٨) أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٩١ .
(١٩) المرجع السـابق ص ٢٩٢ .

التى جملت لواءهم المغرب . فثبتوا فى وجه المنكرين لنسبتهم وشرعية دعوتهم وأنهم كما يدعون سلالة فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان المعز حريصا كل الحرص على صبغته الدينية وعلى مظاهر الامامة . وكيف كانت الصبغة الدينية العميقة تطبع سياسة الدولة الفاطمية فى مفتتح عهدها بمصر وخصوصا أن هذه الصبغة لم تكن بمنجاة من المطاعن (٢٠) أتى الفاطميون مصر ومعهم هذه العقيدة بجميع عناصرها وأفهموا أهل مصر أنهم من آل البيت وأن الله تعالى مصدر العلم وانه أفاضه على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن محمدا أورث هذا العلم الالهى كله عليا من بعده ، وأن عليا أورثه أبناءه واحدا فواحدا على النحو الذى رآته كل من فرقتى الكيسانية والفاطمية ، ولذلك وضعوا نظاما دينيا لدعوتهم ونظاما دقيقا لطريقة تعلمها (٢١) .

بيد انه منذ اقسام الفاطميون خلافتهم بمصر فانهم عملوا على تحويل جهاز الدولة الرسمى الى مذهبهم الشيعى . فعملوا على احلال التشريع الشيعى مكان التشريع السنى فى القضاء والفتيا وانكار ما خالفه ، كذلك غيروا نظام المواريث وجعلوه على أساس رأى أهل البيت . فأمروا بألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن مع الولد . فلما ثار فقهاء السنة (٢٢) ضد هذا التغيير فى التشريع اتخذ النعمان كبير القضاة (٢٣) فى ذلك الوقت بعض العقوبات ضدهم ووطد حكم التشريع الشيعى وفوق ذلك عمل الفاطميون على ادخال خصائص المذهب الاسماعيلى فى الجوامع الرسمية وهى خصائص لا تختلف غالبا عن خصائص المذهب السنى حيث تناولها الدين الاسلامى . وكان شعور الفاطميين قويا بتوطيد مركز خلافتهم فى مصر فعمدوا حثيثا الى نشر عقائدهم بين المصريين بقصد تحويلهم الى الشيعة . وقد يكون الدافع الى اتخاذ هذه الخطوة أن العباسيين والقرامطة من أعداء الفاطميين

---

(٢٠) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢١) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢٢) د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ٧٤ — ٧٥ — ٧٦ — ٧٧ .

(٢٣) هو أبو حنيفة النعمان المغربى (ت ٣٦٣ هـ) وينتسب الى قبيلة تميم ويطلق عليه أبو حنيفة الشيعة — دخل فى خدمة عبيد الله المهدى سنة ٣١٣ هـ وألف فى المذهب الاسماعيلى ثم تولى القضاء فى عهود القائم والمنصور والمعز ثم أصبح قاضيا للقضاة (ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٦) .

كانوا يذيعون بين المصريين طعنا يرمى الى التشكيك فى نسب الفاطميين الى بيت النبى وهو الأساس الشرعى الذى قامت علية خلافة هؤلاء (٢٤) .

ولما كانوا يعرفون ان الشعب المصرى السنى لديه احساس طبيعى بالعداوة ضد مذهب غير مذهبه فانهم تحاشيا لاغضابه كانوا يحتفلون بهذه الذكريات فى اوساطهم الخاصة بين اشياعهم وموظفيهم الذين كانوا بالضرورة من أنصار عقيدة الدولة وقد وجد بعض الخلفاء الغلاة الذين لم يترددوا فى جعل هذه الأعياد الخاصة اعيادا مشروعة عامة . وان كان لنا ان نؤكد بصفة عامة أن هذه الأعياد الشيعية كانت دائما تحتفظ بطابعها المذهبى الخاص (٢٥) .

وقد شهدت القاهرة العاصمة الفاطمية الجديدة احتفالا رائعا بتنصيب العزيز بالله باعتباره أول خليفة يحتفل بتنصيبه فى مصر حيث كانت تولية المعز فى بلاد المغرب . فازدانت بالرايات والأنوار الساطعة وشارك المصريون الخليفة وحاشيته هذا الاحتفال فخرجوا الى الحدائق العامة وشواطىء النيل وركبوا القوارب المزدانة بالأنوار واقيم فى القصر حفل رائع امه رجالات الدولة ووجوه المصريين (٢٦) .

ونعرف أن الفاطميين اسسوا فى مصر دولة مذهبية تختلف فى عقائدها عن مذهب الشعب المصرى السنى لذلك كان من الطبيعى أن يعمل الفاطميون على الابقاء على ذكريات مذهبهم الشيعى منذ ظهوره وصراعه الى أن أصبح دولة كبرى (٢٧) .

وأن الخلافة الفاطمية بالرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصرى الى جانبها فى هذا المضمار ولم تحاول دائما ان تجرى على سياسة الارغام فى طبعه بطابعها . وفى فرض لونها المذهبى على عقائده بل نراها فى أحيان كثيرة تلجأ فى ذلك الى سياسة الرفق والتسامح . وليس ادل على ذلك من ان الأمة المصرية كانت تحيط عرش الخلفاء الفاطميين بمحبتها

---

(٢٤) عقد الدكتور حسن ابراهيم الباب الثانى من كتابه (تاريخ الدولة الفاطمية) عن نسب الفاطميين (ص ٥٧ — ٨١) .

(٢٥) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ١٢٦ .

(٢٦) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٣٠ .

(٢٧) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ١٢٢ — ١٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعجابها وولائها ليثبت من الناحية المذهبيـــة طوال عهـد الدولة الفاطمية محتفظة بمذهبها السنى لا تبغى به بديلا (٢٨) .

على أن المصريين وان كانوا قـد احبوا الفـاطميين الا انهم لم يتـابعوهم فى مذهبهم الشيعى وذلك لأن الشـعب المصرى شـعب محافظ فى المسـائل الاعتقادية ولهذا ظل على مذهبه السنى ومن طريف ما خلفه الفاطميون فى مصر فى هذا الصدد بعض كلمات من سب السلف الصالح مثـل أبى بكر وعمـر بن الخطاب اذ لا تزال تقال كلمة يا عمر (٢٩) .

ثم مـا كادت الخلافة الفاطميـة تفرغ من نشر مذهبها والتمكين لدعوتها حتى اتهمت بعد بايذاء المستمسكين فى مصر بمذهب السنة فقيل انه فى سنة ٣٨١ هـ ضرب رجل وطيف به المدينة من اجل انه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن انس (٣٠) .

والرأى عندنا فى ذلك انه حادث شاذ لمـا نعرفه عن الفاطميين من ميلهم الى التسامح مع أهل المذاهب والديانات الأخرى .

ان المصريين كانوا أكثر استعدادا لقبول المذاهب الشيعية بسـبب ميلهم الى على بن أبى طالب والتفافهم حول واليه محمد بن أبى بكر وذلك من العوامل التى ادت الى انتشار نفوذ الفاطميين فى مصر قبيل الفتح الفاطمى (٣١) .

وفى الحق ان أهـل مصر — لم يكونوا يبغضون المذاهب الشيعية . بل كانوا يرحبون بالفاطميين ابناء على وفاطمة ترحيبا حارا . ويؤثرونهم على العباسيين كمـا أن حالتهم الاقتصادية والادارية كانت تتطلب تغييرا شاملا .

ولذلك رأى كثير من المصريين انهم قد يجدون تحت حكم الفاطميين ما لم يجدوه فى عهـد العباسـيين (٣٢) . فلقد كان الفتح الفاطمى الذى تمخض عن المدينـة العظيمة القاهرة بمثابة تغيير فى المذهب وفى نظم الحكم والثقافة . وكان المصريون

---

(٢٨) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله . ص ٢٥٣ .
(٢٩) د . أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٢٦٣ .
(٣٠) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر .
(٣١) د. حسن ابراهيم : المعز لدين الله الفاطمى ص ٧٠ .
(٣٢) المرجع السابق ص ٨١ .

قد قاسوا كثيرا من المجاعة التى اعقبها وباء هلك فيه اكثر من نصف مليون من السكان فى مصر وما جاورها وخضعوا لقيادة ضعيفة وتعرضوا لنهب الجند الثائرين. فتقدم جوهر وتم له ما اراد من احداث التغيير فى الحياة المصرية فلم يكن التغيير اكثر من ابدال عقيدة بعقيدة اخرى ويرجع الفضل فى ذلك الى سياسة التسامح التى سار عليها الفاطميون وتحبيب مبادىء الشيعة المتطرفة فقد رضى الناس بالنظام الجديد ولم يقابلوه بالاعتراض والتعصب . اللهم الا عندما جابههم الشيعيون بالاحتفال فى اليوم الأول من شهر المحرم تكريما لذكرى شهداء كربلاء .

وظل السواد الأعظم من الشعب يدين بعقائد المذهب السنى (٣٣) .

وهذا ما كان جوهر الصقلى حريصا عليه بعدم مفاجاة السنيين فى مساجدهم باقامة شعائر المذهب الفاطمى حتى لا يثير كراهية المصريين . لذلك وضع جوهر اساس الجامع الأزهر فى ١٤ رمضان ١٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وتم بناؤه فى سنتين واقيمت الصلاة فيه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (٣٤) .

اقام الفاطميون فى مصر حكومة منظمة قائمة على اساس متين . فتقدمت البلاد نحو الرقى بفضل هذه النظم الرشيدة التى احتذاها من جاء بعده من الملوك غير أن أن سياسة الفاطميين (التى ترمى أولا الى نشر مذهبهم) كثيرا ما كانت تتعارض مع مصالح الأهلين وسعادتهم لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنيين .

ولقد تطلب نجاح هذه السياسة أن يحل انصار الفاطميين — حتى من غير المسلمين — محل السنيين فى منصبهم . من ذلك نرى أن السنيين كانوا فى اول حكم الفاطميين ينظر اليهم بعين السخط والكراهية فتحملوا لذلك كثيرا من جور القوانين التى كان يسنها الفاطميون وذلك أنه كان لزاما على أبناء الطوائف الثلاث (السنيين والنصارى واليهود) الذين كان منهم المصريون ، أن يطيعوا تلك القوانين حتى ما كان منهم غير متفق مع معتقداتهم الدينية (٣٥) .

---

(٣٣) سيرة القاهرة للمستشرق ستانلى لينبول ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٩ .

(٣٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٦١٦ .

(٣٥ د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٤ .

ان استقرار الفاطميين بمصر جعل مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة الى مضاعفة جهودها المذهبية . ذلك انها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهدا خصبا لدعوتها . بل الفت فى مصر مجتمعا عركته الأحداث السياسية — فكان عليها أن تتوسل لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية .

ولم يكن اعتماد الخلافة فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزوها الأذهان بطرق منظمة لانه اذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق القاعدة الظاهرة فان الدعاية المنظمة خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة (٣٦) .

وقد كانت الدعوة السرية انفذ وسائل الفاطميين الى تبوأ الملك . فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى كانت الدعوة السرية وسيلتهم الى حمايتها وتدعيمها . فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية فكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم — منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها — تنساب معه الى جنبات الامبراطورية الشاسعة والى سائر الاقطار الاسلامية الأخرى (٣٧).

وكانت الدولة الفاطمية تجذب اليها الأنظار بقوتها وغناها وكان سواد الشعب يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية وتستظل بلواء الامامة الاسلامية كالدولة الفاطمية على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية .

وهكذا الفى الفاطميون حين مقدمهم الى مصر جوا ممهدا يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه (٣٨) .

ولكى يجعل الفاطميون مصر قاعدة ملكهم انشأوا فيها بمجرد فتحها عاصمة عند ملتقى النيل بالدلتا . سموها القاهرة المعزية . بنوا فيها قصورهم ودواوينهم والجامع الأزهر الذى يقوم بنشر الدعوة الى مذهبهم وقد منحوها الترف البالغ وساعدهم على ذلك أن مصر مطبوعة على الحضارة الراقية حتى

---

(٣٦) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٥٣ .
(٣٧) المرجع السابق ص ٢٥٣ .
(٣٨) نفس المرجع ص ٢٩ .

أصبحت جوهرة ملكهم وبذلك أصبحت فى مصر لأول مرة عاصمة خلافة اسلامية تقف موقف الند من بغداد عاصمة العباسيين المشهورة وقد أصبحت مصر بحق قلعة الفاطميين تقهر أعداءهم وتحقق أهدافهم .

حقا ان المعز أول مجيئه لقى صعابا شديدة لوقوع انقسام فى المذهب الشيعى بسبب أن شيعته فى البحرين الذين عرفوا بالقرامطة نسبة الى قرمط الداعية الشيعى ثاروا على امامته وهاجموه فى الشام ومصر الا أن المعز ومن بعده العزيز تمكنا من صد القرامطة واجبارهم على الرجوع الى البحرين (٣٩).

وقد بدأ الفاطميون حكمهم فى مصر بداية طيبة ، واستطاع المعز أن يوطد أركان دولته ، واستطاع أن يتخلص من تهديد القرامطة الذين وصلوا حتى أسوار القاهرة ثم مد نفوذه الى الشام والحجاز (٤٠) .

وهناك من يرى بأن المصريين رفضوا مذهب التشيع التى حاول الفاطميون — خلال حكمهم مستخدمين أساليب السلطة — أن يفرضوه على المصريين فازدادوا استمساكا بتقاليدهم الصحيحة (٤١) .

ويرى الدكتور احمد امين : بانه كانت تحدث فتن ومصادمات بين المصريين السنيين والشيعة فى المناسبات المختلفة — فقد روى انهم قطعوا لسان من احتج على منع صلاة التراويح كما ضرب رجل من اهل مصر — كما ذكرنا — وطيف به المدينة لانه يملك كتاب الموطأ لمالك بن انس (٤٢) .

وفى سنة ٣٩٣ هـ عوقب رجل بدمشق وطيف به فى المدينة ونادوا عليه « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر » . ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة . بل كانت قلقة مضطربة كاضطراب سياسة الفاطميين . فأحيانا يبالغون

---

(٣٩) د. عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر بالله ص ١٢ .
(٤٠) د. محمد حمدى المنياوى : مصر فى ظل الاسلام ج ١ ص ٧٤ .
(٤١) د. حسن احمد محمود وآخرين : تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ١٥ .
(٤٢) د. احمد أمين — ظهر الاسلام ج ١ ص ١٩٤ .

فى اضطهاد أهل السنة وأحيانا يسمحون لهم بحريتهم كما كانوا يضطهدون اليهود والنصارى الى أقصى حد . وأحيانا يبالغون فى اكرامهم » (٤٣) .

ولا عجب فان المصريين كانوا قد انصاعوا الى تعاليم المذهب الاسماعيلى الباطنى وانفعلت بها مشاعرهم واصطبغت بلونها عواطفهم ووجداناتهم واخذ تفكيرهم يدور فى اطار تلك التعاليم ، وقد بلغ من تأثر المصريين بقواعد ذلك المذهب وتعاليمه ان اصبحوا يعتقدون أن الامام الفاطمى يضر وينفع . وأنه يرزق من يشاء بما شاء ويحرم من شاء اذا شاء ومصداق ذلك قول ابن هانىء الأندلسى (٤٤) فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

ولقد اندمجت الدولة الفاطمية فى الحياة المصرية وشاركت فيها بجليل الأعمال التى كان لها أثر كبير فى توحيد عناصر الأمة المصرية ونضوج شخصيتها . ذلك لأنها كانت دولة متسامحة الى حدود بعيدة فالمسلم والقبطى واليهودى كانوا يلقون معاملة واحدة . وهذا ساعد على مزج العناصر المصرية بعضها ببعض كما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية والفنية فى البلاد . فكثير من مخلفات الفاطميين المحفوظة فى المتحف الاسلامى كالأوانى الزجاجية والخزفية ذات البريق المعدنى والمنسوجات قد نقش عليها اسماء صانعيها واغلبها أسماء مسيحية . ويتصل بهذا مشاركة الفاطميين فى الاحتفال بالأعياد القومية والمسيحية فى مصر مثل عيد النيروز والغطاس وخميس العهد .. الخ . (٤٥) .

كما كان عهد الفاطميين عهد اصلاح وتعمير من أمثال بناء القاهرة (٤٦) وجامع الأزهر (٤٧) مما لا يزال قائما الى اليوم .

ومهما يكن من شىء فقد قوى أمر هذه الخلافة العلوية وعظم سلطانها حتى

---

(٤٣) د. أحمد أمين — المرجع السابق ص ١٩٤ .
(٤٤) د. على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وشعره ص ٦٠ .
(٤٥) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٧٩ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩٥ وما بعدها .
(٤٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٣ — اتعاظ الحنفا ص ٧٤ .
(٤٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ — القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ .

لقد كان الخليفة (الآمر) (٤٨) تحدثه نفسه بالسفر الى الشرق والغارة على بغداد لتوحيد المذاهب الدينية فى جميع الممالك الاسلامية وقد قال الآمر فى ذلك شعرا منه هذان البيتان :

دع اللوم عنى لست منى بموثق   فلابد لى من صدقه المتحقق
واسق جيادى من فرات ودجلة   واجمع شمل الدين بعد التفرق

وهكذا بقى العالم الاسلامى كله أو أكثره موزعا بين خلافتين هما الخلافة العلوية الفتية فى مصر والمغرب والخلافة العباسية التى هربت وكادت تنحصر فى بغداد .

ثم انه حول منتصف القرن الخامس الهجرى كانت الخلافة العباسية قد تخلصت نهائيا من سلطان البويهيين المعروفين بتحمسهم لمذهب الشيعة ووقعت هذه الخلافة تحت سلطان الاتراك الذين عرفوا بتحمسهم لمذهب السنة (٤٩) .

---

(٤٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٥ — وما بعدها . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٤٩) ابن الأثير : الكامل ج ٨٧ ص ٢٨٠ وما بعدها . ابن خلدون : العبر ص ٢٥٤ وما بعدها — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٤ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثر الحياة السياسية في الاتجاهات الفكرية

لا نستطيع أن نضع على قدم المساواة الدولة الفاطمية مع الدولتين الطولونية (١) والاخشيدية (٢) فهاتان الدولتان الأخيرتان وان نالتا بعض الاستقلال عن الخلافة العباسية فانهما كانتا على عكس الدولة الفاطمية ينقصهما نبل الأصل حتى يتمكنا من فرض سيادتهما المطلقة في مصر .

ولذلك بقى أمراء هاتين الدولتين يعتمدون في حكم مصر على موافقة الخليفة العباسي في بغدا . وبقيت مصر ــ تبعا لذلك ــ جزءا من الدولة العباسية التي سادت فيها نفس النظم السنية . فضلا عن أن مدة حكم كل من هاتين الدولتين قصيرة . فلم يكن من المعقول أن تتميز نظم الحكم في عهدهما أو أن تطبع بطابع خاص .

ولكن مصر في عهد الفاطميين أصبحت قاعدة لامبراطورية واسعة لا يحكمها ولاة معينون من بغداد . وانما منافسون لخلفاء العباسيين يتوافر لهم نبل المحتد اذ ينتمون الى أسرة فاطمة وعلى . فكان تحول مصر من ولاية شبه مستقلة الى خلافة مستقلة استقلالا تاما له أثره الكبير في نظم البلاد التي تطورت الى أفق أوسع وجد أكثر مما كانت عليه في عهد الطولونيين والاخشيديين .

بل انه لا يمكن مقارنة نظام الدولة الفاطمية في مصر ونظمها في شمال افريقيا حيث كانت هذه البلاد الأخيرة تسكنها عناصر ساذجة متمردة على عكس شعب مصر الهادىء المتعود على الحضارة مما كان له اثره في تطور نظم الحكم الفاطمي في مصر .

كذلك كانت الدولة الفاطمية تختلف في جوهر نشأتها عن الدولتين السابقتين ــ الطولونية والاخشيدية ــ فهي لم تكن دولة دينية فحسب مثل غيرها من دول العصور الوسطى . لا فرق فيها بين سلطة مدنية وأخرى دينية ولكنها كانت دولة ذات عقائد مذهبية خاصة .

---

(١) حكمت الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤ الى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ الى ٩٠٥م) .

(٢) حكمت الدولة الاخشيدية من سنة ٣٢٣ الى ٣٥٨ هـ (٩٤٣ ــ ٩٦٩م) .

فالدولة الفاطمية دولة شيعية تخالف بأفكارها الدينية والسياسية ما ساد من نظم فى مصر حتى ذلك الوقت (٣) .

ولما كانت الدولة الفاطمية شيعية أصبحت مذهبية تغلبت فيها الصفة الدينية على كل مظاهر الحياة وصبغت كل نظمها من الخليفة أو الامام ، حتى اقل كاتب فيها . وكانت العقيدة الفاطمية فى مصر كما كانت سابقا فى المغرب ، الأساس الذى تقوم عليه الدولة . فكل تنظيم سياسى فى الدولة ما هو الا انعكاس لروح العقيدة الفاطمية نفسها (٤) .

على اننا يجب أن نقرر أن الدولة الفاطمية سواء أكانت فى المغرب أم مصر مثل غيرها من الدول الاسلامية فى اساس بنائها على الدين وقد لاحظ ابن خلدون المفكر المسلم الكبير أنه ليس من السهل أو الممكن فصل الدين عن الدولة (٥) —

فالدولة الاسلامية تقوم على أسس تتشابك فيها الدولة بالدين .

وبرغم ذلك فاننا نستطيع أن نقيم حدا مميزا بوضوح بين نظم الدولة السياسية التى ترتكز على أسس دينية وبين النظم الدينية الخالصة التى تقوم على أسس العقيدة المذهبية والفلسفة الدينية ذاتها وبمعنى آخر نستطيع أن نفصل بين نظم الدولة والمذهب .

فنظم الدولة الفاطمية تتشابه مع نظم الدول الأخرى الثيوقراطية « الدينية » الاسلامية فى العصور الوسطى فالعقيدة الفاطمية مثل العقيدة السنية كانت مزيجا من عناصر دينية وتشريعية (٦) .

ومهما يكن من شىء — فقد كان من الممكن الفصل بين النظم السياسية التى لا تخلص من الدين ، والدين نفسه . وان كانت كلمة « دولة » (٧) التى تملأ سجلات ديوان الانشاء الفاطمى وتكون جزءا من ألقاب كبار الموظفين (٨) . لم تعن يومئذ المعنى

---

(٣) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١١ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة جـ ١ ص ٣٩٣ .

(٦) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ١ ص ١١ .

(٧) د . عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص ٢٧ — ٣٤ — ٥٢ — ٦٣ .

(٨) المرجع السابق .

الذى نلصقه بها الآن ففى العصـور الوسـطى كانت الدولة ترتكز على أسـاس دينى وسياسى .

ولذلك لمـا استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخـل تحت طاعة الخلفـاء العباسيين وادعى الخلافة لنفسه بمصر . وقال نحن أفضل من الخلفاء العباسيين لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الخلفاء الفاطميون يحكمون من مصر الى الشام الى حلب . الى مكـة والمدينـة الشريفة الى القدس والخليل وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة (٩) .

فقد قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشـيعية فى ظروف غامضـة واتشح الفاطميون بثوب الامامة الدينية وردوا نسبتهم الى على بن أبى طالب وفاطمة ابنة النبى (صلى الله عليه وسلم) ومساق امامتهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسن بن على ومن ثم كانت تسميتهم أيضا بالاسماعيلية (١٠) .

وقد ظل العلويون يعتقدون انهم أحق بزعامة المسلمين لانهم أولاد على — ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون فى سبيل هذه الزعامة بالسيف تارة وبالمكيدة والدهـاء تارة أخرى حتى توجت جهودهم بقيـام الخـلافة الفاطمية فى المغرب ، تنافس الخلافة العباسـية فى المشرق وقـد قامت الخـلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الامام وعصمته (١١) .

لذا فان الامامة هى أصـل جميع نظم الحكم فى الدولة الفاطمية فى مصر (١٢) وكلمة « امامة » التى كان يستعملها الشيعة بعامة والفاطميون بخاصة لها مدلول كلمة « خلافة » التى كان يستعملها غالبا الأمويون والعباسـيون فقد تمسـك الفاطميون بطاعة الامام المطلقة لكى يقووا سلطتهم الزمنية وليجعلوها مقدسـة رهبية (١٣) .

ولذا يرى علماء الفاطميين أن هذه « الولاية » ليسـت جزئية لأنها يجب أن تشمل جميع الأمة الاسـلامية وقـد أطلقوا على المكان الذى توجد فيه هذه الأمة

---

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ١ ص ٣٦ .
(١٠) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٥٢ .
(١١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٤ .
(١٢) مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٢٠ وما بعدها .

الاسلامية التسمية العامة بدار الاسلام . وعلى ذلك فيجب الا يطاع فيها غير سلطة شرعية واحدة : هى سلطة الامام الفاطمى وكأن امكان وجود امامين أو خليفتين فى وقت واحد ليس له مكان فى العقيدة الفاطمية .

فيرى ناصر خسرو ان حكم هذه الأمة ملك للامام وليس لغيره أى حق فيه .

ولم يجد هذا الراى قبولا من أهل السنة على الأخص حينما أتسعت رقعة الاسلام فأصبح من الصعب حكمها بشخص واحد وفى هذه الحالة فانهم يسمحون بعقد شرعي مع شخصين فى وقت واحد (١٤) .

وكانت هذه الامامة ملاذا لسيادة الفاطمية وعمادها لدى الكافة وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون جد الحرص على صفة الامامة وعلى توطيدها ونشر لوائها بمختلف الوسائل اذ هى شعارهم الأسمى وعماد سلطانهم الروحى ومعقد مطامعهم السياسية .

وقد استطاعت الخلافة الفاطمية أن تجنى غير بعيد ثمرة كفاحها وظفرها ، فبسطت ظلها بعد افريقية على مصر والشام والحرمين فكان هذا الانضواء تحت لواء الخلافة الفاطمية يتخذ قبل كل شيء لون الظفر السياسى . بيد أن الخلافة الفاطمية كانت تحرص على تحقيق ظفرها المعنوى الى جانب ظفرها المادى . وأن تغزو عقائد المجتمعات التى يدفعها للفتح أو تحملها السياسة على الانضواء تحت لوائها . ومن ثم كان نشاط الخلافة فى بث دعوتها المذهبية وفى العمل على توطيد دعائمها وتمكين نفوذها المعنوى الى جانب سلطانها السياسى .

وليس أدل على ما كانت ترتبه الخلافة الفاطمية من عظيم الأهمية على بث دعوتها المذهبية واتخاذها وسيلة نافذة لحشد المؤمنين والكافة تحت لوائها مما ما ورد فى كتاب المعز لدين الله الى الحسن الأعصم زعيم القرامطة من تلك العبارة القوية التى يشير فيها المعز الى قيام الخلافة الفاطمية ببث دعوتها فى مختلف الأقطار : « فما من جزيرة فى الأرض ولا أقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ويدلون علينا ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون

---

(١٣) سيرة المؤيد ص ٨٥ .

(١٤) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ٥١ — ٦٣ — ٦٤ .

بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصـــاريف اللغات واختلاف الالسن . وفى كل جزيرة واقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون » (١٥) .

وهو قول الله عز وجل : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

ولا ريب أن الخلافة الفاطمية كانت ترمى ببث هذه الدعوة الى غاية سياسية أكثر منها دينية : أن يحتشد المستنيرون والخاصة تحت لواء الخلافة الفاطمية وأن يجعلوا من دعاتها علماء للزعامة الدينية فى العالم الاسلامى وأن يكونوا ســفراءها لدى المؤمنين والكافة يحركونهم لتأييد كلمتها وتوطيد سلطانها وتنفيذ غاياتها . تلك هى الغـــاية الحقيقية لتنظيم الدعوة السرية وبثهـــا على هذا النحو . واتخـــاذها أداة لغزو العقول والعقائد عن طريق الدين والفلسفة الكلامية .

ذلك انه من الحق ان ننوه هنا بأن الخلافة الفاطمية وان كانت تحرص كـل الحرص على بث دعوتها المذهبية بمختلف الوســائل المذهبية فانها لم تكن تلجأ فى ذلك الى وسيلة للضغط أو الاكراه الادبى أو المادى ، بل كانت تترك أمـر الدعوة والاستماع اليها حرا من كل قيد وضغط وكان ألناس يستمعون اليها احرارا بمحض اختيارهم ويقبلونها أو يرفضونها وفق مشيئتهم (١٦) .

وكان تنظيم الخلافة الفاطمية لدعوتها المذهبية على هذا النحو المدهش مما يشهد له بكثير من الفطنة والبراعة فى سبر اغوار المجتمع وتفهم عقليته . واذا كانت مجالس الحكمة لم تحقق كل غايتها . ولم تنجح كثيرا فى تحويل الشـــعب المصرى عن صبغته المذهبية .

فلا ريب أنها قد فعلت كثيرا لتوطيد الدولة الفاطمية وتوطيد امامتها المذهبية وسلطانها السياسى كمـــا فعلت كثـــيرا لتقويض المذهبية الخصيمة ولكنها ألقت فى الوقت نفسه سحبا كثيفة من الريب على عقيدة الفاطميين الدينية .

ومن الواضح أن نظام الحكم كان فى ظل الخلافة الفاطمية كما كان فى ســائر الدول الاسلامية الأخرى فى العصور الوســطى نظاما مطلقا يســتأثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية والزمنية . وقد سارت الخلافة الفاطمية على هذا النحو

---

(١٥) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٥٢ــ ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .
(١٦) أنظر فصل الدعوة الفاطمية فى القصور ص ٣٨١ والدعوة الفاطمية فى دور العلم ص ٣٨٢ فى كتاب الدكتور حسن ابراهيم (تاريخ الدولة الفاطمية) .

منذ قيامها بالمغرب ثم بعد ذلك منذ قيامها بمصر . فكان الخليفة الفاطمى (١٧) هو الدولة ، وهو صاحب السلطان المطلق وحكم المعز والعزيز والحاكم والظاهر وفقا لهذا الأسلوب فى عصر الازدهار والقوة وكان هذا الأسلوب المطلق فى الحكم أمرا طبيعيا . يتفق بالأخص مع نظرية الامامة الفاطمية أنها من الناحية الدستورية نظرية الحكم المطلق ، بل هى تمتاز فوق ذلك بأن رئيس الدولة الأعلى فيها وهو الامام يمتاز بصفات العظمة والقداسة ، باعتباره قائم الزمان ، وأن قيامه يرجع الى مشيئة الله . على أن تمتع الخلافة الفاطمية بهذا السلطان المطلق الروحى والزمنى فى مصر لم يطل أكثر من سبعين عاما ومنذ الشدة العظمى التى وقعت فى بداية عهد المستنصر ٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م (١٨) تدخل الخلافة الفاطمية فى عهد انحلالها وتفقد سلطانها تباعا ، ويبدأ عصر الوزراء العظام باستيلاء القائد بدر الجمالى على أزمة الحكم فى ٤٦٧ هـ — ١٠٧٥ م (١٩) وفى ظل أولئك الوزراء العظام الذين تعاقبوا فى الحكم من ذلك التاريخ يفقد الفاطميون كلّ سلطة ويصبحون أدوات لينة لا حول لهم ولا قوة ويستمرون كذلك حتى ذهاب دولتهم (٢٠) .

كما أن الدولة الفاطمية تمتاز بصبغتها المذهبية العميقة فكذلك تمتاز بطرافة نظمها السياسية .

فقد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة فى كثير من قواعد الحكم والادارة وفى كثير من الرسوم والنظم وكانت هذه النظم والرسوم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة التى تطبع الدولة الفاطمية وسائر مظاهرها .

فلما اتسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشام شعرت بالحاجة الى التوسع فى النظم السياسية والادارية التى يقوم عليها هذا الملك الباذخ ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة بل عمدت الى الابتكار فى تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقا لحاجتها وغاياتها السياسية والمذهبية (٢١) .

---

(١٧) محمد عبد الله عنان — الحاكم بأمر الله ص ٢٨٠ — ٢٩٢ — ٢٩٣ — ٣٢٦ .
(١٨) أنظر أخبار المجاعات والشدة فى كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) للمقريزى .
(١٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٢ .
(٢٠) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١١٣ وما بعدها .
(٢١) محمد عبد الله عنان — الحاكم بأمر الله ص ٣٢٦ — ٣٢٨ .

اضف الى ذلك ان السجلات المستنصرية تمدنا بمعلومات عن نظم الدولة الفاطمية السياسية فى مصر فهى تبين لنا معالم نظام الامامة الفاطمية فتذكر عليا دائما فى تعابير دينية خاصة بالمذهب الفاطمى فهو والد الأئمة ومحمد جدهم (٢٢) .

وحقا ان الفاطميين لم ينسخوا بمجيئهم مصر كل تقاليد الحكم التى وجدوها فهذه النظم وهى مزيج من نظم سنية ونظم متأخرة على ظهور الاسلام — كانت قد ثبتت أقدامها فى بناء مصر منذ الفتح العربى . ثم ان الفاطميين أنفسهم لم نكن عندهم آنذاك نظم راسخة لبناء دولة جديدة ولكن عقيدة الدولة الشيعية سيكون لها أثرها فى نظم مصر بالتدريج وبالقوة . فزعيم الدولة وقد أصبح الامام الفاطمى شخصا معصوما ، يحكم بالحق الالهى المقدس حيث كان منصبه « الامامة » أساس كل نظام سياسى ودينى كذلك تغيرت قوانين الدولة لتوافق عقائد المذهب الشيعى وقد عمل الفاطميون منذ وصولهم على احلال الفقه الشيعى مكان الفقه السنى الذى كان أساس الحكم منذ فتح العرب مصر فى ٢١ هـ — ٦٤٢ م ولكن أهم نظام جديد دخل فى نظم مصر السياسية ويعبر بحق عن العهد الجديد فى حكم البلاد هو نظام الدعوة وجر الى تغيير حياة الخلفاء الفاطميين انفسهم الذين مالوا الى ناعم الحياة ولينها بعد أن كانوا فى المغرب يأخذون أنفسهم بالتقشف .

فالدولة الفاطمية ولا ريب كانت عنصرا حاسما فى تطور نظم مصر الاسلامية التى لازالت بعض آثارها ملموسة فى أعيادنا وتقاليدنا الدينية حتى الآن (٢٣) .

ونحن لا نعرف مثيلا لدولة اسلامية أخرى استطاعت طبع مصر بطابع جديد قوى كما طبع الفاطميون فى مصر . قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الامام وعصمته ولذا خلع الشيعيون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يوصف به خلفاء بنى العباس .

ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس عمدوا الى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة (٢٤) .

وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة فى كثير من أرجاء

---

(٢٢) د . عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص ٢٢ .
(٢٣) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٢٤) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٦٩ — ٧٢ .

العالم الاسلامى كمصر واليمن وفارس والهنـد بل انتشرت بين الأمويين والسنيين فى الأندلس (٢٥) .

وأحيط شخص الخليفة الفاطمى بالرهبة والقداسـة وتيقن للشـعب أن لخليفتهم قدرة خارقة للعادة لأن الله اصطفاه من شجرة النبوة الباسقة ليحكم بين الناس بروح من عنده فعليهم السمع والطاعة له لأن حكمه هو الحق والعدل الملهم له من الله سـبحانه وتعـالى وللامام عنـد الفاطميين صلة روحية من جنس التى للأنبياء والرسل (٢٦) .

ويلاحظ المؤرخ (براون) أن نظرية الحق الالهى المقدس لم تكن فى دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوعا منها فى فارس فى عهـد آل ساسان غير أن هذه النظرية كانت بمصر فى زمن أعرق فى القدم من عصر آل ساسان فى عهد الفراعنة الذين أدعوا لأنفسهم كل صفات الله (٢٧) .

ويمتدح (آدم متز) نظـام ولاية العهـد فى العصر الفـاطمى فيقول : نادى الفاطميون بأن الامامة والأفضلية صـفة خاصة تنتقل من الوالد الى الولد فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ويضاف الى هذا هدوء السياسة الحازمة وطمأنينتها فى عهدهم (٢٨) .

وتميزت الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة التى كانت فى الاحتفالات بصـلاة الجمعة وفى توديع الحملات الحربية والاحتفال بوفاء النيل وبعيدى الفطر والأضحى وفى جلوس الخليفة بقاعة الذهب وكانت الشيعة تركع عنـد رؤية الخليفة وتعتبر تقبيل ردائه شرفا عظيما (٢٩) .

ويصف مؤرخ عربى الخـلافة الفاطمية بأنها حكومة بيروقرآطية فقـد كان الخليفة يعتمد فى ادارة شئون الدولة على كبار الموظفين الاداريين ويمنح كـلا منهم

---

(٢٥) دوزى : المسلمون فى اسبانيا ص ٤٠٦ .

(٢٦) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى نقـلا عن (نظم الحكم فى مصر) : عطيه مصطفى شرف (د .) ص ٥٨ .

(٢٧) د . على حسنى الخربوطلى ـ العزيز بالله الفاطمى ص ٧٣ .

(٢٨) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٤ .

(٢٩) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٧٣ .

جرية التصرف فى الأمور التى يباشرها بعد مراقبته لهم ومحاسبتهم امام على أعمالهم (٣٠) .

ويرى المستشرق (آدم متز) نفس الرأى وهو يشيد بسياسة الخلفاء الفاطميين الحازمة واستقرار الأوضاع السياسية والادارية واتباع نظام اللامركزية ثم يقول : ومن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة الى المعز لدين الله مباشرة وتخطى من دونه . فمنع الخليفة من ذلك . وأعاد الكتاب الى الوالى من غير أن تفض أختامه (٣١) .

وقد سار الفاطميون على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة الفاطمى اذا أدرك قرب وفاته عهد بالخلافة الى أحد أبنائه ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكان الفاطميون ينظرون الى الخليفة الفاطمى باعتباره اماما يرث اباه عن طريق التعيين بالنص وانه لابد أن يعين الخليفة او الامام ولى عهده قبل وفاته حتى لا يخلو العالم من امام (٣٢) .

وقد كان لهذه الطريقة مميزاتها اذ كان ولى العهد كبير السن واسع التجربة كفؤا لتولى ذلك المنصب الخطير فقد استطاع العزيز أن يقود الجيوش الفاطمية وينتصر على القرامطة فى حياة أبيه وبعدها . وأما الحاكم مثلا فقد كان صغر سنه وقلة تجاربه ونقص كفايته من العوامل التى أثارت المتاعب فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهده كما كان ذلك من عوامل ضعف هذه الخلافة فيما بعد .

وكذلك كان الحال بالنسبة للظاهر والمستنصر من الخلفاء الفاطميين (٣٣) .

وقد تطلب نظام الوراثة عند الاسماعيلية وهو الذى أخذ به الفاطميون منذ نشأة دولتهم أن تنتقل الامامة من الأب الى الابن عن طريق التعيين بالنص .

وحرص الفاطميون على اتباع هذا النظام منذ اقاموا دولتهم ولكن بعض

---

(٣٠) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى نقلا عن د . عطيه مصطفى شرف نظم الحكم فى عهد الفاطميين ص ٦٦ .

(٣١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٢٤ .

(٣٢) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٧٥ .

(٣٣) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٧ .

الأحداث حملتهم على الخروج عليه فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله ان يحرم ابنه أبا الحسن على الذى ولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد ويعهد بهـا لابن عمه عبد الرحمن بن الياس غير أن هذه المحاولة باءت بالفشـل وخلفه ابنـه الظاهر ، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر حين ولى الخلافة بعده عمر الحافظ كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله (٣٤) .

والواقع أن الخلافة الفاطمية كانت تقوم على فلسفة خاصة حرة التفكير وقد اشتهر كثير من الخلفاء الفاطميين بنزعاتهم الدينية الحرة الثورية احيانا والروايات الفاطمية المعاصرة تؤيد قيام هذه الدعوة السرية والقاءها بالقصر فى مجالس خاصة ثم تلقينها بعد ذلك للدعاة وفى دار الحكمة الفاطمية (٣٥) .

وقد انطلقت الخلافة الفاطمية بالنفوذ المصرى انطلاقا عظيما فتحقق الاستقلال الكامل للبلاد وشهدت اصلاحات اقتصادية كبيرة وشهدت رخاء اقتصاديا لم تشهده من قبل وانطلاق الشخصية المصرية فى العصر الفاطمى لم يكن فى الناحية السياسية وانما فى الفن والثقافة أيضا (٣٦) .

وكان لنظم الحكم الدقيقة التى سار عليها المعز لدين الله اثـر بعيد فى رقى البلاد ولاغرو فقد كان يمثل الحكم المستنير الذى يجمع فى يـده السلطات كلهـا . ولكنه يسعى دائما لاسعاد شعبه . ويعتبر الحكم امانة من الله ائتمنه عليها . وأن زعامته للمسلمين واجب القاه على عاتقه انتسابه للرسول (صلى الله عليه وسلم) فجاءت نظم الحكم التى سنها مثلا أعلى فى الدقة والاتقان . حتى قامت أمثالها عند الأمويين والعباسيين .

ويعتبر المعز لدين الله الخليفة الفاطمى الرابع من كبار رجال عصره فقد بـز اقرانه ومنافسيه علما وسياسة وحربا ولهذا لانغلو اذا قلنا ان نفوذ الدولة الفاطمية بلغ اقصى مداه فى عهـده وأن الفاطميين لم يسـتطيعوا ان يحتفظوا بذلك التراث المجيد الذى تركه لهم هذا الخليفة ومن ثم اخـذت الدولة الفاطمية فى الضـعف

---

(٣٤) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٣٩ .
(٣٥) عمر أبو النصر : قلعة الموت ــ الحسن بن الصباح ص ٧٢ .
(٣٦) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٣ .

والانحلال بعد وفاة العزيز بن المعـز وسـقطت فى ميدان التنافس بين السـنيين والشيعة بعد ان تركت اثرا لا يمحوه توالى الأيام والأعوام (٣٧) .

وقد ساهم المعز لدين الله فى انعاش الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ومصر بما سنه من النظم الادارية الحـازمة ولم يكتف بذلك بل نهض بالناحية العلميـة والثقافية المذهبية حتى اصبحت المنصورية فى بلاد المغرب والقاهرة فى مصر كعبـة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة .

ولا نغلو اذا قلنـا انه يعتبر المؤسـس الحقيقى للدولة الفاطمية لأنه وطـد سلطانها ووسع رقعتها ووضع نظام الحكم الذى أصـبح نبراسا يهتدى بهديه من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والسلاطين .

وحرص المعز فى خلافته على ان يتقرب الى الرعية والى الكتامين خاصة فكان يقف منهم موقف الأستاذ من تلميذه والأب من أبنائه وكثيرا ما كان يجتمع بكبار شعبه ويزودهم بنصائحه ويضرب لهم المثل الأعلى ويبين لهم أنه يتعب ويشقى فى سـبيل هنائهم وسعادتهم . ويطلب اليهم مساعدته على النهوض بالدولة والدعوة (٣٨) .

كما كان المعز نزيها وسياسيا بارعا خبيرا بشئون السياسة وكان الى جانب ذلك خطيبا مفوها .. واشتهر بأنه مسلم عادل أمين لمذهب الشيعة (٣٩) .

وقد تحدث المؤرخ العربى المعـاصر (د . حتى) عن مميزات العصر الفاطمى فى مصر فقال : أما من الناحية السياسـية فان العصر الفاطمى يعتبر بـدءا لعصر جديد فى تاريخ مصر اذ لم تتمتع البـلاد بنفوذ كامل مملوء بالحيوية ومؤسس على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمى . أما الدولتان السـابقتان (الطولونية والاخشـيدية) فلم يكن لهما سـلطان قوى ولا دينى فى البلاد اذ كان ظهورهما وبقاؤهما راجعا الى القدرة الحربية لمن اسسهما من رجال الحرب كمـا كان راجعا ايضا الى الحالة السيئة التى كانت عليها الحكومة العباسية (٤٠) .

---

(٣٧) المرجع السـابق ص ٤ ، ٩ .
(٣٨) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ١٠ — ٢٢ .
(٣٩) ستانلى بول : سيرة القاهرة ص ١١٦ .
(٤٠) د . فيليب حتى : تاريخ العـرب المطول ص ٨١٠ (العزيز بالله الفاطمى الدكتور على حسنى الخربوطلى) .

وان كان المعز قد وضع نواة الحضارة الفاطمية فى مصر فقد تعهد العزيز بالله غرس أبيه حتى نما وترعرع ونضج وأتى بالثمار المرجوة ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله فى اخلاقه وعقله وسياسته وتسامحه ويعتبرونه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء وهناك فرق كبير بين العزيز وبين من خلفه من خلفاء الفاطميين مثل الحاكم بأمر الله او الظاهر او المستنصر او غيرهم من الخلفاء .

فقد أصبحت الدولة الفاطمية فى عهده امبراطورية عظمى واستقرت الأحوال الداخلية ولم تقم ثورات داخلية ذات اهمية مثل الثورات التى كانت تقوم فى عهد آبائه واصبحت الدولة الفاطمية موضع احترام وهيبة من جميع الدول فى الشرق وفى أوربا (٤١) .

ولقد اشاد المؤرخ ستانلى بول بعصر العزيز فقال : كان العزيز يشبه أباه فى حبه للسياسة وادارة شئون البلاد ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف او البذخ أثر فى الحد من مقدرته السياسية والادارية (٤٢) .

ويصف « آدم متز » العزيز بالله فى كتابه الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى فيقول عنه « انه كان أعظم الخلفاء الفاطميين » (٤٣) .

كان الخليفة العزيز باعتباره خليفة فاطميا تولى الامامة بعد ابيه بنص منه يجمع فى يده كل السلطات فكان المهيمن على جميع أعمال الدولة ويعين فى الاقاليم ويرسم لهم طريقة الحكم ويراقب سياستهم كما كان العزيز بالله القائد الأعلى للجيش (٤٤) .

كان للخلافة فى عهد الحاكم بأمر الله ثلاثة ادوار :

الدور الأول : من ٣٨٦ هـ / ٣٩٠ هـ — ٩٩٦/١٠٠٠م :

فى نفس اليوم الذى مات فيه العزيز فى مدينة بلبيس بويع بالخلافة ابنه الوحيد « المنصور » تلقب بالحاكم بأمر الله وقد ولد المنصور فى ٢٣ ربيع الأول

---

(٤١) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٣٣ .

(٤٢) ستانلى بول : سيرة القاهرة — ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين ص ١٣٢ .

(٤٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٢٤ .

(٤٤) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٦٩ — ٧٠ .

سنة ٣٧٥ هـ من أم نصرانية واقيم العبد الخصى برجوان وصيا عليه امتثالا لرغبة ابيه غير ان برجوان لم يستطع ان يخضع لسلطانه قائد الجيش ابن عمار المغربى الذى كان الخليفة الحاكم قد منحه رتبة الواسطة ولقبه بأمين الدولة (٤٥).

وكان لمحاباة هذا القائد بنى جنسه من الكتاميين وتفضيلهم على اخوانهم من الجنود اثر سيء أثار النفوس الى درجة الغليان فعمد الجنود الترك آخر الأمر الى امتشاق الحسام لرد عدوان البربر اخوانهم فى السلاح .

وانتهت هذه الفتنة بهزيمة البربر وسقوط قائدهم ابن عمار وقد عفا عنه الخليفة الا انه سرعان ما دبر امر الخلاص منه فاغتيل واصبح برجوان الآن مطلق السلطان فركبه الغرور والزهو وترك مقاليد الأمور تفلت من يده ثم انغمس فى الملذات ينعم بثروته الطائلة مهملا تثقيف الخليفة القاصر بل تغالى فأخذ يلقبه القابا تجعله موضع الاستهزاء مما جر فى نفس الخليفة على ان برجوان عرف حقيقة خلق الخليفة فكان يجهله من قبل نفسه سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م أمر الخليفة بقتله ولجأ الحاكم بعد هذه الفعلة التى ثار لها الناس الى الشعب ليشد ازره فى هذه السن اليانعة التى يحتاج فيها المرء الى كل عون (٤٦) .

الدور الثانى : من ٣٩٠ هـ / ٤٠٨ هـ — ١٠٠٠ — ١٠١٧ م :

وربما استطعنا أن نتبين خلق الخليفة فى المجرى الذى سار فيه بعد وفاة برجوان اذا عرفنا البواعث الكامنة تحت ذلكم التعصب الدينى الشديد الذى جعله يسعى جاهدا الى التشدد فى تطبيق بعض احكام الاسلام بصفة عامة تطبيقا حرفيا واشاعة آراء الشيعة الاسماعيلية بين اناس ما زالت آراء أهل السنة غالبة عليهم . فاذا كانت هذه الظاهرة هى ابرز ما اتسمت بة تصرفاته فقد كان يزيدها تعقيدا شعور مطلق بالقوة اخذ يتملك هذه الشخصية العجيبة شيئا فشيئا واهواء قلتب لا تقف عند حد تمتزج بها امتزاجا قويا طبائع فطرت عسلى

---

(٤٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٣ — ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥ وما بعدها — خطط المقريزى ج ١ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٤٦) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٠ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٠ .

القسوة والبطش . وقد تفسر هذه النزعات الحائرة التى أصدرها حتى سنة ٣٩٦ هـ الموافق ١٠٠٨ م كمنع الخمر . فرض القيود على النساء .. الخ (٤٧) .

ولا شك ان بعضها قد قصد به اهل السنة واضطهاد أهل الكتاب : النصارى واليهود . فقد نبذ الحاكم سياسة التسامح التى سار عليها المعز والعزيز ونهج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣ هـ نتيجة استئثارهم بالسلطة والثروات (٤٨) .

الدور الثالث : ٤٠٨ هـ / ٤١١ هـ — ١٠١٧/١٠٢١ م :

ومهما يكن من شيء فقد كان الخليفة يتبع تعاليم الاسماعيلية الباطنية الى غايتها وذلك انه وافق على اعلان تألهه متأثرا فى ذلك بالأخرم وحمزة والزوزنى ودوزى ، الداعى الباطنى وذلك سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م أما وقد عرفنا نفسيته فليس بمستغرب أن يخطو هذه الخطوة .

اما أن الحاكم وقد أظهر آخر الأمر تسامحا عظيما فى أمور الدين فشىء يتفق تماما وعقائد الاسماعيلية التىكانت غالبة عليه اذ ذاك فأبطل العقوبات التى سنها وبدأ النصارى واليهود يتنفسون الصعداء (٤٩) .

وقد تأثر المؤرخون المسلمون والكتاب النصارى المغرضون بطبيعة الحال بادعاء الحاكم الألوهية (٥٠) . آخر الأمر فتحيفوا عليه ولم يقدروا هذه الشخصية الفذة فى نهجها وعدوه حاكما طاغية مخبولا متعطشا للدماء وبادروا فنسجوا حول شخصيته الغريبة سلسلة من الأقاصيص السخيفة التى ما تزال تفتقر الى تمحيص دقيق وتأثر معظم المؤرخين الأوروبيين بهذا الرأى أيضا ولم يشذ منهم الا دوزى . وتبعه فى ذلك الأمر موللر فاجتهدا أن يحكما على شخصية الحاكم حكما منزها عن الهوى وفى رأيهما أن شخصية الحاكم قد جمعت بين الغيرة على الدين الى حد التعصب وبين النزوع المأثور عن المشارقة الى الاستبداد .

---

(٤٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٨ وما بعدها — خطط المقريزى : ٢ ص ٤— ١٥ .
(٤٨) دكتور محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٧ .
(٤٩) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٢٣٢ .
(٥٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ .

ولكنها لا تخلو من خلة تهدف الى المثل الأعلى . فمن البين أن كثيرا من النظم التى سنها واشتد الناس فى ذمها قد رمى بهـا الى كبح جماح الفساد الذى تردى فيه شعبه وقد (ضرب) لهم مثلا رائعا بسلوكه الذى لا تشوبه شائبة واحتقاره لكل مظاهر الأبهة والفخفخة وليس ينكر على الحاكم سماحته وجوده (٥١).

وكان الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة واكثر من الركوب فخرج فى يوم واحد ست مرات راكبا فى الأولى على فرس وفى الثانية على حمار وفى الثالثة على الأعناق فى محفة وفى الرابعة فى عشارى بالنيل واصاب الناس منه شر شديد الى أن فقد فى احدى الليالى فيقال أن رجلا اغتاله غيرة لله وللاسلام ويقال أن أخته « ست الملك » دست له رجلين اغتالاه واخفيا اثره (٥٢) .

واعلن حمزة انه احتجب وسيعود لنشر الايمان بعد الغيبة (٥٣) قال الذهبى: وثم اليوم قبيل سنة ٧٥٠ هـ طائفة من طغاة الاسماعيلية يحلفون بغيبة الحاكم ما يعتقدون آلا انه باق وانه سيظهر واخباره كثيرة جدا أورد بعضها المقريزى فى الكلام على جامع المقس وهو مما انشاه صاحب الترجمة وبين كتب الدروز كما اخبرنى احد متفقيهم يضع رسائل يقولون : انها من انشاء الحاكم بقلمه منها : خير اليهود والنصارى والسجل الذى وجد معلقا على المساجد والسجل المنهى فيه عن الخمر وفى الذريعة الى تصانيف الشيعة كتاب التعويذ فى صناعة الاكسير باسم التحفة الشاهية . اول ترجمة الحاكم ونسبه واحواله واجداده .وصنفت فى سيرته كتب (٥٤) .

كان الحاكم كما رأينا كثير التلون فى افعاله واحكامه واقواله جائرا وقد كان يروم ان يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون وقد أمر الرعية اذا ذكر الخطيب اسمه ان يقوم الناس على اقدامهم صفوفا اعظاما لذكره واحتراما لاسمة كما فعل ذلك فى الحرمين الشريفين .

---

(٥١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٥٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٥ — ١٩٠ خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٥٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢١٠ .

(٥٤) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ٢ ص ١١ .

وامر اهل مصر أن يسجدوا له عند ذكر اسمه كما أمر لأهل الكتابين الدخول فى دين الاسلام اكراها ثم اذن لهم فى العودة الى دينهم وخرب كنائسهم ثم عمرها (٥٥) .

وعلى كل حال لم يكن هناك ما يقلق الفاطميين فى مصر فقد اعتلى الخلافة فى سنة ١٠٣٦ م طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر هو المستنصر الذى استطاع دون أن يكون له أى نفوذ ان يحتفظ بالخلافة حتى سنة ١٠٤٩ م وقد اقترنت هذه الفترة الطويلة منذ أن اعتلى الخلافة بأحداث سيئة نتيجة تدخل السودانيين فى الحكم وانتشار الأزمات الاقتصادية (٥٦) .

وساد مصر احيانا فى خلافة المستنصر عهد من الاستقرار والهدوء يدل على ذلك ما كتبه ناصر خسرو فى كتابه (سفر نامة) و (زاد المسافر) (٥٧) حيث قال ان مصر عامة كانت فى فترة زيارته لها فى بحبوحة من العيش وانها كانت فى هدوء واستقرار لم تشهده من قبل وكان الخليفة المستنصر محبوبا من الشعب ولم يكن أحد يخشى سلبا وتعديا فى ظل حكومته .

ولقد ساد الأمن والنظام فى وقته حتى أن تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون باغلاق حوانيتهم اذ كانوا لا يخشون عليها من اللصوص . وكان فى القاهرة وحدها ما يربو على عشرين الف متجر كانت كلها ملكا خاصا للخليفة وكان ايجار كل منها فى الشهر يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير وكان الخليفة شابا فى مقتبل العمر بهى الطلعة حليق اللحية يرتدى كساء طويلا ناصع البياض (٥٨) .

استقرت الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر استقرارا تاما واتسعت اتساعا هائلا وبلغت دعوتها الشيعية أقصى انتشارها ووصل غناها الذروة الا أن وقوعها فى أيدى الطامحين أضاع منها كل شىء فبعد أن كانت تمتد من أقصى

---

(٥٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٩ .

(٥٦) خطط المقريزى : جـ ٢ ص ٣٦ — ٣٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥ .

(٥٧) انظر كتاب (الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى) للدكتور زكى محمد حسن ص ٥٦ — ٦٣ .

(٥٨) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ص ١٤٠ — ١٤٢ .

المحيط الأطلسى الى الفرات اقتصرت على مصر قاعدة حكمها وبعد أن كانت ازهى الدول واغناها أصابتها المجاعة الصارمة التى اشبهت ما حدث فى تاريخ مصر القديم أيام يوسف الصديق .

وبعد أن كانت خزائن الخليفة قد تكدست بالتحف والأموال اصبحت قاعا صفصفا والخليفة نفسه فى فقر مدقع (٥٩) .

والواقع أن تولية المستنصر الخلافة صغيرا أدى الى وصاية امه عليه (٦٠) . وقد توصت من قبل ست الملك على أبيه الظاهر بعد اختفاء الحاكم . فحافظت على الدولة من الطامعين اذ وصفت بأنها أعقل النساء . وأحرصهن ولكن وصاية أم المستنصر على ابنها تحولت الى رغبة جامحة للسيطرة على الحكم . بحيث أنها استمرت تحجر عليه وتحكم دونه حتى بعد بعد بلوغه سن الرشد . ولم يذكر المؤرخون أن أم المستنصر ، لها صفة ست الملك فى العقل والحزم — بل على العكس أفسدت الحكم بتدخلها وتسببت فى تقويض دعائم دولة ابنها (٦١) . واصبحت الدولة فى يد اعوانها من الرجال أو حتى من النساء العجائز بالقصر كذلك وقع الخليفة هو الآخر تحت نفوذ رجال يصفهم المؤرخون بانهم رجال سوء من الأوغاد والرعاع والأراذل . ولكن فى النهاية أجمع المعاصرون له بحسن السيرة وأنه محبوب من الرعية وأنه كان يخالط الناس ويستمع الى شكواهم(٦٢)،

وأما الشيعة فقد مدحوه بشعر كثير وجعلوا له صفة العظمة التى تجعله معصوما من جميع الخطايا والكبائر والصغائر فيذكر المؤرخون انه كان عادلا لا يطمع فى أموال أحد (٦٣) .

كان الفاطميون فى مصر يمثلون الخلافة الشيعية الوحيدة التى كان لها بعض الشأن (٦٤) فالنظام الادارى فى مصر ايام الفاطميين هو الميراث المباشر للنظام

---

(٥٩) د. عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر بالله ص ٧ و ٨ .

(٦٠) كانت أم المستنصر فى الأصل جارية فى بيت (التسترى) وهو يهودى اضطهد المسلمين (السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ — ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٥ وما بعدها) .

(٦١) د. عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر بالله ص ٢٠ .

(٦٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥ — ١٧ .

(٦٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٤٧ .

(٦٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ٨ ص ٤٢٥ .

الادارى الذى يمتد بأصوله الى النظم الادارية فى القرون السابقة على الفتح العربى ٢١ هـ / ٦٤٢ م وقد تأصلت هذه النظم ذات الطابع السنى رسوخا قبل مجىء الفاطميين فى عهد دولتى الطولونيين والاخشيديين شبه المستقلتين اللتين ابقيتا على النظم الادارية العباسية .

غير أنه بمجىء الفاطميين استقلت مصر استقلالا تاما فقد كان حكامها منافسين لخلفاء بغداد وصارت القاهرة عاصمتهم مقر خلافة واسعة وان كانت هذه الخلافة شيعية ذات عقيدة مخالفة للعقيدة السنية العباسية .

فهل ياترى تغيرت النظم الادارية فى مصر لتتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة ؟

فى الواقع أن النظم الادارية بقيت كما كانت سابقا محتفظة بطابعها السنى الذى تأصل فى البلاد فلم تعد تتاثر بمبادىء الدولة الجديدة . هذا وان النظم الادارية فى ذاتها غير قابلة بطبيعتها لتأثير العقيدة الدينية فيها .

ولكن الفاطميين ولا ريب عملوا على زيادة تركيز زمام السلطة الادارية فى أيديهم لاستكفاء مصالح حكومتهم المستقلة استقلالا تاما ومصالح خلافتهم واسعة فاصبحت السلطة الادارية فى القاهرة لها الاشراف على ما يمس ادارة البلاد فى الخلافة .

وهكذا فى ايام الفاطميين كان النظام الادارى شديد المركزية تدار شئونه من القصر .

وكانت الادارة فى عهد الفاطميين تدار كما كان سابقا بواسطة سلطة الدواوين التى كان يطلق عليها او على وظائفها اسم « الوظائف الديوانية » (٦٥) .

ان حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية ومصدر ذلك أن الفواطم أتوا مصر ومهمتهم الأولى والأخيرة هى الدعوة الفاطمية وحكومتهم لهذا حكومة الدعوة المذهبية على هذا الوجه ثم ان الفاطميين استقلوا بمصر فانشأوا فيها خلافة جديدة ناهضت الخلافة العباسية العتيقة وبزتها فى كثير من مظاهرها واستعان الخليفة الفاطمى فى ادارة مصر بحكومة معقدة التركيب كثيرة الدواوين مشحونة بعدد ضخم من

---

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٨ ص ٤٢٥ .

الموظفين على رأسهم الوزير فمن دواوين الحكومة الفاطمية اذ ذاك ديوان الانشاء وديوان بيت المـــال وديوان الجيش وديوان الأحبـــاس وديوان الرواتب . وديوان خـــزائن الكســوة والطراز . وفى كـــل ديوان من تلك الدواوين عـــدد كبـــير من الموظفين (٦٦) .

أما الوزير فى العهد الفاطمى فكان فى أول أمره وزارة تنفيذ بمعنى أنه لا يستبد بأمر من الأمور دون رأى الخليفة ثم اصـــبح فى أواخر العهد الفاطمى وزارة تفويض يستبد دون الخليفة بكل أمور الدولة (٦٧) .

وعلى الرغم من العظمة التى كان يتمتع بهـــا الوزير فى العصر الفاطمى الأول كانت سلطته محدوده ، اذ كان بقاؤه فى مركزه يتوقف على رضاء الخليفة ، غير أن تلك العظمـــة لم تلبث ان تبدلت ولاســـيما فى العصر الأخـــير ٤٦٥ هـ — ٥٦٧ هـ — ١٠٦٢ / ١١٧١ م (٦٨) .

فقد وزر للمعز جوهر القائد وللعزيز أبو الفرج يعقوب بن كلس وكان يهوديا فاسلم . فلما مات سنة ٣٨٠ هـ حـــزن عليه العزيز حزنا شـــديدا وأغلق الديوان اياما من أجله وبعد يعقوب ضعف شان الوزارة وتحولت الى ما يســـمى الوساطه خشية ازدياد نفوذ الوزراء (٦٩) .

ووزر بعد يعقوب نصرانى يقال له عيسى بن نسطورس ثم قضى عليه . ووزر للظافر أبو القاسم على بن أحمد سنة ٤١٨ هـ الى أن مات زمن المستنصر ســـنة ٤٣٦ هـ فوزر بعده أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وكان يهوديا فأسلم . ثم ولى بدر الجمالى أمير الجيوش الوزارة فاقام الى ان مات ســـــنة ٤٨٨ هـ (٧٠) . فقام فى الوزاره ولده الأفضل أبو القاسم شاهنشاه فوزر للمستنصر بقية أيامه وللمستعلى وصدرا من ولاية الآمر ثم انه قتل وضرب فداوى وهو راكب ســـنة ٥١٥ هـ وقـــام مقامه فى الوزارة أبو عبد الله محمد بن مختار بابـــك البطائحى ولقب المأمون وهو بانى الجامع الأقمر (٧١) .

---

(٦٦) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٤٥ — ٤٦ .
(٦٧) المرجع الســـابق .
(٦٨) د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٣٩٩ .
(٦٩) د . محمد جمال الدين سرور . الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٤٢ .
(٧٠) ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزاره ص ٣٥ وما بعدها .
(٧١) السيوطى : حسن المحاضره ج ٢ ص ٢٠١ — ٢٠٤ .

اما المعز لدين الله اول الخلفاء الفاطميين بديار مصر فانه لم يوقع اسم الوزارة على احد فى ايامه واول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ابى منصور نزار بن المعز فلما مات لم يستوزر العزيز بعده احدا (٧٢) .

لكن عين بعد ابن كلس فى الوزارة على بن العداس سنة واحدة ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة ثم أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار سنة وثلاثة أشهر ثم أبو محمد بن عمار شهرين ثم الفضل بن صالح الوزيرى أياما ثم عيسى بن نسطورس سنة وعشرة أشهر وكان قضاته أبو الطاهر محمد بن أحمد ثم الحسين على بن النعمان ثم أبو عبد الله محمد بن النعمان (٧٣) .

ومن وظائف أرباب السيوف الوزارة اذ كان الوزير صاحب السيف والنظر فى المظالم وزم الأقارب ونقابة العلويين وزم الرجال والطوائف كالأموية والحافظيه والأفضلية وغيرهم . وولاية الشرطة وولاية المعادن ، والأحداث وولاية الحماية وولاية حفظ الثغور والامارة على الحج ، والامارة على الجهاد وولاية الأعمال وغير ذلك (٧٤) .

وكان بدر الجمالى « وزير سيف » وبه بدأ استبداد وزراء السيوف . ولكن منذ بدر تحولت وزارة السيف الى وزارة تفويض فكان الخليفة يفوض الى وزيره جميع أمور الدولة لتصريفها ولم يعد له أى سلطة على هذه الأمور . بل تطاول الوزير على سلطة الخليفة الدينية فكان وزراء التفويض الفاطميون اشبه بأمراء القصر فى عهد الدولة الميروفنجية يتدخلون فى تولية الامام وولى عهده بحيث غدا هؤلاء لعابين أيديهم (٧٥) .

وقد عظم أمر وزراء السيوف وقويت شوكتهم نتيجة لضعف نفوذ وزراء القلم فكان هؤلاء فى الفترة الأخيرة دائمى الصرف والاعادة ولا يتولون الوزارة الا لمدة بضعة أيام .

---

(٧٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٧٣) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٧٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣٠٨ .

(٧٥) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ٨١ — ٨٢ .

ففى خلال أربع سنوات تولى الوزارة أكثر من عشرين وزير قلم مما يدل على فشل هذا النوع من الوزراء الذين كانوا أضعف من أن يقروا النظام فى الدولة ، وقد كانت الوزارة الفاطمية وزارة فردية لأن مصر فى الواقع لم تعرف تعدد الوزراء فى ذلك العصر أو فى عصر المماليك (٧٦) .

ولكن سرعان ما ضعف شأن الوزارة بعد وفاة ابن كلس — وتحولت الى ما يسمى (بالوساطة) خشية ازدياد نفوذ الوزراء . ففى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذى خلف اباه العزيز عزل عيسى بن نسطورس وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين المغاربة الوساطة وتلقب أمين الدولة (٧٧) .

يقول القلقشندى : ان الوزارة هى أرفع الوظائف عند الفاطميين واعلاها رتبة وانها كانت تارة فى أرباب السيوف وتارة فى أرباب الأقلام . وفى كلا الجانبين تارة تعلو وتكون وزارة تفويض ويعبر عنها حينئذ بالوزارة . وتارة تنحط فتكون دون ذلك ويعبر عنها بالوساطة (٧٨) . ولكن متى عرف الفاطميون الوزارة كنظام من نظم الحكم التى تقوم عليها دولتهم ؟ .

لا شك أن التنظيم الداخلى لأى دولة لا يأتى الا بعد أن تستقر قواعدها وتستقيم أمورها . فمن هنا تبدأ الدولة فى وضع الأسس التى يقوم عليها نظام الادارة فيها فتنشىء الوظائف المختلفة وتعطيها المسميات التى تتفق مع اختصاصاتها.

والدولة الفاطمية دولة مذهبية قامت لنشر مذهب دينى يخالف مذهب الدولة القائمة وكان أمامها شوط طويل ومعارك رهيبة حتى تستقر لها الأمور وتتوطد أركانها . ومن الطبيعى فى هذه الفترة أن يقبض الخليفة الفاطمى بيديه على كل سلطان ويصرف الأمور بما يراه ويشرف على جميع أوجه النشاط فى هذه الدولة الناشئة ولا يعنى ذلك أن الخليفة كان يقوم بكل الأعمال وحده ولكنه كان يستعين ببعض من يثق فيهم وقد تعلو منزلة البعض لدى الخليفة ويقوم بما يقوم به الوزراء عادة . الا أن نظام الوزارة لم يعرف اطلاقا فى الفترة المغربية وكان المفروض — وقد قامت الدولة الفاطمية على أساس دينى يرتكز على المذهب الاسماعيلى — أن

---

(٧٦) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٧٧) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٨١ .

(٧٨) الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى د. محمد حمدى المنياوى : ص ٣٣ نقلا عن صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٣ ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

يكون الوزير هو الرجل الثانى فى الدولة بعد الامام او الخليفة شيعيا اسماعيليا ولكن من الملاحظ أن الفاطميين لم يتقيدوا بذلك . فكان من وزرائهم المسلم وغير المسلم حتى ان أول وزرائهم كان يهوديا قبل اسلامه كما استعانوا باليهود فى كثير من أعمالهم مما دعى لاتهامهم بأن أصلهم من اليهود . ولا شك أنه تحت حكم الفاطميين عموما لقى غير المسلمين من مسيحيين ويهود معاملة طيبة وكانت مناصب الدولة حقا لكل من توافرت لديه الكفاءة اللازمة دون اى دخل لمعتقد أو مذهب (٧٩) .

ولما كانت الموارد المالية لها أهميتها للدولة اختار الخلفاء وزراءهم من المهرة فى الشئون المالية ومن هؤلاء عدد كبير من أهل الذمة الذين أسلم بعضهم قبل تولية الوزارة وظل البعض الآخر على دينه . وان كان كتاب النظم يجيزون أن يكون وزراء التنفيذ من أهل الذمة دون وزراء التفويض الا أن الفاطميين لم يتقيدوا بذلك أيضا فاتخذوا وزير تفويض نصرانيا هو بهرام الأرمنى وزير الحافظ واذا رجعنا الى قائمة وزراء العصر الأول عند الفاطميين (٨٠) نلاحظ أن بعضهم من أهل الذمة والبعض الآخر وان كان مسلما الا انه يتمذهب بغير مذهب الدولة فابن كلس وأبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى وأبو على والحسن بن أبى سعد التسترى كانوا يهودا قبل اسلامهم ومن الوزراء المسيحيين أيضا عيسى بن نسطورس وأبو العلا فهد بن ابراهيم والشامعى زرعة بن نسطورس وأبو سعد منصور بن اليم مورس ابن مكراوه الذى يقال انه أسلم وان أنكرت النصارى اسلامه . وكان وزراء التنفيذ المسلمون وزراء على غير مذهب الدولة مثل : اليازورى الذى يعتبر من أهم وزراء التنفيذ فقد كان سنيا حنفيا .

أما وزراء التفويض فقد كانوا كلهم مسلمين عدا بهرام الا أن جلهم كانوا على غير مذهب الدولة مع أن القضاة والدعاة كانوا نوابا عنهم فبدر الجمالى وابنه الأفضل وحفيده أبو على احمد والمأمون البطائحى وآل رزيك كانوا اماميين مغالين فى مذهبهم ورضوان بن الولخشى وابنه الملا — واسد الدين شيركوه وصلاح الدين سينين .

كما لم يتقيد الفاطميون بالناحية الدينية ولم يتقيدوا كذلك بجنسيات الوزراء

---

(٧٩) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ٣٨ .
(٨٠) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ٣٨ .

هذا وان اعتمد الفاطميون فى مبدأ الأمــر على المغــاربة فى ادارة شــئونهم حتى أن جوهر الصقلى عندما فتح مصر جعل على كل موظف مصرى آخر مغربيا الا انه منذ عهد العزيز ابتدأ الخلفاء فى الاستعانة بالمشارقة فابن كلس لم يكن مغربيا بل كان بغدادى الأصل كما ان اغلب وزراء التنفيذ الذين لعبوا دورا كبيرا فى سياسة الدولة كانوا من المشرق كالجرجرائى كان عراقيا من قرية جوجرايا من سواد العــراق واليازورى كان فلسطينيا (٨١) .. الخ . كما اســتعان الفاطميون ببعض المصريين خصوصا من النصارى لمــا لهؤلاء من خبرة فى الشــئون المــالية مثــل عيسى بن نسطورس وزرعة بن نسطورس وابو ســعد منصور بن مكراوه وابو عبد الله حامد التنيسى .

أما وزراء التفويض فاغلبهم من الأرمن مثل ابن الجمــالى وابنــه وحفيده ، ديانس وزير الحافظ وبهرام والصالح وطلائع بن رزيك .

والملاحظ ان هؤلاء الوزراء الأرمن هم الذين لعبوا دورا كبيرا فىحياة هذه الدولة كما كان من هؤلاء الوزراء المغربى مثــل الوزير عباس والبرقى كابن مصــال اللكى والكردى مثل : ابن السلار وشيركوه وصلاح الدين الأيوبى (٨٢) .

أما عن سياسة الدولة الفاطمية فى مصر نحو اهل السنة ، فقد كان اهــل السنة يكونون الســواد الأعظم من المصريين المســلمين فى مســتهل القرن الرابع الهجرى حيث شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم الى مصر وقد استطاع دعاتهم نشر المذهب الفاطمى بين عدد قليل من المصريين كانوا خير عون لهم على فتح مصر فدخل جوهر قائد الخليفة المعز لدين الله الاســكندرية ٣٥٨ هـ دون مقاومة وكتب أمانــا أعلنه للمصريين (٨٣) .

ولم يعمل الفاطميون بكتــاب الأمان الذى التزم فيــه جوهر باطلاق الحــرية للمصريين فى المعتقدات الدينيــة بل تركز الاهتمــام فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى واتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها : اسناد المناصب العليا وخاصة الفقهاء الى الشيعيين واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية وهى وقتذاك مسجد عمرو بن العاص ومسجد احمد بن طولون والجامع الأزهر واهتمامهم

---

(٨١) المرجع الســابق .
(٨٢) د . محمد حمدى المنياوى : الوزراء والوزارة فى العصر الفاطمى ص ٣٩ .
(٨٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٥ .

بتعيين احد كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم وكان يعرف بداعى الدعاة كذلك امعن الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كأذان بحى على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء وعيد الغدير المعروف بغديرخم (٨٤) . ثم اثار احياء الشعائر الشيعية فى مصر استياء المصريين السنيين لما كان يقترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم ١٨ ذى الحجة ٣٦٢ هـ ان قام المغاربة باثارة الشغب والاضطرابات فخرج جوهر بنفسه ليحولّ دون تماديهم فى الاعتداء على أموال الأهالى (٨٥) كذلك أصاب المصريين السنيين كثير من الضرر والأذى بسبب ارغام الشيعيين لهم على مشاركتهم فى اظهار شعائرهم .

ولقد رأى السنيون المصريون ازاء اهتمام الشيعة باظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدير خم عند الشيعة ونكاية لهم احتفلوا فى ٣٦٣ هـ باليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وابو بكر الصديق وقالوا انه يوافق ٢٦ من ذى الحجة وبالغوا فى هذا اليوم فى اظهار الزينات ونصب القباب وايقاد النيران (٨٦) ورأت الحكومة الفاطمية فى عهد المعز الا تمنع اهل السنة فى مصر من احياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم . ولكن لم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة والشيعيين عن احياء الشعائر الدينية وحدها بل أدى انحياز الفاطميين الى المغاربة والاعتماد عليهم فى ادارة شئون دولتهم الى استغلال نفوذهم فى الحاق الأذى بالمصريين فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم الى المعز فأصدر اوامره الى المغاربة باخلاء هذه الدور والانتقال الى نواحى عين شمس (٨٧) ولما آلت الخلافة الى العزيز ٣٦٥ هـ عنى كابيه المعز بنشر المذهب الشيعى وحتم على القضاة ان يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب كما قصر المناصب الهامة على الشيعة واصبح لزاما على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة التى

---

(٨٤) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨ .

(٨٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا نقل عنه د. محمد جمال الدين سرور فى الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨١ .

(٨٦) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨١ .

(٨٧) المرجع السابق ص ٨١ .

يسيرون طبقا لأحكام المذهب الاسماعيلى واذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل من وظيفته . وكان ذلك مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين الى اعتناق مبادىء المذهب الفاطمى (٨٨) .

وقد تميزت حكومة العزيز بالله الفاطمى بأنها حكومة رشيدة عادلة منظمة بل كانت من أفضل حكومات الخلفاء الفاطميين . وان كان أبوه المعز لدين الله قد وضع أسس وقواعد السياسة والادارة الا أنه لم يحكم فى مصر سوى عامين ولذا فقد أكمل العزيز بالله النظم الحكومية وتبلورت فى عهده حتى ظهرت فى صورتها الكاملة الناضجة ، حيث حدد الخليفة المعز واجبات الخليفة بحيث تدور كلها حول اصلاح الرعية وحمايتهم من أعدائهم فقال : « للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها وشغلنا اقامة دورهم واصلاح أحوالهم والنظر فيما يعود عليهم ويحمى حماهم ويدفع عن بيضتهم ويحصن دماءهم ويحصن حريمهم وأموالهم ويكف أيدى المتوالين بذلك نقطع ليلنا ونهارنا والله المستعان على ما قلدناه من أمورهم وافتراضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب اليه فى اصلاحهم وهدايتهم الى ما فيه حظهم ونجاتهم فى دنياهم وأخراهم » (٨٩) ..

وسمحوا لأهل السنة باظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم . ولذا أصبحت تعاليم مذاهب الامام مالك والامام الشافعى والامام أحمد بن حنبل تدرس فى مصر طوال عهد الخليفتين المعز والعزيز بل كان الخليفتان يراعيان مذهب الامام مالك وكان من يسألهما الحكم به يجيبانه الى طلبه . أما مذهب الامام أبو حنيفة فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين فظهر فى عصر الخليفة العزيز بالله بعض علماء مذاهب أهل السنة فكانوا يلقون دروسهم على جمهور الناس فى جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط (٩٠) .

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور فى مصر بعد تخلصه من وصيه برجوان ٣٩٠ هـ عمد الى اصدار كثير من الأوامر والقوانين المبنية على التعصب

---

(٨٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٨٦ — جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٢ .

(٨٩) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله ص ٦٩ ، نقلا عن المجالس والمسايرات للنعمان ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٩٠) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٤٤ .

الشديد للمذهب الفاطمى فأمر فى ٣٩٥ هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب وصدرت الأوامر الى العمال فى البلاد المصرية بمراعاة ذاك (٩١) . واشتد فى معاملة اهل السنة فقد قضى فى ٣٩١ هـ على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل على وحبس قاضى القضاة لعدم اعترافه بامامة على وبعث اربعة من الفقهاء للتحقيق معه وحمله على الاعتراف بتلك الامامة (٩٢) .

ولما لم يفلحوا فى اقناعه رفعوا امره للحاكم فأمر بقتله ولكن فى ٣٩٦ هـ ثار ابو ركوه الذى ينتسب الى الأيوبيين فى الأندلس وهجم على مصر بجيش من المغاربة ولكى يصاح الحاكم الأمر بينه وبين رعاياه السنيين خفف من تشدده فى مراعاة المذهب الفاطمى وعدل عن سياسة اضطهاد اهل السنة رائده فى ذلك انه لا يسير على سياسة واحدة الى النهاية ازاء طائفة بعينها وأبطل كثيرا من الاعمال التى قام بها ضد السنيين مثل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة وبالغ فى مصالحة السنيين حتى أمر بمحو السباب الذى نقش بلعنهم ومعاقبة كل من اقدم على سبهم ولم يكتف بذلك بل أنشأ فى نفس السنة ٣٩٦ هـ مدرسة لتعليم قوانين المذهب السنى واهدى هذه المدرسة كثيرا من الكتب النفسية وكانت آثار هذه السياسة التى سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند الشيعيين الذين وجدوا أنفسهم فى بلد يسير فى اتجاه عادات المذهب السنى (٩٣) .

كذلك أصدر الحاكم مرسوما ٩٣٨ م وفق فيه بين السنيين والشيعيين وأطلق لكل فريق منهم الحرية فى أداء شعائره الدينية وذلك على اثر ما حدث بينهم من خلاف على فهم بعض الأحكام وتطبيقها (٩٤) .

فأجاز فى هذا المرسوم للشيعيين صوم شهر رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال وسمح للسنيين بصوم رمضان اذا ثبت لديهم رؤية الهلال .

كما أباح للشيعيين أن يكبروا فى الصلاة على الميت خمس مرات . اما السنيون

---

(٩١) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٣ نقلا عن ابن خلكان : جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٩٢) د . على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٣٦ .
(٩٣) د . على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٣٧ .
(٩٤) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٣ .

فاجاز لهم ان يكبروا فى صلاة الجنازة أربع تكبيرات . وفضلا عن ذلك فان الحاكم بأمر الله اطلق الحرية للمؤذنين فى ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان (٩٥) .

ظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم ازاء السنيين ثلاث سنوات غير انها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة ففى سنة ٤٠١ هـ امر باقامة الأذان بحى على خير العمل كما أبطل صلاة التراويح وصلاة الضحى (٩٦) .

ثم اتجهت السياسة الفاطمية زمن الخليفتين الظاهر والمستنصر الى عدم اثارة السنيين فتمتعوا بمطلق الحرية فى اداء شعائرهم . كما أهملت بعض المظاهر الشيعية فصار المؤذنون لا يحرصون على ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان حتى تقلد بدر الجمالى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر وكان فعاليا فى مذهب الشيعة فاظهر روح العداء والكراهية ازاء أهل السنة ٤٧٨ هـ وامر باضافة حى على خير العمل الى الأذان . كذلك اعاد بدر الجمالى نقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران واصدر اوامره بان يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى (٩٧) .

وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين اهالى البلاد التى ضمت الى حوزتها سعيا وراء توطيد سلطتها فانها لم تنجح فى اداء رسالتها الشيعية فى مصر . فظل المذهب السنى محتفظا بقوته رغم تحول بعض المصريين الى المذهب الفاطمى خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التى رفضها الفاطميون على مخالفيهم فى المذهب ويرجع السبب فى ذلك الى أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين ويتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقرا لأنصارهم ودعاة مذهبهم (٩٨) .

كما ظهر فى العصر الفاطمى بعض علماء مذاهب أهل السنة وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين بجامع عمرو بن العاص . كذلك كان من بين الأسباب التى جعلت أهل السنة فى مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تشريعات

---

(٩٥) نفس المرجع السابق .
(٩٦) المرجع السابق ص ٨٤ .
(٩٧) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٤ نقلا عن النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٠ .
(٩٨) الدولة الفاطمية د. حسن ابراهيم ص ٢٢٥

الوراثة التى أدخلها الفاطميون اذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة . فيجيز قانون الشيعة أن ترث البنت كل ما تركه أبوها اذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبية وهذا مذهب يخالف مذهب اهل السنة الذى يقضى بالا ترث البنت أكثر من نصف الثروة (٩٩) .

وكان الفاطميون منذ أوائل حكمهم مصر الى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمر هذا المبلغ الذي نراه فى عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين .

ففى العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمرا طبيعيا لتثبيت أركان الدولة وحمايتها من اعدائها أمويى الأندلس فى الغرب ومن العباسيين فى الشرق فكانت السياسة تقضى على الفاطميين ان يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم وان يشحذوا السيف لكل من تحدثه نفسه بالخروج على سلطانهم ولا سيما أن العباسيين وأمويى الأندلس يسيئون الى الفاطميين فى نسبهم وفى عقائدهم ، وحاربوا الفاطميين بالسيف طورا وبالدعاية طورا آخر فكتبوا المحاضر فى سب الفاطميين وطلبوا من العلماء والكتاب الطعن فى عقائد الفاطميين مثل ما نراه فى كتب الغزالى وغيره واضطر الفاطميون الى أن يكونوا على يقظة من أمرهم اذا جد الجد وان يعتبروا كل من لم يعتنق عقيدتهم عدوا لهم .

ولهذا نستطيع ان نفسر تطورات الحاكم بأمر الله فى سياسته فكان حينا يقرب أهل السنة ويغدق عليهم أمواله ، وطورا يشتت شملهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن وهو فى كلا الأمرين مضطر الى اتخاذ هذه السياسة أو تلك حسب مقتضى الحال مع خصومه واعدائه . فالحاكم لم يكن مجنونا كما يصور فى كتب التاريخ وانما كان سياسيا حازما فى سياسته . يعفو فى وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر وهكذا كان الحال فى سياسة الفاطميين نحو أهل السنة (١٠٠) .

رأى بعض خلفاء العصر الفاطمى الأول بعد ان جاءوا الى مصر بمذهب شيعى خالفوا به جمهور المسلمين انهم بحاجة الى من يعاونهم فى تثبيت

---

(٩٩) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٥ .

(١٠٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٤ .

سلطانهم ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين من انصار الدعوة العباسية قربوا اليهم اهل الذمة واظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموا فى أهم شئون الدولة على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون فكثيرا ما اضطروا الى العدول عنها (١٠١) .

فاستوزر الخليفة المعز لدين الله ٣٨٠ / هـ ٩٩٠ م عيسى بن نسطورس النصرانى واستناب بالشام منشا اليهودى فمال الوزير الى النصارى وشجع النائب اليهودى فضج الناس بالشكوى فألقى الخليفة القبض عليهما واخذ من عيسى ثلاثمائة الف دينار وغرم منشا مبلغا ضخما (١٠٢) .

فاستعان المعز لدين الله بكثير من الأطباء اليهود وما لبث أن عظم نفوذهم فى بلاطه وصار يعقوب بن كلس اليهودى الأصل ماهرا ماكرا مثقفا ثقافة واسعة حسن التدبير واسع الحيلة باذلا المال ، راغبا فى الجاه لمع اسمه فى العهد الاخشيدى واسلم وتعلم القرآن والحديث والأدب العربى وسافر الى المغرب واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله وبذل له علمه عن مصر واعانه بآرائه فى وسائل فتحها ورجع صحبه الجيش الفاتح . وخدم المعز وارتقى حتى كان وزيرا للعزيز بن المعز وهو الذى وضع قواعد الدولة ونظمها وكان الى هذا الجانب السياسى الادارى جانب علمى وكانت زوجة العزيز نصرانية على مذهب الملكية وكان لها اخوان وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز فى تسامحه مع النصارى والسماح لهم باعادة بناء بعض الكنائس وقد ولدت هذه الزوجة النصرانية من العزيز بنتا هى المسماة بست الملك (١٠٣) .

وكان اسم الوزير غير مقبول فى أول الأمر عند الفاطميين بل كان قاضى القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء الا فى عهد الخليفة الثانى الفاطمى وهو الوزير ابن كلس الذى كان يهوديا فاسلم وتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (١٠٤) . وقد اسند اليه المعز بعض دواوين دولته حتى صار يتحيز الى

---

(١٠١) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٦ .
(١٠٢) أس. ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ترجمة د. حسن حبشى .
(١٠٣) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(١٠٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة د. محمد أبو ريدة ج ١ . ص ١٥٧ — ١٥٨ .

اخوانه فى الدين من قبل ، حيث بلغ من عطف العزيز على المسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة فى شعورهم وكان من اثر سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم فى أيامه واصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم وخاصة بعد ان عين هذا الخليفة منشا بن ابراهيم الفرار اليهودى واليا على بلاد الشام وولى عيسى بن نسطورس كتابته فاستاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة . فتقدموا للعزيز الفاطمى الاحتجاجات على محاباة المسيحيين واليهود . وتبين للخليفة حقيقة استئثار الذميين بمعظم السلطات . فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب كما قبض على منشا وغيره من الموظفين واعاد الكتاب المسلمين الى اعمالهم بالدواوين (١٠٥) .

ويرى المستشرق لينبول ان العزيز بالله لم يكن الى أن عرف عنه حب الترف او البذخ اثر فى الحد من مقدرته السياسية والادارية (١٠٦) . ويصف آدم متز الخليفة العزيز بالله فى كتابه الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى فيقول عنه أنه كان أعظم الخلفاء الفاطميين (١٠٧) . على أن تسامح العزيز مع أهل الذمة جعله يقول : وقد أظهر الخلفاء الفاطميون الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له اذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين (١٠٨) .

وقد عرض الشاعر الدمشقى الحسين بن بشر بأهل الذمة لمكانتهم عند العزيز بقوله :

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل (١٠٩)

وقد اشاد المؤرخ ستانلى بول بسياسة تسامح الخلفاء الفاطميين عامة

---

(١٠٥) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٦ — ٨٧ .
(١٠٦) سيرة القاهرة — ستانلى بول ص ١٣٢ .
(١٠٧) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة أبو ريدة ١ ص ٢٤ .
(١٠٨) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٣٤ — ٣٦ .
(١٠٩) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٩٥ .

وتسامح الخليفة العزيز خاصة فقال : بوصول الخلفاء الفاطميين الى مصر بدأت فترة من التسامح الديني لا عهد لأهل الذمة بها . فقد كان الخلفاء الفاطميون باستثناء الحاكم بأمر الله يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائسهم فى عهدهم . وكان لزوجة العزيز أخوان كانا من أصدقاء العزيز فكان يدعوهما الى قصره ليتحدث معهما فى المسائل الدينية (١١٠) .

وأبدى المؤرخ أوليرى رأيه فى استخدام أهل الذمة فى المناصب الادارية فى الدولة الفاطمية فقال : ان استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب الادارية والمدنية هو عرف شائع فى البلاد الاسلامية وان بالغ الفاطميون فى استعمال اكثر مما جرت به العادة من قبل (١١١) .

وقد قامت الدولة الفاطمية على أساس دينى يرتكز على المذهب الاسماعيلى وأن يكون الوزير هو الرجل الثانى فى الدولة بعد الخليفة شيعيا اسماعيليا . ولكن من الملاحظ أن الفاطميين لم يتقيدوا كثيرا بذلك . فكان من وزرائهم المسلم وغير المسلم ولا شك أنه تحت حكم الفاطميين عموما لقى غير المسلمين من مسيحيين ويهود معاملة طيبة وكانت مناصب الدولة حقا لكل من توفرت فيه الكفاءة اللازمة دون أى دخل لمعتقد أو مذهب (١١٢) .

وقد اشترط أيضا فيمن يتولى الوزارة الاخلاص لعقيدة الدولة الفاطمية لأن الدولة قائمة فى بنائها على العقيدة الشيعية فلم يكن بد من أن يكون الوزير الذى يحتل المكان الثانى بعد الخليفة شيعيا أو على الأقل من انصار الدولة . ولكن لم يخل الأمر من اقصاء بعض الوزراء الفاطميين عن منصبهم أو حتى قتلهم ذلك لأنهم على غير مذهب الدولة (١١٣) . ولما كانت أهم الوظائف المالية وأكثرها فى أيدى الكتاب من الأقباط واليهود فيبدو انهم كانوا يتخذونها وسيلة لجمع الأموال واقتناء الثروات .

والحقيقة كان الأقباط على وجه الخصوص يحتكرون الوظائف المالية فى الدواوين المختلفة وساعدتهم على ذلك مهارتهم فى الحساب وروح التسامح

---

(١١٠) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٣٦ نقلا عن ستانلى بول — سيرة القاهرة ص ١١٨ .

(١١١) A Short History of Fatimid Khalifate : P. 114 : O'Leary.

(١١٢) د. محمد حمدى المنياوى : مصر فى ظل الاسلام ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(١١٣) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ .

الدينى التى امتاز بها العصر الفاطمى وفى هذا يقول ابن الحاج :

لعن النصارى واليهود فانهم   بلغوا بمكرهمو بنا الآمالا
خرجوا أطباء وحسابا لكى   يتقسموا الأرواح والأموالا (١١٤)

ويدل على المركز الذى وصل اليه أهل الذمة فى هذا العهد ما قاله الشاعر المعاصر الرضى :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم   ومنهم المستشار والملك

ويظهر أن عداء المسلمين لأفراد هاتين الطائفتين كان ناشئا عن اعتبارات مالية (١١٥) . وتقص الروايات العبرية انه فى أثناء تشييع جنازة احد زعماء اليهود ويدعى شحاريا فى عهدالخليفة الحاكم بأمر الله تعرض غوغاء المسلمين للمشيعين ورجموهم (١٠٦) بالأحجار فشكا اليهود الى الحكومة .

ويقول ناشر هذه الوثائق تعليقا على هذا الحادث : «يبدو أن التهم الموجهة الى اليهود كانت متعلقة بالأعمال الخاصة بالاختلاس فى الضرائب (١١٧) . وقد ذكرنا من قبل كيف حمل عيسى بن نسطورس ٣٠٠٫٠٠٠ دينار الى بيت المال بعد ان قبض عليه الخليفة العزيز ومن المؤكد انه حصل على هذا المبلغ بطرق لا تمت الى الأمانة والنزاهة بصلة . وقد وصفه وستنفيلد فى هذه العبارة : « وكان عيسى ابن نسطورس قاسى القلب مرابيا . وخص نفسه بكل عمل يدر عليه المكاسب، وحابى أهل ملته وعينهم فى الوظائف الهامة بعد أن عزل السكرتاريين وجباة الضرائب » (١١٨) .

اما الخليفة الحاكم فلم تكد تستقر له الأمور حتى نبذ سياسة التسامح الدينى التى سار عليها كل من المعز والعزيز اذ تقدم اليه الكتاميون وهم عصب الدولة الفاطمية طالبين عزل بن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن

---

(١١٤) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٢٧ .

(١١٥) هذا يوضح نظرة المسلمين الى هذا الاحتكار للوظائف فى مختلف العصور .

(١١٦) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٢٧ .

(١١٧) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimide Caliphs. P. 39.

(١١٨) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٢٨ .

عمار فأجاب وانه لا اكراه فى الدين وان من آثر منهم الدخول فى الاسلام اختيارا من قلبه وهداية من ربه . فليدخل فيه مقبولا مبرورا . ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته .

اخذ الشعور العدائى نحو الذميين يقل ويضعف من ذلك الوقت ولم يظهر له اثر الا فى فترات قصيرة وبخاصة حين يتقلد أحدهم منصبا كبيرا من مناصب الدولة (١١٩) .

وكانت ست الملك كما يصفها النويرى قوية العزم بصيرة بالأمور وكان لها أثر كبير فى ابيها وفى توجيهه نحو سياسة التسامح مع النصارى كما كانت فى عهد اخيها الحاكم بأمر الله ذات اثر فعال فيما وقع من أحداث (١٢٠) .

ثم عاد الحاكم فاستوزر عيسى بن نسطورس والفضل بن ابراهيم وزرعة بن نسطورس (١٢١) لكن الحاكم سرعان ما تغيرت سياسته نحو اهل الذمة ففى ٤٠١ هـ أمر بهدم الكنائس الموجودة فى البلاد التى يحكمها واستولى على محتوياتها وبيعت فى الأسواق اواعيها الذهبية والفضية . وكان بكنيسة المعلقة مخزن كبير يحتوى على كثير من المصوغات والملابس الزاهية . ويقال ان المسلمين كانوا يصلون فى كنيسة ابى شنودة فصودرت اراضيها . واستولى كل فرد على ما تتطلع اليه نفسه . ويشير احد المؤرخين الى ان يد الهدم اصابت أكثر من ثلاثين الف كنيسة مما بناها الروم فى مصر والشام وغيرهما .

أما ابن العبرى فاقل مبالغة من ذلك المؤرخ اذ يكتفى بالقول « بأن آلافا من البيع هدمت » من بينها كنيسة القيامة ببيت المقدس (١٢٢) . فقد هدمت عن آخرها وسلب الناس كل ما كان بها . والمت بها النكبة الكبرى بين عامى ٤٠٣ هـ/ ٤٠٥ هـ على الرغم من أن احدى الروايات تجعل تاريخ الفتنة فى بيت المقدس ٤٠٠ هـ وهى الفتنة التى خربت فيها كنيسة القصير بمصر وسرق العامة الخشب من الأنقاض ولم تسلم من أيديهم نعوش الموتى .

---

(١١٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(١٢٠) د. أحمد أمين : ظهور الاسلام جـ ١ ص ١٩٠ .
(١٢١) ا.س. ترتون : اهل الذمة فى الاسلام — ترجمة د. حسن حبشى ص ٢٣ .
(١٢٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة د. حسن حبشى ص ٥٦ .

وقد رجع الحاكم قبل موته عما كان اخذ به من اضطهاد النصارى واجاز لهم اعادة بناء أماكن عبادتهم فأقبلوا على تجديدها وجعلوها احسن مما كانت عليه من قبل على أن احدى الروايات تذهب الى القول بأن الكنائس ظلت مغلقة الأبواب مدة تسع سنوات (١٢٣) .

وقد منع الحاكم بأمر الله ابو على منصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم وحملهم الخوص على ما كانت عليها عاداتهم وقبض على عدة ممن وجد معه شيئا من ذلك . وأمر بالقبض على ما هو محبوس على الكنائس من الأملاك وادخلها في الديوان وكتب لسائر الأعمال بذلك واحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق (١٢٤) .

وقال المسبحى فى تاريخه عن حوادث ٣٦٧ هـ « منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه فى الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهى ونودى أن من عمل ذلكَ نفى من الحضرة وقال فى ٣٨٨ هـ فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله الى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف (١٢٥) . ثم عين الخليفة الحاكم القبط فى مناصب الدولة العالية وتقلد للوزارة من القبط فى عهد منصور بن عبدون وزرعة أخو عيسى بن نسطورس » (١٢٦) .

ثم سمح الناس عن ملابس النصارى مرة أخرى زمن الحاكم حيث الزم الذميين بلبس السواد وهو شعار خصومه العباسيين تحقيرا لهم كما فرض على النصارى حمل الصلبان الخشبية فى أعناقهم زنة كل صليب منها خمسة أرطال وحتم على اليهود لبس خشبة على شكل تمثال رأس العجل اشارة الى ما كانوا يعبدونه أيام ضلالتهم فى البرية وامر بأن تكون سروجهم غير مزينة . وحرم عليهم لبس الخواتم فى يدهم اليمنى فان خالفوا شيئا من هذه الأوامر أخذوا بالعنف والقسوة حتى لقد اضطر بعضهم الخروج على دينه . ونفى الكثيرون منهم

---

(١٢٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٨٧ ، ٤٩٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ص ٣٩٨ .

(١٢٤) المقريزى :الخطط جـ ٢ ص ٤ .

(١٢٥) المرجع السابق ص ٦ .

(١٢٦) د. على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٥١٩ .

خارج مصر . أما الذين بقوا بهـا وظلوا محافظين على ملتهم فقد حملوا صلبانا من الذهب أو الفضة واتخذوا لأنفسـهم سروجا بالغـوا فى تزيينها . واذا ذهب المسيحيون الى الحمامات لبسوا صلبانهم كما حمل اليهـود النواقيس كما منـع اليهوديات والنصرانيات من اتخاذ نعال كنعال المسلمات وأمرهن بلبس « الرموز » واحدة حمراء والأخرى سوداء وظلت هذه القوانين متبعة فى مصر مدى تسـع سـنوات (١٢٧) .

لكننا نشير الى سماحة الاسلام ذلك أن الاسلام يصر على وجوب اصطناع الرفق مع الشـعوب المغلوبة على امرها ويوصى بحسـن معاملتها والتزام العدل معهـا ومما يروى عن الرسـول قوله : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقتـه فانا حجيجـه »

وقال أبو بكر الصـديق : « لا تقتلن احـدا من أهـل ذمـة الله فيطلبك الله بذمته . فيكبك الله على وجهـك فى النار » . والروايات عن عمـر بحق رأفته بالذميين كثيرة منها : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : انهم أقيموا فى الجزية فكره ذلك وقال: « هم وما يقتدرون به » (١٢٨) .

أما الخليفة الظاهر فكان على النقيض من أبيه الحاكم فى سياسـته نحـو اهل الذمة فلم يكد يتولى الخلافة حتى عمل على اكتسـاب عطفهم بأن أصدر بيانا أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم (١٢٩) .

وقد أذن الخليفة الظاهر ٤٢٨ هـ بترميم كنيسـة القيامة نظير ترميم احـد المساجد بالقسطنطينية وفى عام ٤٣٩ هـ بنى البطريك (سطوريس) فى القاهـره كنيسة بومرقورة وكنيسـة (السيدة) بحارة الروم (١٣٠) .

وعلى الرغم من تذمر المسلمين فى مصر من اسـناد بعض المناصب فى الدولة

---

(١٢٧) أ.س ترتون : أهـل الذمة فى الاسـلام ترجمـة د. حسـن حبشى ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(١٢٨) أ.س ترتون : المرجع السابق ص ١٥٧ نقلا عن أبو يوسف : الخراج ص ٧١ . الطبقات الكبرى : ابن سعد جـ ٣ ص ١٣٧ .
(١٢٩) د. محمدجمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٩ نقلا عن تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٢٣٥ .
(١٣٠) أ.س ترتون :أهل الذمة فى الاسلام ترجمة د. حسن حبشى ص ٧٥ .

لليهود فى عهد المستنصر فان هذا الخليفة اظهر عطفا وتسامحا نحوهم فبعد مقتل التسترى اسند الى اخيه أبى نصر ديوان خاصته كما أثارت حفيظة أم المستنصر على صدقة بن يوسف الفلاحى لتآمره على قتل التسترى وانتهى الأمر باقالته من الوزارة وقتله فى أوائل ٤٤٠ هـ (١٣١) .

كما جرت فتنة بين المستنصر بالله ٤٢٧ هـ / ٤٨٧ هـ فى صعيد مصر ادت الى قتل رهبان دير « أبا نوب » قرب الأشمونيين وفى عهد هذا الخليفة بالذات ردت الكنيسة جرجس فى « خط الحمراء » الى أصحابها وكانت قد خربت أثناء دخول الكرد الى مصر ثم أعيد ترميمها فى السنة الثالثة وغيرها من البيع فتذمر العامة مما كان بها ودشنت من جديد وحظيت كنيسة « المرتوتى » بعطف الخلفاء الحافظ والظافر والعاضد على التوالى (١٣٢) .

وفى عهد المستنصر تقلد القبط ارقى المناصب وأعلاها وشغلوا المناصب المالية فى الدولة وتقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسط وافر من التسامح الدينى كما يتجلى ذلك فى بناء عدد من الكنائس واعادتها الى ما كانت عليه (١٣٣) .

كما أولع الخليفة الحافظ الفاطمى بمنح الرهبان فى دير نهيا القريب من الجيزة عشرة آلاف درهم كما أولع الحافظ الفاطمى بزيارة اديرة النصارى واتخذ بهرام الأرمنى وزيرا ومستشارا له يرجع اليه فى أمور الدولة واسكنه فى قصره وأحله من نفسه محل الاكرام . ولما مات بهرام ٥٣٥ هـ حزن عليه حزنا شديدا الخليفة الحافظ ولما حان وقت صلاة الظهر أخرج النعش من القصر يجلله الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر وأشراف العلويين وغيرهم من علية القوم مشاة وسار الخليفة فى موكب بنفسه راكبا بغلة عليها عمامة خضراء ومازال الناس فى سيرهم والقسس يرتلون الأنجيل حتى وصلوا الى دير الخندق خارج باب الفتح منزل الخليفة وجلس على حافة القبر وبكى بكاء شديدا ثم أمر بتعطيل الدواوين ثلاثة أيام (١٣٤) .

وهكذا يقال فى اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما

---

(١٣١) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٩ — ٩٠ .
(١٣٢) أ . س . ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ترجمة د . حسن حبشى ص ٥٧
(١٣٣) د . على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٢١ .
(١٣٤) د . على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٢١ .

تقدم من منزلهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكام فى طقوسهم وكنائسهم فى أيام الحاكم بأمر الله ٣٩٥ هـ وذلك من تقدم النصارى فى مناصب الدولة وتعاظم أمرهم مما سوغ للحاكم المبالغة فى اضطهادهم وكذلك الحرب التى كانت بين الروم والمسلمين يومئذ (١٣٥) وان أكبر ما تمتاز به الحركة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ويجعلها مكان بعض الأفكار الاسلامية (١٣٦) .

---

(١٣٥) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ ٤ ص ٤١٠ — ٤١٢ .

(١٣٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى — ترجمة أبو ريدة جـ ١ ص ١٠١ .

المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية

كان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين (٣٥٨ هـ / ٥٦٧ هـ) يتألف من السنيين الذين كانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من المصريين . ومن الشيعة وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلادالمغرب أولا . ثم فى مصر والشام والحجاز اذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمى ولم تخمد جذوة العداء بين السنيين والشيعيين طوال العصر الفاطمى .

والطبقة الثالثة هى أهل الذمة وهم النصارى واليهود وقد دفعت رغبة الكثير منهم فى المناصب والهبات الى اعتناق الاسلام والدخول فى المذهب الاسماعيلى مذهب الفاطميين وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية فشغلوا كثيرا من المناصب المالية فى الدولة . بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو اعادتها الى ما كانت عليه . والطبقة الرابعة هى طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم فى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى .

والطبقة الخامسة هى طبقة السودانيين الذين كثر عددهم فى مصر منذ أيام كافور الأخشيدى فظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذى استعان بهم على الأتراك ثم ظهر أمرهم من جديد فى عهد الخليفة الظاهر الذى تزوج بسودانية . وقد تفاقم خطر الجند السودانيين فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى حتى بلغ خمسين ألفا ، وقد طاردهم الأتراك الى الصعيد وأثار الغالة منهم الرعب فى قلوب الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضى واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا الى الاسكندرية ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمى (١) .

والحق ان الفاطميين كانوا من الحذق والمهارة بحيث استطاعوا أن يلفتوا اليهم نظر الشعب المصرى لفتا قويا وأن يشعروه بعظمة الحكم الفاطمى وكرم رجاله الى الحد الذى لم تعرف له مصر نظيرا . قبل مجىء هذه الدولة وكان من الأشياء التى

---

(١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٦٢٧ — ٦٢٨ .

اعتمد عليها الفاطميون للوصول الى أغراضهم السياسية والمذهبية مما أظهروه يومئذ من العناية العظمى بالمواسم العامة فزادوا فى بهجة الرعية وتوددوا اليها وملأوا أفواه زعمائها وشعرائها وعلمائها وسادتها ومنحوهم اثمن الفرص لاظهار سرورهم وفرحهم بها وحدبهم عليها . وكانت هذه الأبعاد نفسها جزءا من برامج الدعاة التى فطنت لها الخلافة الفاطمية ونجحت فى تنفيذها نجاحا لا مثيل له (٢) .

ويروى لنا أن المعز ٣٤١ هـ / ٣٦٥ هـ / ٥٩٢ م / ٩٥٧ م وهو أول خليفة فاطمى فى مصر استن كل رسوم البلاط فى مصر حقا ان المعز وجد بعض هذه الرسوم فى مناسبات مختلفة الا اننا نظن أن هذه الرسوم الدقيقة جدا قد تمت فيما بعد ذلك لأن حكم المعز كان قصيرا فى مصر وأن مركزهم فى البلاد لم يكن قد استتب فى البلاد بسبب هجوم القرامطة الذى يقوض أركانه (٣) .

واذا كنا فى حل أن نقول ان الروح المذهبية نفسها هى التى هيأت ظهور مثل هذه الحفلات والرسوم فى البلاط الفاطمى فمن الجدير بالذكر هنا أن الدولة الفاطمية كانت دولة دينية ذات عقائد مذهبية فكانت الحفلات بالنسبة للفاطميين مناسبة لتأكيد عقيدتهم ولقد عرف الفاطميون كيف يصبغون الحفلات بصبغة اسلامية بل مذهبية حيث كان معظمها يقام عادة فى الأعياد الدينية الخاصة بالاسلام أو بالمذهب وكان هذا دليلا قويا على طابع الفاطميين الجديد فى الحفلات (٤) .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ثراء مصر كان سببا فى ظهور حفلات الفاطميين ورسومهم وهذا الذى أحدث تغييرا فى حياة خلفاء الفاطميين فكان حب البذخ يجد سبيله الى أعيادهم الرسمية .

ولقد كان من الأغراض الرئيسية للسياسة الفاطمية فى مصر توطيد سلطانها بكل الطرق الممكنة وقد تهيأ الشعب المصرى السنى لأن تناله أبهة الحفلات الفاطمية فكانت وسيلة ناجحة للتأثير فيه فجميع أعياد الفاطميين وحفلاتهم كانت مطبوعة بطابع خاص من الأناقة والبذخ .

ونستطيع أن نؤكد أن رسوم البلاط الفاطمى وحفلاته لم تظهر كاملة عند

---

(٢) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٥٧ .
(٣) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ٢ ص ٤٣ .
(٤) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ٢ ص ٤٢ — ٤٣ .

وصول الفاطميين الى مصر بل بدات كخطوط باهتة ثم تأكدت شيئا فشيئا وبالتدريج أخذت شكلها وترتيبها ولكى تتأكد تقاليد بلاط مصر كان لابد لها على ما نعتقد من وقت (٥) .

ولم تنفذ دولة الى صميم الشعب وتتغلغل بين طبقاته مثل ما فعلت الدولة الفاطمية فى مصر ولم يكن ذلك غريبا فهى دولة شيعية قبل كل شىء ولم يكن للمصريين سابق عهد بالتشيع .

وقد رأينا كيف تمكنت المذاهب الأربعة خصوصا المذهب الشافعى فى مصر قبل الدولة الفاطمية فكان حتما على الفاطميين أن يروجوا لمذهبهم بكل الأساليب ويزينوا للناس الأخذ به والانضواء تحت لوائه . فأضفوا على الحياة بهجة بما ابتدعوه من أعياد ومواسم ما يزال أغلبها باقيا حتى اليوم . وقد انقضى على عهدهم نيف وعشرة قرون (٦) .

وقد كانت الحياة الاجتماعية الباهرة المغرقة معا مرآة الدولة الفاطمية تشى بكثير من خواص قرنها وفخامتها وبهائها ووحى مناهجها السياسية والدينية والعقلية . وكان الشعب المصرى على تحفظه فى مشايعة الدولة الجديدة فى مناهجها وغاياتها المذهبية يشهد بمرحه المأثور هذا الفيض الفاطمى من البذخ والترف والبهاء فى اعجاب وحماسة . أجل ، كانت مواكب الخلافة الفاطمية وحفلاتها الرسمية والشعبية ورسومها الفخمة ومآدبها الشهيرة وبذلها المأثور أياما ومواقف مشهورة تثير من حولها أيما اجلال وروعة ، وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة ولياليها الساطعة مثار البهجة والمرح العام ومازالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل فى كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية فاذا رأيت بعض هذه المواسم والأعياد يجنح الى نوع من الفخامة واذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء فانما ذلك يرجع فى الأغلب الى أثر الدولة الفاطمية فى بث هذه الروح البهيجة الباذخة الى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة فى مصر الاسلامية (٧) .

واننا فى العصر الفاطمى نجد أن البلاد قد عاشت متمتعة بالاستقلال التام

---

(٥) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ٤٣ .
(٦) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٧٤ .
(٧) الحاكم بأمر الله : محمد عبد الله عنان ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

مدى قرنين من الزمان بغض النظر عن جنسية الأسرة الحاكمة أو أصلها .

ولاريب أن هذا الحال قد عجل بعملية التطور والنهوض وسار بهما خطوات سريعة الى الأمام وقد كان هدف الفاطميين كذلك أن يؤسسوا امبراطورية واسعة مقرها القاهرة وينشروا مذهبهم الدينى فى العالم الاسلامى وفضلا عن هذا كانوا يسعون بكافة السبل والوسائل الى منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين العظمة والقوة والبذخ والترف .

ولقد وجد الأقباط انفسهم أمام حكام يطبقون مبدأ التسامح فأمنوا على أنفسهم وأموالهم والتفتوا الى أعمالهم .

وقد أثر التقدم التجارى فى الحياة الاجتماعية ويتجلى ذلك فى القصور الفاطمية وبنائها وتأثيثها فقد كانوا يرصعون آنية المطبخ بالدر والجوهر . ورصعوا التماثيل لتزيين مجالسهم (٨) . وقد أدى هذا الى تقدم أنواع من الصناعة العربية كالصباغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة وغير ذلك من الصناعات التى امتازت بها حضارتهم (٩) .

وكان المجتمع المصرى بما انتهى اليه من بذخ وترف ونعماء يجذب اليه أكابر الاسلام من كل صوب فيثير فيهم الاعجاب والاجلال وكانت مصر القاهرة فى هاتيك العصور كالعروس بين مدن الاسلام جميعا تبهر العالم الاسلامى بعظمتها وغناها وقوة الدول التى تتبوأ ملك مصر (١٠) .

وكانت مصر تنعم فى عهد الفاطميين بما لم تنعم به من قبل منذ عهد الفراعنة فقد نعمت لأول مرة بالاستقلال الكامل والحرية التامة بل انه دعى للخلفاء الفاطميين فى صلاة الجمعة فى جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر . وفى اليمن ومكة ودمشق ، وفى ذات مرة فى بغداد وفى الموصل ونعمت بالاستقرار الشامل والسلام المقيم اللذين حفلت البلاد فى ظلالهما بالرخاء والثراء وبحبوحة العيش (١١).

---

(٨) د . راشد البراوى : حالة مصر فى الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٢٠ – ١٢١ .

(٩) عبد الحميد حسن : صفات من الأدب المصرى ص ٧ ، ٨ .

(١٠) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٩ ، ٣٠ .

(١١) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٧٤ .

ومن الأعياد التى كانوا يحتفلون بها عيد موسم رأس السنة الهجرية ويوم عاشوراء ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد على بن ابى طالب رضى الله عنه ومولد الحسن والحسين عليهما السلام ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ومولد الخليفة الحاضر وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان ونصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وليلة الختم وموسم عيد الفطر وموسم عيد النحر وعيد الغدير وكسوة الشتاء وكسوة الصيف وموسم فتح الخليج ويوم النيروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العهد . وأيام الركوبات ، وقد كان لموسم رأس السنة الهجرية اهتمام خاص لدى الخلفاء الفاطميين فكان من رسومهم أن يعمل بمطبخ القصر عدد من الخراف وتوزع على أرباب الرتب والدواوين من العوالى وارباب السيوف والاقلام من اللبن والخبز وأنواع الحلوى فيعم ذلك سائر الناس (١٢) .

وقد كان يشترك فى هذه الأعياد الخلفاء والوزراء ورجالهم مع سائر الشعب (١٣) .

وكانت المواكب الفاطمية لا مثيل لها فى التاريخ وكان الخلفاء يركبون فى الجمع الثلاث الاخيرة من رمضان الى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو بن العاص على التوالى للصلاة .

كما اهتم الفاطميون بالأعياد الدينية الخاصة وخاصة عيدى الفطر والأضحى وراس السنة الهجرية (١٤) .

كما كان الخليفة يركب لصلاة عيد الفطر فى صبيحة العيد ويخرج من ابواب القصر ويتوجه الى المصلى فيصلى ويخطب ثم يعود الى قصره ويكتب بذلك الى أعمال المملكة تارة مع خلو الدولة من وزير وتارة مع اشتمالها على وزير (١٥) .

الفاطميون هم مبتدعو الاحتفاء بهذه الأعياد الفاطمية فى مواكبها العظيمة التى يعجز القلم عن وصفها فى فخامتها وعظمتها وكان الفاطميون فى مواكبهم ينثرون

---

(١٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٩ .
(١٣) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(١٤) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢٢ .
(١٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

الذهب على الناس وتلبس القاهرة حلة تشبية من البهجة والزخرف (١٦) .

وبنى الخليفة العزيز قصورا عديدة تشهد بثراء مصر ورخائها . ومن هذه القصور القصر الغربى الذى بناه جوهر الصقلى وقصر القرافة الذى بنته تغريد زوجة المعز ، وابتنى العزيز قصورا أخرى فى عين شمس (١٧) .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذى بناه الخليفة الآمر فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية الكائنية التى كان مشغوفا بجمالها ومواهبها الشعرية وقد بنى هذا القصر على هيئة لا تجعلها تشعر بوطأة الانتقال من المعيشة البدوية التى كانت تعيشها بين أسرتها . فقد كان له حديقة رحبة على شاطىء النيل (١٨) .

وكان الوزراء يسيرون على نهج خلفائهم فى تأثيث وتزيين قصورهم وخاصة ابن كلس والأفضل . واهتم الخلفاء الفاطميون بوضع تقاليد خاصة للبلاط والاستقبالات كما حفلت مصر فى العصور الوسطى بالمجالس الاجتماعية وخاصة مجالس الموسيقى والغناء وأشهر هذه المجالس ما كانت تقام على شواطىء الخليج المصرى فى القاهرة واشترى الخلفاء والوزراء والأعيان الجوارى والمغنيات من كل مكان (١٩) .

وذكر المقريزى ان الخليفة الحاكم الفاطمى أصدر بين ٣٩٨ هـ / ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على الخليج أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما اليها ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات (٢٠) .

ويقول ابن خلكان ان النساء قبعن فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم (٢١) .

---

(١٦) شحاته عيسى ابراهيم — القاهرة ص ٧٤ .
(١٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٨ .
(١٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٨٥ .
(١٩) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢٢ — ٢٢٣ — ٢٢٤ .
(٢٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٢١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧ .

وقد ذكر المؤرخون أن ابا الحارث البساسيرى لما اقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر فى بغداد شادت احدى المغنيات بهذا الحادث وغنت فى حضرة الخليفة الفاطمى هذين البيتين :

يا بنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

وطرب الخليفة واقطعها أرضا لاتزال تعرف الى اليوم فى مدينة القاهرة بارض الطبالة (٢٢) .

وفى خلافة الظاهر كان ينفق فى ليلة الغطاس الكثير من الأموال ما لا يحصر فى مآكل ومشارب ويتجاهر الناس بشرب الخمر ويجتمع أرباب الملاهى وارباب الملاعبات من كل فن ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الجد فى اللهو والفرحة وكأنما كان الناس ينسجون على منوال سادتهم (٢٣) .

وبلغ من شغف الظاهر باللهو وحب الغناء ان تانق الناس فى أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما واتخذ حجرا لمماليكه وعلمهم انواع العلوم وسائر فنون الحرب (٢٤) .

كما اشتغل الآمر باحكام الله ومن بعده (الظاهر) باللهو والطرب وشرب الخمر وحتى الأديرة كان يغشاها بعض الخلفاء الفاطميين (٢٥) . ونجد أن مجلس الأفضل قد وصفه ابن ميسر بقوله : ان هناك ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات فكان الأفضل اذا دخل من باب المجلس نكسن رءوسهن اجلالا له . فاذا أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات وكان الأفضل حين يجلس للشراب يجعل فى مجلسه صوانى الذهب مصفوفة وفيها الأوانى المملوءة بالجوهر فاذا أمر جعل ما فى الآنية على الصينية فيملؤها ويجعل بدله الشراب (٢٦) . تمتعت مصر فى العصر الفاطمى بفترة من الرخاء الاقتصادى . وان كان قد تخللها فترات مجاعات وشدة

---

(٢٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٧ .
(٢٣) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٨٣ .
(٢٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٦٢ .
(٢٥) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٨٣ .
(٢٦) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٧ ونقلا عن ابن ميسر ص ٨٥ .

وحاز الخلفاء الفاطميون ثروات عظيمة (٢٧) . أسهب المؤرخون فى وصفها . ولكن المؤرخ ستانلى بول (٢٨) يرى أن هؤلاء المؤرخين قد بالغوا فى وصفهم ويضرب على ذلك مثلا اذ ذكر المقريزى فى الخطط أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بحوالى عشرة آلاف جنيه .

كما حاز الوزراء ثروات ضخمة فيذكر المؤرخ ابن اياس (٢٩) على سبيل المثال أن برجوان وزير الحاكم ترك مليون دينار ذهبا وخمسين أردبا من الدراهم الفضية وقد ذكر ابن منجب أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة الف دينار سنويا . وكان سائر الموظفين يتقاضون مرتبات كبيرة غير الهدايا والصلات وكان صاحب الانشاء والمكاتبات مثلا — يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا (٣٠) .

وقد بلغت نفقات خزائن الكسوة صيفا وشتاء حوالى سبعمائة الف دينار وبلغت نفقات خزائن التوابل خمسين الف دينار سنويا (٣١) .

وقد وجدت فى قصور الفاطميين بالخزائن الخاصة مائة صندوق كسوة فاخرة ما بين موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسه وغير ذلك من ذخائر عظيمة .

تمتعت مصر فى العصر الفاطمى فى معظم فتراتة بالرخاء الاقتصادى طوال العصور الوسطى باستثناء فترات قصيرة وكانت لهذا الرخاء مظاهره فى الفنون والصناعات المصرية منذ العصر الفاطمى فصاعدا وفى الحياة الاجتماعية الباهرة وفى النهضة الفكرية العظيمة .

وقد ظهرت هذه الثروة الأسطورية فى نفقات الدولة فى العصر الفاطمى وظهرت بصورة خاصة فى ثروات الخلفاء والوزراء ونفقات الجيش والأسطول ونفقات الخزائن والأعياد والمواسم والهبات التى كانت تعطى للمساجد والمكتبات وغيرها (٣٢) .

---

(٢٧) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢٤ .
(٢٨) Stanly-Pool : The Story of Cairo. P. 133.
(٢٩) محمد بن اياس : وقائع الزهور فى بدائع الدهور جـ ١ ص ٥٢ .
(٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٠ .
(٣١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٠ .
(٣٢) د . حسن أحمد محمود وآخرون : مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ١٠ — ٥٣ .

ولا يغيب عن البال ما كانت تحدثه احتفالات الفاطميين من انتعاش فى الحركة الاقتصادية فى البلاد عموما وفى القاهرة بصفة خاصة هذا فضلا عما تضفيه عليها من الوان البهجة والسرور (٣٣) . وقد كان المعز حريصا على أموال البلاد فقلد أبا الفرج يعقوب بن كلس الوزير وعسلوج بن الحسن وجوه الأموال جميعها والحسبة والسواحل والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ما ينضاف الى ذلك وما يطوى فى مصر وسائر الأعمال وكتب لهما سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع احمد بن طولون (٣٤) .

وكان العزيز ووزيره ابن كلس ميالين للترف والبذخ جعل مصر فى عهد الفاطميين مضرب الأمثال فى الثراء والأبهة وكان للرخاء الذى عم البلاد فى بعض فترات الحكم الفاطمى اثره الكبير فى قيام نهضة فنية وعمرانية وفكرية شارك فى ازدهارها الخلفاء والوزراء بما اولوه للفنانين من تشجيع ورعاية ومن أهم الآثار الفاطمية التى مازالت باقية الى الآن الجامع الأزهر (٣٥) .

ومما يذكر ان انتعاش الحياة الاقتصادية مرتبط ارتباطا وثيقا بالاستقرار السياسى للدولة فالخليفة الحاكم بأمر الله لم يتردد أثناء حكمه فى صب جام غضبه على مدينة الفسطاط مهد الثورة فقامت اثر ذلك معارك طاحنة بين الترك والبربر من ناحية وبين الجند والزنوج المتغطرسة من ناحية أخرى فدبت الفوضى فى العاصمة واخذت الحالة تسير من سيىء الى اسوأ ثم حلت فى البلاد حالة عز فيها القوات حيث يقول ابن المتوج : (٣٦) « عز القوت ، ثم هان بعد اراجيف عظيمة » .

وفى ايام الحاكم قال ابن فضل الله فى المسالك :

« زلزلت مصر حتى رجفت ارجاؤها وضجت الأمة لا تعرف كيف جارها » .

فقال محمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا   نجل الهدى وسليل السادة الصلحا
ما زلزلت مصر من كيد يراد بها   وانما رقصت من عدله فرحا

---

(٣٣) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٧٥ .
(٣٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(٣٥) د . محمد حمدى المنياوى : مصر فى ظل الاسلام ج ١ ص ٧٤ — ٨٩ .
(٣٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٨٤ .

فما زال التاريخ يروى لنا مثــلا مشاهد السنين التى شــح فيهــا ماء النيل وكيف كان الحاكم يقف وسط شعبه مستجيبا لكل رجــاء دائب السعى لدفع ويــلات المجاعة (٣٧) . ثم حلت ساعة الخلاص فجاة باختفاء الخليفة . اختفاء غامضا فى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ / ١٠١٢ م وقد جرى القول بانه قتـل بتحريض اخته ســت الملك الا أن هذا القول ليس له سند كاف (٣٩) .

وجاء بعده المستنصر حيث أصيبت البلاد فى عهده بقحط مروع اتى على الأخضر واليابس فعمت المغبة البلاد وتضور الناس جوعا . وقــد أطلق المؤرخون على هذا القحط اسم الشدة العظمى لفظاعته وهوله (٣٩) .

وعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات لمــا فسد من الاعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقف أرباب الفســاد فى الطريق يقتلون من ظفــروا به فى ازقة القصر وهلك من أهــل مصر فى هذه الحروب والفتن ما لا يحصر (٤٠) وأقامت البلاد سبع سنين يزداد النيل فيها وينخفض ولا يوجد من يزرع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية واستولى الخراب على البلاد .

فقال أبو يعلى القلانسى : « فى أيامه ــ يعنى المستنصر ــ ثارت الفتن فى بنى حمدان وأكابر القواد وغلت الأسعار واضطربت الأحوال واختلت الأعمال وحصر فى قصره وطمع فيه ولم يزل على ذلك الحال حتى استدعى بدر الجمــالى من عكـا الى مصر فاستولى على التدبير وقتل جماعة ممن يطلب الفســـاد فتمهدت الأمور ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهى آلا الركوب فى العيدين ولم يزل كذلك حتى مات بــدر الجمالى وقام بعده ولده الأفضل » (٤١) .

ولمــا تعرضت البلاد للأزمة الاقتصادية فى خلافة المستنصر امتنع ورود التجار الى مصر حتى تمكن بدر الجمالى من ازالة آثار هذه الأزمة وعادت الحياة الاقتصادية للازدهار وشجع أصحاب رؤوس الأموال وذوى اليسار على الحضور الى مصر .

كان للزراعة اثرها فى الاقتصاد المصرى فى عهد الدولة الفاطمية فقد واجــه

(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ ص ٢٧٠ .
(٣٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ ص ٢٦٩ .
(٣٩) شحاته عيسى ابراهيم ــ القاهرة ص ٧٦ .
(٤٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .
(٤١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣ ، ٤ .

الفاطميون منذ استيلائهم على مصر المجاعة التى انتبت البلاد فى عهد كافور الاخشيدى وبدات سنة ٣٥١ هـ واستمرت فى حكم الفاطميين الى سنة ٣٦٠ هـ ولكن جوهر الصقلى عمل على تخفيفها فقام بانشاء مخزن للحبوب وانشأ نظام المحتسب لكى يراقب منع احتكار الحبوب (٤٢) . وهذا جعل الدولة الفاطمية توجه اهتمامها الكبير للزراعة باعتبارها ابرز موارد الدولة الاقتصادية فكانت مصر تعانى انخفاض النيل والمجاعات فى العصر الاخشيدى فعمل الفاطميون على تلافى مثل هذه المجاعات بزيادة رقعة الأراضى الزراعية وتخزين الحبوب ومنع الاحتكار وبلغت مساحة الأراضى المزروعة فى عهد الخليفة المعز الفاطمى نحو ٢٨٥ الف فدان ولم تنقص هذه المساحة الا بعد ضعف الدولة الفاطمية فى العصر الفاطمى الثانى ابتداء من الخليفة المستنصر الفاطمى فلجات الدولة الى زيادة الضرائب (٤٣) .

وكان انتعاش الحياة فى مصر من الناحية الزراعية يعود الى زيادة المساحات الزراعية خاصة فى عهد المعز والعزيز وكذلك بدر الجمالى . وهذا يعود الى البيئة المصرية الغنية بتربتها ونيلها العذب والى الانسان المصرى (اى الفلاح المصرى) الذى يمتاز بالنشاط والحيوية (٤٤) .

وامتدح الكتاب الاوروبيون سياسة الفاطميين ازاء الفلاحين فقال البعض ان التسامح كان طابع حكمهم (٤٥) . وان معاملة الشعب على أيديهم كانت خيرا منها على ايدى سواهم من الحاكمين .

واخيرا فقد كان الفلاح المصرى فى عهد الفاطميين يستطيع ان يتصرف فى الأراضى ويغير موطن اقامته حسبما شاء لأنه يمتاز بالصبر والقناعة وقوة الاحتمال (٤٦) .

كما اهتم الفاطميون ايضا بالصناعة وتميزت صناعات الفاطميين عن سائر الصناعات المصرية فى سائر العصور فقد زينت معظم الصناعات الفاطمية بصور

---

(٤٢) د. على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٧٩ .
(٤٣) د. على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .
(٤٤) د. على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٨٢ .
(٤٥) The Stanly-Pool : Egypt in the Middle Ages. P. 154.
(٤٦) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٠٦ — ١٠٧ — ١١٦ .

آدميـــة وحيوانيـــة كثيرة على عكس الســنيين الذين كانوا يرون هـــذا منافيـــا للشريعة الاســلامية . ومن اشــهر الصناعات فى العصر الفاطمى صناعة النسيج من الكتان والصوف والحرير كما اشــتهرت المصنوعات المصرية بالدقة والجـودة وأصبحت مصر تنســج كســوة الكعبة كل ســنة وتقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى كذلك تقدمت الصــناعات الخشــبية وخاصــة صناعة بنـــاء الســفن (٤٧) .

ويعتبر هذا العصر عصر ازدهار الصناعة ولم تأت هذه النهضــة الصناعية عفوا بل تحالفت عوامل سياســية متباينة جعلتها من خصــائص العصر الفاطمى وأعظم ميزاته واكبر مفاخره (٤٨) .

ولعل تقدم الصناعة عندهم انما يرجع الى استتباب الأمن . وقوة الحــكومة المركزية ، واثر المعــاملة الســمحة التى تمتع بها الأقباط .

فقد اتخذ الفاطميون من المنســوجات وســيلة لتحقيق أغراض سياســـية كالعمل على الاشــادة بمركزهم الدينى الممتاز . وتركيز هذه الفكرة فى الأذهــان وكانت لهم عبارات خاصة استخدموها على الملابس والمبانى فقد جاء فى قطـــع النســيج عبارات « وفتح قريب لعبد الله ووالده المنصــور أبى على الامام الحــاكم بأمر الله أمير المؤمنين » الخليفة المســتنصر بالله آبائه الأئمة الطاهرين وأبنـائه المنتظــرين (٤٩) .

والواقع أن الدعية لها اصولها وقواعدها ..

كما انشــا المعز دارا للكســوة حيث كان الخلفاء الفاطميون يكثرون من الانعام على رجال الدولة بالخلع والهدايا فى الصيف والشتاء (٥٠) .

وهناك مراكز لهذه الصــناعة وهى : دمياط — تنيس — دميرة — بورة — دنيق — شطا — واضيفت أنواع جديدة فى عهد العزيز منها العتابى والسقلاطون .

---

(٤٧) د. على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٢٧ — ٢٢٨.
(٤٨) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص١١٩ .
(٤٩) د. راشدالبراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٢١ ، ١٢٦ .
(٥٠) المرجع الســابق ص ١٢٨ .

وأما الحرير فأكثر مراكزه مدينة الاسكندرية فقد وجد عند أخت الخليفة المعز ست الملك ثلاثون الف قطعة من مشقق الحرير الأحمر حينما قتل برجوان وجد الف .. وكان الهدف من انشاء الفاطميين دارا للصناعة يتلخص فى :

١ ـ نشر المذهب الفاطمى ويمثل هذا الجانب الغرض السياسى للدولة الفاطمية .

٢ ـ يرمزون لحركتهم الأدبية .

٣ ـ اتساع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية .

وهكذا كانت المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية ذات أثر فعال فى نشر المذهب الشيعى فى أنحاء العالم ولفت نظر الشعب المصرى بعظم الحكم الفاطمى من الناحية السياسية والمذهبية وتبيانا لحركتهم الأدبية التى تعتبر الصناعة رمزا لها وأيضا ازدياد العلاقات مع الدول الأجنبية وخاصة الدولة البيزنطية ، فى توسيع حجم التبادل التجارى بينها وبين الدول الأخرى .



الباب الثاني

الجوانب الدينية والمذهبية في الحياة الفكرية

مدخل

اثر قيام جامعة الأزهر فى الحياة الفكرية

القصر كمركز للحياة الفكرية

مجالس الدعوة الفاطمية فى القصور والمساجد

دور اهل السنة فى مصر فى الحياة الفكرية



مدخـــــــل

جاء الفاطميون مصر يدعون الى عقيدة تختلف عما كان عليه اكثر المسلمين فقد كان السواد الأعظم من مسلمى مصر ينقســـمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشـــافعى ، وقليل منهم من كان على مذهب أبى حنيفة .

ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلهـــا من مذاهب أهل الســـــنة والجماعة تخالف عقائد الفرق الشـــيعية وتباينها .. ففى العقـــائد الفاطمية أن الولاية هى محور هذه القاعدة .وأن فلســـفتهم كلها تدور حول الامام وتمجيده أكثر من أى شيء آخـــر (١) . وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقـــاب ويقومون بفرائض الدين ويحرمون ما حـــرمه الله . غير أنهم قالوا بأدوار الأنبيـــاء فلكل نبى دوره ويأتى النبى الذى بعده ينســـخ شرع النبى قبله فلما جاء دور محمد وهو سادس الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، محمد هو آدم وهو نوح وهو ابراهيم وهو موسى وهو عيسى وأن ما حدث فى أدوار هؤلاء الأنبيـــاء يحدث مثله فى دور محمـــد وما حـــدث الاســـماعيلية أيضا حلول الله فى رءوســـهم (٢) .

لهذا نجد أن الفاطميين اقاموا دولتهم على أسس مذهبية بحتة تتلخص فى أن آل بيت الرســـول من على وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين فمن عقـــائد الاسماعيلية أيضا حلول الله فىرءوســـهم (٣) .

أتى الفاطميون مصر ، ومعهم هذه العقيدة بجميـــع عناصرها ، وافهمـــوا أهل مصر أنهم آل البيت وأن عليا ورثه ابناؤه واحدا فواحدا على النحـــو الذى رآته كل من فرقتى الكيســـانية والفاطمية (٤) .

وجاء الفاطميون أيضا فوضعوا نظاما دقيقا لدعوتهم ونظاما دقيقا لطريقـــة تعلمها . اما من حيث الدعوة نفســـها فقد ذكر المقريزى (٥) أنهم جعلـــوها تتألف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٧٢ — الشـهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣ ، ١٨ .

(٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٦ .

(٤) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٧٤ .

من تسع مراتب : منها أن الايمان مبنى على العقل لا النقل فى نظرهم ، وأن النبى بعث للكافة والفيلسوف للخاصة ، وأن التكاليف فرضت على العامة لتشاغل الخاصة عنها بما هو أسمى منها وهو معرفة الأسرار الخفية التى اختص بها العالم العلوى دون السفلى (٦) .

أما من حيث طريقة تعلمها فقد أطلق الفاطميون على تعاليمهم اسما لفت اليه أنظار الخاصة فسموها « علوم آل البيت » ثم عهدوا فى شرح هذه العلوم الى فئة خاصة من علمائهم هم الدعاة فكان يعاونهم فى هذه المهمة الشاقة الوزراء وكان الخليفة هو المرجع الأول والأخير لأنه هو الشخص الذى ورث العلم الالهى كله عن آبائه واجداده من لدن على بن أبى طالب (٧) .

وكان لتلك النزعة الدينية التى تمايز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور أن خضعت مصر لهذا المذهب الدينى واتخذها أئمة هذا المذهب قاعدة ملكهم فأصبح هذا المذهب هو المحور الذى تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية فى عصر الفاطميين الا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين ، كما أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس دينى اسلامى وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية احتفالا لم يعهد من قبل وأنهم أسسوا المساجد لاقامة الصلوات كما أن كل هذه المظاهر تشعر الانسان بان الفاطميين كانوا من اشد الناس حرصا على الاسلام وتقاليد المسلمين (٨) .

ولقد عرف الفاطميون أنه لكى يتوطد حكمهم فى البلاد التى فتحوها انه لابد من أن يمكنوا لعقائدهم الدينية فهم يرون أن يعتمدوا على تفوقهم الحربى فى حكم الشعوب الخاضعة لهم حقا ، ولكن يجب أيضا أن تعتنق هذه الشعوب مبادىء الدولة .

---

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٦) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٧٥ .
(٧) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٨) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧ .

ولذا سارت القوة الحربية والدعوة الدينية جنبا الى جنب في تاسيس دولتهم في مصر (٩) . وهذه الدعوة نسمى رسميا « الدعوة الهادية » أو « الدعوة العلوية » كان أساسها أن العقيدة الفاطمية هى وحدها الصحيحة وأن غيرها تعتبر مزيفة فالدعوة اذن وسيلة لنشر الدين الصحيح .

فقد كان غاية الدعوة الفاطمية تأييد الحكم الفاطمى فى مصر حتى يتوطد بطريقة غير قابلة للنقاش فى حق الأمامة الفاطمية فى حكم العالم الاسلامى فمنذ ظهور الفاطميين وهم فى صراع ضد العباسيين يدافعون بصبر عن حق على المقدس فى الخلافة ولذلك فانهم حاربوا أعداءهم المغتصبين أولا بالدعوة المستترة أو ما يعرف بالتقية وبعد تأسيس الخلافة الفاطمية فى أفريقية ثم فى مصر أصبحت الدعوة علنية وجزءا لا ينجزأ من نظم الدولة .

ولما كانت الامامة عماد كل نظام سياسى وقاعدة أقيم على أساسها بناء المذهب الفاطمى فان الدعوة وجهت كل عنايتها نحو تأييد حقها المطلق فى ولاية أمر المسلمين بأن وفقت بين المبادىء الدينية وبين أغراضها التى كان محورها الامام (١٠) .

فالفاطميون الذين بسطوا سلطانهم على شمال أفريقيا ومصر والشام بعثوا فى العلوم والمعارف روحا جديدة اذا جدوا فى نشر الدعوة لمذهبهم الشيعى فى بلاد سنية مناوئة لهذا المذهب واستعانوا بالفلسفة الاغريقية والعلوم الطبيعية على مساعدتهم فى الجدل لنصرة مذهبهم . كما استدعى ذلك ايجاد المكاتب وتاليف الكتب وانشاء دور العلم ومجالس الدعاة فى المساجد والجوامع والقصور (١١) .

ونتيجة لذلك ظهرت النظم والرسوم التى اختص بها المذهب الاسماعيلى فكان هناك فقه اسماعيلى يخالف الفقه السنى كما أن المذهب نفسه كان فى حاجة الى دعاة يقومون بنشره فى مختلف الأرجاء يعملون على جذب الناس بالحجة والاقناع ولما كان الخليفة هو راس السلطة الدينية كان يجمع شئون

---

(٩) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(١٠) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ١٧٨ .

(١١) أسماء حسن فهمى : مبادىء التربية الاسلامية ص ١٥ .

المذهب في يده وكان القضاة والدعاه تحت اشرافه المباشر وكان الخليفة يختار بنفسه القضاة والدعاة (١٢) .

وهؤلاء الدعاة يتميزون بمميزات خاصة تجعل منهم الرجال الذين يمكن الركون الى مقدرتهم فى نشر الدعوة واستمالة القلوب اليهم ويرأس الدعاه نقباء ويبلغون اثنى عشر نقيبا وعلى رأس هؤلاء جميعا داعى الدعاة الذى يعتبر الصلة بين الخليفة وبين معتنقى المذهب . وكان داعى الدعاة يعرضها بدوره على الخليفة لكى يقرها ويذيلها بامضائه ثم يعقد المجلس ليقرأ على الناس ما أعده من محاضرات وما الفه من مصنفات ولذلك اهتم الخلفاء الفاطميون باختيار داعى الدعاة (١٣) .

وقد لعب الوزراء الفاطميون دورا خطيرا فى تاريخ الدعوة الاسماعيلية وكان لهم أثر كبير فى تاريخ العقيدة وحياة الدولة نفسها . وقد حمل ابن كلس العبء الأكبر فى تنظيم ونشر المذهب الاسماعيلى . فاهتم بالفقه الاسماعيلى . وعمل على قيام دراسة منظمة له فى الجامع الأزهر ورتب له جماعة من الفقهاء يتدارسونه بعد صلاة الجمعة وابتنى لهم دارا الى جانب الأزهر (١٤) .

ولكن ذلك لم يستمر طويلا فما أن استولى بدر الجمالى على شئون البلاد حتى كان لذلك أثره البعيد فى الدعوة الاسماعيلية فقد أصبح الوزراء منذ ذلك الوقت مشرفين على الدعوة والدعاة والقضاة وبذلك سيطروا سيطرة تامة على شئون المذهب فكان من القابهم « قاضى قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » وحمل هذا اللقب كل وزير بعد ذلك حتى أن معظم الوزراء لم يكونوا اسماعيليين وكان لذلك أثره فى ضعف المذهب الاسماعيلى مما مهد لسقوط الدولة (١٥) .

وقد كانت الامامة حسبما بينا من قبل عنوان الدولة الفاطمية وشعارها البارز . فكانت هذه الامامة تصبغ بصبغة مذهبية عميقة ولم تحجم الخلافة الفاطمية فى هذا السبيل عن أن تعدل احكاما وشعائر بشعائر وأن تستحدث

---

(١٢) د. محمد حمدى المنياوى : مصر فى ظل الاسلام ج ١ ص ٨٨ .
(١٣) د. محمدحمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٣٣ .
(١٤) د. محمدحمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٣٤ .
(١٥) د. محمد حمدى المنياوى : مصر فى ظل الاسلام ج ١ ص ٨٨ .

كثيرا من النظم والتقاليد الدينية والمذهبية وكانت منذ قيامها بمصر تعمل بكل ما وسعت لبث الدعوة الشيعية المفرقة تارة فى الجهر وتارة فى الخفاء وكانت مجالس الحكمة الشهيرة وهى مجالس الدعاية المذهبية تعقد تارة فى القصر الفاطمى وتارة فى الجامع الأزهر ولكن الامامة الفاطمية تتشح فى عصر الحاكم بأمر الله بنوع من القدسية الرهبة ، وتستميل الدعوة الفاطمية الى نوع من الفلسفة الحرة أو بعبارة أخرى الى معترك من الالحاد المغرق وتكتنفها نفس الحجب المظلمة ، وكان الحاكم بأمر الله هو روح هذا التطور الخطير فى توجيه الدعوة الفاطمية . فقد كان الحاكم من أنشط واقوى الخلفاء الفاطميين فى بث الدعوة المذهبية ونشرها فى الخارج وكان له رهط من الدعاة الأقوياء فى مختلف انحاء العالم الاسلامى ولاسيما فى المشرق ، يعملون لنشر الدعوة واستمالة الناس اليها ويبعث بالمال الوفير الى مختلف الدعاة للانفاق على شئون الدعوة وبذل الصلات للمستجيبين وكان من بين أولئك الدعاة علماء من الطراز الأول مثل حميد الدين الكرمانى ، داعية العراقيين بفارس (١) .

وقد حذا الحاكم فى ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز وعمل لبث الدعوة الفاطمية فى قوة وجراة ولكن فى نوع من التناقض وذلك بسب السلف الصالح ابى بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة .

---

(١٦) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله الفاطمى ص ١٩٤ – ٦٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثر قيام جامعة الأزهر فى الحياة الفكرية

لما قامت الدولة الفاطمية فى مصر شغلت فترة من الزمن بتوطيد ملكها الفتى — ولم تول الحركة العقلية كبير عناية بيد أن الحركة العقلية لم تلبث أن لقيت ملاذها فى قيام الجامعة الفاطمية الكبرى اعنى الجامع الأزهر الذى اقيم فى البداية ليكون مسجد الدولة الجديدة ومنبرها الرسمى ، ثم انشئت فيه منذ عهد العزيز تلك الحلقات للدارسين التى استحالت فيما بعد الى جامعة حقة ، وكانت الدولة الفاطمية تعنى منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هى الناحية المذهبية وفى سبيل بثها واذاعتها نظرت مجالس الحكمة فى القصر وفى الجامع الأزهر وأنشئت جامعة دار الحكمة الشهيرة فى عهد الحاكم بأمر الله (١) .

ولكن لما استقرت الدولة الفاطمية بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة الى مضاعفة جهودها المذهبية وذلك انها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهدا خصبا لدعوتها ، بل الفت ، مصر مجتمعا متمدنا ، عركته الأحداث السياسية والدينية والفكرية ، ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزو الأذهان ،طريقة الدعاية المنظمة — هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة . وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة . وقد كانت الدعوة السرية وسيلتهم الى حمايتها وتدعيمها . فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية حيث كانت الدعوة انفذ وسائل الفاطميين الى تبوأ الملك وبها جنوا ثمار ظفرهم الأولى فكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه الى جنبات الامبراطورية الفاطمية الشاسعة والى سائر الأقطار الاسلامية الأخرى (٢) .

ولما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ لم يشأ أن يفاجىء السنيين فى

---

(١) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله الفاطمى ص ٣٦٢ .
(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٩٩ — ١٢٧

مساجدهم باقامة شعائر المذهب الفاطمى حتى لا يثير كراهية المصريين ، لذلك وضع جوهر الجامع الأزهر (٣) فى ١٤ رمضان ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وشرع فى بنائه وهو أول جامع بنته الرافضة فى مصر وفرغ من بنائه فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٤) . بعد ان كان ابتنى القاهرة وركب العزيز الى جامع القاهرة « جامع الأزهر » بالمظلة وخطب وصلى وفيه خط أساس الجامع الجديد مما يلى باب الفتوح وبدأ بالبناء فيه وتحلق الفقهاء فيه الذين يتحلقون بجامع القاهرة وحمل يانس الصقلى صاحب الشرطة السفلى السماط وبنيت مصاطب ما بين القصر والمصلى ظاهر باب النصر يكون عليها المؤذنون والفقهاء حتى يتصل التكبير من المصلى الى القصر (٥) .

والجامع الأزهر يعتبر أرقى زخرفة من جامع ابن طولون ولكن يجب على من يدرسه أن يذكر ان كثيرا من دقائقه تم بعد انشائه بزمن طويل ومن الواضح أن هذا المسجد لم ينشأ فى الأصل ليكون جامعة أو معهدا للدراسة كما هو الحال اليوم ، وانما انشىء ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية ورمزا لدعوتها المذهبية (٦) .

وقد تمتع الجامع الأزهر الذى بدأ بعمله مثل الجامعة منذ ٣٧٥ هـ بشهرة واسعة بين المساجد الاسلامية ، وللجامع الأزهر الآن تأثير كبير فى بلاد الاسلام والطلاب الذين يقصدونه افرادا وارسالا من انحاء العالم الاسلامى وكيف لا ؟ وهو الملجأ الأخير لعلوم العرب فى الشرق ، وفى الجامع الأزهر تدرس الآن العلوم والآداب والتوحيد والفقه والطب والفلك والرياضيات والتاريخ وكان عدد طلابه اثنى عشر الفا فيما مضى ولا يقل الآن عن هذا العدد كثيرا ويقوم بنفقات طلابه الفقراء (٧) .

ويبلغ من اهتمام الخلفاء الفاطميين بالجامع الأزهر ان كان المعز لدين الله الفاطمى يؤلف الرسائل والمحاضرات ويبعث بها الى قاضى قضاته أبى حنيفة النعمان كى يلقيها على الناس فى الجامع الأزهر المقر الرئيسى للدعوة الفاطمية (٨) .

---

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٢ — ٥٤ .
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٦٧ .
(٦) د . احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ٢٥٥ و ٢٥٧ .
(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٢٣٤ .
(٨) د . احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٢٧٨ .

وكان العزيز رجلا عالما محبا للعلم والعلماء فيروى المؤرخون أنه كان شاعرا وله شعر جيد كما يعتبرونه اول من جعل الدراسة فى الأزهر دراسة جامعية منظمة والواقع أن الفضل فى تحويل الأزهر من جامع الى جامعة لا يرجع الى العزيز وحده وانما يرجع الى وزيره يعقوب بن كلس وقد اعتمد العزيز على وزيره يعقوب فى نشر المذهب الفاطمى وقام يعقوب بن كلس فى هذا المضمار بنشاط كبير اذ حول الأزهر الى جامعة تدرس فيها العلوم النقلية والعقلية وساهم هو نفسه بالقاء المحاضرات فى بعض ما كتبه مثل أصول المذهب الشيعى والرسائل الوزيرية ومختصر فقه الشيعة الى جانب المجالس العلمية والأدبية التى كان يعقدها فى قصره لتشجيع الآداب والعلوم من جهة ولنشر الدعوة الشيعية من جهة أخرى (٩) .

وقد ابتنى العزيز بجوار الجامع الأزهر دارا لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرؤون القرآن الى صلاة العصر وقد أجرى عليهم الخليفة الأرزاق وأغدق عليهم وزيره يعقوب بن كلس الأموال ونقل اليه الحاكم نصف ما كان بدار الحكمة من كتب كما زاد فى بنائه وزاد ما وقفه عليه من قبل من أوقات وما قدم له من هبات (١٠) .

واهتم الفاطميون بنشر الثقافة فارتقت العلوم والآداب والفنون ولعب الجامع الأزهر الدور الأول فى نمو الحركة الثقافية وخاصة بعد تحويله الى جامعة فى عهد العزيز (١١) . ومازال الجامع الأزهر غرس الدولة الفاطمية اليانع منذ استقرت بمصر كما كان الجامع الأزهر كعبة العلماء والأدباء لا فى مصر وحدها بل فى العالم الاسلامى كله وأداة مسجدها الجامع فى تطور الحركة الفكرية والأدبية فى مصر (١٢). ثم جدد فيه العزيز والحاكم بأمر الله وكذلك المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذى انشأ مقصورة بجوار الباب الغربى وهكذا كان المسجد محل رعاية الأئمة وعنايتهم فى العصر الفاطمى فلم يقصروا فى تجديده والزيادة فيه .

والذى يهمنا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتحاق فى هذا المسجد العتيد واتخذوا منه جامعة علمية تعد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ

---

(٩) د . أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٢٨١ - ٢٨٢
(١٠) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٦٣ .
(١١) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٣٥ .
(١٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٩ ، ٢٤٥ .

ففى هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانا لها بين أماكن اخرى ، ففية عقد أول اجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير كما أن الفاطميين اتخذوا من المسجد الجامع (الجامع الأزهر) مركزا من مراكز دعوتهم ومعهدا تلقى فيه علوم آل البيت (١٣) .

ولقد شيد الفاطميون فى القاهرة الأزهر ودار الحكمة لتدريس المذهب الشيعى والدعوة له ، وهما من مآثر الفاطميين ، ولم تكن وظيفة الأزهر مقصورة على اقامة الجمعة والصلوات الرسمية فحسب . بل انه كان فى أيام الفواطم رمزا لامامة الدولة الجديدة ومركزا لدعوتها — وقد لبث الأزهر منذ انشائه محتفظا بهذه الصفة ومع ذلك فقد نافسته مساجد فاطمية أخرى فى اقامة الجمعة والصلوات الرسمية .

وكان الأزهر أيام المعز والعزيز والحاكم مركزا لمجالس الحكمة الفاطمية لبث الدعوة وتتخذ صورة الدعوة الى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها وكان يمثل فيها النساء (١٤) .

وفى مصر فى زمن العزيز كان فيه مجلسان احدهما للرجال وآخر للنساء . كذلك استمر لقاؤهما فى دار الحكمة أو دار العلم التى انشاها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م (١٥) .

وقد بدأ الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة يأخذ مكانته ويلعب دوره فى التوجيه الفكرى فعرفه الناس وراحت جموعهم تتقاطر وتتوافد على رحابه للدرس والمناظرة والوقوف على غوامض الفقه الشيعى واسراره وأحكامه كمذهب له خطورته جاء به غرباء ليرسوا دعائم حكم جديد ودولة جديدة قضت على دولة خلافة لعبت فى تاريخ الدين والحضارة والفتوح دورا خطيرا .

مر على قيام جامع القاهرة بهذا الدور الروحى ذى الأثر الخالد قرابة ثلاثة اعوام انتهى خلالها المعز لدين الله رجل البلاغة والفصاحة والتبحر فى العلوم والخبرة بدراسة الفلك وتنقلات النجوم فى ابراجها وقد استولت الفرحة على يعقوب بن كلس واذ به يقول ردا على حديث سيده الأول العزيز : لن يكون الأزهر دار علم وتثقيف

(١٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٣ .
(١٤) د . عبد الرحمن زكى : الأزهر وما حوله من آثار ص ١١ — ٥٩ — ٦٠ .
(١٥) د . عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر بالله الفاطمى ص ٥٦ .

يعرف الناس عن طريقها حقائق مذهبنا فقط يا مولاى ، بل سيكون دار دعاية لنـــا ترسى قوائم ملكك العريض فى قرارات النفوس وبحقك الأب الروحى : لن يكون الأزهر دار علم وتثقيف بـــل جامعة — جامعة يأوى اليهـــا الطـــلاب للعلم والمعرفة الراغبين فى الحياة والطامعين فى الحصول على المكانة فى الدولة الفتية الجديدة التى انتشر علمها فى الشرق الاسلامى واصبحت قوة روحية وزمنية لها اثرها (١٦) .

وضاعف العامة من اكبارهم للخليفة العزيز بعد ان فتح ابواب الجامع الأزهر للدرس والتحصيل وانعقاد حلقات العلم ومساجلات العلماء (١٧) التى جعلت الناس يذكرون حلقـــات جامع عمرو وغيره من المســـاجد الكبرى ذات الأثر النافـــع للدين وجموع المسلمين ، أما رجل الدولة وعقلها الناضج السديد التفكير « ابو الفرج يعقوب ابن كلس » فقد وقف طويلا امام ما اصابه مشروعه من نجـــاح . لقد اراد رؤوس الفاطميين أن يكون الجامع الأزهر مقر دعوتهم المذهبية ولكن بفضل جهود ابن كلس اصبح جامعة كبرى لعلوم الدين وفى جملتها علوم الشيعة (١٨) . وبهذا خرج الأزهر عن الهدف الفاطمى الى هدف أوسع فيه ارضاء لشتى الرغبات الفكرية والمذاهب المختلفة واختط لنفسه بنفسه طريقا وان لم يكن فاطميا فى مجموعه فقد كان شيعيا مذهبيا فى روحه ومبناه .

ونتيجة للخطوات الواسعة التى خطاها الجامع الأزهر نحو هدفه وجد يعقوب نفسه يفكر جديا فى أمر ذلك المسجد الذى استحال الى جامعة اســـلامية خطـــيرة الشأن ومنارة هادية للعلم والعلماء فى مختلف بقاع الأرض بـــل لقد أراده العـــزيز دار دعاية مذهبية ورمى من وراء تعميم الدراسة فيه الى تعميق الثقة بأهل البيت ونشر تعاليم الشيعة وسننهم (١٩) .

وكان للأزهر فى العصر الفاطمى موارد اخرى كثيرة بالاضافة الى الأحباس (٢٠) تشمل الأعطيات ومـــال النجوى الذى يؤديه المستمعون للمحاضرات التى ســـتلقي بمجالس الدعوة وكان بعض هذا المال ينفق على الدعاة وبعضه الآخـــر يخصـــص

---

(١٦) سنية قراعة : تاريخ الأزهر فى الف عام ص ٩٤ — ١٠١ .
(١٧) المقريزى : الخطط ج ٢ص ٢٧٣ .
(١٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ — ٦٥ .
(١٩) سنية قراعة : تاريخ الأزهر فى الف عام ص ١٠٨ ، ١٠٩ — ١٢٣ .
(٢٠) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ وما بعدها .

لاجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون اليه من الطلاب الذين كان لهم نصـيب من الصدقات النوعية والمالية التى كان يمنحها بعض الأمـراء والكبراء لهم (٢١) . ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمى بل لقد توالت الأرزاق والاعطيات الثابتة لأساتذته وطلابه (٢٢) .

وظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفـاء الفاطميين وعنايتهم فقد عقدت له الزعامة الثقافية والعلمية والدينية على غيره من الجوامع ومعـاهد العلم وذلك بمـا كانوا يخلعونه عليه من زخرف وزينة وما يضاء به فى المواسم والأعياد من انوار ساطعة فهو مسجدهم المفضل الذى يخطب فيه الخليفة وتعقد فية مجالس الدروس وتنشر منه تعاليم المذهب الفاطمى وينعم فية الأساتذة والطلاب بالأرزاق الوفيرة والهدايا الحسنة ولقد اختصه الحاكم بوقفية هى أول وقفية صدرت للأنفاق على هذا المسجد وقف فيها ريع كثير من ممتلكاته من دور حوانيت ومخازن للانفاق على اثاثه وخدمة ائمته وعلى عمارته واصلاحه (٢٣) لذلك لم يكن غريبا أن يصبح اكبر جامعة اسلامية فى الشرق يفد اليه الطلاب من كل صوب وحدب يتلقون فيه مختلف العلوم الدينيـة والفلسفية والمنطق وبعض الرياضيات والطب على يد علمـاء ذلك العصر مثل ابى على محمد بن الحسن بن الهيثم الذى رحـل الى مصر فى زمن الحاكم والحوفى امام العربية والنحو وابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م وغيرهم من علماء الفقه والدين واللغة العربية ونحوها وصرفها وآدابها (٢٤) .

وقصد الفاطميون من انشـائهم الجامع الأزهر ان يكون جامعة شـيعية ولم يدروا أنهم يضعون أساس اكبر جامعة اسـلامية سنية . بل واعظم قلعة حصينة يذاع منها الاسلام خالصا صحيحا فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تحدث ستانلى بول (٢٥) : عن أثـر الأزهر فى انتشـار الثقـافة فقال : « كانت الثقافة الأزهرية مثالا طيبا للتعليم الحر الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغة او الطبقة وليس من السهل أن ينسى المرء منظر الطلاب وقد

---

(٢١) د . حسين ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٦١٨ — ٦١٩
(٢٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .
(٢٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .
(٢٤) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٨٩ —
(٢٥) ستانلى بول : سيرة القاهرة ص ١٢١

التفوا حول أستاذهم واخذوا ينصتون اليه وكان على رءوسهم الطير أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعاموه من أستاذهم : والواقع ان هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية فى العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة فى العام التى لا تتحمس فى طلبه بقصد الحصول على الجوائز او اجتياز الامتحانات وذلك ما تفتقر اليه الجامعات الغربية » (٢٦) .

وكان القاضى أبو الحسن على بن النعمان أول من ألقى دروسا فى الأزهر (٢٧).

ويروى المؤرخ عبد اللطيف البغدادى : انه كان يلقى فى الجامع دروسا فى الطب كل يوم . واسهم فى التدريس به فحول من العلماء وعباقرة الحكماء والأدباء المحدثين ويعتمد نظام التدريس على نظام الحلقات (٢٨) .

وقد تخرج فى هذا المعهد العريق العلماء امثال الحوفى والقلقشندى والمقريزى والسيوطى والبلقينى الذين انتعشت على أيديهم الآداب والعلوم واصبح الأزهر مصدرا للعلم ومشعلا للثقافة وكعبة يقدمون اليه من كل انحاء العالم .

وقد ظل الأزهر يغذى الحركة الفكرية وينشر الثقافة العربية ويحافظ على التراث الاسلامى على مر العصور وهو مصدر اشعاع لطلبته واساتذته فى العلم والدين والأدب ومركز الثقل الحضارى فى كل العصور وقد امتدح الدكتور جرمانوس القاهرة وحياها فى عيدها الألفى بقوله « لا توجد مدينة فى العالم تستطيع ان تفخر بتاريخها العريق كالقاهرة حيث خرجت منها للعالم اقدم واعظم ثقافة انسانية وان قاهرة العصور الوسطى العربية والفاطمية لتزهو على العالم بآثارها ومساجدها ومعاهدها العلمية — لقد اعلن الأزهر ذو الألف عام كيف استطاع أن يحصل على العجائب من قدرة الانسان وعظمته وتاريخ القاهرة لم يتأخر ولم يتغير وظل دائما تاريخا عربيا اسلاميا لأن فى هذه المدينة ولد الأدب العربى وعندما كان القساوسة فى أوربا يحاولون معرفة القراءة فقط كانت المدن العربية فى القاهرة ودمشق وبغداد والأندلس على قدر كبير من المعرفة وبينما كانت المخطوطات اللاتينية فى الأديرة المسيحية الأوربية تعلوها الاتربة من اثر عدم استعمالها كانت المكتبات العربية

---

(٢٦) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١١٨ .
(٢٧) سنية قراعة : مساجد ودول .
(٢٨) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ص ٨٩ .

تزخر بمئات الألوف من المخطوطات تقف فى خدمة طالبى العلم وراغبيه . لقد ترجم علماء العرب علوم الأقدمين من يونان وفرس وهنود ونبغ الكثير منهم فى علوم الفلسفة والميكانيكا والجبر والفلك . حيث لاتزال بعض النجوم تحتفظ باسمائها العربية الأصلية كما طور العرب علم الطب منذ العصر القديم — والتطور العلمى الذى أحرزوه فى مجال الكيمياء يسجل بفخر وعظمة الحياة الخيرة التى الفها العرب فى اقطارهم » .

« ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية الى الآن فقد خلفوا لمصر تراثا هاما هو الجامعة الأزهرية ويمكننا أن نقدر المجهودات التى بذلها الفاطميون فى أيامهم من نظم التعاليم التى بقيت فى الأزهر حتى الآن » .

وكان من أثر الدعوة الى العلم والعمل والاستزادة من جميع العلوم والآداب ان تألق نجم الدعاة الفاطميين فى سماء الحركة الثقافية فى مصر واستطاعوا ان يجادلوا خصومهم بأدلة علمية وان يتخذوا من سعة افقهم ومداركهم وثقافتهم مجالا يبزون فيه غيرهم فلا نعجب اذا كان احد دعاتهم المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى يعرف جميع الوان العلوم التى كانت معروفة فى عصره . واستطاع ان يرد على جميع الفرق الاسلامية وأن يجادل خصومه بأدلة علمية منطقية ولعل ذلك يفسر ما عمد اليه الفاطميون من اتخاذ الجامع الأزهر مركزا من مراكز دعوتهم ومعهدا تلقى فيه علوم آل البيت (٢٩) .

بيد أن هذه الصفة المذهبية الرسمية التى اصبغت على الجامع الأزهر منذ نشأته لم تكن لتحول دون اتسامه فيما بعد بالسمة الجامعة فان المدرسة لم تكن قد وجدت بعد فى مصر الاسلامية وكانت المساجد الجامعة تقوم برسالتها العلمية الى جانب رسالتها الدينية فكان جامع عمرو — أول المساجد الجامعة فى مصر — هو أيضا أول معهد قام فيها للدرس والقراءة .

وكانت هذه التقاليد الجامعية قد غدت صفة لازمة للمساجد الجامعة لا فى مصر وحدها ولكن فى المشرق فى بغداد وفى الأندلس فى قرطبة واشبيليه وغيرهما حيث كانت المساجد تؤدى رسالتها العلمية (٣٠) .

---

(٢٩) د. حسن أحمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٧٤ .

(٣٠) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٣٩ .

كما كانت مجالس ابن كلس فى الواقع اول مجالس جامعية حقيقية عقدت بالجامع الأزهر وكانت تمتاز عن مجالس بنى النعمان بتحررها من القيود الرسمية واتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية (٣١) .

وفى عهد الحاكم بأمر الله انشىء معهد جديد أطلق عليه دار الحكمة او دار العلم (٣٢) ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالأحرى هذه الجامعة العربية ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات او كليات دينية وأدبية وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير تعرف بدار مختار الصقلى . وقسمت الى عدة اقسام أو مجالس لعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيره وعين لها أقطاب الأساتذة من كل علم وفن (٣٣) .

وكانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها من يشاء ويدرس ما يشاء من مختلف العلوم والفنون (٣٤) . ولكن هذا المظهر العلمى لم يكن فى الواقع الا ستارا للغاية الأصلية التى انشئت دار الحكمة لتحقيقها وهى بث الدعوة الفاطمية بطريقة منظمة تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالأصول والمبادىء المذهبية وتكون ابعد اثرا فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى يحتشد فيه المؤمنون من كل صوب ليقوموا فيها بعد بقسطهم فى حل الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والانحاء .

واذا تتبعنا نشاطها من ناحية علاقتها بسير الحركة العلمية فى مصر فى القرن الخامس الهجرى وصلته بالدور الذى كان يؤديه الجامع الأزهر لهذه الحركة ذلك أنه كان لقيام الجامعة الجديدة أثر كبير فى سير الدراسة بالجامع الأزهر وكان منافسا شديد الوطأة لمعهد لم تستقر نظمه ولم تتوطد بعد . ومن ثم فقد ركدت حلقات الأزهر يومئذ وانفض عنه كثير من الطلاب والأساتذة الى الجامعة الجديدة وكانت تجذب الانظار بجدتها وروعتها وتصنيف علومها .

---

(٣١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٤٣ .
(٣٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .
(٣٣) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٠ .
(٣٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ .

بيد أنه يلوح لنا من جهة أخرى أن الأزهر لبث فى هذه الفترة ملاذا للعلوم الدينية فى حين عنيت دار الحكمة الى جانب مهمتها فى نشر علوم آل البيت بتدريس علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما اليها (٣٥) .

ولبثت دار الحكمة مدى قرن تنافس الأزهر فى مهمته العلمية لكن عصر ازدهارها لم يطل ، فقد اضطربت شئون هذه الجامعة المذهبية وفتر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجرى . وفقدت الكثير من اهميتها أيام الخليفة المستنصر بالله حيث أصيبت الحياة العقلية فى مصر الاسلامية بكثير من الاضطراب والضعف ونكبت مصر بالشدة العظمى وعانت عسف القحط والوباء فى سنة ٤٤٦ هـ/ ٤٦٤ هـ ـ وشغل المجتمع المصرى حينا بما توالى عليه من المحن والارزاء وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وعجزت الدولة عن الانفاق على معاهد التعليم لنضوب مواردهم وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة وكانت انفس واعظم ما عرف العالم الاسلامى .

وكان لهذا الاضطراب اثره فى الأزهر ودار الحكمة فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعا لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة ولكن فى أواخر القرن الخامس الهجرى بقدوم بدر الجمالى وولده الأفضل شاهنشاه عاد النظام والأمن للبلاد وانتظمت الحياة العامة واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية وما بذل للانفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق (٣٦) .

وحسبنا ان نذكر حقيقة تاريخية هامة وهى ان الكتب الأولى التى قررت للتدريس بالأزهر هى كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية اعنى من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها . وكان لها صبغة رسمية واضحة وكان التدريس بالأزهر يجرى يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية وشدد فى ذلك فى البداية حتى انه فى عهد العزيز بالله قبض على رجل وجد عنده كتاب الموطأ للامام مالك وجلده من اجل احرازه (٣٧) .

وفى سنة ٤١٦ هـ أمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولده الحاكم بأمر الله

---

(٣٥) محمد عبد الله عنان : تاريخ الأزهر ص ٥٥ .
(٣٦) محمد عبد الله عنان ـ تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٩ .
(٣٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩١ .

بان يدرس الدعاة كتاب « دعائم الاسلام » وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظها مالا ، والدعاة هم اساتذة دار الحكمة وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر فى احيان كثيرة (٣٨) .

والمرجح أن كثيرا من الكتب الفقهية التي كانت تدرس بدار الحكمة تدرس ايضا بالأزهر .

ومن الأسف اننا لم نعثر على النصوص أو البيانات الأخرى التى تلقى ضوءا على أنواع الكتب التى كانت تدرس بالأزهر فى هذا العصر فى العلوم الاخرى .

بيد انه يمكن ان يقال انها كانت تشمل مصنفات أعلام الاساتذة المعاصرين الذين انتهت اليهم الرياسة فى بعض العلوم أو الذين تولوا التدريس فى الأزهر يومئذ مثل العلامة ابى الحسن على بن ابراهيم الحوفى امام العربية والنحو وصاحب كتاب « أعراب القرآن » وابن بابشاذ النحوى اللغوى صاحب كتاب « المقدمة » وشرح الجمل . وابن القطاع صاحب كتاب « الافعال » وابى محمد عبد الله بن برى المصرى امام اللغة فى عصره وابى العباس احمد بن هاشم المحدث والمقرىء وابن قاسم الرعينى الشاطبى امام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة فى علم القراءات « حرز الامانى فى وجه التهانى » وغيرهم ممن انتهت اليهم الرياسة فى هذا العصر واعتبرت مصنفاتهم متونا ومراجع بل لبثت تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير (٣٩) .

وهناك من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر من كانت لهم صلة علمية بالأزهر فتلقوا دراستهم وتولوا التدريس به ومنهم المسبحى الكاتب والمؤرخ الشهير وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ — وتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من اقطاب الأمراء والعلماء ومنهم أبو عبد الله القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ وهو محمد بن سلامة بن جعفر ولد فى مصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ وكان من اقطاب الحديث والفقه الشافعى ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى كان أيضا من ائمة اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٠٢ هـ والفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى كان من اقطاب الفقه الحنفى والتفسير وكان أيضا عارفا بالرياضة والطب وعلوم الفقه والتاريخ وله

(٣٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٦٧ .
(٣٩) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٨٢ — ٨٣ — ٨٤ .

مصنفات فيها اشتغل زمنا طويلا بالتدريس بالأزهر — توفى سنة ٥٩٨ هـ .

ومن كل هذا نستنتج ان الجامع الأزهر كان منارة يطل منهـا على العـالم فى زمن الفاطميين ودوى صيته فى الخافقين حتى بعـد الفـاطميين ، ولذلك غـرس الفاطميون شجرة وارفة الظلال تفيـأ المسلمون فى ظلال جامعها الا وهو الجامع الأزهر الذى كان ولا يزال يحمـل راية الاسـلام والعروبة النابض بروح الفاطميين عبر آلاف السنين معبرا عن جهودهم العظيمة فى بناء الجامع الأزهر الذى كان يمثل الحياة الفكرية ، فقد أثر فيها وتأثر بها .

القصر كمركز للحياة الفكرية

لقد كانت قصور الخلفاء الفاطميين ووزرائهم مراكز للحياة الفكرية فى مصر ومنتدى العلماء يتجادلون ويتناقشون وكان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم سباقين الى اتخاذ مجالس المناظرات (١) . فقد خصصوا أماكن فى قصورهم لعقد هذه المجالس بل وحضروا المناظرات بأنفسهم واشترك بعضهم فيها وكانت هذه الندوات حافزا على البحث العلمى وعاملا فى التقدم والازدهار الذى حدث فى أيام المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر وكانت مساهمة الخلفاء ورجال الدولة فى الحركة الفكرية ذات أثر واضح وكانت مجالس العلم ميدانا لتنافس العلماء الذين يريدون الحظوة لدى الخلفاء أو لمن يريدون شغل المناصب أو العمل كمربين ومعلمين لأبناء الخلفاء الذين اختاروا أفضل العلماء لرعاية أبنائهم والاشراف على تعليمهم وتربيتهم ، وكان الخلفاء الفاطميون يجالسون العلماء حيث اعتبروا أنفسهم حماة للعلم ومشاعل للمعرفة . كما كان بلاط الفاطميين يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم تشجيع الخلفاء لهم من جهات متعددة من العالم وشملهم جميعا بعنايته مهما كانت مشاربهم أو جنسياتهم وكثيرا ما أخذ الخليفة المعز نفسه دورا رئيسيا فى المناظرات التى كانت تدور فى مجلسه وأسهمت هذه المجالس فى حركة التقدم العلمى وشحذت همم العلماء والمتناظرين على البحث والجدل ومحاولة اثبات رأيهم بالدليل المقنع (٢) .

ولم تقتصر مجالس العلم على قصور الخلفاء بل كانت هناك ندوات تعقد فى قصور الوزراء وخاصة ابن كلس والأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى حيث تعقد الندوات (٣) .

وكان المعز على درجة كبيرة من الثقافة والعلم فهو يجيد عدة لغات منها

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة العربية الاسلامية ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ .

اللغـــة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية وهذه هي البيئة التى ينشـــأ فيهـــا المعز قصر يحفل بالعلماء والأدباء دائب على التزود بالعلـــم والثقافة ويحرص على اتقان اللغـــات الأجنبيـــة (٤) .

وكان للخلفـــاء الفاطميين بالقـــاهرة وظواهرها قصور ومناظر منهـــا القصر الكبير الشرقى الذى وضعه القائد جوهر (٥) . عنـــدما أناخ فى موضع القـــاهرة ومنها القصر الصغير الغربى والقصر اليافعى وقصر الذهب وقصر الاقبـــال وقصر الظافر ، وقصر الشـــجرة ، وقصر الشـــوك ، وقصر الزمرد ، وقصر يقال لـــه القصر الزاهر ، وقصر النســـيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحـــر . وهذه كلهـــا قطاعات ومناظر من داخل ســـور القصر الكبير وتســـمى مجموعها القصر وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبســـتان الكافورى فكان لهـــم عدة مناظـــر ودور ســـلطانية غير هذه القصور منها دار للضيافة ودار للوزارة القديمة ودار للضرب والمنظرة بالجامع الأزهـــر (٦) .

أما قاعة الذهب فكان يقال لها قصر الذهب وهى احدى قاعات القصر الذى هو مقر المعز لدين الله الفاطمى وقد جدد الخليفة المســـتنصر هذا القصر فى ســـنة ٤٢٨ وفى هذه القـــاعة كان الخلفـــاء يجلســـون فى الموكب يوم الاثنين ويـــوم الخميس ، وكان يعمل بها ســـماط شـــهر رمضان للأمراء وسماط العيدين (٧) .

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشـــيعية خاصـــة والحقـــوا بها مكتبات تحتوى على مئات من المصنفات فنرى بمكتبة القصر الشرقى عددا من الرفوف مقســـما الى أقســـام لكل قســـم منها باب . وهذه المكتبة على ما رواه المقريزى تحتوى على مائتى الف مجلد عدا الكتب الأخرى فى اللغة العربية والتاريخ والحديث والســـير والفلك والكيمياء هذا عدا المصاحف ومجموعة ابن البـــواب (٨) .

---

(٤) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٤ .
(٥) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٦ وما بعدها .
(٦) المقريزى :الخطط جـ ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ .
(٧) المرجع السابق ص ٢١٤ .
(٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٤ نقلا عن المقـــريزى — الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ .

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم انهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الاسماعيلية وأصبح داعي الدعاة يشرف على مجالس الدعوة — وقد أسندت رياسة الدعوة الى داعي الدعاة وكثيرا ما كان يشغل منصبا آخر وهو منصب قاضي القضاة في نفس الوقت (٩) .

كما كانت قصور الخلافة ومساجدها مكانا يتلقى فيها الاسماعيلية أصول مذهبهم عن طريق المنشورات والكتب (١٠) .

فقد أعد المعز والعزيز في قصر الخلافة مجلسا يلقى فيه محاضرات في أصول المذهب الاسماعيلي على يد علي بن النعمان وأخيه محمد بن النعمان الذي قام بتدريس فقه الأئمة الاسماعيلية في الجامع الأزهر (١١) . كما كان علي بن النعمان يضطلع بأعباء داعي الدعاة في عهد المعز لدين الله الفاطمي وكان قاضي القضاة يلي الوزير في الرتبة ورتبته تعلو داعي الدعاة وكان بعض فقهاء الاسماعيلية يجمعون بين المنصبين ومما يدل على صحة هذا القول أنه اذا انعقد مجلس الملك في قاعة الذهب بقصر الخليفة — واخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب واخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم اخذ الأمناء في تقديم ما ينبغي تقديمه للخليفة (١٢) .

وقد خصص لداعي الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على مجالس الدعوة ونشر الدعوة فيتصل بالدعاة ويزودهم بتعليماته (١٣) .

وتنافست القصور في اقتناء الكتب فكان في كل قصر مكتبة تحوي عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب ... الخ (١٤) . وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من

---

(٩) وزارة الأوقاف : الأزهر وتاريخه وتطوره ص ٢٤ — ٢٥ .
(١٠) د. حسن ابراهيم : المعز لدين الله الفاطمي ص ٤ .
(١١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٤ .
(١٢) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : تاريخ الأزهر وتطوره ص ٢٦ .
(١٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي جـ ٤ ص ٤٢٩ — ٤٣١ .
(١٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ — ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥٧ .

الشـــعراء والأدباء فما من رجاله انجبه العالم الاســلامى لم يتخذ من مصر مقــاما او مزارا فى تلك الأيام (١٥) .

وفى القصر كانت تعقد مجــالس المناظــرات تحت اشراف الخليفة ووزرائه وبحضور العلماء والأدباء وكبار رجال دولته فيتناظر العلماء فى مختلف المســائل وفى نهــاية المناظرة ينهض الشــعراء فينشــدون القصائد ويتبارون فى مدح الخليفة والاشــادة بمجد آبائه واجداده ولا غرو اذا وفد على مصر كثير من الشــعراء من مختلف الأقطار يســعون الى مجلس الخليفة ينشــدون عطــاءه ويبتغون كرمه ، من هؤلاء أبو حامد الأنطاكى محمد بن القاســم بن عاصم وابو الحســن على بن عبد الواحد البغدادى المعــروف بصريع الولاء ، وابو الحسن على بن نوبخت ، وعبد الوهاب بن نصر المالكى ، وقد مــدح ابن هــانىء الأندلسى المعــز لدين الله بقــوله (١٦) .

ما شــئت لا ما شــاءت الأقدار فاحــكم فانت الواحــد القهــار

ونجد انه بعد ان كان الشـعراء يعيشــون على الهبات فقط ، فقد اصبحوا موظفين يتناولون مرتبات ثابتة ، ففى الدولة الفاطمية مثلا كان الشــعراء يكونون طبقة متميزة فى قصر الخليفة الفاطمى (١٧) .

واعتمد الخليفة العزيز بالله فى بلوغ اغراضـه فى نشر المذهب الشــيعى على الشعراء والأدباء والعلماء وكبار الموظفين فاصبحوا لســانا ناطقا بما يريد العــزيز ولذلك أصبح القصر فى عصر العزيز بالله كما كان فى عصر أبيه المعز لدين الله مركزا من مراكز الدعوة الفاطمية وكان قصر العزيز مزودا بمكتبة كبيرة تحوى كثيرا مــن الكتب الخاصة بالدعوة وسمح لعامة الناس بالاطلاع على كتبها (١٨) .

وقد خصص مكان خاص فى قصر الخليفة هى دار العلم لداعى الدعاة . .

وكذلك كانت الدعوة تعقــد فى اماكن متعــددة لا فى مكان واحــد مثلما كان الحال فى عهد العزيز . فانت تقرأ فى مكانين بقصر الخليفة : واحــد للرجــال فى

(١٥) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص ١٥٤ — ١٥٦
(١٦) شحاته عيسى ابراهيم — القاهرة ص ٩١ .
(١٧) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٩٧ .
(١٨) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٤٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

الصالة ذات الأعمدة « الديوان » والثانى للنســاء فى رواق خاص اسـمه المحول الذى وصف على انه أعظم المبانى واوسـعها (١٩) . وهذا المحول يشـبه قاعة المحاضرات العامة فى عصرنا الحديث وكان يؤمه الخاصة وشـيوخ الدولة وخدم القصر الطارئون على مصر وعامة الناس (٢٠) .

ويروى عنه المسـبحى أن عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر اربعون خزانة بعضها داخل القصر لا يتوصل اليها احد وبعضها فى خزائن القصر البرانية وهذه المكتبات التى عبر عنها المسبحى « بالبرانية » فأرجح أنهـا كانت كالمكتبات العامة فى عصرنا هذا ولاسـيما فى تلك الأيام التى كان يجتمع فيهـا الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة التاويلية . وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات فى كل فن من فنون العلوم الاسلامية من فقه فى سـائر المذاهب الى نحو ولغة وكتب حديثة وتاريخ ونجامة وروحانيات وكيمياء غير المصاحف الكثيرة . ويقال أن العزيز بالله ذكر عنده كتاب العين بخط الخليل نفسه ، وحمل اليه رجل نسـخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينـار فأمر خازنه فاخرج من الخزانة مـا ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير (٢١) .

حقا لم يذكر لنا القدماء ان الفـاطميين استخدموا هذه المكتبـات التى كانت بالقصر فى خدمة الدعوة . فلم يعقد فيها الدعاة مجـالس الحكمة ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد فى القصر عبثا . ولم يحافظ عليها الفاطميون ليبـاهوا بهـا غيرهم ومنافسيهم فحسب بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليهم طبيعة عملهم ولا سيما هذه الكتب التى كانت فى داخل القصر والتى لا يقربها الا الخاصة وهى الكتب التى قلنـا انها كتب الأئمة اى كتب الدعوة (٢٢) .

وهكذا كانت خزانة كتب القصر (٢٣) ولعلنا نستطيع ان ندرك فى هذه اللمحة

---

(١٩) د . د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ٨٠ .
(٢٠) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٢١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٧ نقلا عن المقريزى . الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٢٢) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٣٠ .
(٢٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٥ .

القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب فى كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس فى كل علم وفن وذلك تشجيعا منهم للعام والعلماء ، حتى يتسنى لدعاتهم ان يكاسروا خصومهم بادلة علمية وأن يتخذوا من سعة افقهم ومداركهم وثقافتهم مجالا يجلون فيه حتى يبزوا غيرهم . فلا نعجب أن راينا داعيا من دعاتهم مثل هبة الله الشيرازى المعروف بالمؤيد (٢٤) .

وينوه المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية باقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس والجلسات المذهبية فيقول لنا انه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد فمات من الزحام أحد عشر رجلا . (٢٥) فكفنهم العزيز بالله .

بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التى بدات فى صورة الدروس الفقهية المذهبية وهى دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة فكانت ستارا لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم هى الدعوة الفاطمية السرية التى كانت الخلافة الفاطمية تجد فى بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة . وحشدها فى حظيرتها المذهبية والدينية والسياسية وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها ان كانت ثمة مجالس اخرى تعقد بالقصر لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من اولياء المذهب ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم الخاص وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها وكان تلقين هذه الدعوة هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة بل كان فى الواقع اهم غاية يراد تحقيقها وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعا اما بنفسه أو بواسطة نتبائه ونوابه ويرتفع الدعاة بالخاصة المستنيرين الى مراتبها واسرارها العليا (٢٦) .

تلك الدعوة السرية الفاطمية التى كانت تلقى على الأولياء والمؤمنين فى مجالس القصر الفاطمى ثم بجامعة دار الحكمة أنها لم تكن سوى دعوة فلسفية حرة صيغت بمنتهى الذكاء والمهارة ونظمت مراتبها المذهبية بدقة مدهشة تنم عن براعة أولئك الذين صاغوها وفاق فهمهم لنفسية الكافة وتدل على أنهم كانوا أئمة عصرهم (٢٧) .

---

(٢٤) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٢٧ .
(٢٥) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ص ١٢٧ .
(٢٦) المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٢٧) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٨٠ .

وقد وجه الفاطميون فى عهد العزيز اهتمامهم الى بث عقائد المذهب الشيعى واصبحت كل امور الدولة فى ايدى الشيعيين (٢٨) وقد اولاها الفاطميون كثيرا من العناية فعقدوا لها المجالس فى القصور والمكتبات والمساجد .

وفى عصر الحاكم بأمر الله اتخذت مجالس الحكمة اهمية خاصة ونظمت فى معهد رسمى خاص يعمل لبث الدعوة الفاطمية السرية ، ويكون مركز الوحى والتوجيه وقد يبدو غريبا أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة الجريئة على يد الحاكم بأمر الله فكانت ظروف العصر واتساع نطاق الدعوة واضطرام المعركة المذهبية بين الخلافة الفاطمية وخصومها مما يدعو لقيام هذا المعهد ، ليشرف بطريقة منظمة تدعمها الرعاية الرسمية على بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها هذا المعهد الفريد فى صحف الدعوات السرية هو دار الحكمة المصرية أو دار العلم التى انشاها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ (٢٩) .

ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التى انشاها الحاكم بأمر الله وسماها بدار العلم وجعلها جزءا من قصره ولعلها الخزائن التى اشار اليها المسبحى باسم الخزائن البرانية وقد حمل الى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك (٣٠) .

وقد جعل الحاكم النظر على دار العلم الى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضى القضاة (٣١) . وظلت تؤدى اغراضها العلمية ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب وحدب (٣٢) .

ومهما يكن من شىء فالقصر ودار العلم كانت من أبرز مراكز الدعوة فى العصر الفاطمى وكانت الدعوة فى مصر ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بمالها وسلاحها (٣٣).

ولقد جاء قيام دار الحكمة متوجا لهذه السياسة التقليدية فى العمل على بث

---

(٢٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٥١ — ٢٠٤ .
(٢٩) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٦٢ .
(٣٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٠ .
(٣١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٠٠ .
(٣٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١
(٣٣) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٣٢ .

الدعوة السرية ومع أن مجالس القصر ألغيت ثم أعيدت غير مرة فان دار الحكمة استمرت عصرا فى تأدية رسالتها الخطيرة ، تبث العقائد الفاطمية والمبادىء الخفية والظاهرة وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثرا فى توجيه الحركة الروحية فى مصر . بيد أنها لم توفق كثيرا الى تحقيق الغاية التى عملت لها . ولم تستطع بالأخص أن تطبع المجتمع المصرى بطابع عميق من الفكرة المذهبية التى كانت مستقرها ومبعثها . وقد كانت مجالس القصر ودار الحكمة بلا ريب من أقوى هذه الوسائل وأسطعها (٣٤) .

وكانت دار العلم أشبه بخلية نحل داخل حرم القصر الكبير حيث كان المثقفون على اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون فى أى موضوع شاءوا تغذيهم مكتبة غنية (٣٥) .

أما الجلوسات فهى أيضا من رسوم القصر الفاطمى ونعنى استقبالات الخليفة التى تقام أسبوعيا فى القصر ويحضرها أهل مصر بسائر طبقاتهم : الوزراء والكتاب والقضاة والفقهاء والقواد والأجناد وأعيان العامة اذ كان من عادة أهل مصر أن يسلموا على الخليفة يومى الاثنين والخميس وهو ما عرف بالجلوس العام .

وكان الجلوس يعقد فى القصر الكبير فى الايوان وهو القاعة ذات الأعمدة وان كان المستنصر ربما يعقده فى قاعة أخرى بنفس القصر تعرف بقاعة الذهب أو قصر الذهب بناها العزيز وجددت فى أول عهد المستنصر سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م (٣٦) .

كما كان للوزراء قصور هى مراكز اشعاع فكرى وخاصة عند الوزير يعقوب بن كلس الذى كان يشجع العلوم والفنون (٣٧) وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة فى بيته فى كل يوم خميس ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته وكان يحضر هذه الاجتماعات القضاة والفقهاء وأساتذة القراءات والنحاة وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة وأصحاب المواهب الممتازة وكان يتقدم اليه الشعراء حين ينتهى الاجتماع فينشدونه مدائحهم وجعل ابن كلس فى قصره جماعة من القراء والأئمة وعين لهم الرواتب الخاصة ووكل اليهم اقامة الصلاة فى المسجد الذى بناه فى هذا القصر (٣٨) .

وهكذا فقد كانت قصور الخلفاء والوزراء مراكز فكرية للعام والعلماء .

---

(٣٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٣٥) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ص ١٣٨ .
(٣٦) د د . عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر بالله ص ٤٨ .
(٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٤٤١ .
(٣٨) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجالس الدعوة الفاطمية في القصور والمساجد

كانت مراكز الثقافة فى مصر متعددة ومتنوعة وكان كـل مركز منها يقوم بدوره الخاص فى نشر الثقافة الاسلامية وكثير منها كان مشمولا برعاية الحكام وذوى الثراء واشهر تلك المراكز المسجد الجامع وكان أهـم مركز ثقافى فى تلك الفترة فكـان من اشهر الجوامع فى مصر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون وجامع الأزهر (١).

ولقد رتب الفاطميون لدعوتهم نظاما دقيقا محكما لا اكاد اجد له مثيلا فى تاريخ الدول والدعوات (٢) ، حتى فى عصرنا هذا الذى عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها . ولعل الفاطميين هم أول من أقام للدعاية مناصب رسمية فى دولتهم (٣) . ومن الحق علينا أن نذكر انه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم شـأن بعد أن تم الأمر للعباسـيين وكان للمعتزلة دعاة يدعون لآرائهم فى الأقطار الاسلامية ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة لها حكومتها .

أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسـة وبعد ظهورها . بل لا تزال هذه النظم قائمة الى اليـوم بين من ورث دعوتهم وهم المعروفون بالبهرة والمعروفون بالاسماعيلية الأغاخانية (٤) .

فالامام يختار من شيعته أقواهم لسـانا وأصـدقهم جنانا والحنهم بالحجـة وأغزرهم علما فيجعله فى مرتبة داعى الدعاة أو باب الأبواب (٥) . وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة لأنها تلى مرتبة الامام مباشرة من الناحية المذهبية فهو المالك لجمـاعة الحجج والدعاة واليه الاشراف على الدعوة فى جميع الأقطار . وقد حدد الفاطميون الصفات التى يجب أن تتوافر فى الداعى نلخصها فى سـعة العلم والثقافة وشـدة

---

(١) د . أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٦٥ — ٦٦ .
(٢) أنظر كتاب (عماد الدين ادريس) للدكتور على حسنى الخربوطلى .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٧ .
(٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩ ـ دكتور على حسنى الخربوطلى ـ عماد الدين ادريس ص ٤٥ وما بعدها .
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩٢ وما بعدها .

التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة الاسلامية وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولاسيما أتباعه وأن أهم أعمال داعى الدعاة هو عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراء علوم آل البيت على جمهور المؤمنين فاتخذت مراكز لالقاء هذه المجالس التأويلية ولعل اهم هذه المراكز هى المساجد والقصور ودار العلم (٦) .

وكانت الدعوة تقام فى كل المساجد فى طول دولتهم وعرضها وقد احصيت فى مصر وحدها فوجد عددها ستة وثلاثين الف مسجد (٧) . واعتمدت الدعوة الفاطمية على وسائل لم يسبقها اليه سابق . ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة (٨) لانفاذ سياسة بعد أخرى ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية (٩) وكانت لها آثار على الدعوة ولا تهمل معها اركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء ، فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة (١٠) .

ولم يكن الباعث على بناء الجوامع منذ الوقت مقصورا على الأغراض الدينية وحدها بل كان ذلك راجعا أيضا لأسباب سياسية واجتماعية وكانت هذه الأمكنة وأمثالها تستخدم منذ ظهور الاسلام لاجتماع العلماء فيها . كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقرا لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدولة والدين وكان الجامع المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام (١١) .

بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ومن الأمثلة الصادقة على ذلك الجامع الأزهر الذى كان مركزا للتعاليم الاسلامية قرونا عدة ولا تزال شهرته باقية الى اليوم . وقد اقيمت صلاة

---

(٦) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١ — ٢٣ .
(٧) د . عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر الفاطمى ص ٥٧ .
(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها .
(٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٤٩ .
(١٠) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٦٥ — ٦٦ .
(١١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٧٣ .

الجمعة فى المسجد العتيق وقد خطب فيه المعز فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٩ م بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة . وبذلك تحققت الفكرة التى كانت ترمى الى بث الدعوة الفاطمية باسم الفاطميين (١٢) .

وفى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة فى السنة نفسها دعا الخطيب لآل البيت وزاد فى الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على آل محمد الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا . اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » .. كما تطورت الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون وقد وضح هذا التطور فى الدعوة الشيعية فى أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات . بأن ادخل المؤذنون على الأذان عبارة « حى على خير العمل » وهى العبارات التى يمتاز بها الأذان عند الشيعة ومن ثم زيدت هذه العبارة فى الأذان فى مساجد العسكر ومنها انتقلت الى جامع عمرو فى شهر جمادى الأولى من السنة نفسها (١٣) .

وكانت هذه الأمور كلها مما ارضت جوهرا فبعث للمعز يزف اليه هذه الأنباء وقد حضر الصلاة فى جامع ابن طولون (١٤) .

وفى خلافة المعز تطورت الدعوة الفاطمية تطورا عظيما فقد أمر الخليفة على اثر وصوله الى مصر بنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهى عبارة : « خير الناس بعد رسول الله أمير المؤمنين على بن ابى طالب » .

كما كان بناء مسجد الجامع الأزهر يجتمع فيه المسلمون للجمعة وهذا ما كانت ترمى اليه سياسة أمراء المسلمين وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة ، واقيمت الصلاة فيه أول مرة فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (١٥) .

وكانت الدعوة الشيعية فى المساجد الأخرى حيث أسس مسجد الحاكم الخليفة العزيز أبو الحاكم سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م (١٦) تحت اشراف وزيره يعقوب ابن كلس وقد وضع أساسه العزيز فى العاشر من شهر رمضان من هذه السنة

---

(١٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٧٤ .
(١٣) المرجع السابق ص ٣٧٦ .
(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ .
(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٠٠ — المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧١ .
(١٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٥٧ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ .

خارج باب الفتوح ولكنه اصبح داخل القاهرة بعد أن وسع بدر الجمالى هذه المدينة واكمل بناء هذا المسجد وانتقلت اليه قراءة القرآن بعد أن كانت مقصورة على الجامع الأزهر فكان يطلق عليه جامع الخطبة . ويحدثنا المقريزى (١٧) عن المسبحى أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب فى هذا المسجد فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ هـ وذلك قبل أن يتم بناؤه وسار فى ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف وعليه طيلسان وبيده صولجان وزاد المسبحى أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٣ هـ / ٩٠٥ م باتمام بناء هذا الجامع فتم ذلك سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة وهى أول صلاة اقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه وفى سنة ٤٠٢ هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى فخصه الشيء الكثير (١٨) .

ولقد آتت هذه الدعوة الشيعية ثمرتها فى عهد المستنصر بحيث يبين المؤرخون نجاحها بقولهم ان المصريين اقبلوا عليها رجالا ونساء وأصبح المذهب السنى غريبا ومثل هذا النجاح فى الدعوة الفاطمية لم يذكر لأى خليفة سابق مثله كذلك كانت نتائجها السياسية هائلة وقد كان هدفها العمل على الطعن فى أعدائها السنيين ولاسيما فى العراق والى استمالة رعاياهم بالانضمام اليهم ليقودوا الصراع فى بلادهم تمهيدا لسيادة الخليفة الفاطمى على جميع المسلمين (١٩) . وقد جر ذلك الى قيام فقهاء العراق السنيين بالرد على الدعوة الفاطمية أظهرهم الفقيه الغزالى سنة ٥٠٥ هـ الذى الف كتابا سماه فضائح الباطنية اتهم فيه الفاطميين بابطال الشرائع وايد شرعية الخليفة العراقى السنى .

ولابد لنا أن نقر أنه على الرغم من الحماس للدعوة فى عهد المستنصر فان الدولة فى عهده لم تكن تجبر احدا على اعتناقها او أنها تعصبت ضد المذاهب الأخرى (٢٠) .

وقد عمل دعاة الفاطميين على ترويج المذهب العلنى (٢١) بين السنيين

---

(١٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(١٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٧٧ .

(١٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥ — ١٦ — المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٧ .

(٢٠) د . عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر الفاطمى ص ٦٢ — ٦٤ .

(٢١) للفاطميين دعوة علنية يذيعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلقنونها للخاصة من الدعاة .

والاسماعيليين بحيث يرضى هؤلاء ولا يثير سخط السنيين .

ومما يلفت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغيرات المذهبيـــة أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث بل ان المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراســة عقائد المذهب الاسماعيلى وأصوله لم تبدأ الا فى أواخر عهد الخليفة العزيز بالله ، وغدا الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة (٢٢) .

أما عن نظام الدعوة فكان داعى الدعاة شخصية رسمية تحتل منصبا كبيرا فى الدولة اذ كان من عمله هو ومعاونوه أن يحولوا كل موظف فى مصر بل وفى الامبراطورية الى نصير أو تابع لعقائد الدولة الجديدة (٢٣) .

فالخليفة الفاطمى بنفسه يعين الدعاة ويكلفهم بنشر العقيدة (٢٤) التى يشرحها لهم وهو وحده المسئول عن صحتها فيقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآنى الى الامام قبل قراءته على المستجدين أو على الحاضرين فى مجالس الدعوة. أو فى المساجد فاذا نال موافقته وضع عليه علامته فيصبح الكـلام الذى يلقى مقدسا غير قابل للتبديل أو التغيير . وأحيانا أخرى كان الامام يرتب فى قصره محاضرات او مجـــالس يلقيهـا بنفســه ويدعو العلمــاء الى تأليف الكتب عن عقــائد المذهب الفاطمى (٢٥) .

فقد طلب المعز من النعمان الاطلاع على العلوم الخاصة بأهـل البيت والتأكد من صحة النصوص التى تنقل عنه . فكان النعمان فى مؤلفاته عن الائمة دائم الخوف من أن يرتكب غلطات وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التى تقدم اليه كذلك كان على الامام أن يقوم بواجب الجهاد ضـــد الكفــــار وهو فرض صريح فى العقيدة الفاطمية (٢٦) .

وفى الجملة كان الائمة الفاطميون يميلون الى الاحتفــاظ بمظهرهم كرؤســـاء للدين اكثر منهم خلفاء فهم قبل كل شىء زعماء المذهب الفاطمى احدى فرق الشـــيعة

---

(٢٢) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٤ .
(٢٣) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٠ وما بعدها .
(٢٥) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم جـ ١ ص ٦٧ .
(٢٦) أنظر مقدمة رسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان . للدكتور وداد القاضى .

فكان الامام يشترك فى كل الأعياد الدينية والشيعية على الخصوص فيخرج فى حفل رسمى للصلاة بالناس وللخطبة فى الجمعة (٢٧) . فهذا فى رأى ناصر خسرو كان من شأنه ان يعلى مرتبة الامام .

ويدل على مدى الاهتمام بالدعوة اننا سمعنا عن دعاة فى جميع انحاء البلاد المصرية حتى فى القلزم على البحر الأحمر أما فى خارج مصر فكان ميدان نشاط الدعاة واسع المدى ينقسم الى اقاليم تسمى جزائر جمع جزيرة تشتمل على أملاك الفاطميين وبلاد الأعداء فى المذهب وفى بلاد خارج دار الاسلام . ويبلغ عدد هذه الجزائر اثنتى عشرة تبدو موزعة على اساس جغرافى أو جنسى وهى العرب والبربر والزنج والحبشة والخزر والصين والديلم ، أى العربى ، والروم والهند ، وأفغانستان الحالية ، والسند والصقالبة (٢٨) .

وقد خصص للدعوه زمن الحاكم (٢٩) فى أول الأمر يومان فى الأسبوع ثم اصبح ثلاثة ايام فكان لعامة الرجال يوم الأحد وللنساء يوم الأربعاء وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء ولكن يبدو أن الدعوة أصبحت تعقد كل قوم فكان مجلس للخاصة ومجلس للموظفين ورجال القصر ومجلس لعامة الناس ومجلس للطارئين على البلد ومجلس لعامة الناس ومجلس لحريم القصر حتى أن مؤلف كتاب غايه المواليد يقول بان المراه الشيعية قد تصبح داعية يضاف الى ذلك أنه كان يدعى الى مجالس الدعوه فى مصر من بلاد الأعداء رجال معروفون أو من يمر بها من الطارئين بقصد جعلهم دعاة للعقيده الفاطمية فى بلادهم وأدوات طيعة لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية وان كانوا فى نفس الوقت من الشيعة المخلصين فكانت هذه الدعوة الواسعة تحتاج الى عقد مجالس عديدة لتغذية هذا العدد الكبير من الراغبين فيها بعقائدها (٣٠) .

وفوق ذلك فقد اسس الحاكم عدة جوامع منها : جامعه المعروف بجامع الحاكم أو الجامع الأنور او الجامع الكبير أو جامع الخطبة (٣١) وكان قد انشىء

(٢٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٤٩ .
(٢٨) د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ٧٩ .
(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٥ — المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٧ .
(٣٠) د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٣١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ — المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٦ .

خارج سور القاهرة فى عهد العزيز الذى توفى قبل اتمامه ، فأمر الحاكم باتمامه واستمر بناؤه زهاء عشر سنين الى سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م - ١٠٠٣ م ومنها جامع راشدة الذى كان فى الأصل كنيسة على النيل بجنوب مصر . فحولت الى جامع سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م وقد صحح على بن يونس الفلكى المشهور قبلته (٣٢) . وربما عرف بجامع راشدة على اسم قبيلة راشدة التى نزلت موضعه ابان الفتح العربى أو على اسم الكنيسة أو على اسم عمة الحاكم راشدة بنت المعز التى توفيت فى أيام الحاكم وخلفت ثروة هائلة ومنها جامع المقسى الذى أنشىء على النيل (٣٣) . وقد أحصيت الجوامع فى مصر فكانت تفوق العدد الذى ذكرناه سابقا فكان مسجد الحاكم يحمل اليه القناديل والتنانير والمصاحف والبخور والستور والحصر والانشاءات الخاصة بشهر رمضان فى مواكب شعبية يهلل الناس فيها ويكبرون فيرددون « لا حول ولا قوة الا بالله والله اكبر » (٣٤) .

حقا ان الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوه وتنفق عليها الأموال الطائلة (٣٥) .

أما عن مجالس الدعوة الفاطمية فى القصور فقد استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم فى جيوشهم لبث الدعاية باسمهم وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى وبعد الفتح تذاع على يد داعى الدعاة . وكان من كبار الموظفين وقد خصص له المعز مكانا فى قصره (٣٥) .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى مكانين كبيرين من قصر الخليفة فكان يجلس على كرسى الدعوة فى المجلس وهو اصطلاح فاطمى يطلق على الكراسة التى تكتب فيها دروس الدعوة لتلقى على المريدين المؤمنين بالمذهب الفاطمى وكان داعى الدعاة يعقد هذه المجالس ويوقع عليها الخليفة لاعتمادها ثم تدفع الى الدعاة لتلاوتها فى الأيام المحددة لذلك وكانت المجالس تتفاوت فى محتوياتها تبعا لتفاوت من تكتب لهم رجالا أو نساء مؤمنين من القدماء أو مريدين من المستجدين (٣٦) . ويبدأ

---

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٩ وما بعدها .
(٣٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٣ .
(٣٤) د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ٨٠ .
(٣٥) د . على ابراهيم : جوهر الصقلى ص ٦٢ .
(٣٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣ .

بمحاضرة الرجال ثم يعقد للنساء مجلسا خاصا يعرف بمجلس الداعى وهو المحول فيجلس الداعى فى القصر الذى تخصص لنشاط الدعاة الرسميين الفاطميين بالقاهرة ويعرف بقصر البحر ويدخل اليه من باب الريح وبابه من باب البحر . كما كان الداعى يصلى بالناس فى رواقه فى أثناء الاجتماعات . ومما يروى عن نشاط الدعاة فيه أن القاضى محمد بن النعمان جلس على كرسى بالقصر لقراءة علوم ال البيت على الرسم المعتاد له ولأخيه بمصر وهكذا كان النشاط الدعائى للدعوه يشرف عليه داعى الدعاة الذى تلى مرتبته قاضى القضاة ومن هذه الشخصيات ابن سلامة أبو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى المعروف بالجليس قاضى القضاة وداعى الدعاة (٣٧) . فكان داعى الدعاة يحاضر الناس ويلقنهم المذهب الشيعى فى المكانين السابقين فاذا فرغ من القاء محاضراته على الحاضرين ساروا اليه لتقبيل يده . فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى عليه امضاء الخليفة كما كان داعى الدعاة يجمع النجوى من الاسماعيلية وهى ثلاثة وثلاثون دينارا فيعطى رقعة مذيلة بتوقيع الخليفة وفيها هذه العبارة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » . وجمع النجوى من الاسماعيلية يتم فى أثناء انعقاد هذه المجالس (٣٨) . كما أن القاضى النعمان فى عهد المعز لدين الله الفاطمى قد اضطلع بأعباء داعى الدعاة الذى قام بتدريس فقه الأئمة الاسماعيلية فى الجامع الأزهر (٣٩) .

كما أعد قصر الخلافة مجلسا يلقى فيه النعمان المحاضرات فى اصول المذهب الاسماعيلى فى زمن المعز والعزيز حتى اذا انعقد مجلس الملك فى قاعة الذهب بقصر الخليفة واخذ الأمناء فى تقديم من ينبغى تقديمه للخليفة فكان الوزير اول من يقوم الى الخليفة فيحيى أمير المؤمنين يلثم يديه وطرف ردائه ، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها الى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاه فيقترب من الخليفة ويحييه ، برفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلا « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وبهذا يتميز على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع ثم يسمح بزعماء الطوائف المختلفة بتحية

---

(٣٧) المقريزى : المرجع السابق ص ١٦٦ — ١٦٨ — ٢٩٨ .
(٣٨) المصدر السابق ص ٣٩١ ج ١ .
(٣٩) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٦ .
(٤٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

الخليفة باسم جماعتهم (٤٠) . واذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه وسار القاضى عن يساره يتبعه داعى الدعاة (٤١) .

وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الاسماعيلية (٢٤) .

لهذا نجد ان الخليفة العزيز بالله قد اعتمد فى بلوغ أغراضه فى نشر المذهب الشيعى على الشعراء والأدباء والعلماء وكبار الموظفين فأصبحوا لسانا ناطقا بما يريد الخليفة العزيز بالله (٤٢) .

وكان القصر مركزا من مراكز الدعوة الفاطمية فى عهدى المعز والعزيز حيث تولى أمر الدعوة الاسماعيلية فيها موظف كبير يسمى داعى الدعاة وحدد له مكان خاص فى قصر الخليفة هى دار العلم (٤٤) .

وكان داعى الدعاة يتسلم كتب الدعوة التى تقرأ على الناس فى القصر من سلطة المباشرة اما هذه الكتب فقد الفها علماء مشهورون من امثال أبى حنيفة النعمان المغربى ويعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز (٤٥) . فقلد الخليفة العزيز قاضى القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة الى المذهب الفاطمى فى القصر كما كان اخوه الحسين يتولى الدعوة فى القاهرة . وكان قصر العزيز بالله مزودا بمكتبة كبيرة تحوى كثيرا من كتب الدعوة الفاطمية (٤٦) وسمح لعامة الناس بالاطلاع على كتبها كما اعتمد الخليفة على بيت النعمان فى نشر الدعوة الفاطمية وكان أبو حنيفة النعمان أول من أسس الدعوة الاسماعيلية فى عهد الخليفة المعز (٤٧) .

كما اتخذ الفاطميون فى مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز انشر الثقافة

---

(٤١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٦ — ٢٧ .
(٤٢) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٤ .
(٤٣) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٤٥ .
(٤٤) المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٤٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٧ — لينبول : سيرة القاهرة ص ٧٠ .
(٤٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٤٧) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٥٧ .

الشـــيعية خاصة وهى تدل على ذكائهم ومهارتهم فانهم الحقوا بها مكتبات تحتـوى على مئات الألوف من الكتب (من المصنفات) (٤٨) .

ومن ثم رغب الفاطميون فى الحصـــول على اكبر عدد من الكتب ابتغـــاء نشر تعاليم مذهبهم وقد حمل المهدى معه على ما ذهب ابن الأثير (٤٩) . من ســـلمية جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه .

ولهذا نرجح أن المعز قد حمل معه الى مصر عددا عظيما من الكتب التى كانت فى مكتبته الخاصة بالقيروان مع ما حمله من الأثقـال عند رحيله الى هذه البـلاد وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٣ م حيث أمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى باغلاقها (٥٠) . اذ نمى اليه ان رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب الســـنة الثلاثة وهى : الشـــافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على هذا المكان وان كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب . وقد اعتنق هذا المذهب شـيخان من الأســـاتذة المحنكين فى القصر (٥١) .

لهذا وذاك أمر الأفضـــل باغلاق هذه المكتبة لأن وجودها أصـــبح لا يتفق والغرض الذى أنشـئت من أجله وهو بث عقائد المذهب الشـــيعى لا غير وكانت نتيجة ذلك أن قتل نفر ممن دانوا بعقائد المذهب وبعد وفاة الأفضل أصـــدر الخليفة الآمر ســـنة ٤٩٥ هـ/ ٥٢٤ هـ — ١١٠١ م / ١١٣٠ م أمرا باعادة دار العلم الى ما كانت عليـــه (٥٢) .

وفى عصر الحاكم بأمر الله اتخذت مجالس الحـكمة أهمية خاصة ونظمت فى معهد رســمى خاص يعمـــل لبث الدعوة الفاطمية السرية وقد أنشىء هذا المعهـد المعروف بدار العلم داخل حرم القصر الكبير حيث كان المثقفون على اختلاف آرائهم

---

(٤٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣١ .
(٤٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٤ .
(٥٠) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٦ وما بعدها — ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٦ .
(٥١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤ — ١٧ .
(٥٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

يجتمعون ويتناقشون فى أى موضوع شاءوا تغذيهم مكتبة قيمة (٥٣) ويكون مركز الوحى والتوجيه (دار العلم) . وقد يبدو غريبا أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة الجريئة على يد الحاكم بأمر الله (٥٤) .

وحقيقة أن مجالس الدعوة التى كانت تعقد بالقصور كانت من أهم المجالس واوفرها سرية وتكتما وأرقاها من حيث مستوى الطوائف التى تشهدها حتى كان قيام دار الحكمة متوجا لهذه السياسة وقد كانت مجالس القصر ودار الحكمة بلا ريب أقوى هذه الوسائل وأسطعها . وذلك لأنها تحتوى على أقسام مختلفة « قسم للقرآن الكريم وعلوم الدين ، وقسم لعلوم النحو واللغة ، وقسم للطب » (٥٥) .

وهكذا كان التعليم فى هذه الجامعة الكبرى على نفقة الدولة وكان أمر الاشراف عليها وعلى سير الدراسة بها موكلا الى رجل عظيم من كبرائها هو داعى الدعاة ويلى قاضى القضاة مباشرة (٥٦) .

ومهما يكن من شىء فلا شك أنه كان فى القصر وفى دار العلم مجموعة عظيمة من الكتب الغرض منها تعضيد نشر عقائد الفاطميين وتلقينها الناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول على النسخ الفريدة النادرة كما قلنا حتى أتيح لمكتبة القصر فى القاهرة أن تنافس وتبز غيرها من المكتبات فى العالم الاسلامى .

على أن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب ان لم يكن من المستحيل على الباحثين فى تاريخ الفاطميين فى مصر أن يقفوا وقوفا دقيقا تاما على تاريخ الامبراطورية الفاطمية العظيمة فالأيوبيون السنيون الغلاة هم الذين كانوا أعداء الداء للشيعة لم يحاولوا القضاء على الشعائر الشيعية فحسب بل عملوا على ازالة كل معالم الحضارة الفاطمية (٥٧) .

وقد رأينا أن نتحدث عن أشهر علماء الدعوة الفاطمية فنذكر منهم القاضى

---

(٥٣) ستانلى بول : سيرة القاهرة ص ١٣٨ .
(٥٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٥٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٦ .
(٥٦) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٧٦ .
(٥٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

ابو حنيفة وهو النعمان بن محمد بن منصور ابو حنيفة بن حيون التميمى (٥٨) ويقول المقريزى هو فى الأصل « القاضى ابو حنيفة محمد بن النعمان محمد وهو غير صحيح ولكن هو القاضى ابو حنيفة النعمان ولم يكن محمد من اسماعيلية بل محمد ابنه » .

وقد اختلفت المراجع فى ذكر ولادته والمرجح انه ولد فى العشر الأخير من القرن الثالث وتوفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م بالقاهرة ويعرف فى تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضى النعمان تمييزا له عن ابى حنيفة النعمان صاحب المذهب السنى المعروف وكان فقيها كبيرا واتصل بخلفاء الفاطميين منذ قيام الدولة واتى مصر بصحبة المعز . وولى بها القضاء مشاركة مع ابى الطاهر الذهلى الذى كان يلى القضاء قبل الفتح الفاطمى وكان النعمان نقيب الشيعة الأكبر وهو الذى دون الفقه الاسماعيلى فى كتب كثيرة اهمها كتاب « دعائم الاسلام » الذى نشره اخيرا فى القاهرة ولا زال هذا الكتاب عمدة طائفة البهرة بالهند (٥٩) .

والقاضى النعمان من اركان الدعوة الفاطمية ومذهبهم بمصر وكان واسع العلم بالفقه والقرآن والأدب والتاريخ من اهل القيروان مولدا ومنشا تفقه بمذهب المالكية وتحول الى مذهب الباطنية : عاصر المهدى والقائم والمنصور والمعز منشىء القاهرة وخدمهم وقدم مع المعز الى مصر وهو كبير قضاته . وقال ابن حجر أيضا فى كتبه ما يدل على انحلال عقيدته له : « اختلاف اصول المذهب » يرد فيه على ادلة الاجتهاد وينصر الاسماعيلية وكان الخليفة الظاهر قد أمر الدعاة بحض الناس على كتاب دعائم الاسلام وذكر الحلال والحرام (٦٠) ، وجعل لمن يحفظه مكافاة وله « مختصر » وتاويل دعائم الاسلام فى جزئين ويسمى تربية المؤمنين كما ان للقاضى النعمان من المؤلفات الكثيرة نخص بالذكر منها كتاب « المجالس والمسايرات » و « اخبار الحديث » و « افتتاح الدعوة » الذى سماه ابتداء الدعوة للفاطميين بالمغرب و « الهمة فى اتباع الائمة » و « مختصر الآثار فيما روى عن الائمة الأطهار » وهو متداول الآن بين طائفة البهرة ، و « اساس التاويل الباطن والمناقب والمثالب » وردود على بعض الائمة « كالشافعى ومالك وأبى حنيفة » وشرح

---

(٥٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٥ .

(٥٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١٠ ص ٢١٥ .

(٦٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢ .

الأخبار فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الأخيار « والمنتخبة قصيدة فى الفقه » . وقال الذهبى : كتبه كبار مطولة وكان وافر الحشمة عظيم الحرمة فى أولاده قضاة وكبراء (٦١) .

ولما توفى العزيز وخلفه ابنه الحاكم أقر ابن حيون على القضاء وبسط وركب الى داره يوم وفاته وصلى عليه ووقف على دفنه (٦٢) .

وقد جلس فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت وحضره الناس فمات من الزحام أحد عشر رجلا (٦٣) .

وقد نبغ القاضى النعمان فى مجال القضاء والفكر حتى انه لما تولى المعز الامامة فاشتدت صلة النعمان به حتى انه كان يجالسه ويسايره وقل أن يفارقه ووضع النعمان كتابه المجالس والمسايرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من امامة المعز . ولما رحل المعز من أفريقية الى مصر سنة ٣٦٢ هـ اصطحب معه بنى النعمان وكان النعمان اذ ذاك قاضى الجيش (٦٤) . وكان من الطبيعى أن يقلد النعمان قضاء مصر ولكن المعز بعد ان استقر بمصر ترك القضاء لأبى طاهر الذهلى محمد بن أحمد الذى كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وطلب الى أبى طاهر ان يحكم بفقه الفاطميين فكان لابد للقاضى من أن يسترشد فى أحكامه بالقاضى النعمان وما زال كذلك حتى توفى سنة ٣٦٣ هـ (٦٥) .

قلد أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان القضاء الى ما بيده من النظر فى المظالم وخلع عليه وقلد سيفا محلى بذهب وحمل على بغلة وبين يديه سفط ثياب (٦٦) .

كما خاطب المعز على بن النعمان بالقضاء وأذن له فى النظر فى الأحكام فجلس فى داره ومسجده ونظر فى الأحكام . قال ابن زولاق : « حضر على بن النعمان

---

(٦١) خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ٩ ص ٨ .
(٦٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٦٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٣٨٥ .
(٦٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٦ — ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٦٥) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٤٤ .
(٦٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٠ .

القاضى جامع القاهـرة (الجامع الأزهـر) وأمالى مختصر ابيه فى الفقه عن أهـل البيت ، ويعرف هذا المختصر « بالاقتصار » وكان جمعا عظيما (٦٧) » . وقد نبغ من اسرة بنى النعمان عدد كبير من العلماء والفقهاء تولوا جميعا القضاء وتولى بعضهم الدعوة بالقاهرة وتركوا اثرا كبيرا فى الحياة العقلية بمصر فى العصر الفاطمى قرابة قرن من الزمان (٦٨) .

واذلك كانت أسرة النعمـان ممن كان لهم اثر فى الحيـاة العقلية والسياسية وكذلك كان بنو النعمان اسـاتذة مدرسـة المذهب الفاطمى بمصر كمـا كان بنـو النعمان فى مكانة لا تقربها مكانة اخرى لدى ائمة الفاطميين وقد أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشـهر فقهـاء المذاهب الفاطمى ومن أكثرهم تاليفا للكتب وتعد مؤلفاته من الأسس التى تبعها من جاء بعده من علماء هذا المذهب بل لا تزال بعض كتبه الى اليوم من اهم الكتب واقومها لدى طائفة البهرة الاسماعيلية . هذا الرجل هو القاضى ابو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمـد بن منصور بن حيون التميمى المغـربى (٦٩) .

وممن برز من اعـلام الدعوة الفاطمية فى العصر الفاطمى هو المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى بن داود الشـيرازى السـلمانى أبو نصر المؤيد فى الدين داعى الدعاة من زعمـاء الاسـماعيلية وكتابها ولد وتعلـم بشـيراز . تـم له القيام بدعوة الفاطميين فيها واضطر الى مغادرتها فخرج متنكرا الى الأهواز سنة ٤٣٦ هـ واقـام مـدة فى حلة منصـور وتوجه الى مصر فخـدم المستنصر الفاطمى فى ديوان الانشـاء وتقدم الى أن صار اليه أمر الدعوة الفاطمية سنة ٤٥٠ هـ ولقب بداعى الدعاة وباب الأبواب (٧٠) ثم نحى وابعد الى الشام وعاد الى مصر فتوفى فيها عن ثمانين عاما وصلى عليه المستنصر اما نسبته الى سـلمان الفارسى قيل هو من نسـله وقيل بل رتبته عند الاسـماعيلية كرتبة سلمان وكانت بينه وبين ابى العلاء المعرى مراسـلة حوالى سنة ٤٤٩ هـ فى موضوع اكل النبات نشرها المستشرق مرجيلـوث

---

(٦٧) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .
(٦٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢١٥ .
(٦٩) د. محمد كامل حسـين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٤٢ — دكتـور علـى حسنى الخربوطلى — عماد الدين ادريس المؤرخ والداعى الفاطمى ص ١١٠ .
(٧٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥ وما بعدها ؛ المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٠ .

فى مجموعة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩٠٢ م وكانت رغبة المستشرق الانجليزى أن يعرف عنه شيئا فخانه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته .

فبالرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة فقد وفد على مصر واقام بها زهاء ثلاثين عاما واستمع له جمهرة من المصريين اخذوا عنه علوم الدعوة فاثرى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى كان ينادى بها وفى مصر اخذ عنه مالك قاضى الصلحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة الى اليمن واصبح اليمنيون يدينون بالولاء للمؤيد بالأستاذية فى علوم الدعوة . وفى مصر انشد المؤيد اكثر قصائد ديوانه والقى مجالسه التى بلغت الثمانمائة مجلس (٧١) .

وقد كان المؤيد فى الدين من اكبر علماء عصره وتدلنا كتبه التى وصلت الينا على انه كان واسع الثقافة ملما الماما تاما بجميع العلوم التى عرفت فى العالم الاسلامى اذ ذاك قوى الحجة فى مناظراته وجداله مع مخالفيه . وقد صدق ابو العلاء المعرى حين وصفه بقوله : « وسيدنا الرئيس الأعلى المؤيد فى الدين لا زالت حجته باهرة ودولته عالية ... ولو ناظر ارسطاليس لجاز ان يفحمه او افلاطون لنبذ حججه خلفه » (٧٢) .

ويكفى ان ننظر الى مناظرات المؤيد مع المعرى لندرك كيف كان شيخ المعرة يتهرب من هذه المناظرة وانه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه . فاعترف له بالتفوق فى الجدل وانه ورث علم الأولين (٧٣) .

والمؤيد فى الدين داعى الدعاة هو العالم الذى بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه فمن مؤلفاته أو تصانيفه : السيرة المؤيدية باسم سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة وفيها كثير من أخباره ومجموعة اشعاره — ديوان المؤيد فى الدين وله بالفارسية — اساس التأويل ترجمه عن العربية واصله للقاضى النعمان (٧٤) وهو تأويل قصص الأنبياء . وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والجواب وكتاب شرح المعاد ويعتبر المؤيد استاذ الدعوة فى اليمن والهند . كما يعد أستاذ ناصر خسرو الشاعر الفارسى المعروف . فقد ذكره ناصر فى اشعاره ووصف مجالسه (٧٥) .

---

(٧١) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٥٩ — ٦٠ .
(٧٢) معجم الأدباء : لياقوت الحموى ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٧٣) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٦٤ .
(٧٤) خير الدين الزركلى : الاعلام ج ٩ ص ٦٤ — ٦٥ .
(٧٥) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٥٤ — ٦٥ .

وهكذا كان للمؤيد اثر فى الحيـاة السياسـية والعقلية والأدبية . ويعتبر يعقوب بن كلس من اشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم اثر فى الحيـاة العقليـة بمصر ، كان مولده ببغـداد من أسرة يهودية ثم اسـلم ، عـاصر الدولة الاخشـبدية ثم هرب (٧٦) من كافور وعاد مع جيوش المعز لدين الله الفاطمى فولاه المعـز النظر فى جميع أموره فى قصره . وبعد قليل توفى المعز ففوض العـزيز بالله ليعقوب النظر فى سـائر اموره وجعله وزيرا له سنة ٣٦٧ هـ فكان ابن كلس أول وزير فى الدولة الفاطمية (٧٧) .

وقد عكف ابن كلس على الدرس والبحث فتعمق فى الدين الاسـلامى حتى اصبح عاما من أعلام الدعوة الفاطمية فقد كان محبا للعلم والعلماء مشجعا لمن طلب العلم يغدق المنح والعطايا للكتاب والشـعراء وكانت داره تغص بالنساخ والكتاب فمنهم من ينسخ القرآن الكريم والحديث والفقه وينتظرون ويشكون فمن مؤلفات ابن كلس : كتاب فى القراءات ، كتاب علم الأبدان وصـلاحها ، كتاب فى الأديان وهو فى الفقـه ، مختصر الفقـه وهو المعروف بالرسـالة الوزيرية ، كتاب فى آداب الرسـول (٧٨) صلى الله عليه وسلم . لكن ابن كلس قد توفى سـنة ٣٨٠ هـ حيث اجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشـييعه الى مقره الأخير . ولبس أدل على حب العزيز لابن كلس من ان قال له : « وددت أنك تبـاع فابتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى » (٧٩) .

أما حميد بن عبد الله الكرمانى حميد الدين ويلقب بحجة العراقين من دعـاة الاسـماعيلية وكتابهم كان داعى الدعاة للحاكم بأمر الله الفاطمى فى مصر والمسئول فى أيامه عن الدعوة فى المشرق وهو يخالف غلاة الاسماعيلية الذين أصبحوا دروزا . ومن مؤلفاته : مجموعة رسائل تبلغ ثلاث عشرة رسالة أهمها : الرسالة التاسعة ، اسـمها « مباسـم البشارات بالامام الحاكم بأمر آلله أمير المؤمنين » ، والعـاشرة واسمها « الواعظة فى الرد على الفرغانى والأجدع » ، والحادية عشرة واسـمها « الكافية فى الرد على الهارونى الحسـن » . ومن أعظم كتبه « واحة العقـل » فى مجلد (٨٠) .

---

(٧٦) المقريزى جـ ٣ ص ٧ — الخطط جـ ٣ .
(٧٧) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٥ .
(٧٨) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٦ — ٥٧ .
(٧٩) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٩ .
(٨٠) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ١ ص ١٤٩ .

دور أهل السنة فى مصر فى الحياة الفكرية

وهنا نعرض لموضوع كثر فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمى الى الآن ، فقد ذهب بعض المؤرخين الى أن الفاطميين كانوا شديدى التعصب لمذهبهم الدينى وتطرفوا فى عصبيتهم حتى انهم اكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لا رغبة وأنهم فى سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذهب أهل السنة بل افنوهم تقتيلا (١) .

ويقول السيوطى : ان الفاطميين افنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة : اى الشافعية والمالكية والحنفية قتلا ونفيا وتشريدا واقاموا مذهب الرفض والشيعة . وذهب البعض الآخر من المؤرخين المحدثين الى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية وأن جوهر الصقلى اعطى الأمان للمصريين بأن يختاروا المذهب الدينى الذى يرتضونه ولا اكراه فى الدين وبلغ من تسامح الفاطمين الى أن استخدموا فى أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلما (٢) . فكان من الوزراء والنواب فى الأقاليم وكتاب دار الانشاء من كان مسيحيا أو يهوديا . أما الاضطهاد الذى حاق بأهل السنة فقد كان فى أيام الحاكم بأمر الله الذى عرف بالتقلب فى سياسته واحكامه (٣) .

ومما يؤكد هذا أننا اذا نظرنا فى كتب التاريخ رأينا عددا كبيرا من علماء أهل السنة كانوا يعيشون فى مصر الفاطمية ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يمسهم سوء . فمن علماء مذهب الشافعى القاضى أبو الفضل محمد بن احمد بن عيسى البغدادى نزيل مصر فقد أملى بها وأفاد حتى توفى سنة ٤٤١ هـ (٤) وأبو القاسم نصر بن بشر بن على فقد كان فقيها محققا ومناظرا مبرزا وتوفى سنة ٤٧٧ هو القاضى أبو الحسن على بن الحسين الموصلى الخلعى المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان فقيها مشهورا له

---

(١) د . محمد كامل حسين : فى دب مصر الفاطمية ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .
(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٩٠ — ٩١ .
(٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٠ .

تصانيف وروايات متسعة وكان أعلى أهل مصر اسنادا وجمع له ابو نصر احمد ابى الحسن الشيرازى عشرين جزءا وخرجها عنه وسماها الخلعات وبالرغم من انه كان شافعى المذهب فقد ولاه الفاطميون سنة ٤٠٥ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ — وينسب اليه مسجد الخلعى بالقرافة وكان والده ايضا من فقهاء الشافعية توفى بمصر سنة ٤٤٨ هـ (٥) .

ومن فقهاء الشافعية فى ذلك العصر ابو الفتح سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسى الذى قال عنه الحافظ السلفى كان من أفقه الفقهاء بمصر وقرأ عليه اكثرهم . ولد بالقدس سنة ٤٤٢ هـ وتفقه على الشيخ نصر المقدسى ثم دخل مصر فظل بها الى أن توفى سنة ٥١٨ هـ (٦) وكذلك عن أبى الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على الميورقى الذى اتخذ الاسكندرية موطنا له وصنف تعليقه فى الخلاف بين الفقهاء وهو احد الذين روى عنهم الحافظ السلفى وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٣ هـ ومجلس ابن جميع بن نجا المخزومى المصرى صاحب كتاب الذخائر تفقه على سلطان المقدسى وبرع فى فقه الشافعى حتى صار من كبار الأئمة وتفقه عليه جماعة منهم العراقى شارع الذهب وبالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف مذهب أولى الأمر فى البلاد فقد ولى القضاء سنة ٥٤٧ هـ . وتقلب فى القضاء عامين ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تصانيفه كتاب أدب القضاة وكتاب الجهر بالبسطة (٧) .

وابو محمد بن عبد الله رفاعة بن غدير السعدى المصرى الذى ولى قضاة الجيزة فقد كان ماهرا فى الفرائض أخذ عنه الخلعى ولازمه مدة طويلة وهو آخر من حدث عنه ثم ترك القضاء واعتزل فى القرافة متعبدا الى ان توفى سنة ٥٦١ هـ (٨) .

وهكذا نرى عددا كبيرا من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون فى العصر الفاطمى ومنهم من ولى القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة اثر فى حياتهم العلمية والعملية (٩) .

كذلك نقول عن فقهاء المالكية فقد وجد فى مصر الفاطمية عدد كبير منهم امثال

---

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٨٨ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٢٨ .
(٧) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٨ .
(٨) المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٩) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠١ .

محمد بن سليمان المعروف بأبى بكر الفصال الذى كانت اليه امامة المالكية فى وقتــه واليه كانت الرحلة بمصر فكانت حلقته فى الجــامع تدور حول ســبعة عشر عمودا لكثرة الطلاب الذين كانوا يتصدونه للأخذ عنه وتوفى فى الجامع ســنة ٣٨٠ هـ وأبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله القاضى المصرى صــاحب المســند الموطأ المتوفى فى شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ (١٠) ومن فقهاء المالكية أيضا عبد الوهاب بن على احد الأئمة المجتهدين فى المذهب حتى وصفه الخطيب فىتاريخ بغداد بانه لم يــر فى المالكية افقه منه . ولقد وفد الى مصر لضيق حاله فى بغداد وأكرمه المصريون حتى تحول وتحسنت حاله ولما أدركه المرض كان يقول « لا اله الا الله عندما عشنا متنا » . وتوفى بمصر سنة ٤٢٢ هـ (١١) .

ونسمع أيضا فى هذا العصر عن عبد الجليل بن مخلوف الصقلى الذى قال ابن ميسر عنه : انه أفتى بمصر أربعين ســنة ومات بهــا ســنة ٤٥٩ هـ وعن على بن الحسن بن محمد بن العباس النهرى صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ وعن ابى بكر الطرطوشى محمــد بن الوليد الأندلسى نزيل الاسكندرية (١٢) . وكان كثير الرحلة فى طلب العلم فسار الى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الاسكندرية واتصل بالوزير المأمون البطــائحى الذى أكرمه فصــنف له الطرطوشى كتــاب : « سراج الملوك » . وكان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عثمان بن ابراهيم الأزدى الذى خلفــه فى حلقته والذى شرح المــدونة وتوفى الطرطوشى سنة ٥٢٥ هـ وتوفى تلميذه سنة ٥٤١ هـ . اذن نستطيع أن نطمئن أن دراسة مذهب مالك استمرت فى مصر فى العصر الفاطمى بجانب مذهب الشافعى بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع الى هذين المذهبين وأن دعاة المذهب الفاطمى كثيرا ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب السنية فى مجالس حكمتهم وفى اشعارهم وها هو داعى الدعاة المؤيد فى الدين يقول :

فمــا أبو حنيفــة والشــافعى حيثهم قــد نفعوا بنافع (١٣)

ويقول مرة أخرى :

---

(١٠) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٦ .
(١١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٢ .
(١٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٢ .
(١٣) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

وتزيد لبس الشـافعى لامالك ببيان زين العـابدين وجعفـر
وقيـاس قيـاس منبرجـا بالاعتـزال وترهـات المجبـر (١٤)

بيد أن الفاطميين تركوا للفقهاء فى هذه المناصب حريتهم العقلية وسمحوا لهم بالتحلق فى المسجد والقاء تعاليم المذاهب السنية . على من يشاء من الطلاب وقـد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لـما أمـر بعمارة دار العلم ونقل اليهـا الكتب من القصر اسكنها من شيوخ السنة شـيخين أحدهما ابو بكر الانطاكى وخلع عليهما وقربهما وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته وأنه جمع الفقهاء والمحدثين الى دار العلم .

ويحدثنا عمارة اليمنى أن الملك الصـالح طلائع بن رزيك كان يلتقى فى ولايته فقهاء السنة ويسمع كلامهم (١٥) . مع ما كان عليه الملك الصالح من افراط فى التعصب لمذهبـه (١٦) .

أما عن المسالة التى اثارها المؤرخون حول تعصـب الفاطميين وتسـامحهم فيخيل الى أن الفاطميين كانوا يميلون الى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم أحيانا بالترغيب وأحيانا بالترهيب . فكان الدعاة يثيرون وابيهم فى تشكيك المسـلمين فى مذاهبهم السنية ويحببون اليهم المذهب الفاطمى فمن المصريين من اسـتجاب لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعـاة (١٧) . ومنهم من اسـتجاب لغرض التقرب الى الحاكمين عساه يجد حظوة لديهم وينال مآربه . وهذا اللون من الناس كثير فى كل البيئات والأقاليم . ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه الدينى واستمر يحافظ على عقيدته التى دان بها والتى نشاه عليها ابواه ولو أدى ذلك الى تعسف الحاكمين معه واذا كان الفاطميون استعملوا السيف فى سبيل نشر عقيدتهم واخضاع الخارجين على مذهبهم (١٨) .

فلا نستطيع أن ننكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ الف عام تقريبا كانوا يستعملون وسائل الارهاب لمخالفى عقيدتهم ولاسيما أن الشـيعة عامة ذاقت من

---

(١٤) القصيدة السابعة من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .
(١٥) د . محمد كامل حسـين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٢ نقلا عن النكت العصرية ـــ عمارة اليمنى ص ٤٥ .
(١٦) المرجـع نفسـه .
(١٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٢ .
(١٨) المرجـع السـابق .

العذاب والتنكيل على أيدى خصومهم ما تتحدث عنه كتب التاريخ .

ومن أمثلة التعصب الفاطمى فى عهد الحاكم بأمر الله الذى امر بقتل جماعة من العلماء السنيين وقتل أسامة بن محمد اللغوى والحسين بن سليمان الأنطاكى النحوى وفر ثالثهم عبد الغنى بن سعيد وذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم « دار الحكمة » (١٩) . كما أنه من الناحية المذهبية اتهم الحاكم بتنكيله بأهل السنة بعد أن كان قد خفف عنهم القيود . (٢٠) وأباح لهم دراسة مذاهبهم ومكنهم من ذلك فى دار العلم التى انشأها للدرس والبحث وهذا الاتهام يعوزه شىء من معرفة الظروف التى أقدم الحاكم فيها على تقريب المالكية ثم على العدول الى مذهبه القديم . ذلك أن المعز بن باديس صاحب القيروان كتب اليه يستنكر بعض أعماله فأراد الحاكم أن يسترضيه ويستميله اليه فأظهر اهتمامه بدراسة مذهب المالكية وأحضر العلماء لمناظرتهم فى مذهبهم وأمر بمحو سب الصحابة من المساجد والأسواق ونهى عن ذكرهم بغير ما يجب لهم من الاعزاز والتقدير ثم تغيرت الأحوال فعاد الحاكم الى مذهبه القديم الذى نشأ أسلافه عليه والذى تمسك خلفاؤه به الى أن قضى الله بزوال دولة الفاطميين (٢١) .

فالحاكم بهذا لم يقدم على ما أقدم عليه الا بدافع سياسى ولم يعدل عنه الا بعد أن تبين زوال أسبابه وخطورة الابقاء على موقفه من تأييد السنة فى دولة تحول كل تنظيماتها العقدية والمذهبية والعسكرية دون هذا . وما اشبه هذا بما فعله المأمون العباسى — مع مراعاة فارق العصر والظروف حين قرب منه العلويين ولبس شعارهم وخلع السواد شعار العباسيين وبايع بولاية عهده لعلى الرضا وتزوج ابنته . ثم لم يلبث أن عدل عن هذا الاتجاه العلوى بتأثير تحرك بغداد ضده وتغير موقف البيت العباسى منه (٢٢) .

ازاء هذا التعصب ضد أهل السنة اضطر مفكرو السنة الى شحذ فكرهم لمقاومة الفاطميين . ولكن أنى لهم ذلك بعد أن استفحل الفاطميون فى مصر ولكن جذوة أهل السنة لم تلتزم الهدوء بل ظهر منها رجال عظماء منهم القضاعى أبو

(١٩) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١١٣ .
(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٦ — ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦١ .
(٢١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٦ — ١٧ .
(٢٢) المرجع السابق ص ١٧ .

عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن على بن حكمون بن ابراهيم بن محمد بن مسلم المعروف بالقضاعى ولد بمصر حيث درس الفقه الشافعى والحديث على كبار شيوخها (٢٣) .

لذا لم يكن القضاعى شيعيا بل كان سنيا وكان فتيها شافعيا ثقة ، وبذا كان البعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمى (٢٤) .

ثم لم يلبث القضاعى ان رحل الى بغداد ومكة والشام رغبة منه فى الدرس وزيادة التحصيل على كبار العلماء فى عصره (٢٥) . والوقوف على أحوال البلاد الاسلامية فى زمانه وشغف بالبحوث التاريخية كما أحب الأدب وقد أضفت عليه كل هذه العلوم والمعارف سعة فى الأفق ووهبته شخصية جذابة لها منزلتها واحترامها مما اكسبه حب المستنصر بالله . فقربه اليه ومنحه ثقته وتقلب فى أيامه فى عدة وظائف منها وظيفة قاضى القضاة . كما أوفده على رأس بعثة الى بلاط الامبراطورة تيودورا فى بيزنطة سنة ٤٤٧ هـ ليعمل على عقد الصلح وتوثيق العلاقة بين البلدين (٢٦) .

وقد كتب القضاعى عدة مؤلفات فى التاريخ والفقه منها : « عيون المعارف » وتوجد منه نسخة قديمة مخطوطة بدار الكتب ضمن مجموعة تبدأ من الورقة رقم ١ حتى ٧ كتابه « الشهاب فى الحديث الشريف » والموجود منه نسختان مخطوطتان فى مكتبة الأسكوريال بمدريد (٢٧) . برقم ٧٣٦ ، ٧٦٧ وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو أهم كتبه جميعا . وبالرغم من انه لم يصلنا الا أن الكثير من المؤرخين الذين أتوا بعده اعتمدوا عليه واقتبسوا منه أمثال : القلقشندى والمقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى . وقد توفى هذا العالم الجليل سنة ٤٥٢ هـ .

كما كان منهم أيضا الشاعر الفقيه الأشهر ابو محمد عمارة بن أبى الحسن اليمنى (٢٨) وقدم الى مصر لأول مرة سنة ٥٥٠ هـ فى خلافة الفائز بالله وفى عهد وزيره الصالح طلائع بن رزيك سفيرا من قبل امير مكة ثم وفد عليها مرة أخرى أيام

(٢٣) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٢٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٢٢ .
(٢٥) أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٢٦) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٣٣٧ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٣٣٨ نقلا ليفى برفنسال جـ ٢
(٢٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٧٥ وما بعدها .

العاضد بالله وبقى فيها حتى وفاة العاضد وسقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ولم يكن عمارة شيعيا بل كان فقيها شافعيا ولكن لقى من الخلافة الفاطمية ومن وزرائها ، من كرم الوفادة ومن وافر الرعاية والبر والجود ما غمر قلبه بالعرفان وشكر الصنيعة وأطلق شاعريته بروائع المديح (٢٩) . ولبث على ولائه للفاطميين رغم زوال دولتهم . وفى سنة ٥٦٩ هـ اتهم مع جماعة من المصريين العلويين بالتآمر على صلاح الدين فقضى عليه بالاعدام معهم وأعدم صلبا وله عدة مؤلفات تاريخية منها : « تاريخ اليمن » وكتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » وله أيضا ديوان شعر فائق (٣٠) .

وكان رضوان بن ولخشى سنيا حسن الاعتقاد شجاعا مقداما ، قوى القلب ، شديد البأس . ولد يوم ليلة عيد الغدير سنة ٤٨٧ هـ وترقى فى الخدمة الا انه مع حسن عبارته وغزارة أدبه كان طائش العمل قليل الثبات لا يحسن التدبير ولا يتاتى له سياسة الأمور لعجلته وجراته ، وكان أخوه الأوحد اثبت عقلا منه (٣١) .

كما كان السيف الآمدى أبو الحسن على بن على صاحب التصانيف النافعه منها والأحكام وغيره ولد سنة ٥٥١ هـ واشتغل بمذهب الحنابلة ثم انتقل الى مذهب الشافعى ومهر فى المعقولات حتى لم يكن فى زمانه اعلم منه بها . ثم سكن مصر وتصدر مدة للاقراء بالجامع الظافرى وانتفع به الناس ثم حسده جماعة ونسبوه الى فساد العقيدة فخرج الى الشام فمات بها فى ثالث صفر سنة ٦٣١ هـ (٣٢) .

ونجد شخصية اخرى هى شخصية احمد بن محمد السلفى الحافظ احد الحفاظ المكثرين رحل فى طلب الحديث ولقى اعيان المشايخ وكان شافعى المذهب ورد بغداد واشتغل بها على أبى الحسن على الهراسى فى الفقه وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى باللغة ، وروى عن أبى محمد جعفر بن السراج وغيره من الائمه الاماثل وجاب البلاد وطاف الافاق ودخل ثغر الاسكندرية سنه ٥١١ هـ — وكان قدومه اليه فى البحر من مدينه صور وأقام به وقصده الناس من الأماكن البعيده وسمعوا عليه وانتفعوا به ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله

(٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٢ .
(٣٠) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .
(٣١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٤ .
(٣٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٤١ .

وبنى العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الظافر العبيدى صاحب مصر فى سنة ٥٤٦ هـ مدرسة بالثغر المذكور فوضحها اليه وهى معروفة به الى الآن (٣٣) .

وكان أهل الاسكندرية يميلون الى المذهب السنى ويبغضون المذهب الاسماعيلى ويعبر عن هذا الشعور ثوراتهم العديدة ضد الفاطميين ويبدو ان سبب ذلك يرجع قبل كل شىء الى تأصل جذور السنية وعلى الأخص المذهبين المالكى والشافعى بها وقد ساعد على هذا التأصل ما كان يبذله فقهاء الاسكندرية من جهود لمناهضة التشيع ومن فقهاء الاسكندرية المالكية أبو بكر الطرطوسى الأندلسى نزيل الاسكندرية وأبو على سند بن عثمان بن ابراهيم الأزدى تلميذه توفى سنة ٥٤١ هـ وأبو القاسم مخلوف المغربى توفى سنة ٥٣٢ هـ (٣٤) .

ولكن لما ضعف سلطان الفاطميين من الناحيتين السياسية والعسكرية الأمر الذى اتاح لأهل السنة أن يتنفسوا الصعداء فى مصر ومن ثم استطاع ابن الكيزانى أن يجاهر فى نظمه وفى قوله وفعله بمذهبه السنى تحت سمع وبصر الخلفاء الفاطميين (٣٥) .

تدبر المصريون تلك الدعاوى وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا ان الخليفة بشر له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله فراحوا يبحثون لأنفسهم من طريق غير التشيع تكسبهم رحمة الله وتستدر عليهم منه وكرمه ، فكان أن تصدقوا أو ظهر بين ربوعهم جماعة تدعو الى تزكية النفوس وتصفية القلوب وتهذيب الأخلاق بغية التقرب من الله والتزلف اليه عساه أن يقيهم سوء العاقبة وينقذهم من طغيان الحدثان (٣٦) .

وكانت هى أول فرقة صوفية ظهرت فى مصر منذ أخريات القرن الرابع الهجرى حتى أخريات الربع الأول من القرن السادس الهجرى وقد عرفت هذه الجماعة الصوفية باسم الكيزانية نسبة الى رائدها او قل شيخها . وراسم منهجها وأعنى

---

(٣٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ .

(٣٤) د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٢٣٤ .

(٣٥) د . على حسين صافى : ابن الكيزانى الشاعر الصوفى المصرى حياته وديوانه ص ١٢ .

(٣٦) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى الشاعر الصوفى حياته وشعره ص ٢٠ .

به ابا عبد الله محمد بن ابراهيم بن ثابت المشهور بابن الكيزانى فهذا العماد الاصفهانى يصف الفقيه ابن الكيزانى المصرى الواعظ الشافعى أبا عبد الله محمد ابن ابراهيم بن ثابت بن فرج الانصارى المعروف بابن الكيزانى (٣٧) .

وقد نشأ ابن الكيزانى وترعرع وبلغ أشده بالفسطاط وهى ما كانت تعرف فى زمانه باسم مصر وتلقى تعليمه فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والجامع الأزهر بالقاهرة حيث درس النحو والصرف والبلاغة وعلم الكلام والفقه وأصول المنطق وعلوم الحديث يدل على ذلك قول العماد الاصفهانى (٣٨) : « عالم بالأصول والفروع علم المقبول والمشروع مشهود له أسنة القبول . مشهور بالتحقيق فى علم الأصول وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث » .

ومما لا شك فيه أن ابن الكيزانى كان مناهضا للدعوة الشيعية مناصرا لأهل السنة والجماعة الأمر الذى يجعلنا نعده أحد دعاة مذهب أهل السنة فى مصر . ولا غرو فقد كان ابن الكيزانى شافعى المذهب حذق أصول أهل السنة وبلغ فى تقدير الفقهاء مرتبة الاجتهاد المذهبى بحيث أصبح فى عداد الأئمة وأصحاب المذاهب الذى يكون له اتباع ومقلدون كالشافعى ومالك وأبى حنيفه وأحمد بن حنبل .

ومما يؤيد ذلك فى آعتبارنا اياه أحد أعلام أهل السنة والجماعة البارزين فى مصر أثناء القرن السادس الهجرى كونه أخذ الحديث عن شيوخ أهل السنة فقد ذكر السبكى (٣٩) فى طبقاته أن ابن الكيزانى سمع عن أبى الحسن على بن الحسين ابن عمر الموصلى وأبى الحسن بن محمد الجيلبى وروى عنه خلق على أن شعر ابن الكيزانى على كثرته لم يرد فيه أى معنى يخالف ما تعارف عليه أهل السنة بل انه متفق فى روحه ومغزاه مع مذهبهم ومصداق هذا فى شعره قوله : (٤٠) .

داوم على ما أنت فيه فانما الدنيا عبر
عودت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

---

(٣٧) العماد الاصفهانى : جزيرة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر ج ٢ ص ١٨ .
(٣٨) العماد الاصفهانى : جزيرة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر ج ٢ ص ١٨ .
(٣٩) طبقات الشافعية الكبرى : السبكى ج ٤ ص ٦٥ .
(٤٠) العماد الاصفهانى : جزيرة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر ج ٢ ص ١٩ .

فابن الكيزانى فى هذه المقطوعة راض بالقضاء والقدر صابر علّى المحنة والبلاء فهو عالم من علماء السنة انتهى به الأمر الى التصوف .

فهو اذن من أولئك الصوفية الذين جاء تصوفهم موافقا لما كانوا عليه من مذهب أو اعتقاد قبل التصوف (٤١) .

وتجمع النصوص التى بين أيدينا على أن ابن الكيزانى كان يتبوأ مكانة سامية لدى الشعب ويحتل منزلة رفيعة عند الفاطميين فهذا العلامة السخاوى فى ترجمته له يقول ما نصه : (٤٢) .

« كان عظيم الشأن وله الديوان المشهور . وله كتاب « الرقائق » وله الكتاب المعروف « بمليك الخطب » .

وقد منع فى زمانه القراء من القراءة فى الأسواق ومنع معلمى الكتاتيب من مسح الالواح الا فى الآنية الجديدة ، وان يجمع ذلك ويطرح فى البحر وكان كثير الايثار .

فهذا كما ترى أدل شىء على عظم المكانة التى كان يحتلها ابن الكيزانى بين ابناء الشعب المصرى من جهة ، وفى نفوس الحكام الفاطميين من جهة أخرى .

وآية ذلك كونه حظر على الذين كانوا يتكسبون بالقرآن أن يقرءوا فى الأسواق كما حظر كذلك على معلمى الصبية وأصحاب المكاتب أن يمسحوا من الألواح الآيات القرآنية الا فى آنية جديدة ، والزمهم ان يجمعوا تلك المحلية ويلقوها فى البحر . وذلك مبالغة منه فى تبجيل القرآن الكريم وتعظيم آى الذكر الحكيم .

ولولا أن ابن الكيزانى كان ذا شأن عظيم ومكانة مرموقة وذا منصب رفيع فى الدولة لما استطاع بحال من الأحوال أن يتحكم فى طائفة القراء وجماعة المعلمين اذ ان منع الناس من مزاولة اى عمل من الأعمال لا يتأتى من فرد عادى أو غير ذى سلطان فقد جرت العادة أن تصدر مثل هذه الأحكام عن قاضى القضاة بالديار المصرية أو الوالى أو الوزير الأمر الذى يحملنا على القول بأن ابن الكيزانى كان

---

(٤١) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وشعره ص ٤١ .
(٤٢) السخاوى : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ٣٠٣ .

ولو على سبيل الفرض والتخمين — يشغل فى وقت من الأوقات منصب القضاء (٤٣).

ان الفاطميين كانوا يترضون ابن الكيزانى ويتقربون اليه لا لصلاحه وتقواه ولا رغبة فى أن يسأل الله لهم ولكن خوفا من أن يستغل شعبية ويثير الناس فيدعوهم الى الانتقاض على الخليفة الفاطمى وخلع طاعته .

هذا على أن اتباع ابن الكيزانى ومريديه كانوا فيما أظن كثيرين ومنتشرين فى انحاء عدة بالوجهين القبلى والبحرى وانهم كانوا لكثرتهم يجاهرون بآرائهم السنية التى تخالف فى جوهرها التعاليم الفاطمية . ولست أقول هذا ادعاء ولا رجما بالغيب وانما هو قول يؤيده الدليل من أقوال المؤرخين السابقين وبخاصة من كانوا يعيشون فى زمن غير بعيد من عصر الفاطميين — كسبط بن الجوزى وابن خلكان وهما ثقتان يلتزمان فيما ينقلانه من الأخبار الدقة والأمانة واليك من أقوالهما ما يدل على أن طائفة ابن الكيزانى كانت ذات خطر كبير وشأن عظيم .

قال سبط بن الجوزى — بعد أن ذكر اسم ابن الكيزانى ونسبه ما نصه (٤٤) « رجل مشهور فاضل ، وله أصحاب بمصر ، كان يقول ان أعمال العباد قديمة وبين أصحابه وبين جملة من المصريين خلاف » .

فهذا لعمرى دليل على شوكة طائفة ابن الكيزانى وقوة شكيمتهم والا لما استطاعوا أن يجاهروا بمخالفة مذهب الحاكمين . وأصحاب السلطان فى البلاد .

اما ابن خلكان فقد قال فى هذا الصدد ما نصه (٤٥) : « وبمصر طائفة ينتسبون اليه ويعتقدون مقالته » .

ووجهة دلالة هذا القول على كثرة اتباع ابن الكيزانى كون ابن خلكان قد عبر عنهم بكلمة طائفة .. والطائفة فى اللغة انما تقال على الكثرة . كما ان المتكلمين وأصحاب التصانيف فى الفرق والملل والنحل قد أطلقوا لفظ « طائفة » على الجماعة ذات النحلة الخاصة والمذهب المعين .

كما كان ابن الكيزانى يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة أيام الجمع وفى مختلف

---

(٤٣) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وشعره ص ٤٩ — ٥٠ .
(٤٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ١٥٧ .
(٤٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٨٦ .

المناسبات تارة بالخطب النثرية المنمقة ذات الألفاظ الفخمة والعبارات الجزلة والمعانى البليغة والصور الرائعة والتعابير الرائعة وتارة بالقصائد والمقطعات الفياضة بالمشاعر الصادقة النابضة بالأحاسيس الدينية والعواطف الانسانية المتأججة بحرارة الايمان الوضاءة بنور اليقين (٤٦) .

وقد وصف ابن الكيزانى بأنه واعظ مصر كذلك أبو المحاسن بن تغرى بردى اذ قال فى ترجمته له ما نصه (٤٧) : « الواعظ المصرى » كان ابن الكيزانى زعيما سياسيا تبعا لزعامته الدينية ، وآية ذلك أنه قاوم العقيدة الفاطمية وحارب تعاليم الباطنية وذلك بتعليمه طوائف المصريين مذهب أهل السنة وبخاصة فقه الشافعى وروايته لهم أحاديث الرسول بأسانيد أهل السنة أيضا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عمل جاهدا على نشر التعاليم الصوفية واذاعتها بين ربوع مصر متحديا بها سلطان الفاطميين (٤٨) .

ومهما يكن من أمر فان ابن الكيزانى قد أسهم الى حد كبير فى تحرير العقلية المصرية من الصبغة الباطنية الى الفكر السنى وهو بذلك فيما أعتقد قد مهد السبيل أمام السلطان صلاح الدين أن يقضى على الخلافة الفاطمية فى مصر وأحل محلها تبعية العباسيين . وكان تأثيره على الحياة العقلية المصرية قويا فلم يكن مقصورا على نظمه الشعر وتعليم الطلاب وتربية مريديه بل جاوز ذلك كله (٤٩) .

هكذا استطاع ابن الكيزانى أن يوطد دعائم الحكم السنى بمقاومته للمذهب الاسماعيلى فى أرض وادى النيل . وفى تقديرى أن الفضل فى ذلك كله يرجع — فى الحقيقة وواقع الأمر — الى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن ثابت المعروف بابن الكيزانى .

---

(٤٦) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى : حياته وشعره ص ٥٣ .
(٤٧) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٦ .
(٤٨) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وشعره ص ٦١ .
(٤٩) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وشعره ص ٦٣ .



الباب الثالث

النشاط العلمي والثقافي التعليمي

المكتبات الفاطمية ودار الحكمة

المدارس والكتاتيب والزوايا

حركة التأليف

الدراسات العلمية (الطب ، الفلك والتنجيم ، الرياضيات والهندسة ، النبات ، الكيمياء) .



المكتبات الفاطمية ودار الحكمة

ان صفحات التاريخ لتدل على اهتمام المسلمين حكومة وشعبا بالمكتبات التى أسست قوائمها فى مختلف العهود التاريخية الاسلامية وكيف كان ارتقاؤها وكيف كان انحطاطها فيما بعد .

وقد اهتم المسلمون بالمكتبات دائما اهتماما كليا والتاريخ يشهد أن أعظم الخزائن فى الاسلام ثلاث خزائن : **أولها** خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة — ولا تقوم نفائسه ولم تزل على ذلك الى ان دهمت التتر بغداد وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب وذهبت معالمها واعفيت آثارها .

ثانيها : خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر ، وكانت من أعظم الخزائن واكثرها جمعا للكتب النفيسة فى جميع العلوم ولم تزل على ذلك الى ان انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم واستيلاء صلاح الدين بن ايوب على المملكة بعدهم فاشترى القاضى الفاضل اكثر كتب هذه الخزانة ووقفها بمدرسته الفاضلة بدرب ملوخيا بالقاهرة فبقيت فيها الى أن استولت عليها الأيدى فلم يبق فيها الا القليل .

ثالثها : خزانة خلفاء بنى امية بالأندلس . وكانت من اجل خزائن الكتب ايضا ولم تزل الى انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس فذهبت كتبها كل مذهب (١) .

أما خزانة الفاطميين بالقاهرة فكانت تفوق هذه الخزائن بهاء وبهجة وكانت أعلامها فى جميع البلاد الاسلامية وكانت أصولها ثابتة وقوانينها مضبوطة ولا سيما أن الخلفاء كانوا يهتمون بنشر الثقافة فكانوا يؤسسون مراكز ومكتبات لكى يعم ضياء التعليم فتمحى آثار الجهالة من قلوب الناس (٢) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

(٢) محمد حسن الأعظمى : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى ص ٢١١ .

كذلك كان الوزراء الفاطميون يســـيرون على نهج خلفائهم فى اقتناء الكتب والحصول عليها عن طريق الخلفاء زملائهم ومن هؤلاء ابن كلس وهو رائد من رواد الحركة والفكر فى مصر (٣) . وكذلك برجوان اســتاذ الخليفة الحاكم بأمر الله من الذى خلف من الكتب ما لا حصر له وأيضا المسير بن فاتك وهو من أمراء مصر كانت له خزائن عظيمة (٤) . والخزائن الفاطمية اشتهرت بعظمتها وجلالها وكثرة كتبهــا وأهميتها الكبرى فى الاســلام .

وكانت خزانة الكتب هذه فى احــد مجالس البيمارســتان العتيق اليوم وكان فيها ما يزيد على مائة الف مجلد فى ســـائر العلــوم يطول الامر فى عدتهــا وكان للفاطميين فى القــاهرة مكتبات منها اربعون خزانة فى قصر الخلافة ملأى بنفائس الكتب والمؤلفات الجليلة المقــدار ونوادرها المعدومة المثال . وكان اشــهرها هذه الخزانة (٥) .

وكانت من عجائب الدنيا ولم يكن فى جميــع بلاد الاســلام دار كتب اعظــم منها ، وكانت تجمع مائتى الف مجلد كما قال المقريزى (٦) فى مختلف العلوم والفنون منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الفلــك والطب وكان يختلف اليهــا العلمــاء والطلاب لاستعارتها ومطالعتها والاستفادة منها .

اما خزائن القصر الدخلية فكان الاطلاع عليها محظورا على العامة .

وقد اصــاب هذه الخزائن من المحن بتوالى الفتن مثــل مــا اصــاب مكتبة الاســكندرية فى عهد الرومان فالقى بعضها فى النار والبعض الآخر فى النيــل وترك بعضها فى الصحراء فسفت عليها الرياح حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب . واتخذ العبيد من جلودها نعالا . وطرح ما بقى منها عند دخول الاكراد للبيــع فى اواســط القرن الســادس للهجرة وكان فى جملة ما اخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠٠٠٠ كتاب من خواص الكتب اعطاها صلاح الدين للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيســانى كما ذكر ابن خلدون فى تاريخه (٧) .

---

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤١ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٧ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠١ (الحاشية) .
(٦) الخطط جـ ١ ص ٤٥٩ .
(٧) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٣ ص ١٤٢ .

كما كانت خزانة الكتب من أجل الخزائن واعظمها شـــأنا عند الفاطميين .
وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخطوط المنسوبة الفائقة عدة كثيرة من الكتب النفيســـة ما يزيد على مائة الف مجلد مشـــتملة على أنواع العلوم مما يدهش الناظر ويحيره وربما اجتمع من الصنف الواحد فيها عشر نســـخ (٨) . وتحتـــوى خزانة الكتب فى مصر على نيف وثلاثين نســـخة من كتاب العـــين للخليل بن أحمد منها نســـخة بخط الخليل نفســـــه ، وعشرين نســـــخة من تاريخ الطبرى ومائة نســـخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وبلغ عدد النســـخ من تاريخ الطبرى عنـــد اســـتيلاء صلاح الدين على مصر ١٢٠٠ نســـخة والقرآن الكريم كان فى مقـــدمة الكتب التى اعتنى بكتابتها الخطاطون كابن مقلة وابن البواب ومن جرى مجراهما (٩).

وقد كانت خزانة الكتب التى تقع بالقصر الكبير تتكون من اربعين حجـــرة وتضم من الكتب ما يزيد على مائة الف مجلد تشـــتمل على أنواع العلوم بينها كتب نادرة ونفيســـة (١٠) .

ولا غرو فانه لم يكن فى جميع بلاد الاســــلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى العصر الفاطمى فقد ارادوا ان يملأوا الدنيا بعقيدتهم الشـــيعية وكان الخليفة المعز يمضى كل وقته بين خزانة الكتب (١١) .

امـــا عن كنوز الفاطميين من الكتب النـــادرة ويقدر عـــدد الكتب الموجودة فى خزانة الكتب التى تعنى بالعلوم القديمة بثمانية عشر الف كتـــاب هذا الى جـــانب الكتب الأخرى التى تعالج الفقه والنحو واللغة والتاريخ أو التواريخ . وعلى الجملة فقد كان العصر الفاطمى عصر نشاط علمى واسع المدى فى شتى العلوم والفنـــون نافست فيه القاهرة بغداد العريقة بحضارتها وعلومها (١٢) .

كما كانت خزانة كتبهم عامرة بالمخطوطات الثمينة ويكفى لتصـــور عظم هذه المكتبة أن نذكر أنها كانت مقسمة أربعين قسما وأن عدد المخطوطات فيها قد بلغ نحو مليون وستمائة الف فى التاريخ والحديث واللغة والكيمياء وغيرها . وقـــد عاون فى

---

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٤٧١ .
(٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٨ .
(١٠) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ١٤ .
(١١) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ٤٠ .
(١٢) أسماء حسن فهمى : مبادىء التربية الاسلامية ص ١٥

عمل هذه المخطوطات الخطاطون والمذهبون والرسامون حتى أخرجوها تحفة فنية رائعة زادها جمالا ما غلفت به من جلود جميلة النقش بديعة الصنع والذى يؤسف له أن هذه الخزائن العظيمة قد اندثرت فى أثناء الاضطراب العظيم الذى وقع أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٣) .

ثم عنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية خزانة الكتب (١٤) . ولم تكن مقصورة على الكتب بل كانت أحيانا مجتمعا يجتمع فيه طلاب العلم والعلماء ويتداولون فيما بينهم المسائل العلمية وهذا ما جعل العصر الفاطمى يزخر بالعلم والعلماء (١٥) .

ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب فى كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس فى كل علم وذلك تشجيعا منهم للعلم والعمل (١٦) .

ولم يكن الفاطميون عسكريين قنعوا بفتح مصر وتسلطهم على امورها بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد ويريدون ان تكون لهم السيادة على العالم الاسلامى كله ومن أجل هذا انشأوا من المؤسسات ما يضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة ، وكانت المكتبة دعامة من هذه الدعائم (١٧) .

وقد اتجه الفاطميون اتجاها غريبا فى تكوين مكتبتهم فقد كانوا يحرصون على ان يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من بعض الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذى يوجد به هذا الكتاب او ذاك ، فاذا جمعوا مئات النسخ من كتاب ما ثم ظهر لهم انه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم أظهروا استعدادهم لان يدفعوا فيها ثمنا باهظا مهما بولغ فيه ليصلوا بذلك الى هدفهم . وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فانهم كانوا حريصين على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة أو التى كتبها مشاهير الخطاطين وهذا يفسر لنا لماذا كان بهذه المكتبة عشرات أو مئات النسخ من المصاحف أو من كتاب معين . وعلى هذا فاننا نقرأ أن هذه المكتبة كان بها :

---

(١٣) د . محمد عبد العزيز مرزوق : ص ٧٤ — الفن المصرى الاسلامى .
(١٤) د . أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٩٩ .
(١٥) د . أحمد أمين : المرجع السابق ص ٢٢٣ .
(١٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٨ وما بعدها .
(١٧) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٩٦ .

٢٤٠٠ مصحف بخطوط منسوبة زائدة الحسن ومحلاة بذهب وفضة وغيرهما .
١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخط المؤلف .
١٠٠ نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد .

نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط المؤلف نفسه الخليل ابن أحمد (١٨) . أما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو أنه وصل الى رقم خيالى .

ويروى أبو شامة (١٩) انه سمع أن هذه المكتبة كان بها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كتاب وقد ذكر المقريزى عدة روايات ولكنه يميل الى أن العدد كان ١٫٦٠٠٫٠٠٠ — كتاب (٢٠) .

ويذكر المقريزى (٢١) أيضا ان هذه الكتب كانت فى موضوعات متعددة فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والتنجيم والروحانيات والكيمياء ويتفق أبو شامة والمقريزى (٢٢) على أن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا . وانه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها بالقصر فى القاهرة .

كان لعناية المسلمين بانشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير فى تيسير وسائل الثقافة والتعليم وتشجيع الطلاب على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى . وقد انتشرت المكتبات فى الإسلام انتشارا عظيما يدعو الى الفخر والاعجاب فقد كان فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور العلم ودور الحكمة مكتبات كبيرة مزودة بالكتب المختلفة والمراجع النادرة ليرجع اليها الطلبة والعلماء والقراء والنساخ فى أى وقت شاءوا (٢٣) .

كما اهتم المسلمون بالكتب واقتنائها . اهتموا بدور الكتب وخزائنها وحرصوا عليها وقدروها حق قدرها وكتبوا عن أثرها فى تهذيب العقول وبث البطولة فى

---

(١٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٨ — الروضتين ج ١ ص ٢٠٠ وقد ذكر أبو شامة أن الخزائن حوت ١٢٢٠ من تاريخ الطبرى .
(١٩) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٠٠ .
(٢٠) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .
(٢١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .
(٢٢) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٠٠ — المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .
(٢٣) الخطط ج ١ ص ٤٥٨ وما بعدها .

النفوس وتزويد القراء بالأفكار والآراء (٢٤) . ولكنه لم يفكر الا فى خزانة كتبه فقد كانت ثمينة بها كثير من الكتب العلمية والأدبية والدينية تبلغ مائة حمل وزيادة ، وكان علماء المسلمين يفضلون الجلوس فى مكتباتهم الغنيـة بالكتب للقراءة والاطلاع على أن يتولوا أعظم المناصب والمراكز لدى الولاة والحكـام وكانوا يرسلون من يجوبون البلاد لشراء الكتب العلمية والأدبية من البـلاد الأجنبية ليزودوا مكتبـاتهم بالكتب النادرة النفيسـة والجديدة (٢٥) .

كذلك كانت للفاطميين عنـاية كبرى بالمكتبات فكـانوا يلحقون بهـا المجامع العلمية « الأكاديمية » كالمجمع الذى أسسه يعقوب بن كلس وكان ينفق عليه ألف دينار كل شهر (٢٦) .

وتجلى نشاط الحركة العقلية فى مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلمـاء والطـلاب وأبـاح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفـة بمكتبة القصر وحذا الخلفـاء من بعده حذوه فصاروا يعقدون المجالس العلمية بقصورهم ويدعون اليها الفقهاء والعلماء والأدباء فيتناظرون بحضرتهم ولم تكن هذه المجالس تقل فى قيمتها العلمية عن الدروس التى تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة (٢٧) .

وكان المعز منذ ولاه المنصور يعقد المجالس العلمية فيحضر كبار رجال دولته ومشايخها وعلماؤها وأدباؤها فيظهر مقدرته الفائقة والمامه بالفلسفة وعلوم التأويل والحديث والفقه وما اليها يدل على ذلك قول النعمان الفقيه المغربى « أن المعز قد نظر فى كل فن وبرع فى كل علم وان تكلم فى فن منها أربى على المتكلمين وكان فيها نسيج وحده فى العالمين » .

أما علم الباطن ووجوهه فهو بحره الذى لاتخاض لجته ولا يدرك آخره أمـا القول فى التوحيد وتثبيت الدين والرد على اقتراف البدع والملحدين فهو واحدة عليه ومناره وعمدته وأمـا الفقه والحلال والحرام ومسائل الفتيا والأحكـام فذلك مجاله

(٢٤) خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى ص ١٥٨ .
(٢٥) محمد عطية الابراشى : التربية الاسـلامية وفلاسفتها ص ٩٩ — ١٠٣ — ١٠٧ .
(٢٦) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٧٨ .
(٢٧) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٧ — ١٧٨ .

وميانه وضعه وديوانه وكلهم فى ذلك عليه يخترع فى كل يوم لهم الصنائع ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معاينة وما تحار أذهانهم منه (٢٨) .

وكان المعز يستحث همم المغاربة للتزود من العلم ويلوم من يتقاعد منهم عن ذلك فلم يكن كاولئك الأفراد الذين يرون أن الخير كل الخير فى أن يحكموا شعبا جاهلا لأنه يكون أكثر خضوعا واستسلاما . وكثيرا ما كان يصرح لجلسائه بأن مما يحز فى نفسه أن يرى انهماك الناس فى اللهو والعبث دون أن يشغفوا بالبحث والاطلاع وتغذية عقولهم بالعلوم والمعارف . وأعجب من ذلك أن المعز كان اذا أرق او احس الملل من مشاغل الحياة اكب على الكتب يرتشف منها العلوم والفنون (٢٩). ومن أكبر الأدلة على حب المعز للعلم ورغبته المتعطشة الى الالمام بدقائقه . أنه كان يجيد عدة لغات تساعده على معرفة عادات الشعوب وطبائعها فكان يجيد غير العربية اللغات البربرية والسودانية واللاتينية والاسبانية والصقلية (٣٠) .

وكانت مكتبة المعز فى المنصورية ثم فى القاهرة زاخرة بالكتب . وقد بلغ من شغفه بهذه الكتب أنه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب وما تحويه من المعلومات وقد قيل ان المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتابا فلم يحضره على الفور فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب . ثم قرأ غيره من الكتب واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم هذه الليلة فى القراءة وهو واقف على قدميه (٣١) .

ولاغرو فقد كان يقول « والله ما تلذذت بشىء تلذذى بالعلم والحكمة » (٣٢) .

وقد شغف المعز بحبه للعلوم واكتناز الكتب فشاد بالقصر مكتبة الفاطميين التى ضربت بعظمتها الأمثال بكثرة مجلداتها ومصاحفها المنسوبة فكان بها آلاف الكتب فى اللغة على سائر المذاهب وكانت خزائنها الأربعون فى أجمل ناحية من القصر يدخلها راكبا وينزل بها يختار من الكتب ما شاء ثم يعود (٣٣) .

(٢٨) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٢٢ نقلا عن القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٩٩ .
(٢٩) د . حسن ابراهيم طه شرف : المعز لدين الله ص ٢٢٣ نقلا عن المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٣٨٦ — للنعمان .
(٣٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦٥ .
(٣١) د . حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ٢٢٢ .
(٣٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٩١ .
(٣٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

ولم يقنع بمكتبة القصر التى جمعت آلاف المجلدات فحمل الكثير من الكتب الى مسجد القاهرة وهو الجامع الأزهر والى ابن طولون والجامع العتيق فحمل الى الأزهر من المصاحف والختمات عددا عظيما ومكن الناس من القراءة والانتفاع بما فيها (٣٤) .

واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون فى مصر بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثانى خلفائهم تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب فقد أنشأ مكتبة القاهره وهى من أشهر المكتبات فى العصر الاسلامى (٣٥) ، فكان شديد الولع بالكتب حريصا على اقتنائها . لا يكتفى بوجود نسخة واحده من كل كتاب فكان النساخ ينسخون من كل كتاب عدة نسخ ويقال انه كان بها ثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد وعشرون نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد . وبلغ عدد مجلداتها حوالى مليون وستمائة الف مجلد كان يقوم على تنظيم كتبها وفهرستها الخطاط الشهير ابن مقلة وكانت تحتوى على خرائط جغرافية وأجهزة هندسية وسقطت بسقوط الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى وأحرقت معظم كتبها (٣٦) .

وكان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهدها بنفسه حينا بعد حين وقد رتب لها قيما يتولى شئونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه ، وممن تولى ذلك أبو الحسن الشابشتى الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ — فكان الخلفاء يترددون على مكتباتهم للاطلاع أو تفقدها ومناقشة أمنائها فيما يحتاجونه أو تحتاجه المكتبة من كتب وبلغ عدد كتب مكتبة القصر أكثر من مائة ألف مجلد . عدا كرتين سماويتين احداهما من الفضة يقال ان بطليموس هو الذى صنعها وكلفته ثلاثة آلاف دينار كما كانت مكتبة القصر تحوى كثيرا من المصورات الجغرافية (٣٧) .

واهتم الخليفة العزيز بالله بالمكتبات وكان فى قصره الشرقى مكتبة كبيرة تحفل بآلاف الكتب . فقد حمل أبوه المعز لدين الله معه عند قدومه الى مصر من بلاد المغرب عددا كبيرا من الكتب أصبحت نواة مكتبة القصر ثم عمل العزيز بالله على تنميتها وقام وزيره ابن كلس بدور كبير فى تطوير هذه المكتبة وبعد وفاة هذا الوزير

---

(٣٤) ابراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى ص ٩٦ .
(٣٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٣٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ .
(٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٨٨ .

نقل الخليفة مكتبته من قصره الى قصر الخليفة . وشجع الخليفة العزيز بالله تجار الكتب على جلب الكتب النادرة ليضمها الى مكتبة القصر (٣٨) .

وجدير بالذكر أن وزير الخليفة العزيز ابن كلس كان محبا للعلم والعلماء فرتب الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم وأجرى لهم الأرزاق وحبب الى الخليفة العزيز اقتناء الكتب فجمع منها جانبا كبيرا خصص لها قاعات فى قصره وسماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى الاستكثار من المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه . ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة نسخة أو أكثر (٣٩) .

وكان فى كل جامع مكتبة لانه كان من عادة العلماء ان يوقفوا كتبهم على الجوامع (٤٠) . ويقال ان خزانة الكتب بمرو كانت تحوى كتب يزدجرد لأنه حملها اليها وتركها وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الاسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ولع شديد بالكتب فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا الى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند اولى ظهورها وكان فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسه كل منها عشرون ورقة . ولم يكن بها سوى أسماء الكتب (٤١) .

ويشير بعض المؤرخين أنه كانت للأزهر مكتبة عامرة بالكتب وكان المشرف عليها يحتل منصبا من أهم المناصب فى الدولة الفاطمية كذلك اتخذ الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م نقيب العلويين والشاعر المشهور دارا سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون اليه (٤٢) .

وقد أنشئت فى مصر أيضا مثل هذه الدور .. فقد اشترى العزيز بالله الخليفة الفاطمى سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م دارا الى جانب الجامع الأزهر وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد فى كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التى هى أكبر معهد علمى

---

(٣٨) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١١٨ — ١١٩ .
(٣٩) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .
(٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥ .
(٤١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٠٤ .
(٤٢) الشريف الرضى : ديوانه ص ٣ ط بيروت سنة ١٣٠٧ هـ .

اسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى فكان الوزير ابن كلس يحب أهل العلم والأدب ويقربهم . وكان يجرى بأمر العزيز الف دينار كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين (٤٣) .

ولم يكن الخلفاء وحدهم يشغلون باقتناء الكتب وينقبون عنها ويدمنون القراءة ويطيلون البحث فيها بل ان وزراءهم كانوا يقتفون أثرهم . وينهجون نهجهم . فقد روى عن يعقوب بن كلس وزير العزيز (٤٤) أنه كان فى داره الكتاب والأطباء وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين (٤٥) .

ثم جاء الحاكم بأمر الله ففتح سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقبة بدار العلم ، بسمى دار الحكمة (٤٦) بالقاهرة وحمل الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة وقد وصلت الينا ميزانية هذه الدار فكان ينفق عليها فى كل سنة ٢٥٧ دينارا من العين الغربى فمن ذلك : الورق تسعون دينارا . للخازن ثمانية وأربعون دينارا ، للفراشين خمسة عشر دينارا ، للناظرين فى الورق والحبر والأقلام اثنا عشر دينارا ، غرمة الكتب أثنا عشر دينارا ، ثم الماء اثناء عشر دينارا،ثم الحصر العبدانى عشرة دينارات، ثمن لبود للفرش فى الشتاء خمسة عشر دينارا ، ثم طنافس فى الشتاء أربعة دينارات، غرفة الستارة دينار واحد .

وقد بنيت هذه الدار جزءا من قصر الحاكم ولعلها هى الخزائن التى أشار اليها المسبحى باسم الخزائن البرانية .

اذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم فى المكتبات العامة ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها (٤٧) . من ذلك ما يرويه السيوطى أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدى الهروى أبا أسامة اللغوى النحوى قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبا اسحاق على بن سليمان المصرى النحوى وكانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة وتجرى بينهم مباحثات ومذكرات (٤٨) .

---

(٤٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ص ٣١٢ — ٣١٣ .
(٤٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤١ .
(٤٥) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٨٨ .
(٤٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٨ .
(٤٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١ .
(٤٨) السيوطى : بغية الدعاة ص ٢١٣ .

ويروى المقريزى عن المسبحى انه فى سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم باحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيد وجماعة من الأطباء الى حضرته للمناظرة بين يديه وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم (٤٩) .

ومن اشهر العلماء الذين القوا بعلومهم فى دار العام رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر قدم مصر فاعجب به الحاكم وخلع عليه ولقب بعالم العلماء — وجعله يجلس فى دار العلم يدرس النحو واللغة (٥٠) . ومنهم أبو بكر الانطاكى الفقيه المالكى الذى سمح له الحاكم ولشيخ مالكى آخر أن يقيما بدار العلم ويلقيا دروسا فى المذهب المالكى (٥١) .

كان الطلاب يتلقون فى دار الحكمة الى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة العلوم العقلية والنقلية وهكذا اختلفت مناهج التعليم فى هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة اذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والنجامة من أمثال : ابن يونس المنجم وأبو على الحسن بن الهيثم . وعلى بن رضوان (٥٢) .

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الاساتذه وما كان لها من مناهج منوعة جمعت من الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق من امثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا الى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى (٥٣) .

كما كانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التى مدت بكثير من المؤلفات الاطلاع والنسخ والبحث والدراسة .

ولعل الدافع على انشاء المكتبات من أمثال دار الحكمة هو أن الكتب كانت قبل اختراع الطباعة غالية الثمن ، لايقتنيها الا الأغنياء لأنها كانت مخطوطات باهظة

---

(٤٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٥ .
(٥٠) رفع الاصر (ص ١٩ ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية .
(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٢ .
(٥٢) خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى ص ١٥٨ .
(٥٣) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٦ .

ألتكاليف ولذلك لجأ القادرون من محبى العلم الى انشــاء المكتبــات يجمعون فيها الكتب ويفتحون أبوابها للراغبين كما فعل البطالمة فى مكتبة الاسكندرية وكانت نواتها الجامعية وفعل العباسيون فى انشاء دار أو بيت الحكمة فى بغداد ، وكذلك فعــل الفاطميون بانشاء دار الحكمة فى القاهرة . ولقد اتفق المؤرخون على أن هذه المكتبات كانت تؤدى مــا تؤديه معــاهد العلم والجامعــات والجمعيــات العلمية فى الوقت الحــاضر (٥٤) .

كان لمكتبة الفاطميين فى القاهرة ــ دار الحكمة ــ فهرس كبير وكانت استعارة الكتب مباحة وان وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره . وكانت مكتبــة القاهرة تعير كتبا للساكنين فى القاهرة فقط وأحيــانا يطلب من المســتعير أن يدفع ضمانا ولكن يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع الضمان أو التأمين وكان على بن محمد الشابشتى أمينا لدار الحكمة بالقاهرة (٥٥) .

وقد كان الحاكم يميل الى حرية الفكر والرأى لذا شجع المناقشات الحرة فى الدين والعلم وخلافه ولهذا فقد كان انشــاء دار الحكمة لهذا الفرض . وقــد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ويعقدون المجتمعات هنــاك وتقوم المناظرات وقد يفضى الجدال الى الخصام (٥٦) .

وفى كتاب « الفلك الدوار فى سماء الأئمة الأطهار » أن الأغراض التى انشئت دار العلم من أجلها ثلاثة فى جملتها :

أولها : اسـتيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات .

ثانيها : تثقيف القضاة وتدريبهم على ألا يســمح لهم بدخول الدار حتى يتموا دراسـتهم فى الجامع الأزهر .

ثالثها : تعليم موظفى الدعوة وذلك بعد أن يتم هؤلاء دراسة النحو والفلسفة والمنطق والنجوم فى الأزهر ثم يغادرونه الى دار الحكمة .

وهكذا كانت هذه الجامعة التى اطلق عليها اســم دار العلم او دار الحكمــة تقوم بوظيفة من أكبر الوظائف فى الدولة وهى وظيفة اعداد الدعاة وتزويدهم بالعلوم

---

(٥٤) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٥٨ .
(٥٥) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٦٠ .
(٥٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ ٣ ص ٢٢٠ .

التى يستغينون بها على نشر الدعوة وكانت هذه الدعوة نفســـها تمتزج بالفلسفة واصبح العقل الفاطمى بسببه مخالفا للعقل السنى كل المخالفة (٥٧) .

وقد اتخذت دار الحكمة طابعا مذهبيا منذ نشاتها فاشرف عليها داعى الدعاة يعاونه فيها فقهاء اسمهم فقهاء الدولة أو المعلمون ولهم ارزاق خاصة (٥٨) .

واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم فى دار الحكمة فاضطر الافضل بن أمير الجيوش فى أوائل القرن السادس الهجرى ابطالها دفعــا لاسباب القلق (الفتن) فلما توفى الافضل أمر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون البطائحى فاعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها السير على الأوضــاع الشرعية وان يكون متوليها رجلا دينيا وأن يقام فيها متصدرون برسم القرآن . ولا نظن ان عدد كتبها يقل عن ١٠٠،٠٠٠ كتاب ولمـــا افضت الحكومة الى صلاح الدين الأيوبى هدم دار العلم وبنى مدرسة للشافعية (٥٩) . وكان الخلفاء الفاطميون مولعين بجمع كل ما يعثرون عليه من نسخ اى كتاب وقد نهبت هذه المكتبة فى عهد المستنصر حيث قام الغوغاء بالسلب والحرق والقاء كثير من كتبها فى النيل (٦٠) .

ومن المؤلم حقا أن تستعمل المخطوطات الثمينة والكتب النادرة لتشعل سجائر هؤلاء البرابرة — وأن يقــوم عبيدهم واماؤهم باتخاذ جلودها نعــالا يلبســونها فى ارجلهم وقد حرص البرابرة الاتراك أن يقضوا على هذه الكتب لاعتقادهم أن فيها كلاما يخالف كلام المشارقة الذين يخالفون مذهبهم .

ويعــلم الله ما كان لهم علم بكلام المشارقة ولا بكلام المغاربة ، ولا بأى لون من الوان العلوم صلة وانما هو الجهل والهمجية دفعا هؤلاء الغوغاء أن يرتكبوا هذه الجريمة العظمى ، وأن يطعنوا المدنية الاسلامية فى أشرف مقوماتها (٦١) .

ولقد ضاع اغلب الكتب التى كانت فى القصر وفى دار العلم فى غضون الشدة العظمى التى حلت بالبلاد سنين طويلة فى عهد المســتنصر ونزع من هذه المكتبــة

(٥٧) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٨٠ .
(٥٨) د . عبد المنعم ماجد : الامام المستنصر الفاطمى ص ٥٦ .
(٥٩) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٣٠ (نقلا عن ابن خلدون ج ٢ ص ٧٩ ويسميها دار المعرفة) .
(٦٠) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٦٥ .
(٦١) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٩٨ .

ما يقرب من الفين واربعمائة « ختمــة » مكتوبة بخط محلى بالذهب والفضـــة . وذهب ذلك كله فيما اخذه الاتراك فى مقابل ما كان متأخرا لهم من الأرزاق فلم يبق فى خزائن القصر الخارجية شيء مطلقــا (٦٣) .

ولكن عندما تسلم بدر الجمالى مقاليد مصر جد فى أن يجمــع من كتب هــذه المكتبة ما سـلم من الحرق والغرق . فاســتعاد ما اســتطاع ان يســتعيده من الأقطار واســترد ما كان فى حوزة بعض الناس وبهذا اســتطاع أن يعيد للمكتبــة شــيئا من مكانتهــا (٦٢) .

ولكن رغم اختلاف التقديرات فى عــدد الكتب فمما لا نزاع فيــه ان مكتبــة الفاطميين كانت مليئة بصنوف المؤلفات واذا كان جانب كبير من محتوياتها مما حصل عليه الخلفاء من البلدان الأخرى علي ايدى دلالى الكتب (٦٤) وسماسرتها فلا مــراء ان عددا منها كان ينســخ فى مصر وأن الخلفاء كانوا يســـتأجرون النســاخين ويزودونهم بما يحتاجونه من الأدوات اللازمة (٦٥) .

فان كل ما ذكرناه عن دار الحكمة يدل على انها كانت بمثابة جامعة فيهــا اساتذتها وبها مكتبتها وفيها كل ما يبعث على النشاط العامى والبحث والتحصــيل فالفاطميون بانشائهم الجامع الأزهر ودار الحكمة « دار العلم » كانوا اسبق الناس الى انشاء الجامعات التى تمتاز بها المدنية الحديثة فى ايامنا هذه (٦٦) .

وأما عن مكتبة افرائيــم الزفان (حــوالى ســنة ٥٠٠ هـ) من اطبــاء مصر المشــهورين خدم الخلفاء ونال منهم احســن العطايا قرأ صناعة الطب على ابى الحسن على بن رضوان وكان من أجل تلامذته . وكانت له همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها حتى كانت له خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها (٦٧) .

لكن أخذت صناعة الورق تتقدم باطراد منــذ أواخر القرن الرابع الهجــرى وساعدت سياسة الفاطميين على ذلك فقد دأبوا على جمع أكثر ما يمكن الحصول

---

(٦٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣١ .
(٦٣) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٦٤) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٦٠ .
(٦٥) المرجع السابق ص ١٦١ .
(٦٦) د. كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١ .
(٦٧) د. أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٠٤

عليه من الكتب خاصــة النادر منها حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هــذه المؤلفات النفيسة (٦٨) . واجتهدوا أن تضم مكاتب القصر عددا كثيرا من النسخ من السفر الواحد وكانت خزانة الكتب مفخرة هذا العصر واكبر دليل على ارتقاء الآداب والعلوم (٦٩) . وكان الخليفة يتوجه من وقت لآخر ويستقبل متوليها الذى يعرض عليه نسخا مختلفة من المصحف ومـا يقترح اضـافته الى المكتبـة من المؤلفـات (٧٠) .

وفى عهد العاضد وجد من الكتب النفيســة ما لا يعد ويقال انها كانت الفة الف وستمائة الف كتاب منها مائة الف مجلد بخط منسوب للمعروفين من امثال ابن البواب وابن مقلة والف ومائتان وعشرون نسـخة من تاريخ الطبرى فباع السلطان جميع ذلك وقام بالبيع فيها عشر سنين (٧١) .

على انه فى الوقت الذى سقطت فيه الدولة الفاطمية كانت لا تزال هنـاك مكتبة كبيرة فى قصر العاضـد آخـر الخلفاء الفاطميين ويظهـر ان هذه المكتبة قد استعادت شيئا من سـابق عظمتها وروائها اما باسـترجاع بعض كتبها التى ضاعت فى هذه المحن او باضافة بعض الكتب الجـديدة ولكن هذه الكتب قد بيعت كما ذكرنا عندما استولى صلاح الدين الأيوبى على القصور الفاطمية الزهراء وان دل هذا على شيء فانما يدل على كثرتها وغزارتها (٧٢) .

---

(٦٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٣٦ .
(٦٩) د. زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين .
(٧٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .
(٧١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٣١ .
(٧٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٤٨ وما بعدها .

المدارس والكتاتيب والزوايا

ولم تكن هناك مدارس فى العهد الطولونى والاخشيدى انما تلقى الدروس فى المساجد كمسجد عمرو وابن طولون وفى بيوت الأمراء والوزراء والعلماء وكانت هناك سوق تسمى « سوق الوراقين » تباع فيها ، واحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات (١) .

واستتبعت الدعوة للتشيع تنظيم وسائل الدعاية من انشاء المساجد ودور الكتب . فالمساجد كانت لهذا العهد هى المدارس وهى المحاكم وهى أمكنة العبادة وهى مكان الخطب السياسية فيما يجد من الأحداث فكانت تقوم بوظائف اجتماعية اكثر جدا مما تقوم به الآن . فلما كان المسجدان الكبيران فى مصر جامع الفسطاط وجامع ابن طولون كانا مركزى التعليم السنى من قبل الفاطميين وقد دعا الأمر عند انشاء القاهرة الى انشاء مساجد تقام فيها الصلوات وتنشر منها الدعوة الشيعية بجانب تلوين مسجدى مصر بالتشيع ايضا وتكوين مركز لنشر المبادىء السياسية والاجتماعية (٢) التى يراد نشرها . فأسس الأزهر لهذا الغرض بناه جوهر قائد المعز وكان الخليفة الفاطمى يخطب فيه بنفسه كل جمعة الى ان انشأ الحاكم جامعه سنة ٣٨٠ هـ فوزعت الخطبة على المساجد الاربعة .

واتخذ الأزهر كغيره مدرسة لدراسة المذهب الشيعى وبقى الأزهر كمركز للفقه الشيعى الى أن بنى الحاكم جامعه فتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى الجامع الأزهر (٣) . وعلى الجملة فقد كانت المساجد والمكتبات والمكاتب هى أمكنة للدراسة هذا عدا المجالس الخاصة فى بيوت العلماء والوزراء .

نعم كانت الكتاتيب منتشرة فى المدن والقرى حتى من عهد الرسالة ولكن

---

(١) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٦٤ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٧ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ — المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٠ .

الدراســـة العالية هي التي لم يكن لهـا مدارس خاصــــة وانما كانت تقـوم فى الجوامع (٤) .

وكانت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية مركز اشـعاع جذب اليـه المثقفين والفنانين من انحاء الدنيا فكانت مقرا نشـطت فيه صناعة القلم والفكر ، وأنشئت المكتبات المطلعين والدارسين انه عصر الدار الشهيرة « دار الحكمة » كما أصبحت مســاجدها منارات علم تلقى الدروس فى صحونها وكان الأزهــر هو أول هـذه المســاجد (٥) .

اما معاهد العلم فكان فى طليعتها الأزهر وهو اقدم مدرســة فى مصر . وقد اسسته الدولة الفاطمية وحاطته بالرعاية وجمعت له كثيرا من كبار العلماء ورتبت لهم الأموال وكانوا يدرســون فقه الشـيعة وشـيئا من اللغة والنحو والمناظرات والجـدل العلمى وكانت الهبات العلمية واجزال العطايا للمعلمين حافزا على البحث والـدرس (٦) .

ويشير المقريزى (٧) : « من الجوامع التى تقـام فيها الجمعة بمصر وظاهرها من الجزيرة والقرافة اربعة عشر جامعا ومن المسـاجد اربعمائة وثمانون مسـجدا ومن المدارس سبع عشرة مدرسة ومن الزوايا ثمانى زوايا ومن الربط التى بمصر والقرافة بضعة واربعون رباطا » .

كما وانه على ذكر الربط المنتشرة فى القرافة الكبرى بمصر نذكر أن سـيدات الأسرة الفاطمية بالقاهرة انشأن ربطا مثل رباط الحجازية . وقد أمرت بانشائه فوز جارية على بن احمد الجراجرائى وذلك سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ووقفته على واعظة زمانها السـيدة الحجازية ورباط التاريخ وقد أمرت ببنائه الجهـة الأمرية المعروفة بجهة الدار الجديدة سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ورباط الأندلس . وقد أمرت بانشائه السيدة علم الأمرية وتسمى ست القصور سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م . وخصصته للعجائز والأرامل ولا شك أنها كانت متأثرة بطراز الربط التونسية (٨) .

---

(٤) احمد امين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٢٣٠ — ٢٣٥ .
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٨ .
(٦) صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضــة الحديثـة : عبد الحميد حسن : ص ٨ — ٩ .
(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٧٤ .
(٨) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطورة ص ٢١٢

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر والبهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بانصاف الأنواع والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التى تحلى بالقصور ما لا يمكن حصره ولا يعرف ما هو قدره الا أن قدر ذلك بالتقريب .

فالخانقاه والرباط والزاوية — وجمعها خوانق ورباطات وزوايا — معاهد دينية اسلامية للرجال والنساء وهى كالأديرة المسيحية ويطلق الرباط أحيانا على الدير المسيحى كما يقال للراهب المسيحى رابط .

غير أن تلك المعاهد الاسلامية لم تكن يوما للرهبنة وانما انشئت لايواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد . وكان غرض منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب ولفظ الرباط والزاوية عربيان فأصل الرباط مكان اقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو كما أن الزاوية فى الأصل الركن أو المكان عامة (٩) .

أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت وهى حديثة فى الاسلام — فى حدود الأربعمائة — وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخانقاه فى الاسلام السلطان صلاح الدين الأيوبى . فكانت الخانقاه التى أنشأها دارا تعرف بأولاد سعيد السعداء نسبة الى الأستاذ قنبر سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر وكانت هذه الدار مقابل الوزارة (١٠) .

كما أن من كان مدرسا فى الزوايا وصف بسعة العلم والتضلع بالفنون والأخذ من كل منها بحظ وافر وطول باع فى البحث والمناظرة والوقوف مع الحق فيها وعدم الجدال فى الباطل . وتربية الطلبة وتأديبهم والتقريب على من عسر على فهمه شىء من المسائل وعدم الترفع عليهم وتنزيلهم منازل فى الفضل وتقديم من برع فيهم (١١) .

كما وصى ان كان مدرسا بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه وان يستميلهم اليه جهد استطاعته ويربيهم كما يربى الوالد ولده ويستحسن نتائج أفكارهم التى يأتون بها فى درسه ويقدم منهم من يجب تقديمه وينزل كل واحد منهم

---

(٩) محيط المحيط .
(١٠) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ١٨٢ .
(١١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٠١ .

منزلته ليفهرهم ذلك الى الاكباب على الاشتغال والازدياد فى التحصيل ثم يأتى كل مدرس بما يناسبه من أمور العلم الذى يدرس فيه ان كان يدرس فى علم خاص (١٢).

فهناك أكابر المدرسين فى عامة العلوم بأماكن مخصوصة كالزاوية الخشابية بالجامع العتيق بمصر والمدرسة الصلاحية بتربة الامام الشافعى بالقرافة ونحو ذلك باقطار المملكة من مدارس الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الدينية (١٣).

ومن معاهد العلم « الزاوية » وهى مأخوذة من الفعل انزوى فينزوى وبمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد . وقد أدرك الخلفاء المسلمون الأوائل حاجة المعتكفين الى هذا الانزواء فانشأوا لهم مساكن بالمسجد . كما نشاهد ذلك ماثلا حتى الآن بمعظم مساجد فاس والقاهرة . ثم تطورت الزوايا بعد الى ابنية صغيرة ومفصلة فى جهات مختلفة من المدينة فى شكل دور أو مساجد صغيرة يؤدى فيها المسلمون الصلوات الخمس ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية فى علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية . كما يعقد فيها المشايخ الطرق الصوفية الذكر ، ونطاق الزاوية ايضا على المعهد والرباط الذى تنشئه احدى الطرق الصوفية وتنتشر الزوايا فى كثير من ارجاء المدن والقرى (١٤) .

وظهر فى مصر بجانب مسجد عمرو وجامع ابن طولون مساجد أخرى حيث اخذت الزيادة فى عهد الفاطميين حتى بلغت فى مصر والقاهرة خمسة عشر مسجدا جامعا موزعة على أحيائها وفى القرن الرابع الهجرى كثرت المساجد لدرجة انها بلغت فى بغداد ثلاثين الفا وفى مصر والفسطاط وحدها ستة وثلاثين الفا وفى الاسكندرية فى أواخر القرن السادس الهجرى اثنا عشر مسجدا وفى بلزم (بلرنو بصقلية) اكثر من ثلاثمائة مسجد (١٥) .

وان اشارة ابن جبير والهروى الى هذه المساجد وكثرتها تعطينا صورة واضحة لما كانت عليه المدينة من عمران فى العصر الفاطمى السابق لأن هذه

---

(١٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ٩٧ .
(١٣) المرجع السابق جـ ٩ ص ٢٥٦ .
(١٤) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٢٣ .
(١٥) د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٨ .

الالوف لم تبن كلها فى أوائل عصر صلاح الدين وانما بنيت فى العصور السابقة وخاصة فى العصر الفاطمى (١٦) .

والى جانب جامع الأزهر نرى الفاطميين يبنون جامع الحاكم وجامع راشدة وجامع المقس وجامع القرافة وجامع الاقمر ونقل اليها الفاطميون المصاحف وجلس فيها معظم العلماء والفقهاء فكانت حلقات هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقين الدعوة الفاطمية (١٧) .

وكانت معظم الدروس فى الفقه وعلم الكلام تعطى فى المسجد والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس . وكان هذا يتخذ مكانه الى جانب أسطوانة المسجد مستندا اليها بظهره ان أمكن واذا اقترب احد من هذه الحلقة سمع النداء : دوروا وجوهكم الى المجلس .

وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت الشتاء مائة وعشرة مجالس من مجالس العلم (١٨) .

وكان تغير التعليم سببا فى ايجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية . ذلك انه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ولعل من اكبر الاسباب فى ذلك ان المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس لما يتبعه من مناظرة وجدل قد يخرج باصحابه أحيانا عن الأدب الذى تجب مراعاته للمسجد فالقرن الرابع الهجرى هو الذى أظهر هذه المعاهد الجديدة التى بقيت الى ايامنا وخصوصا المسجد الجامع حيث كان القاضى يجلس فى النهار للحكم بين الناس وحيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس وكان يبلغ المسجد اقصاه فى المساء ، يحكى لنا المقدسى ما شاهده بالفسطاط فيقول : «بين العشائين (بالفسطاط) جامع مغص بحلق الفقهاء وائمة القراء واهل الأدب والحكمة » (١٩) .

---

(١٦) د . جمال الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٨١ — ٨٢ .

(١٧) د . حسن أحمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٧٤ — ٧٥ .

(١٨) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٣١٤ — نقلا عن المدسى ص ٢٠٥ .

(١٩) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٣١٨ .

ولم تكن الحلقات العلمية بالمساجد مقصورة على الدراسـات الدينية وانما تعدتها الى سواها من المعارف فقد ثبت انه درست بالمساجد اللغة والمنطق والطب ويروى السيوطى أن دروسا مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب (٢٠) .

ويقول عبد اللطيف البغدادى : « ان دروسا فى الطب كانت تلقى فى الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم » .

وكانت توجد اجتماعات أخرى تعقد فى المساجد فكانت هذه المراكز العلميـة والثقافية الى جانب كونها مكانا للعبادة ومعهدا للتعليم ودورا للقضـاء كذلك كان مسجد قباء أول مسجد فى الاسلام (٢١) . حيث ان القرآن أساس العلوم الدينيـة فتعليمه أساس التعليم الدينى وأول دروس القرآن قراءته ، فأول المعلمين فى الاسلام النبى صلى الله عليه وسلم علمه للصحابة وهم علموه للناس على ما ترتب عليه أو تفرع عنه من العلوم .

ولهذا السبب كانت مدارس المسـلمين فى جوامعهم (٢٣) كجامع المنصـور فى بغداد والجامع الأموى بدمشق والجامع الأزهر فى القاهرة وجامع القيروان بتونس وجامع قرطبة بالأندلس وجامع القرويين فى المغرب والجامع الكبير فى صنعاء (٢٢) .

فكانت هذه المساجد تقوم مقـام المدارس والجامعات فى أيامنـا الحديثة فقد كان الناس يتحلقون فى المساجد حول العلماء يستمعون الى ما يلقيه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذى نراه الى الآن فى بعض المسـاجد فى مصر . وعـرف الفاطميون ما للمسـاجد من أهمية فى الحيـاة الثقافية فأكثروا من بنائها أولا ثم كان اعتمادهم عليهـا من حيث اتخـاذها كمدارس يتلقى فيها الأهـالى تعـاليم المذهب الشـيعى (٢٤) .

فتعددت مراكزها فى مصر ، وكانت حلقات الدرس فى المسـاجد أو الدور فى القاهرة والفسطاط أو فى الاسكندرية وتنيس فى الشمال وفى أسوان وقوص وقفط

(٢٠) د . عبد الحليم منتصر ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢١) د . عبد الحليم منتصر ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٢٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢١٩ .
(٢٣) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢٤) د . على ابراهيم : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ١٢٢

فى الجنوب (٢٥) . ومن أمثلة ما جاء فيها أنه كان فى الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية وفى القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية (٢٦) .

من هنا نرى أن المدارس المختلفة لم تعد فى هذا العصر الفاطمى قاصرة على حاضرة البلاد بل انتشرت فى جميع أرجاء مصر فى ادفو وغيرها مما مهد السبيل أمامها لتخطى حدود مصر الجنوبية والنفوذ الى بلاد السودان . ولا ننكر أن مدارس هذا العصر قد زهت وتفوقت على المدارس الأخرى (٢٧) .

ثم انتقلت مجالس العلم وصالونات الأدب والاجتماعات العلمية من قصور الخلفاء والمساجد الى المدارس فقد زاد الاقبال على هذه الحلقات وتعددت فى المسجد مما أحدث من الضوضاء والضجة ما غدا معوقا . واتضحت صعوبة استعمال المسجد للتدريس والصلاه . ولذا ترك الأزهر للتدريس زمنا ولم تكن تقام به الا الجمعة ثم ان المعارف ازدادت تنوعا وازدادت اسباب الجدل فى دروسها مما لم يكن يتفق احيانا ومهابة المساجد وجلالها (٢٨) .

وكثر الدارسون والمنظمون فى حلقات الدين والعلوم فى رحاب المساجد مما دعا الى بناء مدارس الحقت أول الأمر ببيوت الله . ثم انفصلت واستقلت لتصبح دارس نظاميه تدرس بها علوم الدين واللغة والتاريخ الى جانب العلوم العقليه ن طب وفلك وجغرافيا ورغم هذا ظلت للمساجد قدسيتها واستمرت تؤدى رسالتها الدينية وينتظم فيها المسلمون ممن يريدون التفقه فى الدين ومعرفة الأحكام والفرائض (٢٩) .

كذلك فعل الفاطميون فى مؤسساتهم التعليمية بمصر اذ عينوا اتجاها دينيا خاصا تتوخاه الدراسة ورتبوا خيرة رجالهم للاشراف على هذا التوجيه ونشر الدعوه للمذهب الفاطمى . فلا غرابة فى أن كانت العلوم المؤيدة للمذهب الاسماعيلى غالبه على الدراسة بالأزهر فى عهدهم لأنهم انشأوه لهذا الغرض وكانت أوقات التعليم

---

(٢٥) د . محمد حسين كامل : فى ادب مصر الفاطمية ص ١١٩ .
(٢٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٦ .
(٢٧) د . حسن احمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٧٦ .
(٢٨) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٥٥ .
(٢٩) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة العربية الاسلامية ص ٥ .

فى مصر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى فى عهد العزيز أصبح الأزهر معهدا علميـــا أكثر منه مســـجدا وقـــد أوقف الحـــاكم بأمر الله للجامع الأزهر وبيت الحكمة أوقافا عظيمة (٣٠) .

وكان من الطبيعى أن تصطبغ الحلقات بفقه الشيعة وعلومهم لكن ذلك لم يكن محتوما . لهذا كانت الدولة الفاطمية تسلك فى كثير من الأحيـــان مســـالك التغاضى والتسامح وان كانت فى أحيان أخرى تشتط فتعاقب مخالفيها فى المذهب .

وكان هذا الشطط بعد أن تمكنت الدولة سياسيا وقد أدى ذلك الى أن توارى المذهبان اللذان كانا سائدين فى مصر من قبـــل وهما المذهب الشـــافعى والمالكى ، وصارت الغلبة للمذهب الفاطمى (٣١) . وعلى هذا كانت الدراسة بالأزهر فى العهد الفاطمى تجول فى ميدان من الحرية يتسع حينا ويضيق حينا آخر .

ولم تقف جهود الخلفاء الفاطميين فى أحياء العلوم ونشر المعـــارف عند حـــد اقتناء الكتب والمحافظة عليها . بل انهم نشروا العلم وشجعوا الناس على الاغتراف فيه بكل الوسائل والطرق . فلقد ظل العلم يلقى فى جامع عمرو فى حلقاته العلميـــة والأدبية التى كانت تعقد بانتظام ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء كما كان يحدث فى عهد الدولتين الطولونية والاخشيدية (٣٢) وأوقف عليه الخلفـــاء الفاطميون وعلى غيره من المســـاجد الاوقاف والهدايا وقد كان يصـــيب الجامع لهذا الســـبب كثير من الترميمات والاصـــلاحات بين آن وآخر . كذلك كان الخلفاء الفاطميون يشـــملون الطـــلاب بالرعاية والعطف وترتب لهم نفقات مأكلهم ومشربهم فضلا عما تقدم لهم من الأطعمة والحلوى فى جميع المواسم والأعياد (٣٣). ومن أشهر الفقهاء الذين جلسوا للتدريس فى جامع عمرو فى عهد الفاطميين على بن نصر بن سليمان الزنبقى اللغوى ، وقرىء عليه كثير من الكتب الأدبية وأبو أســـامة جنادة بن محمد النحوى وأبو الحسن بن طاهر بابشاذ فكان كلاهما عالما فى اللغـــة والنحو (٣٤) .

---

(٣٠) د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٧٤ .
(٣١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه تطوره ص ٢٧٤ .
(٣٢) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٨٨ .
(٣٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤١ .
(٣٤) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٨٨ .

وان كانت الجوامع كمركز لنشر المذهب الشيعى غير انه لا يغيب عن البال ان الخلفاء الفاطميين كانوا يتخذون من الجوامع مراكز لنشر المذهب الشيعى لاشاعة عقائدهم بين الناس فقد جلس كثير من الفقهاء درسوا فيه الرسالة الوزيرية التى ألفها الوزير يعقوب بن كلس فى الفقه الشيعى فى عهد العزيز كما قام محمد بن النعمان كذلك قام بتدريس العلوم الشيعية فى زمن الحاكم بأمر الله القاضيان على ابن النعمان وعبد العزيز بن محمد بن النعمان كذلك ادى جامع ابن طولون دوره كمعهد علمى (٣٥) . غير أنه لم يتح له من النشاط والشهرة مثلما أتيح لجامعى عمرو والأزهر . اذ لم يرو لنا التاريخ أسماء لامعة قامت بالتدريس فيه مثل ما روى من اسماء العلماء والأدباء والفقهاء الذين حاضروا فى الجامعين المذكورين (٣٦) .

وكانت المعاهد الاسلامية نتاجا اقليميا من صميم حاجة المجتمع الاسلامى وتطوراته تنبض بروح الاسلام وتهتدى بتعاليمه وأغراضه ولم تكن فى جملتها دخيلة او مأخوذة عن الحضارة القديمة وانما كانت متصلة فى نموها وتطورها بالحياة الاسلامية العامة تنعكس فيها أهم أغراض واتجاهات تلك الحياة . فالمعاهد الاسلامية المختلفة نشأت فى أوقات متباعدة بتأثير ظروف خاصة ولتحقيق أغراض معينة أولها حاجات الحياة الاسلامية النامية المتطورة وأهم تلك المعاهد : الكتاب والمسجد أو الجامع أو دار الحكمة ودار العلم والمدرسة والبيارستان والخوانق والزوايا والربط وحلقات الدرس ودور الكتب .

وقد نهض المذهب الاسماعيلى على أيدى الفاطميين نهضة بعيده الأثر من حيث استخدام الدعوه الاسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطميه وبسط نفوذها فاعتمد عبيد الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين على المدارس التى أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الاسماعيلى بين أشياعه سرا ، وقد راجت مدارس الدعوة فى المهدية حاضره الدولة الفاطمية الناشئة فى عهد عبيد الله المهدى ثم راجت فى المنصورية حاضرة هذه الدولة فى عهد حفيده المنصور (٣٧) ثم فى القاهره فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . وقد عرفت هذه المدارس بمصر باسم

---

(٣٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩ — ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٤ .

(٣٦) شحاته عيسى ابراهيم — القاهرة ص ٨٩ .

(٣٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٢٧ .

« مدارس الحكمة » التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة الاسماعيلية . وقد اهتمت هذه المدارس بتخريج دعاة ينبثون فى عامة البلاد الاسلامية لينشروا المذهب الاسماعيلى بين الناس ويكونوا أداة اتصال بين رياسة الدعوة والدولة وبين أشياعهم المسيحيين (٣٨) .

ولكى يحيط الخلفاء أنفسهم بهالة من التقديس عمدوا الى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يعتنقونه . وكان الفاطميون يعقدون مجالس ومنتديات علمية من وقت لآخر وقوام هذه المجالس أساتذة بيت الحكمة الذين كانوا ينقسمون الى جماعات تبعا لتخصصهم ومواد دراستهم فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل وهناك الفقهاء والمحدثون وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكانا رابعا وهكذا (٣٩) ..

وبينما كانت دار العلم وغيرها من المراكز العلمية الهامة تقوم بوظيفتها على هذا النحو اذ بمؤسسة أخرى كانت قد نمت وترعرعت فى الأوساط السنية فى الشرق وهذه المؤسسة الجديدة هى المدرسة (٤٠) .

ومن المفيد أن نعرف شيئا عن تعليم النساء المسلمات ، وان وجدنا أول نداء لتعليمهن من قبل النبى صلى الله عليه وسلم حيث اعتبرت زوجته عائشة حجة فى الدين الاسلامى وقد وجدنا نساء شاعرات وأديبات أو قابلات وهن اللاتى كان وجودهن ضروريا لشئون الولادة .

كذلك كانت تلقى دروس خاصة للسيدات الفاطميات فى مكان مخصص لهن فى قصر الخليفة يعرف بالمحول ليتعلمن شئون العقائد الفاطمية . كما كان النساء يحضرن مجالس الوعاظ وتكون بينهن وبين الرجال ستارة ولكننا لم نسمع عن وجود مدارس للفتيات أو وجود تعليم مهنى فى بلاد الاسلام أو حتى فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى مما يدل على أن تعليمهن كان خاصا (٤١) .

---

(٣٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٣١ .
(٣٩) محمد عطيه الابراشى : التربية الاسلامية وفلاسفتها ص ٩٣ .
(٤٠) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٥٨ .
(٤١) د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٨ — ١٦٣ — ١٦٤ .

أما عن المدرسين فى ظل الفاطميين فقد سجل المقريزى (٤٢) والقلقشندى (٤٣) معلومات عظيمة الفائدة لا عن مرتب المدرسين فحسب ولكن عن المرتبات المهمة فى الدولة بما فى ذلك داعى الدعاة وهو الشخص الأول فى طائفة المدرسين فى المعهد الفاطمى وسنقتبس فيما يلى بعضا من هذا السجل ليحدد لنا مركز المعلم المالى بين مراكز الآخرين من كبار موظفى الدولة (٤٤) :

الوزراء ٥٠٠ دينار شهريا .

ابن الوزير ٢٠٠ دينار الى ٣٠٠ دينار شهريا .

كاتب الدست الشريف ١٢٠ دينارا شهريا .

صاحب الباب ١٢٠ دينارا شهريا .

داعى الدعاة ١٠٠ دينار شهريا .

الأساتذة المحنكون ١٠٠ دينار شهريا .

صاحب بيت المال ١٠٠ دينار شهريا .

حامل الرسالة ١٠٠ دينار شهريا .

صاحب الدفتر ١٠٠ دينار شهريا .

صاحب السيف ٧٠ دينارا شهريا .

صاحب الرمح ٧٠ دينارا شهريا .

رئيس الديوان ٥٠ دينارا شهريا .

الطبيب الخاص ٥٠ دينارا شهريا .

رئيس ديوان التحقيق ٥٠ دينارا شهريا .

رئيس ديوان المجلس ٤٠ دينارا شهريا .

الواعظ بالمسجد من ١٠ دنانير الى ٢٠ دينارا شهريا .

شاعر الخليفة من ١٠ دنانير الى ٢٠ دينارا شهريا .

ولكل من الأطبـاء الأخرين الذين كانوا يقيمون فى القصر ١٠ دنانير كما أوجد الفاطميون خزانة الكسوة التى كان يخرج منها اكسية لجميع الأمراء وكبـار الدولة وقد تنوعت هنا الأكسيات بتنوع طبقات الناس وكانت كسوة رجال التعليم مذهبة

---

(٤٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٢ .
(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ — ٥٢٦ .
(٤٤) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٤٥ .

تتكون من ست قطع أهمها القلنسوة والطيلسان (٤٥) .

واصبحت الخضرة شعار الفاطميين بدل السواد والذى كان رمز العباسيين ومن هنا لبس رجال العلم فى هذا العهد عمامة خضراء (٤٦) .

ان رجال التعليم فى العصر الفاطمى فى مصر اتخذوا صبغة خاصة ومالوا الى اتجاه معين ـ ذلك هو نشر المذهب الاسماعيلى الذى كان يعتنقه خلفاء الدولة (٤٧).

كما كانت المكتبات والمجتمعات العلمية ودار الحكمة وغيرها جزءا هاما من الخطة التى دبرها الفاطميون لنشر الدعوة الفاطمية الا انه فى أواخر عهد الفاطميين وقبل مجىء صلاح الدين الأيوبى كانت مصر قد تأثرت نوعا ما بحركة الرجوع الى المذهب السنى ، فأسس وزير من وزراء مصر فى عهد الخليفة الحافظ مدرسة شافعية فى الاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ ولقد اسسها رضوان بن الولخشى وأسند التدريس فيها الى الفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف (٤٨) الذى سبق أن قرأ المذهب المالكى على زوج خالته أبى بكر الطرطوشى .

وكان يدرس فيها الفقه وعلوم الدين وخلال القرن السادس الهجرى أصبح لهذه المدرسة ولمن على رأسها تلاميذ وعمت شهرته الآفاق (٤٩) . وأسرة بنى عوف كانت احدى الأسر الكبيرة فى مدينة الاسكندرية حيث كانت تتمتع بثروة ضخمه ومركز اجتماعى وبرز من افرادها عدد كبير من الرجال شاركوا فى الأحداث السياسية والحياة العامية فى الاسكندرية وكان على رأسهم الفقيه أبو الطاهر . ويبدو أن كثرة المساجد فى المدينة قد اثار الاعجاب فى نفسه ودفعه الى هذه المبالغة فان كاتبا معاصرا هو محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذى زار الاسكندرية فى

---

(٤٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٢٧٠ .

(٤٦) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٧٧ (نقلا عن عقد الجمان للعينى جـ ١٢ ص ١٩٢ مخطوط) .

(٤٧) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٩٠ .

(٤٨) هو اسماعيل بن مكى بن اسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ينتهى نسبه الى عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل ولد سنة ٤٨٥ هـ وتوفى سنة ٥٨١ هـ عن عمر يناهز ستا وتسعين سنة شهد نهاية الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين .

(٤٩) د . جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٤٨ .

سنة ٥٦٠ ، وأقام بها نحو أربعين سنة يقول عن وصف المدينة :

« وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم بها (٥٠) وكان يقيم فى تلك المدارس طلاب العلم وتجرى عليهم الأرزاق من ديوان الوزير وهو سجل عن الخليفة بانشائها وجعل اسم المدرسة الحافظية نسبة الى الخليفة الحافظ وان غلب عليها اسم المدرسة الحوفية نسبة الى الفقيه الكبير — وكان موقع المدرسة كما يقول السجل فى شارع الحجة » (٥١) .

وبعد عشر سنوات أي فى ٥٤٤ هـ بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمى مدرسة سنية أخرى بالاسكندرية وأسند التدريس بها الى الفقيه الشافعى أبي الطاهر احمد السلفي وقد ظل يدرس بها ويقرأ الحديث مما يقرب من نصف قرن تخرج عليه فيها جماعة من العلماء الكبار الذين وفدوا الى الاسكندرية من مصر ومن المغرب والمشرق (٥٢) .

وقد جاء السلفى الى مصر فى عهد الفاطميين ونزل القاهرة ثم غادرها الى الاسكندرية وعاد الى القاهرة مرة ثانية قبل سنة ٥٢٩ هـ لأنه سمع القاضى ابن أبى الحديد قاضى الاسكندرية الذى توفى فى هذه السنة وعندما استقر به المقام تزوج واحدة من كريمات نسائها سنة ٥٣٤ هـ . وكان بالاسكندرية العادل بن السلار واليا فاحتفل بالسلفى وزاد فى اكرامه وعمر له هذه المدرسة التى عرفت باسمه وفوض تدريسها له وجعلها للشافعية (٥٣) .

قال ابن خلكان عندما زار الاسكندرية بعد وفاة السلفى بزمن طويل يقرب من خمسين سنة : « وهى معروفة به الآن لم أر مدرسة للشافعيين سواها » .

وكان الحافظ فقيها ذرعا ثقة فاضلا حافظا متقنا سمع كثيرا وحفظ كثيرا وكان كلامه منصبا على الحديث وجمعه — قال منشدا لنفسه :

---

(٥٠) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٥١) يرجح أنه الشارع الكبير الذى كان ممتدا من باب رشيد الى باب البحر وموضعه الحالى طريق الحرية .

(٥٢) د . محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ص ١٥٧ .

(٥٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٩٣ .

انه علم الحديث علم رجال تركوا الابتداع للاتباع
فاذا الليل جنهم كتبوه واذا أصبحوا عدوا للسماع (٥٤)

وابن السلار هذا كردي الأصل وكان في نزاع متواصل مع وزير شيعي الأصل هو « ابن مصال » وكان ابن السلار في أول أمره شيعيا ثم اظهر اعتناقه للمذهب السني (٥٥) .

ويقول ابن خلكان في ترجمته للعادل أبي الحسن علي بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي « وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما وصل الحافظ أبي الطاهر السلفي (٥٦) الى ثغر الاسكندرية المحروس وأقام به ثم سار العادل المذكور واليا به « اى الثغر » احتفل بة وزاد في اكرامه وعمر له مدرسة فوض تدريسها اليه وهي معروفة به الآن » .

ومن الممكن ان يقال — اعتمادا على نص ابن خلكان هذا — أن ابن السلار لا صلاح الدين الأيوبي هو أول من أوجد المدارس بديار مصر وان الاسكندرية هي

(٥٤) د. محمد زغلول سلام : الادب في العصر الأيوبي ص ١٥٨ .
(٥٥) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٥٦) هو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن ابراهيم — علم من أعلام الفكر الاسلامي وكان العلماء يشدون الرحال اليه من كل حدب وصوب يأخذون عنه ويستمعون اليه ويتتلمذون عليه ولد في أصفهان سنة ٤٧٥ هـ وتلقى علومه بها ورحل الى بغداد ومكة والبصرة والكوفة ثم وفد الى الاسكندرية سنة ٥١١ هـ وأدرك أبا بكر الطرطوشي في أواخر أيامه ثم عاصر بعد وفاته عددا من تلاميذه وبخاصة أبا الطاهر بن عوف وسند بن عثمان فكانوا جميعا قادة الفكر والحركة العلمية في الاسكندرية في الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري واشتغل السلفي بالتدريس خصوصا علم الحديث وكان يعقد حلقاته أول الأمر في مساجد المدينة ولم يلبث أن اقبل عليه الطلاب من جميع أنحاء مصر وخارجها حتى أنشأ له ابن السلار مدرسة — وصنف السلفي كتبا كثيرة منها كتاب « السداسيات في الحديث » وآخر « السلفيات » وهي مجموعة الأحاديث التي رواها عن غيره من الحفاظ وله كتاب « الأربعين البلدانية » وهي مجموعة تضم اربعين حديثا — كما ألف ثلاثة معاجم لشيوخه الذين أخذ عنهم ، الأول لشيوخه في اصفهان ، والثاني لشيوخه في بغداد والثالث ترجم فيه لعلماء الاسكندرية وللعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم أثناء رحلاته وكان صلاح الدين الأيوبي واخوه الملك العادل ابو بكر محمد ممن سمعوا الحديث عن السلفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ وقد جاوز المائة (أعلام الاسكندرية ص ١٣٠ وما بعدها) .

اول مدينة مصرية عرفت المدارس . وذلك لأن ابن السلار كان — كما يذكر ابن خلكان — سنيا شافعيا كما كانت له اتصالات سياسية بنور الدين محمود بن زنكي في الشام (٥٧) .

ونحن نستطيع ان نقول ان قول ابن خلكان لا يزال يحتاج — كما احتاج قول المقريزي — الى تحقيق وتصحيح . حقيقة أن الاسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس — ولكن مدرسة السلفي لم تكن أول مدرسة أنشئت بالاسكندرية وانما سبقتها مدرسة أخرى هي المدرسة الحافظية التي انشأها رضوان الولخشي (٥٨) .

كما يرى الأستاذ الدكتور الشيال : أن المدارس أنشئت أول ما أنشئت في مدينة الاسكندرية في العصر الفاطمي وبنى الفائز مدرسة عرفت باسم الفائزية وتولى التدريس بها بعض الشيوخ والعلماء وزار أسيوط في العصر الأيوبي ابن الساعاتي وابن جبير (٥٩) ، وقوص كانت ثالث البلاد اهمية في مصر من حيث الثقافة وكثرة العلماء والمدارس وكانت تلي الاسكندرية في هذا الميدان وقد خرج منها جماعة من العلماء الأجلاء المذكورين — والذين كانت لهم آثار باقية في الثقافة والأدب والعلم (٦٠) .

أما عن الكتاب فقد أنشئت الكتاتيب (جمع كتاب) لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وقراءة القرآن الى جانب علوم اللغة — فيروى أن علقمة بن أبي علقمة كان له كتاب يعلم فيه العربية والنحو والعروض .

وكان الكتاب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الاسلامي وقد اشتق اسمه من تعليم الكتابة واصبح يطلق على المكان الذى يتعلم فيه الصبيان أيا كان الموضوع الذى يتعلمونه قرآنا أو قراءة أو كتابة (٦١) .

---

(٥٧) د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٥٨) د. جمال الدين الشيال : مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ٤٨ .
(٥٩) د. محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص ١٥٨ .
(٦٠) المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٦١) محمد الحسيني عبد العزيز : الحياة العلمية في الدولة العربية الاسلامية ص ٣٢ — ٣٣ نقلا عن تاريخ التربية الاسلامية د. احمد شلبي ص ٧١ ، ٧٦ .

ولم تظهر الكتاتيب أيام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وفى صدر الدولة الأموية لكنها بدأت تكثر فى القرن الثانى الهجرى وما تلاه من قرون .

وبمرور العصور والسنين تعددت مهمة الكتاب .. فبعد أن كان القرآن الكريم نقطة الارتكاز الأساسى الأولى فى الدراسة اضيفت القصص والاخبار وحكايات الأئمة المسلمين وبعض الأحكام الدينية والشعر ومبادىء الحساب وقواعد اللغة (٦٢) . لكن التعليم فى العصر الفاطمى كان فى الجوامع حيث تدرس فيها العلوم الدينية عن طريق الحلقات وكانت هذه الحلقات تتعدد فى المسجد الواحد ومثل هذا التحليق وجد منذ أيام النبى صلى الله عليه وسلم الذى قام بتلقين الحديث للصحابة . كما يجب ان نشير الى أن الفاطميين قد خطوا خطوات أوسع فأنشأوا فى قصورهم مدارس خاصة يلحق بها أولاد علية القوم وسراتهم وييسر المؤدبون فى تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج يرمى الى اعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية فى دولة الخلافة (٦٣) .

كما ان قصور الخلفاء الفاطميين قد اسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ويرون ان قصورهم يجب أن تكون مركز تشع منها الثقافة والعرفان ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء (٦٤) .

---

(٦٢) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٦٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٦٤) د. احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٧١ — ٧٦ .

حركة التأليف

قامت الخلافة الفاطمية لتنافس الخلافة العباسية وتحاول أن تقضي عليها وكان بين الخلافتين صراع عنيف استعمل فيه كل سلاح ممكن ، ومن الأسلحة التي استعان بها الفاطميون وبرعوا فيها سلاح العلم والأدب والثقافة . اذ ان مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذهب جمهور السنة في حاجة الى الدعوة وكسب المؤيدين في أنحاء العالم الاسلامي من جهة ، والوقوف في وجه علماء السنة في مصر والعراق وغيرهما الذين قاموا بمحاولة مضادة لتثنية آراء الفاطميين من جهة اخرى فكانت معركة سلاحها الحجة والاقناع . وغزارة العلم ، وكان على الفاطميين الى جانب الغزو السياسي والحربي القيام بغزو فكري ومحاولة جذب العلماء والادباء والمفكرين .

ولقد نجحوا في ذلك الى حد كبير ، اذ ساعدهم حبهم للعلم والأدب واغداقهم الأموال على تنفيذ مآربهم فاصبحت القاهرة في عهدهم كعبة العلوم والفنون ومركز اشعاع جذب اليه الكثير من العلماء والشعراء واهل الفنون المختلفة . ولم يقتصر الامر في تشجيع الحياة العقلية والأدبية على الخلفاء فحسب بل كان لكبار رجال الدولة وعلى رأسهم الوزراء اثر كبير في ازدهارها واننا اذا استعرضنا تاريخ الوزراء لظهر لنا بجلاء الدور الكبير الذي لعبوه في تنشيط الحركة الفكرية وازدهار النهضة الثقافية حتى اصبحت مصر مسرحا لنشاط عقلي وأدبي عظيم . ولم يقتصر كثير من الوزراء على حبهم للعلم والأدب وتشجيعهم لأهله بل كان منهم من قام بالتأليف في مختلف أنواع العلم وقرض الشعر (١) .

وكان الاختلاف المذهبي بين الشيعة والسنة عاملا من عوامل نشاط حركة التأليف الى جانب عقد المجالس الأدبية للجدل والنقاش وظهر مئات الكتب تدعو للشيعة أو ترد على اتهامات السنيين وكان لأبي حنيفة النعمان القاضي المغربي

---

(١) د. محمد حمدي المنياوي   الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ١٠٣ .

وابنائه جميعا وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى النهضة الأدبية للدعوة الفاطمية فى مصر (٢) .

وقد ادى مجيء الفاطميين الى مصر بمذهب شيعى له اسس ودعائم تختلف عما كان عليه أهل السنة الى ظهور فريقين من العلماء يعمل أولهما على تأييدهم ويفند الفريق الآخر آراءهم (٣) .

واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة فى تاليف الكتب وكان لأبى حنيفة النعمان الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية (٤) .

اما القاضي النعمان محمد بن حيون التميمى المغربى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م لديه اقوم مصادر لدراسة القانون عند الفاطميين عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى « القرن العاشر الميلادى » ولا نعرف سنة ميلاده وان كان يرجح انه ولد فى أواخر القرن الثالث للهجرة (٥) . ويعرف فى تاريخ أدب الدعوة الاسماعيلية المستعلية بسيدنا قاضى القضاة وداعى الدعاة النعمان بن محمد وقد يختصر المؤرخون فيقولون « القاضى النعمان » تمييزا له عن صاحب المذهب الحنفى ويقول ابن خلكان (٦) « انه كان مالكى المذهب ثم اعتنق مذهب الفاطميين » غير أن أبا المحاسن يقول « ان النعمان كان حنفى المذهب قبل اعتناقه مذهب الفاطميين » .

ويطلق عليه ابن خلكان ومؤلفو الشيعة الاثنى عشرية « أبا حنيفة الشيعى » خدم المهدى مؤسس الدولة الفاطمية التسع سنوات الأخيرة فى حكمه ثم ولى قضاء طرابلس فى عهد القائم بأمر الله الخليفة الثانى الفاطمى وفى عهد الخليفة المنصور بالله عين قاضيا للمنصورية ووصل الى أعلى المراتب فى عهد المعز لدين الله الخليفة الفاطمى الرابع اذ رفعه الى مرتبة قاضى القضاة وداعى الدعاة .

---

(٢) د. على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ٢٣٦ .
(٣) د. أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٨٨ .
(٤) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٨ .
(٥) القاضى النعمان : تحقيق آصف فيض ـ دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام ص ٩ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٥٦ .

وعلى هذا فقد عاصر ابو حنيفة الفاطميين في المغرب ثم قدم الى مصر هو وابناؤه في ركب المعز ويعد النعمان من اهم دعائم الدعوة الاسماعيلية وله في الفقه الاسماعيلي عدة مؤلفات منها دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام وقد استغل ميوله المذهبية في تاليف هذا الكتاب (٧) . على اننا نراه يضيف الى قواعد الاسلام الخمس الولاية وهي حب أهل البيت والطهارة ، على أن أهمية القاضي النعمان في ميدان الفقه أكثر منها في ميدان العقيدة . ولما تولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية سنة ٣٤١ هـ قويت علاقة القاضي النعمان به حتى جمع من مجالسته معه كتابه « المجالس والمسايرات » وقد صحب القاضي النعمان المعز لدين الله في رحلته الى مصر سنة ٣٦٢ هـ بعد أن فتحها جوهر الصقلي غير انه لم يعين القاضي النعمان قاضيا على مصر . بل اقر فيها القضاء لأبي طاهر محمد بن احمد الذهلي الذي تولى قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وبقي النعمان بمصر رفيع المكانة (٨) .

كان القاضي النعمان رجلا ذا مواهب عديدة غزير العلم واسع المعرفة باحثا محققا مكثرا في التاليف عادلا في أحكامه . كما أننا لا نستطيع أن نبرز فكرة صحيحة عن أخلاقه ، ولعلة وقف نفسه على الدراسات التشريعية والفلسفية وعلى تاليف هذه الكتب العديدة المتنوعة التي كتبها ولما تمتع بثقة المعز لدين الله جعله الامام مستشارا قضائيا له ، وساعد امامه في المسائل الخاصة بالدعوة فقد وضع أسس القانون الفاطمي وينظر اليه بحق على أنه المشرع الأكبر للفاطميين (٩) .

ويقول رواة الفاطميين أنه لم يؤلف شيئا دون الرجوع الى أئمة عصره ويعتبر أقوم كتبه « كتاب دعائم الاسلام » وانه من عمل المعز نفسه ، وليس من عمل قاضيه الأكبر ، ولهذا كان هذا الكتاب هو القانون الرسمي منذ عهد المعز حتى نهاية الدولة الفاطمية — كما يتضح من رسالة كتبها الحاكم بأمر الله الى داعيه باليمن بل لا يزال هذا الكتاب هو الوحيد الذي يسيطر على حياة طائفة البهرة في الهند وعليه المعول في أحوالهم الشخصية . ومن عجب أن التشريع الاسلامي بالهند الآن يحافظ على شيء من القوانين التي كانت تطبق في مصر في عهد الفاطميين . ويظهر اثر

---

(٧) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ١٧٨ .

(٨) د. عبد الرحمن بدوي : مذاهب الاسلاميين جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٩) القاضي النعمان : دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام تحقيق آصف فيض ص ١٢٢٩ .

النعمان وقوته في تلك الحقبة وهي أن أبناءه اختصوا أيضا بما كان يتمتع به أبوهم من نفوذ . فقد تولى كل من ولديه علي والحسين مرتبة قاضي القضاة ووضعا كتبا في الشريعة . وعلى الجملة فقد كان النعمان مؤسس أسرة محترمة من القضاة الممتازين كما كان مؤلفا كثير الانتاج ينسب اليه أربعة وأربعون كتابا منها ثمانية عشر يحتفظ بها الآن وأربعة يرجح وجودها واثنان وعشرون فقدت ولم نعثر لها على أثر (١٠) .

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الاسلاميين ج ٢ أن القاضي النعمان كان أغزر مؤلفي الاسماعيلية انتاجا (١١) .

فكان القاضي النعمان كاتبا ضليعا ألف كتبا عديدة في كل أنواع العلوم فألف في الوعظ والتاريخ والأخبار والسير والعقائد والحقائق والتأويل والفقه (١٢) .

ويروي ابن خلكان (١٣) فقرة عن هذا الكتاب مأخوذة من ابن زولاق المؤرخ فيقول : « ان النعمان من أهل الفضل والعلم » ومما يزيد في أهمية كتبه أنها ألفت بناء على أمر من الخليفة المعز الذي راجعها بنفسه بعناية كبيرة ، ومعنى هذا أن الخليفة المعز يعتبر مشاركا للنعمان في تأليف هذه الكتب فهو الذي شجعه على البحث في أصول العقيدة الفاطمية وأخرج اليه كتب أجداده .

ومما يدل على ذلك أن الخليفة المنصور الفاطمي والد المعز اشتهر بسعة الاطلاع ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء الحكم عن البحث والتأليف بل انه كثيرا ما كان يحتم على ابنه المعز أن يتوفر على الدرس ويؤلف الكتب ويقرض الشعر . وليس هذا وحده — فقد حرص على حث العلماء على الاستزادة من العلم حتى لقد أثر عنه أنه كان يأمر قاضيه أبا حنيفة النعمان وغيره بالنظر في القرآن وتأليف الكتب في علومه (القرآن) من ذلك ما قاله لقاضيه يوما : « يانعمان استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته » (١٤) .

---

(١٠) القاضي النعمان : دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام تحقيق آصف فيض ص ١٢ .

(١١) ذكر عماد الدين ادريس ج ٦ ص ٣٦ — ٣٩ للنعمان أسماء ٤٢ كتابا . انظر أيضا كتاب (عماد الدين ادريس) للدكتور علي حسني الخربوطلي .

(١٢) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ١٣ .

(١٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٦ .

(١٤) القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وكان لهذه البيئة العلمية التى شب فيها المعز وترعرع اثرها فى تنمية مداركه وسعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية حتى انه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم ويناقشهم وهذا يدل على مقدرته العلمية كما كان أبوه المنصور من قبل (١٥) .

ومن مؤلفات المعز لدين الله الفاطمى ٣٤١ هـ / ٣٦٥ هـ : تأويل الشريعة ، كتاب الروضة ، بيان فى العلم ومجالسه ، الرسالة الى حسن القرمطى ، المناجاة ، الرسالة فى شأن المسيحية . كان الخليفة المعز يدعو العلماء الى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمى (١٦) . فقد طلب المعز من النعمان الاطلاع على العلوم الخاصة لآل البيت والتأكد من صحة النصوص التى تنقل عنهم فكان النعمان فى مؤلفاته عن الائمة دائم الخوف من أن يرتكب غلطات (١٧) . وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التى تقدم اليه (١٨) . كذلك كان على الامام أن يقوم بواجب الجهاد ضد الكفار وهو فرض صريح فى العقيدة الفاطمية (١٩) .

وكان المعز يعمل على تشجيع العلماء ويقربهم ويدر الأموال عليهم كما كان يشرف على تأليف المؤلفين ويتناولها بالتعديل والتغيير فيحذف منها ما يريد ويضيف اليها ما يعن له من الآراء وينقد المؤلفين نقد العالم الضليع . وقد طلب بعض الأمراء والقضاة المستجيبين الى ابى حنيفة النعمان المغربى قاضى قضاة المعز أن يضع كتابا فى أخبار الأئمة العلويين وأحاديثهم فوضع الكتاب واسمه « الدينار » ثم قدمه الى المعز لدين الله . ومع علو قدر النعمان فى التأليف (٢٠) فقد أمده المعز بكثير من الآراء التى تدل على قدرته فى النقد فكتب الى النعمان : « ... وقفت على الكتاب وتصفحته فرأيت ما اعجبنى فيه من صحة الرواية ، وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات تعتاض (٢١) على كثير من أوليائنا فعرفتها فاشرحها بما يقرب من أفهامهم —

---

(١٥) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٢١ .
(١٦) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات — ورقة ١١٥ — ٢٨٨ .
(١٧) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ورقة ١١٢ .
(١٨) المصدر السابق ، ورقة ١١٢ .
(١٩) القاضى النعمان : دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام تحقيق آصف فيض جـ ١ ص ٣٥٩ — ٤٦٦ .
(٢٠) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٢٣ .
(٢١) القاضى النعمان : المجالس — صعب فهمه .

فيستوى فى معرفته والاحاطة بعلم الفاطلة الشريف والمشروف فانه يجىء طريفـــا قريب المأخذ وســـمه كتاب « الاختصـــار لصحيح الآثار عن الأئمة الأطهـــار » فان ذلك الشبه به من كتاب الدينار » (٢٢) .

وبهذا نرى المعز يســاهم مساهمة فعالة فى ترويج مبادىء الشــيعة وتحبيب الناس فى الأئمة العلويين كما نراه يعمـــل فى الوقت نفســـه على نشر العلوم حتى لقد كان النعمان وهو أكثر رجـــال عهده اطلاعا ، يقف من المعـــز موقف التلميذ من الأستاذ . حتى لقد فتح المعز أبواب قصره للعلماء والطلاب ومشايخ أفريقية وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة ودراستها وانتساخها والتعلم منها ، والتفقه فيها (٢٣) . والتى تلقى على الناس فى قصره بالمنصورية من كتاب دعائم الاســلام للقاضى النعمان المغربى (٢٤) .

وصفوة القول أن المعـــز يعـــد من افذاذ عصره فى العلم والتصنيف فهو الذى دعا الى هذه الحركة العلمية المباركة حتى لقد نسب اليه تأليف كثير من الكتب مثل كتاب « الروضة » الذى يتناول الكلام على بعض النواحى الفقهية (٢٥) .

كما يروى ابن خلكان عن المسبحى أن النعمان كان من اهـــل العلم والفقـــه والدين والنبل مالا مزيد عليه (٢٦) ويقول ابن خلكان « ان النعمان بن محمد القاضى كان غاية فى الفضل من اهل القرآن والعلم بمعانيه وعالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس مع عقل وانصاف » (٢٧). ويضيف ابن خلكان فيقول « ان النعمان الف لأهل البيت من الكتب آلاف الأوراق بأحسن تأليف وأملح سجع وعمل فى المناقب والمثالب كتابا حسنا وله ردود على المخالفين ، له رد على أبى حنيفة ومالك والشافعى وعلى بن شرع » (٢٨) .

---

(٢٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢٣) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .
(٢٤) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ١٢٢ — ١٢٤ .
(٢٥) د. حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٢٥ .
(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٢٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٤٤ نقلا عن ابن خلكان جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٢٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٤٥ .

ثم نجد من آل النعمان ابنه محمد بن النعمان قاضى المعز والعزيز وكان واسع العلم فى الفقـــه والتاريخ والنجوم يقضى بين الناس ويقرأ فى القصر علوم آل البيت ويزدحم الناس على سماعه حتى يموت بعضهم فى الزحام . كما كان من أشهرهم عبد العزيز بن محمد بن النعمان من أعلم الناس بفقـــه الامامية . قال ابن كثير انه ألف فى العقائد الشيعية الكتاب المسمى : البلاغ الأكبر والناموس الأعظم ، وقد رد على هذا الكتاب أبو بكر الباقلانى (٢٩) .

وهكذا كان للنعمان أثر لا يعدله أثر فى النهضة الثقافية للدعوة الاســـماعيلية ولحركة التأليف أيضا . لذلك يحق للعلماء أن يسموه « المشرع الاسماعيلى » ولاغرو فقد كان ساعد المعز الأيمن ولسانه الناطق واستحق بهذا كله أن يتربع على عرش الدعوة الاسماعيلية فى المغرب وان يورث ابنــاءه هذه الزعامة فى مصر ولمـــا توفى صلى عليه المعز لدين الله الفاطمى . ولقد كان يعقوب بن كلس (٣٠) رائدا للحركة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى وخاصة فى عهد العزيز بالله (٣١) . فقد رتب الى داره الكتاب والأطباء يغدون بين يديه وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع لكـــل طائفة مكـــان مفرد وأجرى على كـــل واحد منهم الأرزاق . وألف كتبا فى الفقه والقراءات ونصب له مجلسا فى داره يحضره فى كـــل يوم ثلاثاء ويحضر اليه الفقهـــاء والمتكلمون واهـــل الجدل يتناظرون بين يديه فمن تآليفه : القراءات ، وكتاب فى الأديان وهو كتاب الفقه ، وكتاب فى آداب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحيتها فى الف ورقة ، وكتاب فى الفقه المعروف بالرسالة الوزيرية مما سمعه من الامام المعز والعزيز بالله ، وكان يجلس فى يوم الجمعة ايضا يقرأ مصنفاته على الناس بنفسه وفى حضرته القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءة ما يقرأ من مصنفاته قام الشعراء ينشدون مدائحهم فيه وكان فى داره عدة كتابة ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت، وجعل فى داره قراء وأئمة يصلون فى مسجد داره كما اقام بداره عدة مطابخ لنفسه

---

(٢٩) د . أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٩٦ .

(٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ وما بعدها .

(٣١) الدكتور على حسنى الخربوطلى بحث قيم عن يعقوب بن كلس ألقـــاه فى العيد الفضى لكلية الآثار جامعة القاهرة .

ولجلسائه ولعلمائه وحواشيه وكان ينصب عدة موائد لبقية الحجاب والكتاب والحواشي وكان اذا جلس يقرأ ما الفه على الخاص والعام من الناس (٣٢) .

وقد رتب ابن كلس عند العزيز بالله جماعة لا يخطبون الا بالقائد وانشأ عدة مساجد ومساكن بمصر والقاهرة وكان يقيم فى شهر رمضان الأطعمة للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ولجماعة كثيرة من الفقراء حتى اذا فرغ الفقهاء والوجوه من الاكل معه يطاف عليهم بالطيب ، ولم يلبث أن مرض ابن كلس من علة أصابت يده فمدحه عبد الله ابن ابى الجرع فقال :

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت　　رايت فى كل شيء ذلك الألما

تأمل الملك وانظر فرط علته　　من اجله واسأل القرطاس والقلما

وكان ابن كلس يجمع فى قصره عددا كبيرا من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن وبعضهم ينسخ شيئا من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقطة وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم الزلازلى وهو صاحب كتاب الأسجاع وأبو عبد الله محمد ابن أحمد بن سعيد التميمى المقدسى الطبيب الذى صنف للوزير كتابا فى الطب فى عدة مجلدات اسمه « مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » كما الف عدة مؤلفات منها « كتاب تخليص النفوس » وكتاب « الفحص والأخبار » ومقاله فى « ماهية الرمد وانواعه وأسبابه وعلاجه » (٣٣) .

ومن اشهر العلماء الذين وفدوا على مصر وعاصروا ابن كلس وخدموا العزيز ابو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف « بالقزاز القيروانى » (٣٤) . وقد الف كتابا فى النحو على حروف المعجم جمع فيه سائر الحروف التى اشار اليها النحويون فى قولهم « الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى » وقد وصف أحد العلماء القزاز بقوله « ابن القزاز فضح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين » (٣٥) .

---

(٣٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .
(٣٣) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٠ .
(٣٤) قال الصفدى وغيره « شيخ اللغة فى المغرب كان اماما علامة قيما » .
(٣٥) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٠ — ١١١ .

ولا شك ان أثر ابن كلس على الحركة الفكرية كان قويا حتى ظلت مزدهرة الى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى وهذا نتيجة لولعه بالتأليف وجمع الكتب حتى لقد صار لديه مكتبة عظيمة ويغلب على الظن أن هذه المكتبة قد ضمت الى مكتبة القصر الفاطمى بعد وفاته فاستفادت هذه المكتبة التى كان لها شهرة عظيمة أعظم استفادة لعلوم العربية ، مهيبا عند الملوك والعلماء محبوبا عند العامة ملك لسانه ملكا شديدا صنف « الجامع فى اللغة » وهزائر الشعر واعراب الدريدية « الضاء والظاء » الشترات فى اللغة « ما اخذ على المتنبى » « التمريض والتصريح » « أدب السلطان » وغير ذلك — مات سنة ٤١٢ بالقيروان عن تسعين عاما (٣٦) .

أما داعى دعاة الحاكم بأمر الله حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ هـ وهو من فلاسفة الاسماعيلية ويلقب بحجة العراقين فقد برزت له مؤلفات بعضها كتب طوال وبعضها الآخر رسائل قصيرة عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ومزج تعاليم الاسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه فى العلم وتضلعه فى فقه الدعوة (٣٧) . ومن اهم مؤلفاته : كتاب المصابيح فى اثبات الامامة ، الرسالة المضيئة ، كتاب الرياض ، كتاب الأقوال الذهبية ، ثلاث عشرة رسالة ، راحة العقل ، تنبيه الهادى والمهتدى ، معاصم الهدى ، الاصابة فى تفضيل على على الصحابة ، فصل الخطاب وابانة الحق ، رسالة النظم المضيئة فى الأمر والأمر والمأمور ، الرسالة اللازمة فى صوم شهر رمضان ، الروضة فى الأزل ، الرسالة الزاهرة ، التوحيد فى المعاد ، تاج العقول ، ميدان العقل ، الرسالة الحادية فى الليل والنهار ، رسالة الواعظة ، رسالة المعاد ، رسالة الحانية فى الرد على هارون بن الحسن ، كتاب خزائن الأدلة ، رسالة الفهرست ، رسالة المقادير (٣٨) .

وقد الف الكرمانى فى الرد على ما ادعاه الدرزية فى تاليفه الحاكم رسالة سميت « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى الوهية الحاكم بأمر الله » يثبت فيها عقيدة الاسماعيلية فى وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وله رسائل فى أدب الاسماعيلية ،

---

(٣٦) السيوطى : بغية الوعاة ص ٢٩ .
(٣٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٩ .
(٣٨) محمد حسن الأعظمى : اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ١٢١ — ١٢٢ .

وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » وجمع فيها محاضراته فى تاويل الآيات المتشابهة (٣٩) .

حقا كان حميد الدين الكرمانى شخصية لها من الأيادى العظيمة على حركة التاليف فى العصر الفاطمى فى مصر ما سبب نشاطا منقطع النظير .

ومن الشخصيات المرموقة فى العصر الفاطمى داعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر بالله المتوفى سنة ٤٧٠ هـ فمن مؤلفاته التى ساهمت فى حركة التاليف فى تلك الفترة : المجالس المؤيدية ، السيرة المؤيدية ، ديوان المؤيد ، الابتداء والانتهاء ، المسالة والجواب ، كتاب نهج العبادة ، شرح المعاد ، المسائل السبعون ، نهج الهداية للمهتدين ، أساس التأويل بالفارسية الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ، تاويل الأرواح ، المجالس المستنصرية (٤٠) وقصيدة الاسكندرية وتسمى أيضا « ذات الدوحة » (٤١) ونجد ديوان المؤيد يصو عقائد الفاطميين تصويرا كاملا كما عرض المؤيد لمبدأ التاويل واعجاز القرآن والرأ والقياس . وتعتبر مؤلفاته وخاصة المجالس المستنصرية عرضا لأصول مذ الاسماعيلية ورفع من شأن الامام وهو المستنصر بالله ويشتمل هذا الكتاب على خم وثلاثين مجلسا (٤٢) .

وكان لتشجيع الفاطميين لحركة التاليف اثره فى ظهور طائفة كبيرة من المؤرخين ساهموا فى حركة التاليف فى العصر الفاطمى منهم : ابو الحسن على بن محمد الشابشتى اتصل بخدمة مولاه العزيز فولاه خزانة الكتبواتخذه من جلسائه وندمائه وتوفى سنة ٣٨٨ هـ فى أيام الحاكم بأمر الله ومن مصنفاته : كتاب الديارات ، أورد فيه اخبارا طريفة عن اديرة العراق والشام والجزيرة ومصر وما قيل فى كل منها من اشعار (٤٣) .

كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر الأمير المختار وعز الملك المعروف بالمسبحى

---

(٣٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٥١ .
(٤٠) محمد حسن الأعظمى : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ١٢٣ .
(٤١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٥٢ .
(٤٢) المرجع السابق .
(٤٣) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٩ نقلا عن ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٢٦ .

الذى ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته وقد تولى فى أيامه بعض المناصب الهامة وشغف بكتابة التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « تاريخ مصر » ولا يوجد منه الا الجزء الأربعون بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزى وأبى المحاسن (٤٤) . ومن مؤلفاته كتاب درك البغية فى وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة المسبحى ويقع فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ، اذن فقد عنى هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث فى الأديان الى جانب اشتغاله بأمور الدولة وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذى يتصل بعلوم الدين من كتب المسبحى ، ومرجع عنايته بذلك الى أن أسرته من حران ، ولذلك عنى بما كان يعنى به الصابئة (٤٥) .

ومن اعلام المؤرخين الذين كان لهم فضل فى حركة التأليف ابو عبد الله القضاعى الذى ولد بمصر فى اواخر القرن الرابع الهجرى وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى (٤٦) . وقد ولى القضاء فى عهد الخليفة المستنصر وأوفده هذا الخليفة الى تيودورا امبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧ هـ سفيرا ليحاول عقد صلح بينهما . وله عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ منها : « مناقب الامام الشافعى واخباره » وكتاب خطط مصر — وسماه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره وكان هذا الكتاب عونا للمقريزى على كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » (٤٧) .

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى اواخر العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر كما برع فى الخط ومن تصانيفه كتاب : قانون ديوان الرسالة ، والاشارة الى من نال الوزارة الذى الفه للمأمون البطائحى وزير الآمر . وتتبع وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢ هـ (٤٨) .

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال أبى على محمد بن الحسن

---

(٤٤) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٦ .
(٤٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٦٧ .
(٤٦) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٩ .
(٤٧) المرجع السابق ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٤٨) المرجع السابق ص ١٨٠ .

ابن الهيثم وأصله من البصرة ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠ هـ (٤٩) .

ولكن بعد وفاة الحاكم اعتكف ابن الهيثم وعاد الى ما كان عليه واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر وأقام بها متنسكا واشتغل بالتصنيف والتعليم ونسخ الكتب القديمة فكان يعيش من نسخ ثلاثة كتب كل سنة هى اقليدس والمتوسطات والمجسطى ويبيعها بمائة وخمسين دينارا هى مؤونته بسنة ولم يزل على ذلك (٥٠) حتى انصرف الى العلم والبحث ثم اشتغل بالتأليف وبخاصة فى الهندسة والرياضة أما مؤلفاته فكثيرة (٥١) منها : كتاب « المناظر » وهو فى الضوء والبصريات ، ترجم الى اللغة الايطالية سنة ١٢٧٠ م .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على انه كان عالما متقنا لعلوم كثيرة فيقول القفطى ص ١١٤ عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة كان عالما بهذا الشأن متقننا فيه قيما بغوامضه ومعانيه مشاركا فى علوم الأوائل اخذ عنه الناس واستفادوا منه » .

وان مؤلفات ابن الهيثم كما يقول ابن ابى أصيبعة ما يقرب من مائتى كتاب خلا رسائل كثيرة فقد الف ابن الهيثم فى الهندسة والطبيعيات والفلك والحساب والجبر وفى الطب والمنطق والأخلاق (٥٢) .

ولكن ابن الهيثم كان فى مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب اتى بعد الفاطميين وقد لاحظ الأستاذ ديبور اهمال العلماء له فقال « انه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة فى الشرق ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفا مبشر بن فاتك القائد » (٥٣) .

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان . وهو مصرى

---

(٤٩) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٨١ .
(٥٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٠ نقلا عن القفطى ص ١١٥ .
(٥١) وزاره الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٣٣٥ — ٣٣٦
(٥٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨١ .
(٥٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٢ .

المولد من الجيزة وقد نشــا فقيرا معدما ، واصــبح بفضــل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى وتدل الكتب التى الفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه. كما أن له كتبا فى الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة (٥٤) .

وكان على بن رضــوان مجددا فى صــناعته . فلم يعمد فى مؤلفاته الى نقــل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء بل كانت له ناحية من التفكير والابتكار . وظل طيلة حياته فى كفــاح وعمل متصــل الى أن توفى حوالى ســنة ٤٦٠ هـ فى خــلافة المستنصر بالله الفاطمى (٥٥) .

وقصارى القول ان الحركة العلمية فى العصر الفاطمى ــ سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء فتفوقت على مثيلتها فى العهدين الطولونى والاخشيدى ، كمــا تميزت بنشــاطها فكان فى مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر . ولعــل هذا راجع الى نشــاط الحركة فى التأليف فى العصر الفاطمى .

ومما ساعد أيضــا على ازدهار حــركة التأليف فى العصر الفاطمى انه كانت بجانب هذه المكتبات العامة مكتبات خاصة لكل عالم تشتمل على الكتب التى يحتاج اليها ، فالغنى منهم يطلب من النساخين ان ينسخوا له الكتب التى يريدها والفقير ينســخ بنفســه (٥٦) .

كما أقاموا دور الكتب والخزائن وجلبوا اليها الكتب والأسفار ، ورصدوا لها الأموال وأعدوا لطلاب المعرفة القوام والنساخ وهوت اليه أفئدة العلماء من شتى الجهات ، ينهلون العلم من أعذب مورد وأصــفاه هذا الى ما كان لهــم من اثر فى بناء المساجد والقصور والبساتين فى جنبات القاهرة وعلى ضفاف النيل (٥٧) .

فكانت المســـاجد مثابة للعلماء وخاصـــة فقهاء المذهب الشيعى الذين كان عليهم أن يحاضروا النــاس فى عقــائد المذهب الاســماعيلى وكان بعض الوزراء

---

(٥٤) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٨٠ ــ ١٨١ نقلا عن ابى أصيبعة جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٥٥) ابن القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤ .

(٥٦) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٥٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٢ .

والقضاة يشتركون فى تاليف بعض الكتب فى المذهب الاسماعيلى يدرسها الاساتذة فى تعليم الناس (٥٨) .

كما كان نشاط النساخ فى مصر بالغ العناية فقد عين فى دار الحكمة منهم ليزودوا خزانة الكتب بما عسى الا يكون موجودا فيها (٥٩) .

وقد امدت الدولة الفاطمية مكتبة « دار العلم » التى كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة وابيح الناس الانتفاع بما يحتاجون اليه من المواد والأقلام والأوراق والمساند دون مقابل (٦٠) .

فلقد كانت لفرائيم بن الزفان همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها وعنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام المعروف بابن ملساقه (٦١) .

ولم تكن الأزمات والاضطرابات التى مرت بدولة الفاطميين بقادرة على ان تؤثر فى قوة الشعر والنثر اذ لم تنقطع حركة التفكير والتأليف حتى من الوزراء والخلفاء انفسهم وقد كانوا فى الفينة بعد الفينة يطالعون الناس بكتبهم ورسائلهم وحججهم ومقالاتهم (٦٢) ومن الكتب التى استخدمت فى الأدب لتهذيب الحكام كتاب سراج الملوك للطرطوشى الذى الف كتابه للمأمون البطائحى وزير الآمر الفاطمى . وقد نظر مؤلفه فى سير الأمم الماضية والملوك الخالية فجمع محاسن ما انطوت عليه سيرتهم وخاصة ملوك الطوائف وحكماء الدول ، ووجد ذلك فى ست من الامم هى : العرب ، والفرس ، والروم ، والهند ، والسند ، والسندهند .

كما ان وزراء القرن الأول كانوا من اصحاب الأقلام وكانوا على راس دواوين الدولة لذلك كان اكثرهم ادباء بارعين ، فالجرجرائى يصفه المقريزى بأنه « كان عالما فطنا غزيرا وقع مرة بين يدى الظاهر لاعزاز دين الله على مائة كتاب فلم تتشابه فيه لفظة بلفظة » كما ان الوزير الفلاحى املى سجل تقليد الوزارة سنة

---

(٥٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٦ .
(٥٩) د. احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٦٧ .
(٦٠) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣١ .
(٦١) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠٥ .
(٦٢) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين — اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ١١٣ .

٤٣٦ هـ بنفسه ، ويصف ابن الصيرفى والمقريزى الوزير ابن سديد الدولة الماشلى وزير المستنصر سنة ٤٥٤ هـ بانه كان من أماثل الكتاب وصدورهم وله كتب مستحسنة ورسائل مدونة . والف الوزير ابو شجاع محمد بن الاشرف بن محمد بن على بن خلف الذى تولى الوزارة فى سنة ٤٥٧ هـ كتاب « مواد البيان » فى ترتيب الكتاب للدولة الفاطمية وحاول أن يقنن لفن الكتابة قوانين ويعقد لها القواعد ونقل عن القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » خاصة عند الحديث عن نظم ديوان الرسائل فى العصر الفاطمى (٦٣) .

وقد اتخذ الصالح بن رزيك فقيها متعمقا فى علوم الشيعة اذ كان من علماء المذهب الجعفرى وقد الف كتابا فى فقه الشيعة اسماه « الاعتماد فى الرد على اهل العناد » . وكان الأفضل محبا لجمع الكتب حتى وجد لديه بعد قتلة مكتبة بها خمسمائة الف كتاب . ولقد سمع أن أحد وراقى العراق اراد شراء كتب ابراهيم بن الزمان الاسرائيلى والذى يقال أنه كان يملك اكثر من عشرين الف مجلد . فأمر الأفضل بشرائها واضافتها لخزائنه . وكانت هذه الكتب التى جمعها الأفضل وغيره من الوزراء سببا فى استعادة مكتبة القصر لسابق مكانتها حتى اصبحت فى عهد العاضد من اعظم المكتبات (٦٤) .

وكانت هذه الكتب تدل على العناية الكبيرة التى أولاها الوزراء للعلم والعلماء والأدب والأدباء واغداقهم الانعامات عليهم أكبر الأثر فى ازدهار الحركة العلمية والأدبية بمصر ووفود العلماء والأدباء من كل مكان وان يتبلوا على التاليف فى كل فرع (٦٥) .

وان نظرة للعلماء والأدباء الذين وجدوا فى كنف الوزراء الفاطميين الرعاية والتشجيع لخير دليل على ما لهؤلاء الوزراء من اثر فى النهضة العلمية والأدبية التى شهدها العصر الفاطمى فى مصر مما ساهم فى نشاط حركة التاليف فى ميادين الثقافة المختلفة فقد أكرم المأمون البطائحى يوسف بن حمدان الطبيب الذى ألف له « الشرح المأمونى » .

---

(٦٣) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٤ .
(٦٤) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٦٥) المرجع السابق ص ١٠٩ .

ولا ادل على رعاية المأمون للعلوم من ظهور مؤرخ عظيم من أهل بيتـه هو ابنه جمال الملك موسى الذى الف كتابا فى التاريخ يعتبر من المراجع الرئيسـية التى استعان بها المقريزى عند تعرضـه لتاريخ الدولة الفاطمية خصوصا فى الفتـرة من سنة ٥٠١ هـ الى سنة ٥١٩ هـ ، وساعده على ذلك استطاعته الوصول الى كثير من اسرار الدولة ومستنداتها ويذكر ان هذا المؤلف كان فى أربعـة أجزاء . وهكذا ازدهرت حركة التأليف فى العصر الفاطمى بسـبب اهتمام الخلفاء والوزراء بنشر الدعاية العلمية والأدبية حيث كانت الدولة تنفق على اهل العلم فى هذه الدار « دار الحـكمة » ٢٥٧ دينارا فى السـنة منهـا عشرة دنانير ثمنـا لورق الكاتب والناسـخ (٦٦) .

ومن هذا كله نرى أن مصر تزخر بالتراث الفاطمى الزاهـر ممـا يـدل على اهتمام الدعاة بالآداب والعلـوم المختلفة (٦٧) ، لأن الدولة الفاطميـة كانت دولة اسـلامية عظمى ذات اتجاهات حضارية عالميـة . وقد كان الخلفاء الفاطميـون ووزراؤهم يفتحون مكتباتهم فى قصورهم امام سـائر أبناء الشـعب (٦٨) ، ممـا شـجع على ازدهار الحركة الفكرية وخاصة حركة التاليف .

---

(٦٦) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٩ .

(٦٧) د . على حسـنى الخربوطلى : عمـاد الدين ادريس الداعى والمـؤرخ الفـاطمى ص ٨ .

(٦٨) المرجع السـابق ص ١١ .

الدراسات العلمية (الطب ، الفلك ، التنجيم ، الرياضيات والهندسة ، النبات ، الكيمياء)

يعد عصر الفاطميين من ازهى عصور مصر الاسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية فى مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا فى مصر او وفدوا عليها ولكثرة المؤلفات فى كل فن من فنون العلم .

وقد ذكرنا أن ائمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وانهم اوقفوا ارزاقا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له . وقد راينا كيف اهتم الفاطميون بانشاء خزائن الكتب فى القصر وفى دار العلم حتى يتسنى للعلماء ان يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضى النعمان سمع امامه المعز يقول : « انا لنسر بمن نراه من اوليائنا .. يطلب العلم والحكمة ويرغب فى الخير . كما نسر بذلك فى الولد » (١) .

ففى ظل هؤلاء الأئمة وعلى ضوء ما ذكره الامام المعز وجد العلماء ملاذا يؤويهم من العوز ويحميهم من الفاقة بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف . ويذكر المؤرخون عددا من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير (٢) .

فيحدثنا ابن ابى اصيبعة انه لما وصل المهذب بن النقاش — وكان فاضلا فى صناعة الطب — الى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وانعام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم الى من يقصدهم . ولاسيما من أرباب العلم والفضل ، فتوجه الى مصر واتصل بالقاضى

---

(١) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٦٦ — نقلا من المجالس والمسايرات : النعمان ورقة رقم ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص٦٦ .

الأجل السديد أبى منصور عبد الله بن الشيخ السديد أبى الحسن على فوهب له الأموال وأقام فى مصر مكرما (٣) .

ونردد ما ذكره المؤرخون عن القاضى عبد الوهاب بن على أحد فقهاء المالكية المجتهدين فى المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد « لم أر فى المالكية أفقه منه » آذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد ، واكرمه المصريون بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف ما هم عليه حتى تمول وحسنت حاله جدا ولكن ادركه المرض وكان يقول وهو فى مرضه : « لا اله الا الله عندما عشنا متنا » ، وتوفى بمصر سنة ٤٢٢ هـ (٤) .

فالقاهرة أصبحت مطمع أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب ، وفى العصر الفاطمى استطاعت مصر ان تنتزع زعامة العالم الاسلامى فى الحياة العلمية وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى . حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينتمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التى كانت سائدة فيها . واقرب مثل لذلك هو الامام الغزالى فقد هاجم فى كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه ولكنه وفد على مصر فى أواخر حياته فوضع كتابه مشكاة الأنوار متأثرا ببعض العقائد الفاطمية ولاسيما نظريتهم فى ترتيب العقول ويخيل الى ان السبب الذى من اجله شجع ائمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمى نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شىء ومن طريق العلم والجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر فى العالم الاسلامى واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم .

الطب

وقد اهتم الفاطميون بالطب واغدقوا على الأطباء الأموال الذين ضربوا بسهم وافر فى الطب وأجزلوا لهم المنح . وقلدوهم المناصب العالية واصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذى أصبح يدرس نظريا وعمليا فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات الطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين ومن مستلزمات الطبيب أن يكون ملما بعلوم

---

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠٩ .
(٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٧ .

الفلسفة واللغات الأجنبية وخاصة السريانية واليونانية بجانب المامة بالطب .

وظهر فى مصر فى العصر الفاطمى عدد كبير من الأطباء ، والطب كما نعلم كان فى ذلك العصر من علوم الفلسفة وكثرت فى مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع افقه وكثرة التآليف حوله وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوه لهم من مرتبات شهرية ، فيروى أن منصور بن مقشر النصرانى طبيب العزيز بالله اعتل سنة ٣٨٥ هـ وتأخر فى أو عن الركوب مع الامام فلما تماثل من علته كتب اليه العزيز رقعة بخطه نسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

طبيبنا سلمه الله

سلم الله الطبيب ، وأتم النعمة عليه ، وصلت الينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرئه . والله العظيم لقد عدل عندما رزقنا نحن من الصحة فى جسمنا فتمم الله عليك النعمة وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد فى نحره وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك واقالتك العثرة ورجوعك الى افضل ما عودك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليما » (٥) .

فمثل هذه الرسالة لا تصدر الا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير فما بالك اذا صدرت من امام مسلم الى طبيبه المسيحى فالامام عرف لطبيبه قدرته فى فنه وعلو كعبه فى صناعته فقربه واتخذه صديقا ، وكذلك يقال : ان المعز اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار وكان طبيبا عالما بتركيب الأدوية وطبائع المفردات وهو الذى الف شراب الأصول (٦) .

وكان فى خدمته أيضا ابنه اسحاق بن موسى المتطبب وكان جليل القدر عند المعز ومتوليا أمره كله فى حياة أبيه وتوفى اسحاق بن موسى لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٦٣ هـ . واغتم المعز لموت اسحاق لموضعه منه ولكفايته وجمل

---

(٥) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٣ نقلا عن أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٦٧ .

(٦) القفطى : أخبار الحكماء ص ٢١٠ .

موضعه أخاه اسماعيل وابنه يعقوب بن اسحاق وكان ذلك فى حياة أبيهم موسى وتوفى قبل وفاة اسحاق بيوم وكان له أخ مسلم اسمه عون الله بن موسى .

ولموسى بن العيزار الاسرائيلى من الكتب : « الكتاب المعزى فى الطبيخ » الفه للمعز ، « مقالة فى السعال » جواب مسالة ساله عنها احد الباحثين عن حقائق العلوم الراغبين جنى ثمارها ، و « كتاب الأقراباذين » (٧) .

ووفد الى مصر فى عهد المعز والعزيز الطبيب محمد بن احمد بن سعيد التميمى. وقد نشأ فى بيت المقدس على يد راهب يقال له أنبا زخريا بن ثوابه ، وعلى احمد ابن ابى يعقوب ، ثم تنقل فى كثير من المدن فى طلب العلم وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه كما أتقن طريقة تركيب الأدوية ثم اتصل بالحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيد والى الرملة وما يليها من البلاد الساحلية فى عهد الاخشيديين فقربه اليه ، ثم صحب يعقوب بن كلس وصنف له كتابا فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضر الأوباء » . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ولأبى عبد الله التميمى عدة مؤلفات فى الطب منها « كتاب مخلص النفوس » الذى قال فيه « هذا ترياق الفته بالقدس واحكمت تركيبه مختصر نافع دافع لضرر السموما‌ت القاتلة المشروبة والمصبوبة فى الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وانواع الحيات المهلكة السم والعقارب الجرارات (٨) وغيرها . وذوات الأربع والأربعين رجلا ومن لدغ الرتيلات (٩) والعظايات (١٠) مجرب ليس له مثل » . ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه فى كتابه المسمى « مادة البقاء » (١١) . وله من الكتب أيضا كتاب « الفحص والأخبار » ومقالة فى « ماهية الرمد وانواعه واسبابه وعلاجه » (١٢) .

---

(٧) ابن ابى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء شرح وتحقيق د . نزار رضا ص ٥٤٥ .

(٨) الجرارة (على وزن فعالة) عقرب تجر ذنبها .

(٩) الرتيلاء أو الرتيلى انواع من الهوام ، كالذباب الذى يطير حول السراج — ولسعها مورم مؤلم .

(١٠) جمع عظاية (بفتح العين والظاء والياء) دويبة سامة كالبرص وجمعها عظاء وعظايات .

(١١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠١ .

(١٢) ابن ابى أصيبعة : عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٧ — ٨٩ .

واشتهر محمد بن سعيد التميمى بخواص العقاقير وتركيب الأدوية ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب فى صحبة المعز والمقيمين بمصر من أهلها ويقول القفطى : انه كان منصفا فى مذكراته غير زاد على أحد الا بطريق الحقيقة وتوفى التميمى بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ هـ(١٣). وقد كان التميمى من أطباء مصر وله مؤلفات وكان فى خدمة العزيز بن المعز (١٤) . وممن نبغ فى الطب فى عهد الخليفة العزيز أبو الحسن على بن رضوان ولد بالجيزة وكان أبوه فرانا . ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للمعلمين . وانتقل الى مدينة مصر وهو فى العاشرة لطلب العلم وبدأ فى دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، ولفقره وحاجته الى ما يستعين به فى الحياة أضطر الى أن يتكسب بالطب مرة وبالتنجيم مرة أخرى ، وبالتعليم كذلك ، وفى الوقت نفسه كان يواظب على طلب العلم ويجد فى التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سنى حياته (١٥) .

وقد ذكر على بن رضوان فى سيرته عن كيفية تعلمه صناعة الطب وأحواله ما هذا نصه : « انه لما كان ينبغى لكل انسان أن ينتحل اليق الصنائع به وأوفقها له ، وكانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة طاعة الله عز وجل ، وكانت دلالات النجوم فى مولدى تدل على ان صناعتى الطب . وكان العيش عندى فى الفضيلة الذ من كل عيش ، أخذت فى تعلم الطب وأنا ابن خمس عشرة سنة . فلما بلغت السنة العاشرة انتقلت الى المدينة العظمى واجهدت نفسى ولما اتمت اربع عشرة سنة أخذت فى تعلم الطب والفلسفة ولم يكن لى ما أنفق منه . فلذلك عرض لى فى التعليم صعوبة ومشقة . فكنت مرة اتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ومرة بصناعة الطب ومرة بالتعليم ، ولم أزل كذلك وأنا فى غاية الاجتهاد فى التعليم الى السنة الثانية والثلاثين فانى اشتهرت بالطب وكفانى ما كنت اكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عنى الى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى أملاكا فى هذه المدينة ان كتب الله عليها السلامة وبلغنى سن الشيخوخة كفانى فى النفقة عليها » (١٦) .

---

(١٣) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٤ — ٧٥ .
(١٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٣٩ .
(١٥) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٤ — ٨٥ .
(١٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٦١ .

وقد خلف ابن رضوان كثيرا من الكتب تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه فى هذه الناحية كما أن له كعبا فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة (١٧) .

ورغم نشأة هذا الطبيب فقيرا معدما — لكنه أصبح بفضل جده ومثابرته رئيس الأطباء فى عصر تفوقت فيه القاهرة على غيرها من الحواضر الاسلامية كبغداد وقرطبة وكان لعلم التنجيم شأن يذكر فى عصر الفاطميين حتى كان الخلفاء انفسهم يعولون كثيرا على التنجيم ويعتقدون أن للطالع تأثيرا كبيرا فى صاحبه ، ويرى على بن رضوان — ذلك الفيلسوف المشهور والطبيب الماهر — أن طالعه يدل على انه خلق ليكون طبيبا . فدفعته هذه العقيدة الى تحصيل الطب . وكان على بن رضوان من المجددين فى صناعته . ولو أن تجديده على ما يقول بعض خصومه محدود ، اذا ما قورن بالفارابى وابن سينا مثلا (١٨) .

على أن عمله لم يكن مقصورا على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء كجالينوس وابقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار كما يتجلى ذلك من قوله فى ترجمة حياته : « وكنت منذ الثانية والثلاثين الى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، واغيرها فى كل سنة الى أن قررتها على هذا التقرير الذى استقبل به السنة الستين من ذلك أتصرف فى كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة واجتهد فى حال تصرف فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب واسعاف المحتاج » (١٩) .

من هذا يتبين ان عليا بن رضوان كان مجددا فى صناعته فكان يدون مشاهداته ويغير ما دلت التجربة على فساده ويظهر ما ظهر له صلاحه ، ولم يكن هذا الطبيب جشعا ، كل همه الكسب من صناعته ، بل كان طبيبا انسانا يصرف اهتمامه لاسعاف الملهوف ومساعدة الفقير والمحتاج ولا يفكر فيما وراء ذلك من طلب المال . وهذا اقصى ما تتجه اليه همة الطبيب الكامل (٢٠) .

---

(١٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٩ — ١٠٥ .
(١٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٢ .
(١٩) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠٠ .
(٢٠) المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ .

وكانت حياته (ابن رضوان) كلها كد وكفاح وعمل متصل الى أن مات حوالى سنة ٤٦٠ هـ (٢١) . ولم يفت ابن كلس أن يجعل فى قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التى كانت تعطى اليهم بدون ثمن (٢٢) .

وكان على بن رضوان صاحب المصنفات من كبار الفلاسفة وكان له دار بمدينة مصر على قصر الشمعة تعرف بدار ابن رضوان وقد تهدمت الآن . كان اماما فى الطب والحكمة كثير الرد على أرباب فنه وكان فيه سعة خلق عند بحثه وله مصنفات كثيرة (٢٣) .

ثم وفد ابن بطلان البغدادى على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان — فدخل مصر سنة ٤٤١ هـ وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المنافسات والمناظرات العلمية بين الطبيبين وخرج ابن بطلان من مصر ووضع كتابا تضمن الوقائع التى كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان ورد ابن رضوان عليه (٢٤) .

ويقول ابن أبى أصيبعة فى الموازنة بين الطبيبين ابن رضوان المصرى وابن بطلان البغدادى : كان ابن بطلان اعذب لفظا واكثر ظرفا واميز فى الأدب وما يتعلق به . وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها (٢٥) . وحفظ لنا خمس رسائل لهذين الطبيبين فى المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (٢٦) .

وكان ابن رضوان معتزا بعلمه ومهارته فى فنه فكان يرد على جميع الأطباء فى عصره وغيرهم فكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع من يريد مناقشته واكثر من ذلك عندما كان يرد على حنين بن

---

(٢١) القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٢٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٣ .
(٢٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٩ .
(٢٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠١ .
(٢٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢٦) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٥ .

اسحاق وعلى أبى الفرج بن الطيب استاذ ابن بطلان وعلى أبى بكر محمد بن زكريا الرازى (٢٧) .

وكان ابن رضوان دميم الخلقة مشـوه الصورة أسـود اللون . ومن تآليفه مقالة فى من عيره بقبح الخلقة . وبين فى هذه الرسالة أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه . وكثيرا ما كان ابن بطلان البغدادى يتحدث عن قبح شـكل ابن رضوان المصرى فقد قال فى الرسالة التى وسمها « بوقعة الأطباء » يصف ابن رضـوان :

فلمـا تبدى للقوابل وجهـه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكـلام تسـترا الا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

وكان يلقبه بتمساح الجن لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه (٢٨) .

وتغير عقل ابن رضوان فى اواخر أيام حياته وقيل ان السـبب فى ذلك أنه فى ابان المحنة التى حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفـاطمى والتى اشتدت وعظمت من سنة ٤٤٧ هـ كان ابن رضـوان قد أخـذ يتيمة رباها وكبرت عنده فلمـا كان فى بعض الأيام خلا لها المنزل وكان قد ادخر اشياء نفيسة ومن الذهب نحو عشرين الف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت وتوفى سنة ٤٥٣ هـ وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب .

كان لابن رضـوان أثر كبير فى الحيـاة العقلية بمصر فهذه المناظرات الكثيرة التى كانت بينه وبين غيره من الأطباء وهذه الردود المختلفة التى كتبها فى الرد على الأطباء السابقين كان لها اثرها فى تنبيه الأطباء والفلاسفة الى آراء ابن رضـوان وآراء خصومه . وكان لابن رضـوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبـه ، فمن هؤلاء التلاميذ الطبيب الاسرائيلى افرائيم بن الزفان وهو أبو كثير (٢٩) افرائيم بن الحسن ابن اسحاق بن ابراهيم بن يعقوب اسرائيلى المذهب وهو من الأطبـاء المشهورين بديار مصر وخدم الخلفاء الذين كان فى زمانهم وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئا كثيرا جدا وكان قد قرأ صناعة الطب على أبى الحسن على بن رضوان وهو

---

(٢٧) ابن ابى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠١ .
(٢٨) المصـدر السـابق جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٢٩) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٦ .

من أجل تلامذته وكان له همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب (٣٠) الطبية وغيرها . وكان عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم فيه ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام الحجرى وهو المعروف بابن ملساقه ووجدت بخط هذا عدة كتب قد كتبها لافرائيم — وعليها خط افرائيم (٣١) .

وقيل ان أحد وراقى العراق اراد شراء كتب من افرائيم فسمع الأفضل بن بدر الجمالى بذلك فأمر بفسخ هذه الصفقة وان تبقى الكتب فى مصر ولا تنتقل الى بلاد أخرى وامر بشرائها واضافتها الى خزانة الأفضل وكتب عليها القابه ويقال ان افرائيم خلف ما يزيد على عشرين الف مجلد (٣٢) .

وكان سلامة بن رحمون من أطباء مصر وفضلائها وكان قد قرأ صناعة الطب على افرائيم واشتغل بها عليه مدة وكان لابن رحمون تصانيف فى المنطق والعلوم الحكمية منها . كتاب نظم الموجودات ، مقالة فى السبب الموجب لقلة المطر بمصر ، مقالة فى العلم الالهى ، مقالة فى خصب ابدان النساء بمصر عند تناهى الشباب (٣٣).

وزادت اهمية القبط حين اتضحت قدرتهم فى الطب — فقد اتخذ الخلفاء اطباء من بينهم سهل بن كيسان الذى تمتع بعطف الخليفة العزيز (٣٤) .

كما نبغ فى العصر الفاطمى فى ميدان الطب ابو الحسن سهلان بن عثمان بن كيسان الذى كان طبيبا نصرانيا من أهل مصر ينتحل رأى الفرقة المالكية وخدم الخلفاء الفاطميين وارتفع جاهه فى أيام العزيز بالله سنة ٣٨٠ هـ .

ومن أطباء العزيز بالله الفاطمى على بن سليمان حيث نقل بعض الكتب فى الطب لأبقراط وجالينوس كما الف فيما بعد فى الطبيعة (٣٥) . ولعلى بن سليمان من

---

(٣٠) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٦٧ .
(٣١) المصدر السابق ص ٥٦٨ .
(٣٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٥ .
(٣٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٦٨ .
(٣٤) د . د . على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٢١ .
(٣٥) د . أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٠٢ .

الكتب : اختصار الحاوى فى الطب ، كتاب الأمثلة والتجارب والأخبار والنكت والخواص الطبية المنتزعة من كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما (٣٦) .

كما نبغ أيضا أعين بن أعين فى أيام العزيز بالله — وتوفى فى شهر ذى القعدة سنة ٣٨٥ هـ (٣٧) .

وقد كان طبيب الحاكم الخاص لأول حكمه هو منصـــور بن مقشر النصرانى توفى سنة ٣٤٤ هـ خلفه فى هذا المنصب طبيب نصرانى هو أبو يعقوب نسطاس وكان من أحب الناس الى الحاكم (٣٨) .

ونبغ فى الطب أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر الذى كان طبيبا نصرانيا مشهورا وله دراية وخبرة بصناعة الطب فكان طبيب الحاكم بأمر الله ومن الخواص عنـده وكان العزيز يســتطبه ويرى له ويحترمه وكان متقدما فى الدولة (٣٩) وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير فى اطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود واعادتهم الى مراكزهم (٤٠) .

وممن نبــغ فى الطب فى العصر الفـاطمى فى مصر أبو بشر طبيب العظيمية فى أيام الحاكم (٤١) .

كما كان للحـــاكم بأمر الله طبيب هو صقر اليهودى (٤٢) وظهر متخصصون فى نواحى الطب ولاسيما طب العيون فى عهد الحاكم بأمر الله منهم عمار بن على الموصلى كان كحالا مشهورا ومعالجا مذكورا له خبرة بمداواة أمراض العيون ودربة بأعمـــال الحديد وكان قد سافر الى مصر واقام بها فى أيام الحاكم ولعمار بن على من الكتب : « كتاب المنتخب فى علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد » الفه للحاكم (٤٣) .

وخلاصـة القول ، كانت مهنة الطب فى البلاط الفاطمى أشبه باحتكار فى أيدى

---

(٣٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٥٠ .
(٣٧) المرجـــع السابق ص ٥٤٦ .
(٣٨) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٤٤ .
(٣٩) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤٩ .
(٤٠) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ .
(٤١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤٩ .
(٤٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٨٣ .
(٤٣) عيون الأنباء ص ٥٤٩ .

الأطباء من أهل الذمة ـ كما يتضح من مراجعة الأسماء الكثيرة التى أوردها القفطى فى كتابه « أخبار العلماء فى أخبار الحكماء » وابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » (٤٤) .

كما أن حركة العلوم الطبية فى مصر تدل على نشاط هذه العلوم وازدهارها ابان حكم الفاطميين وأن مصر استطاعت فى هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الاسلامية فى مضمار هذا العلم (٤٥) .

الفلك والتنجيم

كان لعلم الفلك والتنجيم كما كان لغيره من العلوم العقلية فى العصور الوسطى أهمية فى المشرق والمغرب الاسلامى على السواء حتى ان علماء الدين كانوا يولونه اهتماما خاصا بل انهم كانوا ينصرفون الى دراسته والتبحر فيه لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا يبرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحرب دون الرجوع الى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير الى ميادين القتال الا فى الوقت الذى يقع عليه اختيار المنجمين (٤٦) .

وكان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم فقد رأينا كيف اعتمد ابو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد حتى انه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء الا بعد ان اشار عليه ابو سهل بن نوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمرانها وعمارتها (٤٧) . وقد اختار الاسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن لأنهم عرفوا عن طريق النجوم انه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد (٤٨) .

ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

نسند الست والتسعين تطع القول فى العذر

---

(٤٤) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٤٧ .
(٤٥) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٧ .
(٤٦) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٥٢٤ .
(٤٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٧ .
(٤٨) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٠ .

ويدلنا على عقيدة الاسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سنة ست وتسعين ومائتين وكان لهذه العقيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الاسماعيلية وكذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقماق (٤٩) أن مدينة القاهرة التى بناها جوهر الصقلى سميت بهذا الاسم لأن اساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى « القاهر » وقيل أن جوهرا جمع فى ذلك اليوم « المنجمين » وأمرهم أن يختاروا طالعا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمى حجارته فجعلوا قوائم من خشب وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس وافهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من اللبن والحجارة ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة واخذ الطالع . فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب فتحركت الأجراس وظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها فالقوا ما بايديهم من الطين والحجارة فى الأساس فصاح المنجمون لا ، لا ، القاهر فى الطالع ، ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه (٥٠) .

وكان القاهر هذا اسما للمريخ عند هؤلاء المنجمين وقيل لما قدم المعز واخبر بما حدث غير اسم المدينة وسماها القاهرة (٥١) .

وكان المعز أول الخلفاء العاويين ملك مصر وخرج اليها وكان مغرى بالنجوم ويعمل بأقوال المنجمين قال له منجم أن عليه قطعا فى وقت كذا وأشار عليه بعمل سيداب يختفى فيه الى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وقال لهم : « أن بينى وبين الله عهدا أنا ماض اليه . وقد استخلفت عليكم ابنى نزار فاسمعوا له وأطيعوا » ونزل السيداب فكان احد المغاربة اذا راى سحابا نزل أومى اليه بالسلام ظنا منه أن المعز فيه ، فغاب سنة ثم ظهر وبقى مدة ومرض وتوفى فستر ابنه النزار العزيز موته الى عيد النحر من السنة ، فصلى بالناس وخطبهم ، ودعا لنفسه وعزى بأبيه (٥٢) .

وقد كان المعز يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى أمور

---

(٤٩) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٦ ص ٣٥ .
(٥٠) د. أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها جـ ١ ص ٣ ، ٤ نقلا عن المقريزى جـ ١ ص ٣٥٣ .
(٥١) د. احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها جـ ١ ص ٣ ، ٤ .
(٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣١ .

الدولة العامة (٥٣) . وقد كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الالهيات من الطبيعيات ، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف الوانها وفنونها تزدهر فى العصر الفاطمى ويرعاها الفاطميون بل كان من الخلفاء من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب . فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزيز والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث ، ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب ، ويروى المؤرخون بعض الروايات هى اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة كما يروون بعض الأشعار كان يتهكم بها المصريون على أدعاء الفاطميين معرفة الغيب ، من ذلك ما روى أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وتضيف الرواية أن العزيز بالله اقلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك ، ويروى ابن ميسر فى تاريخه أن النيل زاد وبلغ الماء الباب الجديد اول الشارع خارج القاهرة فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والانقطاع فدخل اليه بعض خواصه وساله عن السبب فأخرج له كتابا فاذا فيه : اذا اتصل الماء بالباب الجديد انتقل الامام عبد المجيد (٥٤) . ثم قال : هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا واحوال دولتنا وما يأتى بعدها (٥٥) . فاذا صحت الرواية فهى تؤكد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون الى يوم القيامة (٥٦) .

وفى كتاب « الفترات والقرانات » المنسوب الى جعفر بن منصور اليمن من علماء الدعوة فى القرن الرابع الهجرى يتحدث فى هذا الكتاب من أثر الكواكب فى عالم الكون والفساد ويتنبأ بما سيحدث فى الأيام المقبلة . وذهب مؤلفه الى أن

---

(٥٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٥ .
(٥٤) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٧٢ .
(٥٥) ابن ميسر : أخبار مصر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٧ .
(٥٦) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٧٣ .

علم القرانات أو علم الجفر علم خص الله به سبحانه آدم عليه السلام .وورثه آدم وصيه وتداولته الأنبياء والأوصياء والائمة الى الخلفاء الراشدين والنقباء المتحدين بالتأييد (٥٧) ، ويروى علماء الدعوة أن على بن ابى طالب كان يقول : « لو تثبت لى وسادة وجلست عليها لحكمت بين اهل التوراة بتوراتهم وبين اهل الانجيل بانجيلهم وبين اهل الفرقان بفرقانهم — ولولا ان يقال ان على بن ابى طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن الى يوم القيامة مما علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٥٨) .

فهذا يؤيد ما قيل من الفاطميين انهم كانوا يدعون علم الغيب ، وانهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب : وحذا الحاكم حذو اسلافه المعز والعزيز فى الاهتمام برصد النجوم ومعرفة ما وراءها من الأحداث فصار يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم المنح والعطايا واخذ المنجمون يسيطرون على عقول الكثيرين من الناس حتى اضطر الحاكم سنة ٤٠٤ هـ الى اصدار مرسوم بتحريم مهنة التنجيم (٥٩) . لكنه مع ذلك ظل حريصا على رصد النجوم (٦٠) . كما شغف بالتطلع الى معرفة اخبار رعاياه ولكى يوهم الناس انه واقف على حركاتهم اتخذ جواسيس يطوفون بالاسواق والدور يرفعون اليه تقاريرهم عما يقع فى نواحى حاضرته من الأحداث (٦١) . وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى اقامه بجبل المقطم لرصد النجوم (٦٢) . ولكى يبعد الحاكم عن علوم اهل البيت كل شبهة ، ولما اذاعه الناس عنه وعن آبائه من ادعائهم علم الغيب امر الا ينجم احد . ولا يتكلم فى صناعة النجوم بل أمر بنفى المنجمين . الا انه لما اكدوا انهم لن يشتغلوا بالتنجيم ، عقدت عليهم التوبة واعفوا من النفى (٦٣) .

---

(٥٧) جعفر بن منصور اليمن : الفترات والقرانات ورقة ٢ نسخة خطية بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين .

(٥٨) المجالس المؤيدية والفترات والقرانات ص ٥٧ نقلا عن كتاب فى أدب مصر الفاطمية د. محمد كامل حسين : ص ٧٣ .

(٥٩) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٩٥ .

(٦٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٩ .

(٦١) المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ .

(٦٢) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٩٥ — ٩٦ .

(٦٣) د. عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه ص ١١٢

ولكن بجانب هذه النصوص التى تثبت ادعاء الفاطميين لمعرفة علم الغيب نجد نصوصا اخرى تثبت عكسها ، فالقاضى النعمان يحدثنا فى كتابه المجالس والمسايرات : « ذكر الامام المعز لدين الله يوما وانا بين يديه النجامة والمنجمين . فقال : من نظر فى النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيمقدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد احسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء واخطأ » . ولقد كان المنصور بالله من أعظم الناس بها ، ولقد قال لى مرة : « والله ما نظرت فيها الا طلبا لعلم توحيد الله وتاثير قدرته وعجائب خلقه ، ولقد عانيت من الحروب وغيرها فما عملت فى شىء من ذلك باختيار منى دلائل النجوم ولا التفت اليه » ثم قال المعز : « اتانى بعض المنجمين بكتاب الفه يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل وما دلت عليه بما آل امره وامر ذريته اليه ، ورأى انه اتى (٦٤) فى ذلك الى بفائدة وعلم سبق اليه ، فلما وقفت على كتابه سألته : هل كان قبل آدم شىء ؟ قال : نعم قد كان قبله . قلت : فما كان قبله ؟ ومن كان ؟ وكيف كانت هذه الكواكب قبل ذلك » . بيد انه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ولا يعرف عنها شىء الآن الا ما اخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده . هذا وتصانيف ابن زولاق التى بقيت الى اليوم هى (٦٥) : « السيرة او تاريخ قضاة مصر » ، وسيرة الاخشيد المسماة « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » التى نقلها ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، و « كتاب فضائل مصر » وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ومختصر لهذا السفر الكبير الذى الفه صاحبه عن تاريخ مصر ، أما هذا المخطوط فقد امدنا بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من ايام الفاطميين الى سنة ٣٨٦ هـ — وقد اتم المؤلف الذى وضع أسامة بن زولاق رجل من الاتراك يلوح لنا انه ادخل وما دلت عليه قبل خلق آدم ؟ فاما يحر جوابا ، وقال : هذا شىء ما ظننت انى اسأل عنه ، قلت : وهذا الذى تكلفته وجئت به ما سألت عنه ايضا فكيف تكلفته ، فعجبت من قوم ينتهون فيما لا يعلمون

---

(٦٤) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٧٣ .

(٦٥) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب ج ٣ ص ٧ .

ويتعاطون ما لا يدرون (٦٦) . فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعيا الغيب ولم يدرسا الكواكب وحركاتها لعلم ما كان وما سيكون ويقول جعفر بن منصور اليمن فى كتابه الكشف : « قال تعالى : (قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملكَ) ، وهذا قول نوح عليه السلام الذى ذكر الله بوحيه وتأييده ونوره وتنبيته عن الله جل ذكره (٦٧) . فهذا دليل آخر نقدمه فى دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب .

وقال القاضى النعمان فى كتابه الهمة : « فانا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله الدافعون امامتهم الزاعمون انهم يعلمون غيب الله وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذى تفرد بالعلم دون خلقه ولم يطلع ما شاء منه الا من ارتضى من رسله ، وانما أراد هؤلاء الفسقة بما نسبوه الى الائمة صلوات الله عليهم من ذلك دفع امامتهم لانهم لما زعموا أن الائمة يعلمون الغيب والناس يرونهم لا يعلمون من امور الناس الا ما ظهر منها لهم لم يكونوا ائمة عند أولئك الفسقة ولا عند من قبل منهم اذ لم تكن تلك الصفة التى وصفوهم بها منهم » (٦٨) .

ولعل سبب هذا الادعاء هو تطرف بعض الدعاة فى اسباغ جميع الفضائل على الائمة حتى جعلوا ائمتهم يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس فى هذا الامر مصدر جدل بين المصريين (٦٩) وصور لنا الأمير تميم فى احدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب أخاه الامام العزيز بالله :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها	فى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب	ومن مكثر فيها الجدال ولا يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وانحس	وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله	بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدل ناقلا	وكان بها دون البرية ذا خبر

---

(٦٦) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ورقة ٩٢ ب .
(٦٧) جعفر بن منصور اليمن : كتاب الكشف نسخة خطية بمكتبة د. محمد كامل حسين .
(٦٨) القاضى النعمان : الهمة فى آداب اتباع الائمة ص ٥٤ .
(٦٩) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٤ .

فاخبرتنـــا أن المنجـــم كاهـــن	بما قال والكهان من شيعة الكفـــر
وأن جميـــع الكافـــرين مصـــيرهم	الى النار فى يوم القيـامة والحشر
فجمعتنـــا بعـــد اختـــلاف ومـــرية	والفتنـــا بعـــد التنافـــر والزجـــر
واوضحت فيها قول حق مبرهـــن	يجلىظلام الشـــك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينـــــة	وفيها رجوم للشـــياطين اذ تسرى
مســـخرة مضـــطرة فى بروجهـــا	تســـير بتدبير آلاله عـــلى قـــدر
وأن جميـــع الغيب الله وحـــده	تبـــارك من رب ومن صـــمد وتـــر
ومـــا علمت منـــه الأئمـــة انمـــا	رووه عن المختار جدهم الطهر (٧٠)

اذن نســـتطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب، فان هؤلاء المؤرخين اســـتقوا اخبارهم من اشاعات العامة واقوال بعض الغلاة ولم يحققوا الأمر تحقيقا علميا ، فقصيدة الأمير تميم واقوال علماء الدعـــوة تنفى ما جاء به المؤرخون وتبرىء الفاطميين من ادعاء الغيب (٧١) .

حقيقة اهتم الفاطميون بالنجوم ورصدها واســـتدعى الفاطميون الى مصر عددا كبيرا من المنجمين ، فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمـــد ابن عبد الله بن محمد العتقى (٧٢) .

ورفع العزيز بالله منزلة منجمه ابى عبد الله القلانسى الى ان توفى ســـنة ٣٨٦ هـ (٧٣) .

ومن فلكيى العـــزيز والحـــاكم الفاطميين فى مصر ابن يونس أبو ســـعيد

---

(٧٠) الأمير تميم بن المعز : ديوانه ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبة د. محمد كامل حسين .

(٧١) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٥ .

(٧٢) ابو عبد الرحمن محمد بن عبد الله محمد العتقى المنجم كان متفننا فى عدة علوم والغالب عليه علم النجوم — ولما وفد بمصر قربه الفاطميون ولم يزل مقربا الى أيام العزيز بالله ولكن حدث أن صنف كتابا فى التاريخ ذكر فيـــه بنى أميـــة وبنى العباس واشاد ببعض محاسنهم وجميل أفعالهم واطلع عليـــة الوزير ابن كلس فانهاه الى العزيز فوبخ العتقى على ذلك وجمع الوزير العلمـــاء الى داره وذم العتقى أمامهم فاضطر العتقى أن يلزم داره كما صودرت أملاكة وتوفى سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتاب فى النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع صنفه الى بعض أيام العزيز وكتاب فى النحوس والســـبب لعلم العرب (إخبـــار الحكمـــاء للقفطى ص ١٨٧) .

(٧٣) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء ص ٢٦٧ .

عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى عرف زيجته « بالزيج الكبير الحاكمى » لانه أهداه الى الحاكم او زيج ابن يونس ، وقد بسط فيه القول والعمل اذ اعتمد على الآلات الصحيحة كما انه اشرف على انشاء المرصد فى عهد الحاكم (٧٤) الذى اقامه بسفح جبل المقطم .

كما كان ابو يونس من كبار المحدثين الحفاظ وقد وضع لمصر تاريخا نافعا يرجع العلماء اليه واما هذا فانه اشتغل فى علم النجوم فنال من شأنه منالا جيدا وكان شديد الاعتناء بعلم الرصد وكان مع هذا مغفلا سيىء الحال رث الثياب طويلا يعمم على طرطور بتطليس فوقه ويركب حمارا فمن رآه ضحك منه وكان يدخل على الحاكم فيكرمه ويذكر من تغفله ما يدل على اعتنائه بأمر نفسه وكان شاهدا عدلا وله شعر جيد (٧٥) .

ويعتبر ابن يونس من اعظم علماء الفلك بعد البتانى وابى الوفاء واهم تصانيفه كتاب « الزيج الحاكمى » بداه حوالى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م بأمر العزيز الفاطمى ، واتمه قبل وفاته بقليل فى عهد الحاكم ولد العزيز ومن المؤسف حقا انه لم يصل الينا كاملا فهناك اجزاء منه فى ليدن واكسفورد وباريس والاسكوريال وبرلين والقاهرة وكذلك اظهر ابن يونس براعة كبرى فى حل كثير من المسائل العويصة فى علم الفلك الكبرى مستعينا فى ذلك بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الافقى ومستوى الزوال (٧٦) . وقد كان تعويل أهل مصر عليه حتى ان كتاب مدينة العرب لغوستاف لوبون وضع ابن يونس فى القاهرة زيجه الحاكمى المشهور فانسى كل زيج قبله فى العالم حتى عني به فلكيو الصين فذكره احدهم (كوشيو كينغ سنة ١٢٨٠ م) وترجم المسيو كوسان فصوله، استاذ اللغة العربية فى كلية فرنسية بعض فصوله الى الفرنسية سنة ١٨٠٤ م ومن كتب ابن يونس ايضا « التعديل المحكم ، جداول السمت ، جداول الشمس والقمر ، غاية الانتفاع فى معرفة الدوائر والسمت من قبل الارتفاع » (٧٧) . وابن يونس سليل بيت

---

(٧٤) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٢٢٩ .

(٧٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٧٦) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٧٧) خير الدين الزركلي — الاعلام ج ٥ ص ١١٢ .

اشتهر بالعلم لذا قدر الفاطميون علمه وفضله فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه فى الهيئة والرياضيات فبنوا له مرصدا على جبل المقطم قرب الفسطاط تمكن بواسطته من رصد كسوف الشمس والقمر فى القاهرة سنة ٩٧٨ م وقد وضف فى زيجه الحاكمى الطريقة التى اتبعها فلكيو العرب فى عصر المأمون فى قياس محيط الأرض (٧٨) .

ويعده (سارطون) من فحول علماء القرن الحادى عشر للميلاد .

وقد يكون أعظم فلكى ظهر فى مصر وولد فيها وتوفى فيها سنة ٣٩٩ هـ ويقول عنه ابن خلكان « ... وهو زيج كبير رأيته فى أربعة مجلدات ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه .. » (٧٩) .

وهو يشمل على مقدمة و٨١ فصلا ذكر موضوع كل منها فى المقدمة . ويعترف (سيديو) بقيمة هذا الزيج فيقول : « ان هذا الزيج كان يقوم مقام المجسطى والرسائل التى ألفها علماء بغداد سابقا » . ويقول « سوتر » فى دائرة المعارف الاسلامية : من المؤسف انه لم يصل الينا كاملا .

وقد ذكرنا سابقا أن كوسان قد ترجم بعض فصول هذا الزيج التى تحتوى على أرصاد الفلكيين القدماء وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف (٨٠) واقتران الكواكب . وكان قصده من هذا الزيج أن يتحقق من ارصاد الذين تقدموه وأقوالهم فى الثوابت الفلكية وان يكمل ما فاتهم وأن يضع ذلك فى مجلد جامع ، يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب والتسيير .

ويعترف « سوتر » بأن ابن يونس أفاد فى ذلك فائدة قيمة وانه هو الذى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر فى القاهرة سنة ٩٧٨ م واثبت منهما تزايد حركة القمر وحسب ميل دائرة البروج فجاء حسابه أقرب ما عرف الى أن اتقنت آلات المرصد الحديثة وجاء فى زيجه فصل موضوعه « الاشعاع فى النجوم بحسب الرأى العام » وفصول أخرى عليها سمة من المباحث الفلكية الحديثة كما سرد فيه الطريقة التى اتبعها .

---

(٧٨) د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ١٥٤ — ١٥٥

(٧٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٨٠) قدرى حافظ طوقان : ص ١٥١ .

وابن يونس هذا الذى أصلح زيج « يحيى بن منصور » وعلى هذا الاصلاح كان تعويل أهل مصر فى تقويم الكواكب فى القرن الخامس الهجرى . وكذلك جمع ابن يونس فى مقدمة زيجه كل الآيات المتعلقة بأمور السماء ورتبها ترتيبا جميلا بحسب مواضعها فقد كان يرى أن أفضل الطرق الى معرفة الله هو التفكير فى خلق السموات والأرض وعجائب المخلوقات وما أودعه فيهما من حكمة وبذلك يشرف الناظر على عظيم قدرة الله عز وجل ويتجلى له عظمته وسعة حكمه وجليل قدرته (٨١) . وما أودعه فيها من حكمة .

وفى سنة ٤٠٤ هـ نهى الحاكم ان يسترشد الناس بالنجوم وان يباشروا علم الفلك .

وبرز أيضا فى مجال الفلك والرياضة ابو على الحسن بن الهيثم الذى كان مولده بالبصرة سنة ٣٥٥ هـ / ووفاته سنة ٤٣٠ هـ فكان غزير العلم واسع الاطلاع فاضل النفس عبتريا فى العلوم شديد الذكاء له فضل لا ينكر على علم الفلك . فيمتدحه الأستاذ « سارتون » فيقول : ان ابن الهيثم هو اكبر المشتغلين بعلم البصريات فى جميع العصور وهو فوق ذلك ملمٌ بالفلك والرياضة والطبيعة . كما برع ابن الهيثم بالاضافة الى علم الفلك بعلوم شتى ومعارف كثيرة فقد شملت كتبه موضوعات فى الحساب والجبر والمقابلة والمثلثات (٨٢) .

وكان لابن الهيثم دور مهم فى علوم الفلك والنجوم والبصريات . وأما التحسين الذى أدخله ابن الهيثم على النظرية الفلكية فيمكن أن نذكره على الوجه التالى : بقى الفلكيون فى المشرق مدة طويلة لا يهتمون بتحديد مفهوم الأفلاك السماوية . وكان هذا شأن أبى العباس الفرغانى وأبى عبد الله محمد التبانى واصله من حران وان الأمر اقتصر عند هؤلاء على النظر فى الكواكب من جهة رياضية وكأنها دوائر مثالية وهمية تمثل حركة الأجسام السماوية (٨٣) .

كما أن لابن الهيثم رسائل عديدة فى الفلك تزيد على عشرين رسالة عرف

(٨١) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٨٢) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة العربية الاسلامية ص ١٨٢ — ١٨٣ — ١٨٤ .
(٨٣) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ترجمة نصير مروة وآخرين ص ٢٣٠ .

منها ثلاث رسائل تبحث فى مائية الأثر على وجه القمر وفى ارتفاع القطب وفى هيئة العالم . ويستدل من هذه الرسائل انه استنبط طريقة جديدة لتعيين ارتفاع القطب أو عرض المكان على وجه التدقيق وهى تدل على مقدرته العلمية الفلكية ومقدرة رياضية فائقة . اذ استطاع أن يلجأ الى التحليل الرياضى . فكانت بحوثه خالية من الغلط والأخطاء . وبسط ابن الهيثم سير الكواكب وتمكن من تنظيمها جميعا على منوال واحد . فكانت هذه بمثابة آراء جديدة ادخلها الى العلوم الفلكية وهى لا تقل أهمية عن الآراء الجديدة التى نوه عنها فى الضوء حيث ادخل خط الاشعاع الضوئى بدلا من الخطوط البصرية . وكانت هذه الآراء الجديدة التى أتى بها ابن الهيثم عاملا من عوامل تقدم الفلك وخطوة لابد منها فى تطور هذا العلم . وقد درس الأستاذ الفلكى « محمد رضا » بعض رسائل ابن الهيثم فى الفلك فخرج يقول : واذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلن أكون مغالبا اذا اعتبرت الحسن بن الهيثم فى مرتبة تضاهى العلامة اينشتين فى عصرنا هذا .. (٨٤) والذى لولاه لما تقدم علما الطبيعة والفلك تقدمهما العجيب وهو تقدم مكن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة فى دقائقها وجواهرها وكهاربها . وعلى الاطلاع على ما يجرى فى الأجرام السماوية من مدهشات ومحيرات (٨٥) .

كما نبغ فى العصر الفاطمى على بن سليمان الذى كان أوحد فى أحكام النجوم فى أيام العزيز وولده الحاكم ولحق أيام الظاهر عزاز دين الله ولعلى بن سليمان من الكتب « تعديد شكوك فى كوكب الذنب » (٨٦) .

ويذهب المقريزى (٨٧) الى انه عمل للأفضل بن بدر الجمالى مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبى وابن الهيثمى وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم فى كل سنة ، فاذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير ، فأنكر ذلك فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عن احضار على العادة جمع المنجمين والحساب واهل

(٨٤) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٧١
(٨٥) المرجع السابق ص ١٧٢ .
(٨٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٥٠ .
(٨٧) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٦ .

العلم وسألهم عن السبب فى الاختلاف بين التقاويم فقالوا : الشامى يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأمونى ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمى لقرب عهده وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف . ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد ، وأشار عليه أبو الحسن بن أبى أسامة أن يتولى ذلك القاضى ابن أبى العيش الطرابلسى المهندس العالم ولكن الأفضل غضب على ابن أبى العيش وولى بدله أبا سعيد بن قرقة الطبيب فنشط فى اقامة الرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم الى أن قتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ وولى الوزارة المأمون البطائحى فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأمونى الصحيح واستمر العمل الى أن قتل الوزير البطائحى سنة ٥١٨ هـ فوقف العمل به ، وكان من المهندسين الذين اشتركوا فى اقامة هذا المرصد أبو جعفر بن حسنداى والقاضى ابن ابى العيش وابو الحسن على بن سليمان بن أيوب وأبو النجا بن سند الساعاتى الاسكندرانى المهندس وأبو محمد: محمد بن عبد الكريم الصقلى وغيرهم. ومن الحساب والمنجمين ابن الحلبى وابن الهيثمى وأبو النصر تلميذ سهلون وابن ذياب والقلعى وغيرهم (٨٨).

ومن أهل الأندلس الوافدين الى مصر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الدانى الأندلسى فى أيام المسمى بالآمر من ملوك مصر واتصل بوزيره ومدير دولته الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى (٨٩) . وقد كان ابن أبى الصلت ماهرا فى علوم الأوائل راسا فى معرفة الهيئة والنجوم والموسيقى والطبيعى والرياضى والالهى كثير التصانيف بديع النظم مات سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عن ثمان وستين سنة (٩٠) وله من التصانيف كتاب رسالة فى عمل الاسطرلاب (٩١) .

وكان الحافظ حازم الرأى ، جماعا للأموال كثير المداراة ، سيوسيا عارفا ولم يكن احد ممن ولى قبله غير خليفة سواه وكان يميل الى علم النجوم وكان له من المنجمين سبعة : منهم المحقوف ، وابن آلملاح ، وأبو محمد بن القلعى ، وابن موسى النصرانى (٩٢) .

---

(٨٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٦ .
(٨٩) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٧ ص ٥٢ .
(٩٠) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٣٩ نقلا عن ابن أبى الصلت جـ ٢ ص ٥٢ — ٦٣ .
(٩١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٧ ص ٦٤ .
(٩٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٩ .

ومما يدل على شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدى وكان من أهل الخبرة بعمل آلاسطرلاب والحركات أن الوزير الجرجرائى تقدم سنة ٤٣٥ هـ فأمر بعمل فهرست لخزانة كتبه وبرم ما أخلق من جلودها وأنفذ القاضى القضاعى وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك وحضر ابن السنيدى ليشاهد ما يتعلق بصناعته (٩٣) قال : فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وكرة أخرى من عمل أبى الحسين الصوفى للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة دراهم قد اشتريت بثلاثة آلاف دينار (٩٤).

وكان الخليفة الحافظ مغرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين (٩٥) .

وظهر فى الفلك والتنجيم فى عهد الخليفة الفائز ابن العين زربى حيث اشتغل فى علم النجوم . وخدم الخلفاء الفاطميين المصريين ونال حظوة لديهم وكان من تلاميذه بلمظفر بن معرف وكان ابن العين زربى فى أول أمره انما يتكسب بالتنجيم وتوفى بسنة ٥٤٨ هـ فى دولة الظافر بالله (٩٦) .

كما نبغ ايضا فى التنجيم بلمظفر بن محمود بن المعرف كان ذكيا فطنا كثير الاجتهاد والعناية والحرص فى العلوم الحكمية وقد اشتغل على ابن زربى ثم رآه يفسر كتاب الكون والفساد لأرسطاطاليس وكانت له همة فى تحصيل الكتب وقراءتها ومن هذه الكتب : كتاب فى علم النجوم (٩٧) .

وممن برز فى الفلك والتنجيم فى عهد الخليفة العاضد سنة ٥٦٣ هـ رشيد الدين أحمد بن القاضى أبى الحسن على بن ابراهيم بن محمد بن الحسين الزبير الأسوانى :

من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللون من العلم ولكن الفاطميين لم يكونوا بدعا فى ذلك كله . فهم ليسوا بأول من رصد النجوم وجعلوا لها رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلى وتأثير حركات الكواكب فى

---

(٩٣) المصدر السابق ص ٢٤٩ .
(٩٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٧ .
(٩٥) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء ص ٢٨٦ .
(٩٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٧٠ .
(٩٧) المصدر السابق ص ٥٧١ .

الأرض . فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الاسلام . وبعد الاسلام ففى أوائل قيام الدولة العباسية عنى ابو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم . وترجم له السند والهند وجاء الخلفاء العباسيون من بعده واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للمنجمين رواتب واستشارهم الخلفاء فى أحوالهم الادارية والسياسية وليس ببعيد عن أذهاننا (٩٨) قصة فتح عمورية وقصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق انباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

حقا ان ائمة الفاطميين اهتموا بعلم التنجيم ، ألا انهم لم ينظروا اليه — كما يظهر من كتبهم — الا على أساس أنه علم مفيد لمعرفة الحساب والسنين والأوقات ووسيلة للاهتداء فى البر والبحر (٩٩) .

ويقول الأستاذ المرحوم كارلو نالينو : ان التنجيم كان له شأن فى قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة وظل كذلك الى القرن الماضى فكان فى دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبر نيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم بيد انه لا يزال موجودا فى البلاد التى لم تصب من الحضارة الغربية الا قليلا (١٠٠) .

فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين فى التنجيم والفلك وقد يكون من أهم الأسباب التى أدت الى أهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان . فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوما دائما ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصرية بل رؤية استبصار . فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما وخمسة أيام وسدس يوم وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام . ولشدة الدقة فى هذا التقويم اضطروا الى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والأبحاث (١٠١) .

* * *

---

(٩٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٧ .
(٩٩) د . عبد المنعم ماجد : الحاكم المفترى عليه .
(١٠٠) مادة تنجيم فى دائرة المعارف الاسلامية .
(١٠١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٧ — ٧٨ .

الرياضيات والهندسة

وممن نبغ فى عهد الفاطميين أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم وقد نشأ فى البصرة سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م ثم انتقل الى مصر وأقام بها (١٠٢) وقد اشتهر بعلمه الواسع بالهندسة والرياضة والطبيعة ولاسيما الضوء ، ولم يجاره أحد فى عصره من أهل زمانه فى العلوم والتأليف . كما اشتهر بالطب والفلسفة وما زال — الأوروبيون يشيدون بفضله ويقرنون اكتشافاته بأفذاذ علمائهم مثل روجر بيكون وكبلر (١٠٣) .

وكان كما يقول ابن أبى أصيبعة : (١٠٤) « فاضل النفس ، قوى الذكاء ، متفننا فى العلوم ، لم يماثله أحد من زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محبا للخير . وقد لخص كثيرا من كتب ارسطوطاليس وشرحها وكذلك لخص كثيرا من كتب جالينوس فى الطب . وكان خبيرا بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية — الا أنه لم يباشر أعمالها » ولما اتصل بالحاكم الفاطمى تاقت نفسه الى رؤيته . ثم نمى الى هذا الخليفة انه قال : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الاقليم المصرى . فازداد الحاكم اليه شوقا وأرسل اليه سرا جملة من المال ورغبه فى الحضور فسار نحو مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق . وأمر بانزاله واكرامه واحترامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل ، فسار ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له .

ولما سار الى الاقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية، وهى فى غاية من أحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز تحقق أن الذى يقصده ليس بممكن ، فان من تقدمه فى العصور الخالية لم يعزب عنهم علم ما علمه ولو أمكن لفعلوه

---

(١٠٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٤ .
(١٠٣) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر وتاريخه وتطوره ص ٣٣٥ .
(١٠٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠ .

فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل . فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أنه لا يمشى على موافقة مراده وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به ، وعاد خجلا منخذلا واعتذر بما قبل الحاكم ظاهرة ووافقه عليه . ثم ان الحاكم ولاه بعض الدواوين فتولاها رهبة لا رغبة وتحقق الغلط فى الولاية . فان الحاكم كان كثير الاستحالة له مريقا للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله . فأجال فكرته فى أمر يتخلص به فلم يجد طريقا الى ذلك الا اظهار الجنون والخبال فاعتمد ذلك وشاع فأحيط على موجودة له بيد الحاكم ونوابه وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه وقيد وترك فى موضع من منزله ولم يزل على ذلك الى أن تحقق وفاة الحاكم سنة ٤١١ هـ .

وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد الى ما كان عليه وخرج عن داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر أحد جوامع القاهرة وأقام بها متنسكا متقربا متقنعا . وأعيد اليه ماله من تحت يد الحاكم واشتغل بالتصنيف والنسخ والافادة وكان له خط قاعدة فى غاية الصحة — كتب به الكثير من علوم الرياضة . ولم يزل على ذلك الى أن مات بالقاهرة فى حدود سنة ست وثلاثين واربعمائة أو بعدها بقليل (١٠٥) .

وأبو الحسن بن الهيثم ويعرف عادة فى مصنفات الغربيين فى العصور الوسطى باسم الهازن كان علما من أعلام العرب فى الرياضة والطبيعيات وكانت له الى ذلك مشاركة فى الطب وفى علوم الأوائل الأخرى وخاصة فى فلسفة ارسطو وكان لكتاب المناظر أثر بالغ فى معارف الغربيين لهذا العلم فى العصور الوسطى من روجر بيكون حتى كبلر وقد بقى لنا شرح مستفيض على كتاب المناظرة (١٠٦) وهو (أى ابن الهيثم) مفكر من ألمع الرياضيين والفيزيائيين فى العصر الوسيط (١٠٧) .

---

(١٠٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٥ — نقلا عن ابن أبى أصيبعة : عيون الأطباء جـ ١ ص ٩٠ ، ٩١ .

(١٠٦) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٢٩٨ .

(١٠٧) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية — ترجمة نصر مروة وآخرين ص ٢٢٩ .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالما متقنا لعلوم كثيرة فيقول القفطى : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة وكان عالما بهذا الشأن متقنا له متفننا فيه قيما بغوامضه ومعانيه مشاركا فى علوم الأوائل — أخذ عنه الناس واستفادوا منه » (١٠٨) .

ويقول البيهقى : « الحكيم بطليموس الثانى أبو على بن الهيثم كان تلو بطليموس فى العلوم الرياضية والمعقولات وتصانيفه أكثر من أن تحصى » (١٠٩) .

وكان ابن الهيثم غزير العلم واسع الاطلاع كثير التصانيف فقد ألف فى الهندسة والطبيعيات والفلك والحساب والجبر وفى الطب والمنطق والأخلاق — فلا غرو اذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الثروة العلمية التى خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكانته فى هذه الفنون التى نبغ فيهما وعرض لها فى مصنفاته (١١٠) .

فالأستاذمصطفى نظيف بك قال : « ان ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة وانشأ علما جديدا ، وقد أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان وانشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالأصول التى نراها الآن . وان عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا فى مستهل القرن السابع عشر فابن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد » (١١١) .

وقال الأستاذ محمد رضا مدود بك : « اذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغاليا اذا اعتبرت ابن الهيثم فى مرتبة تضاهى مرتبة العلامة اينشتين فى عصرنا هذا » (١١٢) .

ويقول الأستاذ الدكتور مشرفة باشا : « والمطلع على كتاب ابن الهيثم فى حل شكوك اقليدس يلمس فيه دقة المؤلف فى التفكير وتعمقه فى البحث واستقلاله

---

(١٠٨) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء ص ١١٤ .
(١٠٩) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٥١ .
(١١٠) د. كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٠ — ٨١ .
(١١١) الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم ص ٢٧ .
(١١٢) الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم — ص ٣١ .

فى الحكم كما يتضح له صحة ادراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الاقليدسية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات أو المقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير أو بغير نظر الى ما يمكن أن تدل عليه — من موجودات . فابن الهيثم فى هذا الكتاب رياضى بحت بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى ، وابلغ ما يصل اليه من حدود » (١١٣) .

فهذا كله قول مختصين يستطيعون الحكم على مكانة ابن الهيثم فى العلوم الرياضية والطبيعية ولكن ابن الهيثم كان فى مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين (١١٤) .

وقد لاحظ الأستاذ ديبور اهمال العلماء له فقال : « انه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة فى الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفا مبشر بن فاتك القائد » (١١٥) .

ولكنى أرى خلاف ما رآه ديبور فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته ولكن كما قلت كان التعصب الدينى عند الأيوبيين والعباسيين قويا حتى أنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية فكل من اتصل بالفاطميين فهو فى زمرتهم وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه . وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء (١١٦) .

وقد بقيت كتبه منهلا ينهل منه فحول علماء أوربا كروجر بيكون ، وابن الهيثم رياضى بارع وتتجلى مقدرته فى تطبيق الهندسة والمعادلات والأرقام فى المسائل المتعلقة بالفلك والطبيعة وفى البرهنة على قضايا توافق الواقع الموجود فى الأمور الطبيعية ومن براهينه ما هو غاية فى البساطة ومنها ما هو غاية فى التعقيد وهى تتناول الهندسة بنوعيها المستوية والفراغية ويمكن القول أنه رياضى بأدق ما يدلّ عليه هذا الوصف .

---

(١١٣) الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم — ص ٤ .
(١١٤) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨١ .
(١١٥) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ديبور ترجمة أبو ريدة ص ١٩٤ .
(١١٦) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٣ .

وقد بحث ابن الهيثم فى المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط ويقال : ان « الخيامى » رجع اليها واستعملها وتمكن من استخراج حجم الجسم المتولد من دوران القطع المتكافىء حول محور السينات ومحور الصادات .

ولا شك أن جولاته هذه قد ساعدت على تقدم الهندسة التحليلية . ووضع أربعة قوانين لايجاد مجموع الأعداد المرفوعة الى القوى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ واستعمل نظرية افتنان الفرق . وفوق ذلك طبق الهندسة على المنطق . وهذا من أهم الأسباب التى تحمل رجال التربية الحديثة على تعليم الهندسة فى المدارس الثانوية بصورة اجبارية وقد وضع فى ذلك كتابا يقول فيه : « كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب اقليدس وابولونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى أنتظم ذلك مع انقاص توالى اقليدس وابولونيوس » . واعطى قوانين صحيحة لمساحة الكرة والهرم والأسطوانة المائلة والقطاع الدائرية وحل مسائل هندسية عامة وعالج موضوعات رياضية عامة تتعلق بالأعداد وخصائصها ونظرياتها وقد أوضحت ذلك فى كتابى « تراث العرب العلمى » (١١٧) .

وقد بين لنا ابن الهيثم نفسه آثاره فى الرياضيات فى هذه العبارة فقال : « فما صنعته فى العلوم الرياضية خمسة وعشرين كتابا احدها : شرح أصول اقليدس فى الهندسة والعدد وتلخيصه . والثانى : كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب اقليدس وابولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها ، وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى اقليدس وابولونيوس . والثالث : شرح المجسطى (١١٨) وتلخيصه شرحا وتلخيصا برهانيا لم أخرج منه شيئا الى الحساب الا اليسير وان اخر الله فى الأجل وأمكن الزمان فى الفراغ استأنفت الشرح المستقصى لذلك الذى أخرجه به الى الأمور العددية والحسابية . والرابع : الكتاب الجامع فى أصول الحساب وهو كتاب استخرجت أصوله لجميع انواع الحساب من ضاع اقليدس فى أصول الهندسة والعدد

---

(١١٧) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٧٠ .
(١١٨) وهو الكتاب الأعظم فى الفلك لبطليموس .

وجعلت السلوك فى استخراج المسائل الحسابية والتحليل الهندسى والتقدير العددى وعدلت فيه من أوضاع الجبريين والفاظهم (١١٩) . والخامس : كتاب لخصت فيه علم المناظر من كتابى اقليدس وبطليموس . وتممته بمعانى المقالة الأولى المفقوده من كتاب بطليموس .. والسادس : كتاب فى تحليل المسائل الهندسية . والسابع : كتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهنا .. والثامن : كتاب جمعت فيه القول على تحليل المسائل الهندسية والعددية جميعا . لكن القول على المسائل العددية غير مبرهن بل هو موضوع على اصول الجبر والمقابلة . والتاسع : كتاب فى المساحة على جهة الأصول . والعاشر : كتاب فى حساب المعاملات . والحادى عشر : مقالة فى اجازات الحفور والأبنية طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت فى ذلك الى الأشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافىء والزائد والناقص . والثانى عشر : تلخيص مقالات ابولونيوس فى قطوع المخروطات . والثالث عشر : مقالة فى الحساب الهندسى . والرابع عشر : مقالة فى استخراج سمت القبلة فى جميع المسكونة بجداول وضعتها ولم أورد البرهان على ذلك . والخامس عشر : مقالة فيما تدعو اليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية ولا يستغنى عنه بشىء سواه . والسادس عشر : رسالة الى بعض الرؤساء فى الحث على عمل الرصد النجومى . والسابع عشر كتاب فى المدخل الى الأمور الهندسية . والثامن عشر : مقالة فى انتزاع البرهان على ان القطع والزائد والخطين اللذين يلتقيان (لا) يقربان أبدا ولا يلتقيان . والتاسع عشر : اجوبة سبع مسائل تعليمية سئلت عنها ببغداد فأجبت . والعشرون : كتاب فى التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين وهو مجموع مسائل هندسية وعددية حللتها وركبتها . والحادى والعشرين : كتاب فى آلة الظل اختصرته ولخصته من كتاب ابراهيم بن سنان فى ذلك . والثانى والعشرون : مقالة فى استخراج ما بين بلدين فى البعد بجهة الأمور الهندسية . والثالث والعشرون : مقالة فى أصول المسائل العددية الصم وتحليلها . والرابع والعشرون : مقالة فى حل شك على اقليدس فى المقالة الخامسة من كتاب فى الأصول الرياضية . والخامس والعشرون : رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه ارشميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة اقسام ولم يبرهن علية » (١٢٠) .

(١١٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٦ .
(١٢٠) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٦ — ٥٠٧ .
نقلا عن ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٩٣ — ٩٤ — ٩٥ — ٩٨ .

ويلى ذلك ما الفه ابن الهيثم من علوم الطبيعة الالهية وهى اربعة واربعون كتابا (١٢١) . ومن العلوم الطبية وهى ثلاثون كتابا (١٢٢) .

حقا ان العلامة ابن الهيثم كان مفخرة لتاريخ العلوم عند العرب وعلما من أعلامها البارزين فى ميادين الرياضيات والهندسة والطب والطبيعة وغيرها .

ومن الرياضيين الذين كانوا فى هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذى وصفه أمية بقوله : « وله فى فروع النجامة بعض دربة وبتجربتها بعض خبرة وهو شيخ اكبر المنجمين بمصر وكبيرهم الذى علمهم السحر فجميع اليه منسوب وفى جريدته مكتوب، وبفضله معترف » (١٢٣) .

وأبو على المهندس المصرى الذى كان قيما بعلم الهندسة فكان يعيش فى أوائل القرن السادس الهجرى وكان مع ذلك اديبا شاعرا ويظهر من شعره انه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلا :

تقسيم قلبى فى محبة معشر   بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له   محيط واهوائى لديه خطوط (١٢٤)

كما برع أبو على بن يونس المصرى بحساب المثلثات واجاد فيها وقامت بحوثه بكثير من الرياضيين وقد حل مسائل صعبة فى المثلثات الكروية واستعان فى حلها بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقى ومستوى الزوال . وابتدع قوانين ومعادلات كان لها قيمة كبرى مثل اكتشاف اللوغاريتمات اذ يمكن بواسطتها تحويل عمليات الضرب الى عمليات الجمع وفى هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة ولذلك فانه يعتبر بحق ممن مهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات .

ويقول « سيديو » : ولبث ابن يونس يستعمل فى سنة ٩٧٩ م / ١٠٠٧ م أظلالا أى خطوطا مماسة وأظلال تمام حسب بها جداول عنده تعرف بالجداول

---

(١٢١) المصدر السابق .
(١٢٢) المصدر السابق .
(١٢٣) القفطى : اخبار العلماء فى اخبار لحكماء ص ١٢٧ .
(١٢٤) لمصدر السابق ص ٢٦٧ .

الستينية واختراع حساب الأقواس التى سهل قوانين التقويم وتريح من كثرة استخراج الجذور المربعة (١٢٥) .

كما ظهر فى العصر الفاطمى فى الرياضيات والهندسة كل من الرشيد بن الزبير (١٢٦) وابو الحسن على بن سليم البواب (١٢٧) ناظر الدواوين . وبرز ايضا فى ميدان الرياضيات الحسين بن على الوزير المغربى (١٢٨) .

***

النبات

ونبغ فى العصر الفاطمى محمد بن احمد بن سعيد التميمى فى مجال النبات حيث كان طبيبا وعالما بالنبات والأعشاب ولد فى القدس وانتقل الى مصر فسكنها وتوفى بها ومن كتبه : مادة البقاء فى أصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء . ومقالة فى ماهية الرمد وانواعه واسباب علاجه ، والمرشد الى جواهر الأغذية ، ومنافع القرآن (١٢٩) . كما كان له معرفة بالنبات وماهياته والكلام فيه ، مميزا وله خبرة فاضلة فى تركيب المعاجين والادوية المفردة ، واستقصى معرفة ادوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه وركب منه شيئا على اتم ما يكون من حسن الصنعة .

وللتميمى من الكتب فى هذا الميدان : رسالة الى ابنه على بن محمد فى صناعة الترياق والتنبيه على ما يغلط فيه من ادويته ونعت اشجاره الصحيحة واوقات جمعها وكيفية عجنه ، وذكر منافعه ، وتجربته ، وكتاب آخر فى الترياق وقد استوعب فيه تكميل ادويته وتحرير منافعه ، وكتاب مختصر فى الترياق ، وكتاب الفاحص والأخبار (١٣٠) .

***

---

(١٢٥) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٥٢ — ١٥٣ .
(١٢٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٤٠ .
(١٢٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٢١ .
(١٢٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ١٠ ص ٨٠ .
(١٢٩) خير الدين الزركلى : الاعلام ج ٦ ص ٢٠٣ .
(١٣٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤٦ — ٥٤٧ — ٥٤٨ .

الكيميـــــاء

كما نبغ في ميدان الكيمياء في العصر الفاطمي بلمظفر بن معــرف ، له نظــر في صناعة الطب ، قرا على ابن زربى كثيرا من العلوم الحكمية وغيرها ، وكان مغرى بصناعة الكيمياء والنظر فيها والاجتماع بأهلها ، وكتب بخط يده من الكتب التى صنفت فيها كثيرا جدا .

ولبلمظفــر بن معــرف من الكتب : تعاليــق في الكيميــاء ، ومختــارات في الطب (١٣١) .

(١٤١) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الإطباء ص ٥٧١ .

الباب الرابع

الدراسات الأدبية والاجتماعية

الدراسات الادبيـــة (الشعر ، النثر ، علوم اللغة والنحو ، علم القراءات) ..

الدراسات الاجتماعية (التاريخ ، الجغرافية ، الفلسفة)

دور الخلفاء والوزراء فى النشاط الأدبى ..



الدراسات الأدبية (الشعر ، النثر ، علوم اللغة والنحو ، علم القراءات)

كانت الدولة الفاطمية من اعظم دول الاسلام حضارة واضخمها ملكا واوفرها حظا من مظاهر الابهة والجمال . وكان فتحها مصر من اقوى العوامل فى بسط نفوذها ووفرة خيرها وعظم ثروتها . وقد خفق علمها الابيض على ربوعها فكان رمز الاستقلال وعنوان القوة ، ودليل المجد الذى لم يشهد الشرق مثله الا قليلا ، وقد تفجرت ينابيع الثروة فى عهدهم وتناثر النضار الذى جادت به ايديهم وكثرت الهبات والعطايا الجزيلة والهدايا يبغون بذلك توطيد ملكهم وتمكين محبتهم واجتذاب الأفئدة اليهم حتى يكثر انصارهم ويزداد مذهبهم الشيعى (١) .

كما عرف الفاطميون بثراء دولتهم وبذخهم الذى لا مثيل له بين ملوك الدول الاخرى واكثروا من استحداث الأعياد والمواسم حتى يخيل الى من يقرأ تاريخهم ان حياة مصر فى ذلك العصر الزاهر كانت كلها اعيادا ومواسم وكلها لهوا ومرحا بالرغم مما كان فى هذا العصر من سنى شدة وقحط ضرب به المثل . ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التى اتخذوا لأنفسهم اعيادا بجانب تلك الاعياد التى يتخذها باقى المسلمين ، والأعياد التى يحييها مسيحيو مصر ، ويشترك معهم فيها أخوانهم المسلمون . فكان الشعب يجلب السرور الى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق المجون وارتكاب المعاصى . وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالا يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم وقد تكون هذه المبالغة منهم فى حياتهم لونا من الوان التنافس السياسى بينهم وبين اعدائهم فيقف اعداؤهم على هذه الحياة البهيجة الفرحة والنفقات الطائلة ، فيعلمون أنهم أمام دولة غنية قوية فتضعف همتهم عن مهاجمتها (٢) . اما هذه الأعياد التى استحدثوها فى مصر فقد روى المقريزى عن ابى الطوير المؤرخ ان الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد

---

(١) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ٧ .

(٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٣ .

علی بن ابی طالب رضی الله عنه ، ومولد فاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر (٣) .

وكان فی طول السنة أعياد ومواسم وهی : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، مولد النبی صلی الله عليه وسلم ، ومولد علی بن ابی طالب، ومولد الحسن والحسين وفاطمة الزهراء والخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، ولية أول شعبان ونصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، موسم فتح الخليج ، ويوم النيروز ، ويوم الميلاد،وخميس العرس،(٤) والصلاة مع الخلفاء فی المساجد (٥) . هذه صورة ما نقله المقريزی عن المؤرخين المعاصرين عما يجری تحت بصرهم وسمعهم فی يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التی استحدثها الفاطميون .

ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تبين أعياد الخلفاء والأمراء ورجال القصر فحسب ، بل كانت أعياد الشعب أيضا بما كان يقدم فيها من الصدقات والسمط فاذا الشعب يشارك الحاكمين وينالة شیء من بذخ الفاطميين ، فاذا هی فرح وبشر ولا يكاد يمضی عيد حتی يلحقة آخر . فی هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون فی انشاد قصائدهم ويتنافسون فی الاجادة والاتقان وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء فی الدول الأخری فلا غرابة أن قلنا ان هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر فی العصر الفاطمی وموضوعا من موضوعاته ، حتی ان عمارة اليمنی فی قصيدته التی رثا بها دولة الفاطميين لم يستطع الا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال :

أبكی علی ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهی لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم	واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم اذ أضحت مكارمكم	تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فی الفصلين قد ردست	ورث منها جديد عندهم وبلی
وموسم كان فی يوم الخليج لكم	يأتی تجملكم فيه علی الجمل

---

(٣) المقريزی : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٣ .
(٤) المقريزی : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها .
(٥) د . محمد كامل حسين : فی أدب مصر الفاطمية ص ١٢٤ .

واول العـام والعيدين كـم لكـم فيهن من وبـل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يـوم الغدير كمـا يهتز ما بين نصريكم من الأسـل
والخيل تعرض فى وشى وفيه شـبه مثل العرائيس فى حلى وفى حلل (٦)

ولعل هذه اللوحة الفنية التى صورها الشاعر عمارة اليمنى لحفلات وأعيـاد الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر الفاطمية ، ولكننا نرى الفاطميين يكثرون من المبـانى والمنشآت التى اقاموها فى البـلاد ولعـل عنايتهم بالمتنزهات والمنـاظر والاكثار منها (٧) من الأدلة التى نسـتطيع أن نقدمها على حب الفـاطميين للفنون المختلفة ، فهذه البساتين التى جملوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها لم تتخذ متنزها لهم فقط دون الرعية ، بل اباحوا للناس دخولها والتمتع بمناظرها وجوها ، فأوجد ذلك عند المصريين لونا من الوان الحياة الفاخرة البهيجة وسعت النفوس الى حب الطبيعة وحب الجمال معا .

ولقد كان خروج المصريين فى ذلك العصر الى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم وهناك كانوا يقضون جـل وقتهم ويطربون وينعمون بجمال الرياض واريج الزهـور (٨) .

وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض جماعات يتطارحون الشـعر ويتبارون فى الانشاد يستوحون من جمال الزهر والطبيعة وحى شعرهم . فاذا صح ما رواه القدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون الى الصحراء لاسـتلهام الشـعر فكذلك خرج شـعراء مصر الى البسـاتين يتغنون ببدائع الطبيعـة فكانت هذه المتنزهات والبساتين التى أكثر منها الفاطميون مصدرا خصبا لكثير من الشعر المصرى فى العصر الفاطمى كانت الحياة المصرية اذن حيـاة ترف وكان سـكان مصر من الثراء والغنى يحسدهم عليه العباسيون فى أوج مجدهم وسعة سلطانهم .

وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون فى الاغداق على الشعب مما يملكون من مال ومتـاع ورقيق ممـا كان يحمله اليهم الدعـاة من مـال الخمس واموال النجوى ومن هدايا الأمراء فى الشرق وكان الوزراء يتشبهون بالائمة فى الظهور بمظهر الملك

---

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٣ .
(٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٦ .
(٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٧ .

فأنفقوا عن سعة وافتن الشعب فى التشبه بأمرائهم وحكامهم .. فظهروا بمظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أبهجها ومن الزينة واللباس أزهاها .. وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان . واقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب حتى خيل الينا أن حياة المصريين كانت حياة لهو وقصف وسماع وغناء وألحان فكان ذلك كله وحيا للشعراء بالقريض .

ومن عوامل ازدهار الشعر فى هذا العصر الفاطمى أن القائمين على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه الأحزاب وآرائها (٩) .

وقد عرف الفاطميون قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام . واصطنعوا كل ما يفيدهم فى دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء وكان الفاطميون على قدرة وكياسة فى فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر منذ العصر الجاهلى كان من اهم وسائل الدعاية للقبيلة فى العصر الجاهلى وللأحزاب السياسية والفرق الاسلامية بعد ظهور الاسلام . وأن بعض الشعراء فى العصر العباسى أمثال مروان بن أبى حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحقى وغيرهما أدخلوا فى شعرهم بعض الآراء الفقهية فى الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين . فلم يشأ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشهروه على خصومهم أو أن يستخدموه فى الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والاشادة بدولتهم ، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين يبذلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم ويجعلون لبعض الشعراء مرتبات شهرية وينقل المقريزى عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين دينارا الى عشرة دنانير (١٠) . ويروى أيضا انه فى يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عاداتهم (١١) .

ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء فى أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يعطى لهم شهريا (١٢) . ويحدثنا المقريزى مرة أخرى فى

---

(٩) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٧ نقلا عن كتاب الهمة فى أدب اتباع الائمة .

(١٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٠ .

(١١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨٦ .

(١٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٨ .

كلامه عن بركة الحبشى أنه كان بها طاقات وعليها صور الشعراء . كل شاعر واسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب وأن الخليفة الآمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار ، أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (١٣) .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الاسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده فى طاقة فى متنزهات عامة مما يدل دلالة قاطعة على تمجيد لفن الشعر والشعراء فأين نحن الآن من مصر فى العصر الفاطمى (١٤) ويذكر العماد فى الخريدة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة « مقدم الشعراء » ويذكر أن مقدم الشعراء فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى هو الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن حريز (١٥) .

وكانت سيدات قصر الامامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرا جيدا فى مدح الأئمة ويحدثنا عمارة اليمنى أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى فى مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الامام الحافظ خمسمائة دينار (١٦) .

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من السن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء فاغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التى جعلت الشعراء يحرصون على اتقان الشعر مع الاكثار من الانشاد ، وهذا بالتالى ساعد على ازدهار الأدب بصفة عامة فى العصر الفاطمى ولذلك كثر الشعراء وكثر انتاجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء فى رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى فى القسم الأخير من العصر الفاطمى الذى ضعف فيه الأئمة واستبد الوزراء بالملك فقد طلب الى الشاعر أبى عبد الله بن مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على الشعر مثل غيره من الشعراء فزيد نصف دينار ، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلى المتوفى حوالى سنة ٥٤٠ هـ بقوله :

---

(١٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٨٦ .
(١٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٨ .
(١٥) العماد الأصفهانى : الخريدة ورقة ١٠٢ أ .
(١٦) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٣٤ .

جرى الحديث فقالوا كل ذى أرب ... أضحت له خمسة تجرى بمقدار

بأى فضل حواه ابن المسلم من ... دون الجماعة حتى زيد فى الجارى

أجروا له خمسة عن حق سيرته ... فقال : لا تنقصونى حق أشعاري

نادوا عليه وسوق الشعر نافقة ... فلم يزد قدرها عن نصف دينار (١٧)

وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء فى تثبيت أركان دولتهم حتى فى الوقت الذى ضعف فيه سلطانهم (١٨) .

لكن الأدب فى عصر الفاطميين فن كسائر الفنون يشف من كيان الأمم ويتحدث من صورة حياتها ويوضح ما اشتملت عليه تلك الحياة من عواطف وميول ومن آراء وأهواء ، والأدب يفوق الفنون جميعا فى هذا النحو من الابانة والايضاح لأنه تصوير واستدلال ناطق ولأنه يبدى فى وضوح ما اشتملت عليه أنظمة الشعوب وعقائدها ومدنياتها وأطوارها ، وعندما قامت الدولة الفاطمية فى مصر على ساقتها كان مفروضا أنها من العروبة فى الركن الأصيل ومن الهاشمية فى المكان الجليل وكان أولئك الخلفاء أنفسهم دعاة وأصحاب فقه وكلام اذ كانت دعوتهم تقوم كما أسلفنا على مذهب يحتاج دعاته والقائمون به الى نصيب من التعليم غير يسير فاحتاجت هذه الدولة الى قوة البيان تضيفها الى قوة الأجناد والأعوان . وقد تم لها ذلك قبل ان تطأ خيول عسكرها وادى النيل ، وقد كان لهم شعراء يتغنون بمفاخرهم وينظمون القصائد فى مآثرهم (١٩) .

فالأدب يساير الحياة وتتجلى فيه نزعاتها وألوانها ونظمها وحظه من النشاط مرتبط بما ينال من تشجيع وما يصادف من أسبب تحفز على القول وعلى الانتاج الفكرى ، وتوقظ فى النفوس الميل الى التفسير وتغرى الشعراء ، وتفسح المجال للكتاب .

وسوف نتعرض هنا بالشرح والتفصيل لبعض أوجه الدراسات الأدبية التى نمت وترعرعت فى ظل الدولة الفاطمية بفضل ما حبتها به من تشجيع ورعاية .

---

(١٧) العماد الأصفهاني : الخريدة ورقة ١٠٢ أ .
(١٨) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٩ .
(١٩) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين ، اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ١٠٢ — ١٠٥ .

أولا — الشــعر :

لم يزل الشعر وما زال فى كل عصر مرآته الصافية التى تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشــعور ونبع الوجــدان ولأن رجاله أدق الناس شــعورا الاجادة واهم هذه العوامل :

لذا فقد لقى الشعر فى عصر الفاطميين وصــادف من عوامل التشــجيع ما أطلق الســنة الشــعراء وأيقظ نفوســهم وزاد نشــاطهم وبعث الميــل الى الاجادة واهم هذه العوامل :

١ — اهتمام الفاطميين بالشــعر واعتزازهم بــه والتجاؤهم اليــه لتثبيت ملكهم وتوطيد دولتهم وأن الشــعر العربى منذ القدم له اثر قوى فى النفوس وله عظيم الشــأن فى الاشــادة بالمحامد واجتذاب القلوب .

٢ — كان الفاطميــون عربا يفهمــون الشــعر ويدركون محاســنه ويهتزون لروعته وقوى ديباجته (٢١) فلما جاء الفاطميون وهم عرب كان الذوق العــربى والثقافة العربية وخاصة أول عهدهم ، اذ كان فيهم أيضــا الذوق البدوى نمــا الشــعر على أيديهم ولما جاءوا مصر بذوقهم وشــعرائهم وتتابعت الموجات (٢٢) .

٣ — ثم فى العصر الفاطمى جدت ظروف كثيرة نهضت بالأدب وأقامت لــه بمصر ســوقا رائجة الا وهى تشــجيع الخلفــاء الفاطميين ووزرائهم للأدب بالمــال والجوائز ، فى وقت عجزت فيه الخلافة العباســية عجزا يوشــك ان يكون تاما عن شىء من ذلك (٢٣) . وكان للشــعراء عند الخلفاء الفاطميين ووزرائهــم مكانة اجتماعية وأدبية ســامية بتقريبهم واحلالهم محلا رفيعــا فى قصور الخلفــاء ومجالســهم . واما المادى فكان بما يمنحون من هبات وما يجرى عليهم من رواتب

---

(٢٠) الســباعى بيومى : تاريخ الأدب العــربى فى العصر العبــاسى بالمشرق ص ٢٥٣ .

(٢١) عبد الحميد حســن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ١١ .

(٢٢) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢٣) د. عبــد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ص ٢٦٣ .

على حسب منازلهم التى كانت لهم فى بلاط الخليفة (٢٤) .

وأن الدولة الفاطمية كان أساسها الدعوة والدعاية بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة حتى قل أن نرى لها مثيلا فى تنظيم دعوتها سرا وجهرا والدقة فى اختيار الأساليب المختلفة التى تتناسب مع العامة والخاصة والجاهل والعالم والمتدين والملحد والغبى والفيلسوف ، فرأت بصائب نظرها ان الشعراء من من أصلح الدعاة لمذهبهم اذ هم يقومون فى زمنهم مقام الجرائد السيارة فى عصرنا فاحتضن الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم وأمراؤهم الشعراء ينفحونهم بالمال الكثير والعطاء الوفير ليطلقوا ألسنتهم فى مدحهم ومدح مذهبهم ولحاجة الفاطميين للدعوة قربوا الشعراء فكثر الشعر وحسن وجاد ، فرأينا شعراء ممتازين فى هذا العصر لم يكن مثلهم قبلهم فى مصر (٢٥) .

٤ — وقد نجم عن كل هذا تنافس الشعراء فى الظفر بمعالى الرتب وبان ينال كل منهم من الدرجات ما هو أرفع من درجته كى يحظى بالرضا والقبول (٢٦) .

٥ — ومن الظروف التى شجعت على النهضة الأدبية فى العصر الفاطمى اقامة الأعياد التى عنى بها الفاطميون عناية عجيبة واحتفلوا بها احتفالا مبالغا فيه حتى لكان هذه الأعياد الكثيرة كانت — كما قلت — جزءا من الخطط التى يضعوها للترويج لدعوتهم وعطف الناس فى مصر على مذهبهم فزادت هذه الأعياد فى بهجة الشعب المصرى من جهة وأطلقت ألسنة الشعراء والكتاب من جهة ثانيه وأتاحت اثمن الفرص لهؤلاء الشعراء لكى يأخذوا جوائز ثمينة من الخلفاء والوزراء وغيرهم من كبار الدولة (٢٧) .

كما أن هناك عاملا له من قوى الأثر فى تغذية الشعراء وارهاف عقول البشر وشحذ بيانهم وامدادهم بمادة خصبة للقول وذلك هو ما كان فى هذه

---

(٢٤) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ١٢ .

(٢٥) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(٢٦) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ١٢ .

(٢٧) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى ، والمملوكى الأول ص ٢٦٤ .

الدولة من مظاهر الأبهة التى تجلت فى مواكب الخلفاء ومجالسهم وموائدهم وحفلاتهم وغير ذلك من مباهج الحياة وموفور نعيمها (٢٨) .

٦ — والأخير من هذه الظروف التى أنعشت الأدب الفاطمى هى الدعوة الدينية التى أتى بها الفاطميون من بلاد المغرب وحشدوا لها جيوشا من العلماء والأدباء فخلفت لنا هذه الدعوة شيئا كثيرا من الشعر والنثر مما (٢٩) .

من كل هذا يتضح ما كان للشعر والشعراء من مكانة جعلت الشعراء يتسابقون الى مدح الخلفاء والوزراء فى هذه الدولة لما غمروهم به من خيرهم وسنى عطاياهم وقد دفع تشجيع الفاطميين للشعراء الى هجرة كثير منهم أوطانهم والاقامة فى مصر للظفر بهباتهم وبسخائهم . وكان الفاطميون يرحبون بالنابهين من الشعراء على اختلاف مذاهبهم (٣٠) .

وكان الشعراء الذين ازدحمت بهم مصر فى ذلك العصر يفدون اليها اما من المغرب واما من المشرق (٣١) .

وعلى الجملة نجد أن الشعر ساير حياة البذخ التى كانت فى عهد الفواطم وسار فى ميادين التمجيد والاطراء ولبس من الديباجة والأسلوب ثوبا يزدان بمظاهر الجمال والرشاقة وحسن الرونق ويتحلى بحلية من زينة اللفظ والمحسنات وألوان الصناعة البلاغية (٣٢) .

ولابد لنا بعد أن تحدثنا عن العوامل التى شجعت على ازدهار الشعر أن نتحدث عن الشعر فى ظل الخلفاء الفاطميين مبرزين دور كل خليفة وأثره على

---

(٢٨) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ١٢ .

(٢٩) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى ، والمملوكى الأول ص ٢٦٤ .

(٣٠) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ١٢ .

(٣١) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى ، والمملوكى الأول ص ٢٦٤ .

(٣٢) عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ٣١ .

الشعر والشعراء الذين ازدان به بلاطه وما قام به هذا الخليفة ووزراؤه فى ميدان الشعر والأدب وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد .

فقد كان الشعراء المصريون قد اخذوا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى يتحدثون فى قصائدهم عن العقيدة الاسماعيلية ويبينون للناس تعاليم الفاطميين ومن ثم قصر أكثرهم قريضه وحبسوا قرائحهم على خدمة السياسة الفاطمية ونشر الدعوة الاسماعيلية فأنتجوا لنا مجموعة ضافية من القصائد والأشعار بعضها فى مديح الخلفاء الفاطميين وذكر مآثرهم والاشادة بكرمهم وحسن سيرهم وبعضها الآخر فى شرح مبادىء العقيدة الباطنية ونشر التعاليم الفاطمية بطريقة تشبه الى حد كبير طريقة العلماء اللغويين والبلاغيين المتأخرين الذين نظموا قواعد علومهم تيسيرا للحفظ وتقريبا للفهم وذلك كألفية ابن مالك فى النحو والجوهر المكنون فى علوم البلاغة ، وقد كان المؤيد لدين الله الشيرازى من أكثر شعراء مصر الفاطمية تمثلا لتلك الطريقة العلمية فى انشاء القصائد ونظم الأشعار اذ كان المؤيد الشيرازى يتبوأ أهم المناصب الروحية فى الدولة الفاطمية وأعنى بذلك مرتبة داعى الدعاة وهى وظيفة مذهبية تملى على صاحبها الجد فى نشر تعاليم ومبادىء العقيدة التى كان يعتنقها الفاطميون . لذلك وجدنا صاحبنا يتوخى فى قرض شعره ونظم قصيده الموضوعات ذات الصبغة المذهبية والاتجاهات العقيدية بغية نشرها بين الناس عساها تشق طريقها الى الشعور والاحساس ، وذلك دون شك أجدى فى نشر المبادىء من التزام طريقة المناقشة والجدال ولا عجب فان النظم بما يشتمل عليه من الجرس والموسيقى تستسيغه الآذان وينفعل به الشعور والوجدان ، أما النقاش والجدل فانه اذا استطاع الاقناع وادى الى التسليم والاذعان بفضل صحة المقدمات واستقامة الحجج فان أثره فى نشر المبادىء والتعاليم العقيدية ضعيف قليل وقد كان هذا الطابع التعليمى قد ساد الشعر المصرى فى أوائل القرن الخامس الهجرى اذ كانت الدعوة الفاطمية آنذاك نشيطة قوية ودولتها وطيدة الأركان ذات هيمنة وغلبة وسلطان .

أما فى اخريات القرن الخامس وأوائل السادس فقد أخذت الدعوة فى الضعف والانحسار وذلك نتيجة للتفكك والانقسام الذى اخذ يتطرق الى أمراء البيت الفاطمى واتباعهم المخلصين ، الأمر الذى ادى فى النهاية الى ضعف الدولة فى الداخل

والخارج من الناحيتين السياسية والعسكرية ومن ثم وجد عدد من الشعراء الفرصة السانحة فى ان يقلعوا عن انشاء القريض فى المسائل المذهبية والأمور العقيدية وان يتجهوا بعواطفهم وقرائحهم نحو المراة والطبيعة فراحوا يتحدثون فى شعرهم عن المراة وصورها البشرية ، كما وصفوا كذلك المظاهر الطبيعية وما كانوا يشاهدونه على ضفاف النيل من رياض اريضة ومروج اريجة وتحدثوا عن جمال الورود والأزهار وعن تغريد الطيور على الأشجار وقد كان منهم عدد غير قليل قد اتجه ببعض شعره نحو الفكاهة والمرح ، وانشأ القصائد الطوال والمقطعات القصار فى التظرف والاضحاك نذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال ابن ابى الرمتمق والأمير تميم وبالجملة فقد اخذ الشعراء المصريون فى اوائل القرن السادس الهجرى ينظمون القصائد فى الغزل والتشبيب والتفكه والتظرف ووصف مظاهر الطبيعة وكان هذا كله من الشعراء المصريين مع استمرار الطابع الأول فى شعر المتمسكين بالنحلة والعقيدة والذين ارتدوا لباس الدين .

والقصد من هذا ان اقول أن الشعر المصرى فى اخريات القرن الخامس واوائل القرن السادس الهجريين اصبح ذا طابعين : الأول نسميه شعر العقيدة وهذا النوع من الشعر ابعد فى تقديرنا عن الفن والأدب وادخل فى باب العلم والجدل ، اما النوع الثانى من الشعر فهو الذى نطلق عليه اسم شعر الطبيعة والغزل فانه كان الصق بالعواطف والوجدان واقرب الى طبيعة الفن وكنية الأدب (٣٣) .

نرى ذلك عند تميم بن المعز وابن وكيع التيمى والشريف العقيلى والشريف الاخفش وابن مكنسة وابن قادوس ثم بعد ذلك عند ظافر الحداد وابن الصياد وطلائع بن زريك والمهذب بن الزبير وهذا الأخير هو الحسن بن على بن ابراهيم بن الزبير المعروف بالقاضى المهذب من اهل اسوان من اصل عربى ينتمى الى قبيلة غسان وكان المهذب واخوه الرشيد من اكبر شعراء ذلك العصر (٣٤) .

وكان المهذبان من اهل النباهة والفضل والرياسة صنف كتاب « الجنسان

---

(٣٣) د. على صافى حسين : ابن الكيزانى الشاعر الصوفى المصرى حياته وشعره ص ٦٥ — ٦٦ .

(٣٤) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٢٠٣ .

ورياض الأذهان » ذكر فيهم من مشاهير الفضلاء وله ديوان شعر ولأخيه القاضى المهذب ديوان شعر ايضا وكانا مجيدين فى نظمهما ونثرهما . ومن شعر القاضى المهذب وهو من جملة قصيدة بديعة :

وترى المجرة والنجوم كانما   تسقى الرياض بجدول ملآن
لو لم تكن نهرا لما غامت بها   ابدا نجوم الحوت والسرطان

وله ايضا من جملة قصيدة :

ومالى الى ماء سوى النيل غلة   ولو أنه استغفر الله زمزم

وله كل معنى حسن وأول شعر قاله سنة ٥٢٦ هـ (٣٥) .

وقد كان مليح الخط فصيحا جيد العبار وكان اشعر من اخيه الرشيد ، والرشيد أعلم منه فى سائر العلوم وقد توفى فى القاهرة سنة ٥٦١ هـ وكان قد اختص بالصالح ابن زريك وصنف المهذب كتاب « الانساب » وهو كتاب كبير أكثر من عشرين مجلدا كل مجلد عشرون كراسة ويدل هذا على جودة قريحة مؤلفه وكثرة اطلاعه (٣٦) . فقد كان المهذب شاعرا من فحول شعراء العربية ولا اغالى اذا قلت ان مصر الاسلامية منذ دخلها العرب ومنذ عرفت الشعر العربى لم تنجب من ابنائها شاعرا له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته وقد وصلت الينا عدة قصائد تدلنا على ذلك كله فمن ذلك قصيدته التى ارسلها الى داعى اليمن عندما قبض على أخيه الرشيد يمدحه ويستعطفه حتى أطلق سراح اخيه ففيها يقول :

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا   هل أنجدوا من بعدنا أم اتهموا
رحلوا وقد لاح الصباح وانما   يسرى اذا جن الظلام الأنجم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة   لا أوحش الله المنازل منهم (٣٧)

ويقول ياقوت « شعره جميل رصين » ويقول عنه ابن خلكان « ولم يكن فى زمانه أشعر منه » وله شعر كثير فى مدح الصالح بن رزيك الذى لزمه فترة طويلة من الزمن وأغدق عليه الصالح بن زريك من ماله فقال المهذب مترنما بجوده وكرمه :

---

(٣٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣٦) وزير مصر فى أيام الفائز الفاطمى فالعاضد من بعده والذى استقل فى مصر بالأمور وتدبير أحوال الدولة وكانت ولايته سنة ٥٤٩ هـ توفى سنة ٥٥٦ هـ .

(٣٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٩ .

لا يرتضي فى الجود سبق سؤال من يرجوه حتى يسبق الآمالا

ولكثرة ملازمة المهذب لابن رزيك بتهم بانه يصنع للوزير شعره الا ان الشاعر كان يثني على شعر الوزير ويصفه بالبلاغة (٣٨) .

أما ثانى المهذبين الأخوين الشاعرين هو احمد بن على بن ابراهيم الزبير الغسانى وكان الرشيد أعام من أخيه واخوه أشعر منه (٣٩) . وكان غزير العلم واسع المعرفة ملما بالهندسة وعلم النجوم والسير والموسيقى والطب وقد تلقى العلم باليمن والاسكندرية وأسوان وقد ولى ثغر الاسكندرية فى أواخر عهد الفاطميين ثم قتل سنة ٥٦٣ هـ بتهمة اشتراكه مع اسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبى (٤٠) وكان الرشيد كما وصفه ياقوت « على جلالته وفضله ومنزلته من العلم والنسب قبيح المنظر اسود الجلدة سمج الخلقة ذا شفة غليظة وانف مبسوط كخلقة الزنوج قصيرا (٤١) من الأسباب التى جعلته يكثر من ذم الدهر والناس وان يظهر فى شعره سمة حزن لعدم وفاء الأخوان وغدرهم به » فقد انشد وهو فى اليمن :

لئن خاب ظنى فى رجايك بعد ما ظننت بانى قد ظفرت بمنصفى

فانك قد قلدتنى كل منة ملكت بها شكرى لدى كل موقفى

لانك حذرتنى كل صاحب واعلمنى ان ليس فى الأرض من يفى (٤٢)

وانشد مرة اخرى وهو فى مصر :

تواصى على ظلمى الأنام باسرهم واظلم من لاقيت اهلى وجيرانى

لكل امرىء شيطان جن يكيده بسوء ولى دون الورى الف شيطان

وحين قبض عليه اشهر على جمل وعلى راسه طرطور ووراءه من ينال منه فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :

ان كان عندك يا زمان بقية مما تهين بها الكرام فهاتها

ثم صلب شنقا ودفن حيث شنق ومن غريب الاتفاق أن يدفن شارد بعد أيام

---

(٣٨) د . محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٥٦ — ٣١٩ .
(٣٩) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٠ .
(٤٠) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٩ — ٤٥٦ .
(٤١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٦٢ .
(٤٢) العماد الاصفهاني : الخريدة ورقة ٣٦ ب .

قليلة فى نفس المكان الذى دفن فيه الرشيد (٤٣) .

وقد رثا الجليس بن الحباب صديقه الرشيد بقوله :

ثروة المكرمات بعدك تقر ومحل العلا ببعدك قفر
بك تجلى اذا حللت الدياجى وتمر الايام حيث تمر
اذنب الدهر فى مسيرك ذنبا ليس منه سوى ايابك غدر (٤٤)

والجليس بن الحباب هذا هو القاضى عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس السعدى كان يجالس خلفاء مصر من بنى عبيد فسمى بالجليس وكان اديبا مترسلا شاعرا (٤٥) . كان ذا فضل مشهور وادب مأثور بل كان أوحد عصره فى مصر نظما ونثرا ومن شعره :

ومن عجب أن الصوارم فى الوغى تحيض بأيدى القوم وهى ذكور
واعجب من ذا انها فى اكفهم تاجج نارا او الأكف بحور

وهذا الشعر قرضه الجليس عند الصالح بن رزيك حين قدومه (٤٦) وبنفس شهرة آل الزبير وهى اسرة فى صعيد مصر كانت هناك اسرة اخرى تضاهيها فى الشهرة وهى اسرة بنى عرام التى ينسب اليها الشاعر أبو محمد هبة الله بن على ابن عرام السديد الذى امدنا بمثل آخر لشاعر عبر عن استيائه وسخطه وقد خابت آماله فى اكتساب رجل من انصار الشعر بعد أن مدحه على غير جدوى .. فقال :

أتعبت نفسى وفكرى فى مدح قوم لئام
وغرنى حسن بشر منهم وطيب كلام
فما حصلت لديهم الا على الاعدام (٤٧)

ويقول ابن عرام من قصيدة أخرى يمدح فيها الوزير ابن الولخشى ويشيد فى بعض ابياتها بذكر الاسرة الحاكمة ويصفها بانها عامل قوى من عوامل تمكين قوة الاسلام فيقول :

جددت بعد دروسه الاسلاما ومحوت عند الظلم الاظلاما

(٤٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٥ .
(٤٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١ .
(٤٥) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٧١ .
(٤٦) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٩ ص ٤٨ .
(٤٧) العماد الاصفهانى : مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٧٦ أ (ب) .

وطويت رايات الضـــلال مجـاهدا ونشرت فى غـــر الهدى أعلام (٤٨)

اما الشعر الذى قيل فى وصف البيئة المصرية فتمتلىء به الكتب التى تشير الى الادب المصرى فى عهد الدولة الفاطمية ومنه على سبيل المثـال قول عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب المتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى وصف الاهرام :

انظـــر الى الهـــرمين اذ بـــرزا للعـــين فى علـــو وفى صـــد
وكأنمـــا الأرض العريضــــة اذ ظمئت لطـــول حـــرارة الكبـــد
حســـرت عن الثـــديين بـــارزة تدعـــو الاله لفـــرقة الولـــد

والحق ان الشعر الفاطمى نهض فى مصر نهضة واسعة ومن الشـــعراء الذين وفدوا الى مصر أبو الحسن القليوبى الذى ينسب الى بلدة بصقلية وقد أسهم هؤلاء فى الحركة العلمية التى ظهرت فى مصر آنذاك .

والحسن القليوبى الشـــاعر الكاتب هو على بن محمـــد بن أحمـــد بن حبيب القلبوبى الكاتب . قيل انه كان احد الشعراء الذين مدحوا الائمة والقواد والكتـــاب ولكن مدائحه ضاعت ولم يبق منها شىء ، بل قيل ان شعره كله فقد ولم يبق الا عدة أبيات منها قوله :

وصـــافية بات الغـــلام يـــديرها على الشرب فى جنح من الليل ادعج
كأن حبـــاب المـــاء فى وجنـــاتها فرائـــد در فى عقيـــق مـــدرج
ولاضـــوء الا من هـــلال كأنمـــا تفرق منـــه الغيم عن نصـــف دملج
وقد حال دون المشترى من شعاعه وميض كمثـــل الـــزئبق المترجـــرج
كـــأن الثريا فى أواخـــر ليلهـــا تحية ورد فوق زهـــر بنفسج (٤٩)

وممن وفدوا على مصر ايضا عبد الجليل بن مخلوف الصقلى الذى أفتى بمصر اربعين عاما ، ولقد وصل هؤلاء بعد استيلاء الرومان على جزيرة صقلية ووجدوا فى مصر بيئة ثقافية تشجعهم وترعاهم واحتفى بهم الخلفاء الفاطميون ، ومن أشـــهر الأدباء الصقليين أبو القاسم على بن جعفر بن على بن محمـــد الحسينى الشنتريتى المعروف بابن القطـــاع الصـــقلى الذى دفن بمصر سنة ٥١٥ هـ بجوار تربة الامام

---

(٤٨) المصدر نفسه : مخطوط ٣٣٢٩ ورقة ١٨١ (ب) .
(٤٩) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٦٩ .

الشافعى وترك عدة مؤلفات منها « تاريخ صقلية ، والحواشى على الصحاح »(٥٠).

وعمرت الاسكندرية فى العصر الفاطمى بالمبانى الفخمة والقصور السامقة والرياض النضرة والدور الجليلة ولا عجب فى ذلك لأنه عصر شاع فيه نوع من الترف واستمتع القوم من أعيان المدينة ، وتجارها بحياة رغدة مترفة فاقبلوا على التأنق وولعوا بالانشاء ويسجل شعراء الاسكندرية فى هذه الفترة باشعارهم تصويرا رائعا بعض هذه القصور والمعاهد،فهذا ابو الفتح نصر الله مخلوف اللخمى الاسكندرى المعروف بابن قلاقس أحد شعراء الاسكندرية العظام توفى سنة ٥٦٧ هـ يصف قصر بنى خليف وهو قصر كان مقاما فى منطقة الرمل بظاهر الاسكندرية من الجهة الشرقية وكان قصرا راسخ البنيان عظيم الارتفاع ، قد رسا بناؤه وسما ، وكاد يفوق بمزاحمته أثواب السماء وجنة الرياض بما اتمته عليه السحب من ودائع (٥١) امطارها والرمل بفنائه قد نثر تبره فى برجد كرومه .. فيقول :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت ... فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه ... وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية ... وأقام فى أرض من الكافور

وابن قلاقس الاسكندرى كان اديبا فاضلا شاعرا مجيدا ولد بالاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ ونشأ بها وقرأ على أبى طاهر السلفى وسمع منه ثم سافر الى صقلية ودخلها سنة ٥٦٥ هـ ثم فارق صقلية راجعا الى مصر ومن شعره :

شرب معتقه الطلا صرفا على ... رقص الغصون بروضة غناء (٥٢)

وفى شعر ابن قلاقس ظاهرتان هما فى الأصل من وحى بيئته ، فشعره يمثل شاعرا اسكندريا رحالة كثير الركوب للبحار،أما كونه اسكندريا فهذا واضح فى ذكره

---

(٥٠) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية العربية ص ٩٣ .

(٥١) د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامي ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٥٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٢٦ .

لرجالات الاسكندرية وعلمائها فى ذلك العصر وذكره كذلك لمعالم الاسكندرية كالمنارة المشهورة ويصف ممدوحيه بصقلية فيقول :

وقمنا فى سما العز نرعى جبين الشمس فى الغيث المطير

ويمدح ياسر بن بلال فيقول :

ما ترى فى الأفق بين برد وسحاب ذى انسحاب وعارض ذى اعتراض

أنهضته الصبا فأعيا عليها نقل فى جناحه المنهاض

ويتغزل فلا يتخلى عن ذكر المطر والسحاب والبرق والرعد فيقول :

مر بنا كالظبى لكنه يذعرنا والظبى مذعور

واهتز كالغصن ولكنه بأدمع العشاق مسطور (٣)

وفى الشعر والأدب برز عدد كثير من شعراء الاسكندرية نذكر منهم ظافر بن القاسم الحداد الجذامى الاسكندرى توفى سنة ٥٢٩ هـ (٥٤) ، وكان من الشعراء المجيدين وله ديوان شعر أكثره جيد ومدح جماعة من المصريين وروى عنه الحافظ ابو طاهر السلفى وغيره من الأعيان .. ومن مشهور شعره :

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ما سح وابل دمعه ورذاذه

مازال جيش الحب يغزو قلبه حتى وهى وتقطعت أفلاذه

لم يبق فيه من الغرام بقية الا رسيس يحتويه جذاذه

من كان يرغب فى السلامة فليكن أبدا من الحدق المراض عياذه (٥٥)

ومن شعره ايضا :

رحلوا فلولا اننى ارجو الاياب قضيت نحبى

والله ما فارقتهم كأننى فارقت قلبى

ولظافر الحداد أيضا :

يذم المحبون الرقيب وليت لى من الوصل ما يخشى عليه رقيب

وكانت وفاته بمصر سنة ٥٢٩ هـ وله من الشعر :

انظر بعينك فى بديع صنائعى وعجيب تركيبى وحكمة صانعى

---

(٥٣) د . محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ص ٣٥٩ .
(٥٤) د . السيد عبد العزيز سالم ص ٢١٦ — ٥٣٧ .
(٥٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢١٩ .

فكأنني كفنا محب شبكت ... يوم الفراق أصابعا بأصابع

وكأنى بعصر الفاطميين لم يترك شيئا للعصور التالية حتى الألغاز نجدها فى هذا العصر فقد اختص بها شاعر اسكندرى يسمى ابن مجبر وكذلك الأوزان الموشحة نجدها فى هذا العصر عند شاعر يسمى على بن عيساد وهو أيضا اسكندرى (٥٦) .

وخير مثال لذلك الشريف العقيلى وهو أبو الحسن على بن حيدرة العقيلى اهم شاعر ظهر فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى والشريف العقيلى شخصية طريفة فى الشعر الفاطمى بل فى الشعر المصرى العام فقد روى له صاحب المغرب قطعة طويلة من شعره وهى مثل ديوانه ترينا أنه كان شاعرا ممتازا من شعراء الطبيعة .

حقا سبقه فى ذلك ابن وكيع فقد قصر نفسه عليه ويعيش مع كل حركة وهمسة فيها واتاح له ثراؤه ورقته وحبه لها أن يقصر نفسه عليها يتغنى بها وبالطبيعة من حوله وبدت له الأزهار والثمار والأشجار فى صور خيالية مثيرة كما يقول :

أمهات الثمار بين الروابى ... تائهات يلبسن خضر الثياب

او يقول :

السحب ترضع من نبات الأرض ما ... جعل لها الغصون مهودا

وهكذا نجد الشريف العقيلى يميل الى الدعابة والفكاهة فى شعره وتلك هى صورة الشعر الفاطمى يعبرون عن شخصيتهم ومرحهم وفكاهاتهم كما يعبرون تعبيرا طريفا عن جمال الطبيعة فى بيئتهم (٥٧) .

والى جانب الشعراء الذين وفدوا الى مصر من صقلية هناك شعراء وفدوا اليها من المشرق وأثروا فى أشعارهم ما أظهره المصريون أنفسهم من اعتدال واحتفاظ بشخصياتهم مع حرصهم فى الوقت نفسه على ارضاء الخلفاء الى الحد الذى نافسوا فيه المغاربة فى الحصول على الجوائز والمنح الطائلة (٥٨) ، وكان من هؤلاء عمارة

---

(٥٦) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٧٩ — ٤٨٢ .
(٥٧) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٨٣ — ٤٨٤ .
(٥٨) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ص ٢٦٦ .

اليمنى : وهو الشاعر الذى يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمى وبالرغم من أنه لم يكن مصريا ولكنه وفد على مصر فى ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ برسالة من أمير مكة قاسمه ابن هاشم (٥٩) ووصف لنا رحلته من الحجاز الى مصر فى كتابه « النكت العصرية » حيث لقى الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح بن رزيك فى قاعة الذهب فأنشد يومئذ قصيدته التى أولها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم — حمدا يقوم بما أولت به النعم

تربن أبعد مزار الفرمن نظرى — حتى رأيت امام العصر من أمم

فهل درى البيت أنى بعد فرقته — ما سرت من حرم الا الى حرم (٦٠)

فاعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته فاغدقوا على الشاعر بنعمهم وعطاياهم فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذى يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس وابن الخلال صاحب ديوان الانشاء وابن قادوس والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ويعد شعر عمارة من السجلات والوثائق التى تطلعنا على تاريخ مصر ابان هذه السنوات المضطربة التى أدت الى زوال الدولة الفاطمية فقد كان عمارة يمدح الوزراء الذين كان بيدهم مقاليد الأمور وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة فوجدت من الحوادث مناسبات لهذه المدائح .

ونحن نعلم أن عمارة كان سنى المذهب بل كان متعصبا لمذهبه . ولم يتحول من هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكى يعتنق مذهب الفاطميين ومع ذلك كله فان عمارة تأثر بما كان يجرى فى مصر وأسهم مع غيره من شعراء مصر فى الاشادة بعقائد الفاطميين ونستشهد الآن بقصيدته (٦١) النونية التى قالها فى رثاء أهل البيت فى عاشوراء وضمنها مدحا للملك الصالح وهى القصيدة التى أولها :

شأن الغرام أجل أن يلجانى — فيه وان كنت الشفيق الحانى

أنا ذلك الصب الذى قطعت به — صلة الغرام مطامع السلوان

ملئت زجاجة صوره بضميره — فبدت خفية شأنه للشانى

---

(٥٩) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٩ .

(٦٠) عمارة اليمنى : النكت العصرية جـ ٢ ص ٧ .

(٦١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٩ .

غــدرت بموثقها الدموع فغادرت ســرى أسـيرا فى يـد الاعــلان
عنفت أجفـانى فقـام بعــذرها وجــد يبيح ودائــع الأجفــان (٦٢)

كان لنفوذ الخلفــاء الفــاطميين الأدبى ، ذلك النفوذ الذى عملوا على تأييده بعطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب أثر فى نفس عمارة اليمنى حتى أصبح من انصارهم ومن الشعراء المائلين لهم وظهرت له اعمال عظيمة فى تاريخ الخلافة الفــاطمية (٦٣) .

وهكذا اضطر هذا الشــاعر الســنى الى أن يتأثر بما كان فى مصر فى العصر الفــاطمى وأن يتأثر بعقــائد الفاطميين فأكثر منها فى شــعره ، بـل بلغ به تأثره بالفاطميين الى أن يرثيهم ويثنى عليهم فى الوقت الذى تخلى عنهم جميــع المصريين وشمت بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة (٦٤) . وعمارة اليمنى الســنى المذهب كان وفيا لهم الوفاء كله فأنشد قصيدته التى مطلعها :

رميت يــا دهر كــف المجــد بالشــلل وجيده بعد حســن الحلى بالعطــل
سعيت فى منهج الرأى العثــور فان قدرت من عثرات الدهر فاستقل (٦٥)

وقد أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه بأموالهم وعطاياهم واكرموه الاكرام كله . فقابل ذلك بوفاء الوفى الأمين (٦٦) .

رغم أنه يختلف مع الفاطميين فى عقيدتهم ومما يدل على ذلك قولـه :

مذاهبهم فى الجــود مذهب ســنة وان خالفونى فى اعتقــاد التشــيع

ولما مات رزيك سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م أصبح حزن عماره على وفاته مثارا لنظم اشعاره وظل ولاؤه للفاطميين الى أن سقطت دولتهم مما أثار شجونه فى قول الشعر لرثاء هذه الدولة العظيمة مما تناقله القلقشندى والمقريزى ولم ينس عمارة أن ينظم شعرا فى الاشادة بذكر صلاح الدين واهــل بيته ولكن اخلاص عمــارة للفاطميين أقصاه عن عطف هذه الدولة الجديدة ، ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التى وجه بها الى صلاح الدين وعنوانها :

---

(٦٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٠ .
(٦٣) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٠ .
(٦٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٢١ .
(٦٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٢٦ .
(٦٦) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٢ .

« شكاية المتظلم ونكاية المتألم » (٦٧) .

ولاغرو بأن تحيزه للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشنقه فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م لاتهامه بالاشتراك فى التآمر لاعادة سلطان الفاطميين .

ولا يفوتنا أن نعرض لبعض شعراء كان لهم أثر فى نشر العقائد الفاطمية مثل أبى الحسن بن الزبد الذى وصفه عماد الدين نقلا عن القاضى الفاضل . فقال : « وانه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » (٦٨) . كما كان على بن عباد وهو من أهل الاسكندرية شاعرا نابها . نال من بلاط الحافظ الفاطمى حظوة كبيرة ، لما أعتقل أبو على بن الوزير الأفضل ، الخليفة الحافظ نظم ابن عباد قصيدة يهنىء فيها الوزير ويقول :

مبتسم الدهر بعد تعبيس	وقوض الدهر لكن بعد تعريس
اذا دعوتنا فان تبقى لأنفسنا	دعاؤنا فابق يا ابن السادة السوس
وقد أعاد اليه الله خاتمة	فاسترجع الملك من صخر بن ابليس (٦٩)

وقد مدح الشاعر ابو الحسن على بن محمد الأخفش وهو شاعر من أشراف المغاربة . أجاد فى مدح الخليفة الحافظ وغلا فى تمجيد الفاطميين واعلاء شأنهم فقال يمدح الخليفة الحافظ :

بشر فى العين الا انه	من طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أعيننا	وتعالى أن تراه جسدا (٧٠)

هكذا كان حال الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر أما غيرهم من الشعراء المصريين الذين رحلوا عن بلادهم فانهم لم يلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير فى عاصمة العباسيين وجعفر بن أبى زبيد مثال صالح لما ذكرنا فقد عبر عن خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر الى بغداد فى قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

---

(٦٧) ديوان عمارة اليمنى : ص ٢٨٨ — ٢٩٣ .
(٦٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥١ — ٤٥٢ .
(٦٩) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٠ — ٤٥١ .
(٧٠) المرجع نفسه .

وما قصدنا بغداد شــوقا لأهلهــا ولا خفيت مذ قط ابصارنا عنــا ؟
ولا أننــا اخترنا على مصر بلــدة سـواها ولكن المقادير ســاقتنا (٧١)

ولقد برز فى هذا العصر شـــاعرات من أشـــهرهن حســـناء المصرية التى ولدت باليمن وتربت بالحجاز وتعلمت ببغداد وأتت مصر ، وتقية الصورية وكانت تســكن الاسكندرية ولها كراسة أشعار اطلع عليها العماد (٧٢) وكان بالاسكندرية من النســـاء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السـلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات ومن بينهن تقية بنت غيث بن على الارمنازى الصورى الســـالفة الذكر والمدعوة ست النعم قال الســـلفى عنها « لـم تر عينى شـــاعرة قط ســـواها » (٧٣) . وخديجة بنت أحمد بن ابراهيم الرازى المدعوة ملجة روى عنها الســـلفى وقال : « وخديجة هذه ابوها محدث وأخوها محدث ، وقد حدثت أختها كما حدثت هى » وتوفيت خديجة فى شهر ربيع الآخـر ســنة ٥٢٦ هـ وهى بكر لم تتزوج قط .وكانت تصلى طول الليل ولا تنام الا عن غلبــة . والجـديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشــقى وروى عنها الســلفى . وترفه بنت أحمد بن ابراهيـم الرازى المتوفاة سنة ٥٣٤ هـ قال عنها السلفى : ترفة هذه كانت من بيت عالـم وهى نفســها كانت دينــة كثيرة المعروف وتســمى أيضا عائشــة . وهكذا كانت الاســكندرية فى القرن الســـادس وأوائل الســابع منارا للعلم زاخرة بالعلمـاء من كل لون من الأدباء والشــعراء .

وهكذا نجد أن المراة فى الشـعر الفاطمى كان دورها غير بارز وهذا يعـود الى طبيعة الدولة الفاطمية ومدى حرص الخلفاء على المراة فقد عوملت النســـاء فى عهد الحاكم معاملة تنطوى على القسوة والعنف ممــا جعلها رهينة المحبسين ، ولم يقدر لها المشاركة فى قول الشعر الا فى المراحل الأخيرة للدولة الفاطمية ، على أن العصر الفاطمى كان خصبا فى انتاج الشــعر بحيث اســتطاع شــعراء مصر الفاطمية أن يقفوا بجوار غيرهم من الشعراء فى الأقطار الاسلامية فى أرقى عصوره وصوره فالعوامل التى تحدثنا عنها والآثار التى وصلتنا وما قاله الرواة عن شعر

---

(٧١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٠ — ٤٥١ .
(٧٢) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٧ .
(٧٣) الطاهر السلفى : معجمه ق ١٧ .

مصر ، كلّ ذلك يجعلنا نقول أن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة فى الحياة الأدبية ويتطور هذا التطور الذى نلمسه فى العصر الفاطمى (٧٤) .

كما كان الشعر العربى فى مصر أثناء حكم الفاطميين يقال فى نفس الموضوعات والأغراض التى يقال فيها الشعر العربى فى مختلف الأقطار العربية فى الماضى والحاضر على السواء ، على أن الشعر المصرى أيام الفاطميين قد تحدث فيه الشعراء فى زهو وافتخار عن انتصارات جيوش المعز لدين الله الفاطمى وما أحرزه الخلفاء فى ربوع الشام على العباسيين والفرنجة والصليبيين فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس (٧٥) .

وما نلاحظه أن شعر هؤلاء الشعراء جميعا انقسم فى رأينا ابان العصر الفاطمى الى مدرستين تسمى احداهما : مدرسة الصنعة والبديعيات وقد تزعم هذه المؤيد فى الدين الشيرازى ثم مضى على اثره فى اخريات القرن السادس الهجرى القاضى الفاضل . والثانية : نطلق عليها اسم مدرسة السليقية والطبع وقد تزعم هذه فى العصر الفاطمى الأمير تميم وابن وكيع التنيسى ثم قفى على أثرهما فى العصر الأيوبى البهاء زهير (٧٦) .

ومن الواضح انه ظهر فى العصر الفاطمى عدة مدارس للشعر تسربت منها سماتها الى الشعراء الأيوبيين أولها : مدرسة شعراء العقائد ونعنى بهم شعراء المديح الذين فاض شعرهم بالمصطلحات والعقائد الفاطمية وقد استعملوا الألفاظ الضخمة القوية ذات الجرس الصاخب لتتلاءم مع تلك المصطلحات . فجاء فى شعرهم غريب المصطلحات فى غريب الألفاظ مما أدى الى شىء من التعقيد . وكان شعرهم اقرب الى النظم فى اغلب الأحيان . واستمرت هذه المدرسة فى عصر الأيوبيين على الرغم من أن الشعراء لم يكونوا شيعيين فالعقائد الفاطمية بمصطلحاتها ظهرت فى مدائح الشعراء على الرغم من تنكرهم للشيعة وايمانهم بالمذهب السنى (٧٧) .

والثانية : مدرسة السهولة والرقة وهى التى كان شعراؤها يختارون فى

---

(٧٤) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ١٤٠ .
(٧٥) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى حياته وديوانه ص ٢١ — ٢٢ .
(٧٦) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٧٧) د . محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ١٨٥

قريضهم أوضح الأساليب ويستعملون أسهل الألفاظ . ولا يتكلفون فى التعبير ولا يهيمون فى المعنى . بل كانت عباراتهم سلسة سهلة ومعانيهم واضحة رقيقة. وذلك كأشعار الأمير تميم وأبى الرمقمق وابن وكيع التنيسى (٧٨) .

والثالثة : مدرسة الكتاب وكان هؤلاء على طرفى نقيض مع ما رأيناه من شعراء مدرسة الرقة والسهولة . اذ كانوا خاضعين لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها الكتاب فى الدواوين فى العصر الفاطمى ومثلوا بها كتاباتهم وأشعارهم . كان شعر هؤلاء يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء . واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الايقاع ، يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم اسرافا يدل على طول بالهم فى هذا الفن .

وعلى تلك الثورة اللفظية التى كانوا يتحلون بها ويصطبغونها فى مهارة ليس بعدها مهارة وكانوا يجملون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ومراعاة نظير الى غير ذلك حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على استعمال هذه المحسنات وكثيرا ما يحلو لهم أن يستعملوا المترادفات أو ما يشتق من اللفظ الواحد فى الجملة الواحدة أو فى البيت الواحد كل ذلك من ألوان التعسف الفنى الذى ألزم به الكتاب والشعراء أنفسهم فابتعدوا عن الطبع ، وقد ظهر ذلك فى شعر القاضى الموفق بن الخلال وابن أبى الشخباء والقاضى الجليس وابن الزبير وعمارة اليمنى وغيرهم من شعراء الفاطميين وقد أصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر وتقليدا يسير عليه الشعراء والكتاب (٧٩) .

ثانيا — النثر :

الكتابة تساير حياة الأمم فى حضارتها ونضالها وهى صورة للدول ومرآة لميول أفرادها تسير من حيث الأغراض فى اتجاهين أساسيين **أولهما :** فردى يرتبط بمقاصد الأشخاص وميولهم **والثانى :** يتصل بالدولة وبالشئون العامة للمجموع .

---

(٧٨) د . على صافى حسين : ابن الكيزانى الشاعر الصوفى حياته وديوانه ص ٢٤ .

(٧٩) محمد ابراهيم نصر : ابن سناء الملك ص ٢٧ .

فأما الفردى فانه يتجلى فى الرســـائل الأخوانية فى شــتى الأغراض وفى ميول الكتاب الى اظهار مواهبهم البيانية ومقدرتهم فى مناحى البلاغة والابانة عن خلجات نفوســهم ومــا تطلبه حياتهم .

أما الاجتماعى فانه يرجع الى ما تحتاج اليه الدولة فى ادارتها ونظامها ومــا تتطلبه قيادة الشــعوب وتوجيهها من ارشــاد الى مــا ينهض بالحياة ومرافقها . فالكتابة اذن أداة الدولة وعون للأفراد وموضوعاتها ترتبط بالفرد وميوله وأغراضه ووجدانه بالمجموع ونظامه وشئونه (٨٠) .

فعندما تولى الفــاطميون أمــر مصر ونهضــت الكتــابة فيهــا قوية مزدهرة تضاعفت هذه النهضــــة فى العصر الفاطمى بما عمــل الفاطميون على النهوض أولا بدور العلم واذكاء شعلته فى البلاد حتى كان للحركة العلمية أثر قوى فى تيــــار الفكر الاســلامى عامة وفى مصر الفاطمية على وجه الخصــوص ، ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفــاطمية بنهضــــة أدبيــة كان لها أثرها القوى فى ازدهار الشــعر وازدهار الكتابة معا . فقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشــعراء بــل لا أغالى اذا قلت ان عناية الفاطميين بالكتــاب كانت أشــد من عنايتهم بالشــعراء ذلك أن اتســاع ملكهم وتشــعب نواحى حياتهم وســلطانهم اضطرهم الى أن يوجهــوا هممهم الى العناية بالدواوين المختلفــة عناية خاصــــة تتناســـب مــع غلوهم فى أظهار مجدهم (٨١) .

كما أن التشريف الذى جعله الفاطميون لكتــاب دولتهم كان من أهــم عوامل ازدهار الكتابة فى هذا العصر كما كان الاغداق على الكتــاب من أســباب كثرتهــم واقبال الناس على التعليم واجادة الكتابة ليصــلوا الى مرتبة الكتــابة فى الدواوين فكثر عــدد الكتــاب وأصــبح على المتــأدب أن يأخذ من الكتــاب طرائقهم وفنهم ويحدثنا القاضى الفاضــل أنه كان من عــادة أرباب الدواوين فى تربيــة أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد الى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة . قال القاضى : « كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غضــا طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يراس مكانا وبيــانا ويقيم لســلطانه بقلمه ســلطانا فكان من العــادة أن

(٨٠) عبد الحميد حسن : صــفحات من الأدب المصرى من العصر الفــاطمى الى النهضة الحديثة ص ١٢ .
(٨١) د . محمــد كامل حســين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

كلا من أرباب الدواوين اذا نشــأ له ولد وشــدا شــيئا من علم الأدب أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسـمع فأرسلنى والدى وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية فى أيام الحافظ وأمرنى بالمســير الى ديوان المكاتبات وكان الذى يراس به فى تلك الأيام رجــل يقال له ابن الخلال فلمــا حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من انا ومـا طلبى رحب بى وســهل ثم قال : ما الذى أعددته لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء ســوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتــاب الحماسـن . فقال : وفى هذا بلاغ ، ثم أمرنى بملازمته فترددت عليه وتدربت بين يديه ثم أمرنى بعد ذلك أن أحــل شــعر الحماســة فحللته من أوله الى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته » (٨٢) .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنــائهم فن الكتــابة فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عدد الكاتب فى هذا العصر فقد رأينا كيف طلب ابن الخــلال من تلميذه الذى عرف بعد ذلك بالقاضى الفاضــل أن ينثر كل الأشــعار التى جمعها ديوان الحماسة تهيئة له فى الدخول فى ســلك الكتاب ، ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفى أن تجعل الانســـان كاتبا بـل كان لابد له من آلات على نحو ما عبر ابن الخلال . وهذه الآلات علوم العربية حتى يتســنى للكاتب أن يســير على نهج الأســاليب العربية فـلا يقع فى لحن نحوى أو لغوى . أو يبتعد الكاتب من ســنن كتاب العربية فى اسلوبهم وتعبيراتهم ، ولم يقنع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب ســليمة صــحيحة بل حرصوا أشــد الحرص على ذلك بأن جعلوا فى ديوان الانشــاء لغويين ونحويين لمراجعة مــا كان يحرره الكتــاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على ســلامة أســاليب الكتابة كان من العوامل التى جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصــة متفقة مع الأســاليب العربية . فــلا غرو أن يقول القاضى الفاضــل : « ان فن الكتــابة فى مصر فى زمن بنى عبيد كان غضــا طريا » . وأن تصــبو نفس كل متعلم الى أن يكون كاتبا من كتاب الدواوين .

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة فى العصر الفاطمى أن وزراء العصر الأول

---

(٨٢) د . محمــد كامل حســين : فى أدب مصر الفــاطمية ص ٣٠٤ نقــلا عن الروضتين ج ١ ص ١٩٢ .

من الحكم الفاطمى كانوا من الكتاب فكانوا يعملون فى الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجرائى والبازدرى والبابلى وبنو المغربى وابن المدبر وابن الأنبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب وقد بلغوا مرتبة الوزارة ، حتى أن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام . وان وزراء الدور الثانى كانوا من أصحاب السيوف .

وليس معنى هذا ان الكتابة ضعفت فى الدور الثانى اذ أن الكتاب أصبحوا فى مكانة لا تقل عن مكانتهم الأولى بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذى كانوا فيه فى الدور الأول ومنهم كان جلساء الامام وحجابه وأصحاب مظلته ومنهم كان القضاة والدعاة وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة . فالكتاب طوال العصر الفاطمى كانت لهم مكانتهم الممتازة والنعم الصحيحة والعطايا الجزيلة فلا غرابة اذا أن يقبل الناس على الكتابة وان تزدهر فى هذا العصر (٨٣) .

أضف الى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمى كان من أشد العوامل على ازدهار الكتابة فان الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعزيمة فى سجل يخرج من الديوان ، فتعيين الوزراء او الكتاب او القضاة او الدعاة او غيرهم من ارباب وظائف الدولة . كان يخرج به سجل خاص مطول فيه الحث على تقوى الله وطاعة الامام والتمسك بأهداب الدين الحنيف ثم الاشارة الى المنصب الذى سيعين فيه الموظف وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل الى غير ذلك من ترغيب فيه ومشورة فى تصريف العمل ، واذا خرج الخليفة لفتح الخليج او لصلاة الجمعة والعيد فيخرج السجل بذلك ، وفى أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا حتى أصبحت هذه السجلات الفاطمية تاريخا للعصر كله وكان الكتاب يفتنون فى أظهار مقدرتهم وكفايتهم فى صياغة هذه السجلات ويتنافسون فى هذا الفن فجاءت هذه السجلات الفاطمية صورا رائعة من صور الكتابة العربية التى تمثل العصر الفاطمى أصدق تمثيل . فمن ذلك تستطيع ان تدرك كيف ازدهرت الكتابة فى العصر الفاطمى وكيف أقبل المتعلمون على أن يلموا بفن الكتابة حتى يصبحوا كتابا فى دواوين الفاطميين وان ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وتقريب ونعم (٨٤) .

---

(٨٣) د . محمد كامل حسين : ادب مصر الفاطمية ص ٣٠٥ .
(٨٤) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٠٦ .

وقد كان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون الشعر فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية فى المسجد الجامع ويقراون ما يعرضه عليهم الدعاة فى مجالس الحكمة وقد يبدلون بعض اجزاء هذه المجالس . فمن خطبة المعز لدين الله فى عيد الأضحى سنة ٣٤١ هـ « الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله والله أكبر الأعز الأقدر الخالق المدبر ذو الكبرياء والجبروت والعزة والملكوت الاحد الصمد الفرد المتفرد .. الخ » (٨٥) .

والذى نلاحظه على خطبة المعز انه قد اتى بالصنعة الفنية فى اسلوب الخطبة فالجمل قصيرة وتكاد الجملة تكون على وزن وطول الجملة التى تليها والسجع ظاهر فيها وينتقل المعز من معنى الى آخر انتقالا طبيعيا لا تكلف فيه (٨٦) .

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردىء . بل تنسب الى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التى تنسب الى المستنصر الفاطمى والتى عرفت « بالرسائل المستنصرية » (٨٧) . والتى قيل أنها الرسائل التى تبودلت بين المستنصر وبين على بن محمد الصليحى صاحب اليمن .

فمؤرخو الاسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من انشاء المستنصر نفسه ، ويذهب الدكتور محمد كامل حسين الى أن هذه الرسائل فى أسلوبها أقرب الى اسلوب المؤيد فى الدين داعى الدعاة . وكذلك نقول عن « رسالة الهداية للآمر » (٨٨) التى ينسبها الاسماعيلية الى الامام الآمر بأحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيض ناشر هذه الرسالة فى نسبتها الى الامام الآمر ، ورجح أن تكون من انشاء أحد الكتاب الذين كانوا فى عصر الآمر (٨٩) .

---

(٨٥) د. محمد كامل حسين فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٠٦ .
(٨٦) المرجع السابق ص ٣٠٩ .
(٨٧) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٠ نقلا عن المجموعة الخطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .
(٨٨) الرسالة الموسمية بالهداية الآمرية فى ابطال دعوى النزارية تحقيق آصف فيض .
(٨٩) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٠ .

ومهما يكن من شيء فان الكتابة فى العصر الفاطمى قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية فى ذلك العصر ، ولشدة اقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التى كثرت وتعددت الوانها وفنونها . وتطور الكتابة يتبع دائما الحياة العلمية فاذا ارتقت العلوم تبعها رقي فى الكتابة واذا انحطت العلوم انحطت الكتابة .

اما عن ديوان الانشاء وكتابه فان تأسيسه يعود فى مصر الى ايام أو عهد احمد بن طولون وان اول من ولى هذا الديوان احمد بن محمد بن مودود المعروف ابن عبدكان الكاتب وقد استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون فى دواوين الطولونيين والاخشيديين فازدهرت الكتابة فى مصر على ايديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة فى مصر (٩٠) . حتى ان القلقشندى روى ان أهل بغداد كانوا يحسدون اهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان الكاتب ويقولون : بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (٩١) .

وكثر عدد الكتاب فى مصر فى عهد الطولونيين والاخشيديين أمثال الحسن ابن رافع ويعقوب بن اسحاق واحمد بن ايمن والحسين بن مهاجر وعلى بن أحمد المادرائى وابن الداية واسحاق بن نصير العبادى وابراهيم بن عبد الله النجيرمى ومحمد بن كلا والرنديارى ، وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فنا يتكسبون به ومؤهلا لتعيين الكتاب فى خدمة الأمراء وأصحاب الشأن فى البلاد ، فكثر تنافس الكتاب فى تجويد الكتابة واتقان الصناعة حتى علا منارها وعظم شأنها (٩٢) .

ولكن حينما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم بديوان الانشاء ووجهوا اليه المزيد من اهتمامهم واتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم ، ونشر ذكرهم فى الآفاق ، ذلك أن كتابه يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وغيرها فينمون فى قلوب الشعب اجلالهم وتقديسهم كما ينشرون اسمهم محاطا بهالة من التعظيم فى انحاء العالم (٩٣) .

---

(٩٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٠٢ — نقلا عن أدب مصر الاسلامية .
(٩١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧ .
(٩٢) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٣٠٢ .
(٩٣) د. احمد بدوى : الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٣٣٢ .

كما ارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الانشاء منهم جماعة من افاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى (٩٤) .

وهكذا وصف القلقشندى كتاب الانشاء فى العصر الفاطمى وما بلغه هذا الديوان على أيدى الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ولا غرو فى ذلك اذ كان منصب ديوان الانشاء لا يتولاه فى الدولة الفاطمية الا اجل كتاب البلاغة (٩٥) .

ولمكانته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الدستور الشريف (٩٦). كما كان الخليفة يستشيره فى أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه (٩٧) ، وربما بات عند الخليفة ليالى وكان جاريه مائة وخمسين دينارا فى الشهر وهو اول ارباب الاقطاعات وارباب الكسوة والرسوم والملاطفات ولا سبيل أن يدخل ديوانه بالقصر احد ، ولا يجتمع بكتابه احد الا الخواص — وله حاجب من الأمراء والشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والدواة وهى من اخص الدوى ويحملها استاذ من استاذى الخليفة (٩٨) .

وقال صاحب صبح الأعشى (القلقشندى) : ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك فى كل زمن ، مقدما لديهم على من عداه ، يلقون اليه اسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه اخص الأخصاء من امور الوزراء والأهل والولد (٩٩) .

وكان ديوان الانشاء يومئذ راس الدولة المفكر ، ووسيلة اتصال الحكومة بفروعها فى داخل البلاد وبغيرها من الحكومات فى خارج حدودها . وقد استطاع النثر ان يفى بحاجة الأمة ، وأن يعبر عن مشاعرها وأحاسيسها (١٠٠) .

وقد ادرك القلقشندى قيمة ما يسجله ديوان الانشاء فقال : انه لو جمعت

---

(٩٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .
(٩٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٢ .
(٩٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٤ .
(٩٧) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٩٨) د. أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٣٣ .
(٩٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠١ .
(١٠٠) د. احمد بدوى : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٣٣٤ .

بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل (١٠١) .

والى جانب هذا العمل الضخم كان ديوان الانشاء يتخذ كمعهد علمى بتخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه فيلتحق به من يتثقف ثقافة معينة على مواصلة السير حتى يتخرج فى الكتابة .

وقد تولى الكتابة فى ديوان الانشاء فى عصر الدولة الفاطمية على بن أبى أسامة الحلبى المتوفى سنة ٥٢٢ هـ وتاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان المعروف بابن الصيرفى والقاضى محمود بن اسعد بن قادوس والقاضى الموفق ابن الخلال والقاضى الفاضل الذى رأس ديوان الانشاء وضم اليه الوزارة فى عهد صلاح الدين الأيوبى (١٠٢) .

وقد تحدث ابن منجب الصيرفى — أحد كتابهم — عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الانشاء نذكر اهمها :

١ — أن يكون ذا دين وورع وامانة .

٢ — أن يكون دينه الاسلام .

٣ — أن يكون على مذهب الملك .

٤ — أن يكون من البلاغة والفصاحة على أعلى رتبة وأسنى منزلة وحيث لا يوجد أحد فى عصره يفوقه فى هذا الفن .

٥ — أن يكون مضطلعا بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .

٦ — أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى ، وحافظا للأشعار راويا لكثير منها .

٧ — أن يكون أصيلا فى قومه ، رفيعا فى حسبه (١٠٣) .

هذه هى أهم الصفات التى رأى ابن منجب أن يكون عليها ديوان الانشاء ، لكن لما كان لهذا الديوان أهمية فى هذا العصر ألفت كتب تتحدث عن نظمه وما يجب أن يتوفر فى رجاله وتقدم بعض ما يعينهم فى أعمالهم ومن هذه الكتب قانون ديوان الرسائل لأبى القاسم الصيرفى أحد رؤساء الكتاب فى عهد الدولة الفاطمية والمتوفى سنة ٥٤٢ هـ وقد ألفه ليكون دستورا يختار بمقتضاه

---

(١٠١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٥ .
(١٠٢) د. أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٣٤ .
(١٠٣) ابن منجب الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ص ٩٤ وما بعدها .

من يعمل فى ديوان الرسائل رئيسا كان أو مرءوسا وقدمه الى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش أحد كبار وزراء هذا العصر ويبدو فى فاتحته اثر المذهب الشيعى واضحا ففيها صلاة على أخى محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفيه وهو على بن أبى طالب (١٠٤) .

وقد أضيف الى الصفات الواجب توافرها فى رئيس ديوان الانشاء أن يكون صبيح الوجه طلق اللسان وقورا ، حسن اللقاء ، شديد الذكاء ، سريع الرضا ، بطىء الغضب ، ويكون من كتمان السر بالمنزلة التى لا يدانيه فيها أحد حتى يقرر فى نفسه أمانة كل حديث يعلمه، وتناسى كل خبر يسمعه (١٠٥) .

فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستورا لهم فى اختيار رؤساء هذا الديوان ؟؟

انه من الملاحظ أن نشير الى أن الفاطميين لم يابهوا بهذه الشروط والصفات التى اقترحها أحد كتابهم فى كتاب قدمه لوزير من وزرائهم ، ولكن ابن منجب كان من كتاب القرن السادس الهجرة فى وقت بدا فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم . ولا سيما قوة الصليبيين فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الاسلام دين رئيس الديوان « وخاصة بحكم الوقت الحاضر الا يطالع على أسراره من يخالف شريعة الاسلام لقرب دار العدو خذله الله وأباده » (١٠٦) .

فان وجود الصليبيين فى بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر الى أن يشترط أن يكون رئيس ديوان الانشاء مسلما . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ قامت دولة الفواطم فى مصر ، فقد كان يتولى ديوان الانشاء بعض أهل الذمة ، كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا الديوان من أهل الذمة (١٠٧) مثل أبى المنصور بن نسطورس النصرانى

---

(١٠٤) د. أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(١٠٥) المرجع نفسه .

(١٠٦) ابن منجب الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ص ٩٥ .

(١٠٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٢ .

كاتب العزيز والرئيس فهد كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبى الدم اليهودى فى عهد الحافظ .

معنى هذا أن الفاطميين لم يابهوا بمذهب الكاتب او دينه ، بل لا اغالى اذا ذهبت الى أن الفاطميين كانوا كثيرا ما يستعينون بالذميين فى دولتهم وهذه ظاهرة سجلها المؤرخون فى كتبهم عن الدولة الفاطمية ولكن ليس معنى ذلك أن الفاطميين ابعدوا المسلمين عن الدواوين فان الكثرة الساحقة من كتاب الدواوين كانوا من المسلمين (١٠٨) فقد جاء فى هذا الكتاب : « فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطورس النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى ايامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر النهركى ثم كتب لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله الى الوزارة ، وابو سعيد العميدى ، وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل ابو الحسن على بن أبى اسامة الحلبى الى أن توفى سنة ٥٢٢ هـ — فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم الى ان توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة ابو القاسم على بن سليمان بن منجب الصيرفى ، والقاضى كافى القضاة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وأبو الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى اسامة المتقدم ذكره ، ذكره القاضى الموفق ابن الخلال ايام الحافظ الى آخر أيام العاضد . وبه تخرج القاضى الفاضل البيسانى ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الانشاء القاضى جلال الملك محمود الأنصارى ، ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ٥٦٦ هـ فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين وكتب من انشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم » (١٠٩) .

ولكن هذه الأسماء التى جاءت فى صبح الأعشى ليست عرضا لرؤساء ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى كله بل ان ما أوردته كتب التراجم والمراجع العامة يختلف بعض الاختلاف عما ورد فى صبح الأعشى ، اذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين ابن جوهر القائد كان يلى ديوان الانشاء فى عهد العزيز (١١٠) ، وانه ظل فى منصبه

---

(١٠٨) المرجع نفسه .
(١٠٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٩٦ .
(١١٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٢ .

الى أيام الحاكم ثم استبدل به صالح بن على الروزيارى ثم جاء بعده الكافى ابن عبدون النصرانى ثم صرف وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى الملقب بالشافى ، وبعده حسين بن طاهر الوزان (١١١) .

ويشير ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك بن سعيد الفاروقى كان له النظر أيضا فى المكاتبات فى عصر الحاكم (١١٢) . وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (١١٣) . ويذكر المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى سيرته أنه ولى ديوان الانشاء بمصر سنة ٤٤٣ (١١٤) . ويذهب المقريزى الى ان الوزير ابن المغربى ولى ديوان الانشاء بعد ان صرف عن الوزارة . وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدى الحسنى كان على رأس ديوان الانشاء فى عهد الآمر (١١٥) .

وهكذا نستطيع أن نعرف عددا آخر من الكتاب الذين (١١٦) ولوا ديوان الانشاء غير الذين ذكرهم القلقشندى، كما نستطيع أن نستخرج اسماء عددكبير من الكتاب الذين كانوا يعملون فى ديوان الانشاء ولكننا لانستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية فى الكتابة لأن آثارهم فقدت ولم يبق لنا الا عدة رسائل وسجلات لا تكفى لأن تكون رأيا صحيحا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب . ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر بحيث نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل الينا شيء من كتاباتهم (١١٧) . بل انه بمكننا أن نشير الى خصائص النثر عند كتاب العصر الفاطمى . من هذه الخصائص : أن أول خصلة من هذه الخصال هى أن الكتاب جميعا التزموا السجع فى كتاباتهم ، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية الى أن قوض صلاح الدين أركانها ، نراها فى رسالة المعز لدين الله الى القرمطى (١١٨) ، وفى رسالة العزيز بالله الى عضد الدولة

---

(١١١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠ وما بعدها .
(١١٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٠٦ .
(١١٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٨ .
(١١٤) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٥٧ .
(١١٥) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٧٨ .
(١١٦) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٣ .
(١١٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٤ .
(١١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢١٥ .

البويهى وهذه الرسالة كانت من انشاء يعقوب بن كلس (١١٩) وفى السجلات الكثيرة التى كتبت فى عهد الحاكم ، (١٢٠) وفى رسائل المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وفى كتابات ابن خيران ، ونستمر فى ادراك هذه الخاصية عند الكتاب حتى نراها فى رسائل ابن الصيرفى وابن الشخباء ، ثم فى رسائل القاضى الفاضل وخاصية أخرى نراها فى فن هؤلاء الكتاب هى الاقتباس من القرآن الكريم فكانوا أحيانا يضمنون رسائلهم وسجلانهم بعض الآيات من القرآن الكريم أو يقتبسون بعض معانى القرآن متاثرين بهذا كله تأثيرا واضحا فى جميع ما خلفوا من كتابات . وخاصية ثالثة هى المبالغة فى استخدام الزينة اللفظية والمعنوية فى كتاباتهم فهم يغرقون فى المبالغة حين يحاولون تشخيص المعانى ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون فى تركيب جملهم بمراعاة النظير ، فاذا بك تجد كتاباتهم عبارة عن جمل قصيرة فى الغالب والجملة تتبع الأخرى فى وزنها وموسيقاها ومعناها وينتقل بك الكاتب من معنى الى آخر فى رقة وعذوبة فلا ينتقل بك انتقالا فجائيا مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته ، كما يدل أيضا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوى جميع الكتاب .

على أن هذه الخصال التى عرفت فى العصر الفاطمى عرفت أيضا فى رسائل ابن عبدكان ، فلا غرابة اذا قلنا ان أثر ابن عبدكان فى كتاب مصر كان قويا شديدا وأن فنه الذى عرف به فى العصر الطولونى قد ظهر واضحا فى العصر الفاطمى وان كان كتاب الفاطميين قد بالغوا فى ذلك كله مبالغتهم فى كل شىء فى حياتهم . كما أن هذه الخصال نفسها هى التى عرفت بها كتابات القاضى الفاضل ، وما القاضى الفاضل الا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين ان للقاضى مدرسة خاصة يتميز بها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ويستندون فى ذلك الى آراء القدماء من المؤرخين (١٢١) .

وخاصية أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين ونجدها ظاهرة فى سجلاتهم تلك هى المقدمات التى كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمى الى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى والأئمة من آهل البيت ، ويتعمدون

---

(١١٩) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٤ .
(١٢٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣ .
(١٢١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٥ .

دائما أن يذكروا أن محمد أحد الأئمة ، فكأنهم كانوا يحاولون انبات نسبهم فى كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه أو كأنه رد على سجلات العباسيين فى دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر الى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هى التى تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التى لم تخضع لحكم الفاطميين ، ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه الظاهرة متبعة فى رسائل أتباع مذهب الفاطميين الى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد لله والصلاة على النبى والأئمة ، كانوا يختمون هذه الكتابات والسجلات ، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتابهم . ولعل هذه الخاصية تظهر فى سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها فى رسائلهم والسبب فى ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب الى البلاغات فى أى دولة من الدول ، ففى هذه السجلات التى كانت تصدر عن ديوان الانشاء تسجل خطوات الامام الفاطمى (١٢٢) ، فاذا خرج الصلاة صدر بذلك سجل من الديوان — واذا خرج الامام الى فتح الخليج صدر السجل واذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل ، وهكذا ففى كل هذه السجلات تظهر هذه الخاصية .

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثيرا يظهر فى السجلات التى تصدر فى الأعياد والمواسم أو فى تولية امام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاه ففى مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلا يتفق مع مذهبهم الفاطمى ويذكرون فى كتاباتهم رأى الفاطميين فى كل مناسبة وفى كل عيد . فالسجلات التى صدرت فى عهد العزيز كانت تنصب على ولاية على بن أبى طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده . وسجل مأتم عاشوراء كان فى الحسين بن على وما لاقاه اهل البيت من أهوال — وسجل رؤية رمضان فى ذكر عقيده الفاطميين فى هلال رمضان .

وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التى لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب (١٢٣) .

(١٢٢) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٦ .
(١٢٣) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٦ .

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية هى ما كتبه القائد جوهر الصقلى فاتح مصر ، وتلك هى الأمان الذى قطعه على نفسه وعلى أمامه للمصريين — وان كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التى دبجتها براعة هذا القائد . فقد كان جوهر كاتبا للمعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب (١٢٤) .

ويحدثنا المقريزى أن القائد جوهر كان كاتبا بليغا ، ومن مستحسن توقيعاته فى رقعة رفعت اليه بمصر : « سوء الاحترام أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الايجاب ، واللازم لكم ملازمة الاحتساب لانكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم ، فابتداؤكم ملوم وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة الا تقضى الذم لكم والاعراض عنكم ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم » (١٢٥) .

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهرا كان على مقدرة وكفاية فى فن الكتابة كما كان على مقدرة وكفاية فى فنون الحرب فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه المعانى المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذى ساد العصر الفاطمى . بل كاد يسود العالم الاسلامى ، فالزينة اللفظية فى هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعا (١٢٦) .

وقد وجدت طوائف من الكتاب الممتازين استخدمهم الفاطميون فى دواوينهم وعنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الانشاء (١٢٧) .

ثالثا — علوم اللغة والنحو :

كان هناك دراسات عربية فى علوم اللغة والنحو ، ورواية للأدب القديم وشرحه ونقده ، وكانت هذه العلوم تسير جنبا الى جنب مع غيرها من الدراسات التى اقبل عليها العلماء والمتعلمون فى مصر ، وكان هؤلاء العلماء كعبة يفد اليها طلاب العلم من البلدان الاسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

---

(١٢٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٦ نقلا سيرة الأستاذ جؤذر (مخطوط) .
(١٢٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ .
(١٢٦) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣١٧ .
(١٢٧) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٥٦ — د . شوقى ضيف .

ولم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر ، بل ان هذه العلوم وجدت فى مصر منذ بدأ المسلمون فى مصر يقرؤون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ويهتمون باعجامه على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلى وعبد الله بن اسحق . حتى اذا دون علم النحو وظهر كتاب سيبويه ونحاة الكوفة والبصرة ، اقبل المصريون علي الأخذ عنهم ، واطرد هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس .

وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر فى العصر الفاطمى والعصور التى تلته — وكثر العلماء الذين انقطعوا الى هذا العلم وعرفوا به وقد كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات ويحبسون المرتبات للعلماء ، بل حرصوا على اقتناء الكتب اللغوية والنحوية وجعلوها مع غيرها من الكتب بين يدى العلماء والمتعلمين .

فلا غرو أن راينا عددا كبيرا ينبغون فى هذه العلوم ويصنفون كتبا كثيرة فى هذه الفنون ، ويكفى أن نلقى نظرة على كتب التراجم لندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات وكيف تضاعف عدد الكتب التى ألفت فيها .

كذلك فعل علماء النحو واللغة . فقد قيل أن جنادة الهروى والحافظ عبد الغنى ابن سعيد وأبا اسحاق على بن سليمان المعرى النحوى كانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة (١٢٨) وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات (١٢٩) .

وبلغ من اهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو انهم جعلوا فى ديوان الانشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل حتى لا يظهر فى كتابات الكتاب لحن فى اللغة أو خطأ فى النحو .

وممن نبغ فى اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمى فى مصر بقليل ابو جعفر احمد ابن محمد النحاس النحوى ، وابو اسحاق الزجاج ، وابن الأنبارى ونفطويه ومشهورو أدباء العراق فكان من علماء عصره ممن نبغ فى التفسير واللغة والنحو والأدب والشعر فمن كتبه : كتاب اعراب القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، كتاب

---

(١٢٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٩ — ٩٠ .
(٢٩) السيوطي : بغية الوعاة ص ٢٦٣ .

التفاحة فى النحو ، وكتاب الكافى فى النحو أيضا ، وكتاب أدب الكاتب ، وكتاب الاشتقاق ، وتفسير أبيات سيبويه ، وكتاب طبقات الشعراء (١٣٠) .

وعلى الرغم مما أخذ عليه من الشح والتحامل على زملائه من علماء عصره تهافت الناس على درسه وأخذ العلم عليه كثير من الناس وأفادوا من علمه وسعة اطلاعه وقد توفى سنة ٣٣٨ (١٣١) .

وكانت الحركة النحوية واللغوية تسير فى مصر بخطى حثيثة وكان من أشهر نحاة العصرين الطولونى والاخشيدى عدا بنى ولاد وابى جعفر النحاس والدينورى : يموت بن المزرع ، وأحمد بن اسحاق الحميرى وعلى بن الحسن الهنائى وأحمد بن محمد بن الوليد وأخوه عبد الله بن محمد بن الوليد وغيرهم (١٣٢).

وجدير بالذكر أنه فى سنة ٣٥٨ هـ استولى الفاطميون على مصر وبنوا بها الجامع الأزهر فكان هذا الجامع العظيم من جهة ، ودار العلم وخزانة الكتب من جهة ثانية ، وقصور الخلفاء والوزراء من جهة ثالثة ، بمثابة معاهد جديدة للدراسات الفاطمية الكبيرة ومنها النحو واللغة والدين (١٣٣) . كما كان جامع ابن طولون بمثابة معهد جديد للدراسات الدينية والنحوية الى جانب المعهد الأول لدراسة هذه العلوم فى مصر وهو جامع عمرو . وبهذا الاهتمام بالعلوم العربية وغيرها أصبحت القاهرة المعزية من أعظم المدن الاسلامية بحيث أخذت تنافس بغداد وقرطبة .

وصادف هذا كله ضعف العباسيين وتخاذل الأمويين بالأندلس من ناحية ثانية ، فأخذ العلماء والأدباء يتحولون عن قرطبة وبغداد . ويفدون جماعات الى مصر وهناك التقوا بمن كان بها من العلماء فى الأصل وأحدث الجميع نهضة علمية وأدبية كبرى (١٣٤) . وكان من أشهر علماء العصر الفاطمى فى النحو واللغة أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز القيروانى (١٣٥) النحوى وفد على مصر وعاصر ابن كلس وخدم العزيز بالله وقد وصف أحد العلماء عمل

---

(١٣٠) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ .
(١٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٢ — ٨٣ .
(١٣٢) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢١٦ .
(١٣٣) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢١٦ .
(١٣٤) المرجع السابق ص ٢١٧ .
(١٣٥) السيوطى : بغية الوعاة ص ٢٩ .

القزاز بقوله : « ان القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين » (١٣٦) . وقد كان أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى لغويا نحويا وقد اتصل بالعزيز الخليفة الفاطمى الذى طلب اليه أن يؤلف كتابا « يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويين أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى وأن يقصد فى تأليفه الى الحرف الذى جاء لمعنى وان يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم » (١٣٧) وقد وقع هذا الكتاب فى ألف ورقة ، ومن كتب القيروان كتاب التعريض (١٣٨) ، وهو لون جديد لم يسبق اليه أحد من النحاة . وكان القيروان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض الا فى علم دين أو دنيا . يملك لسانه ملكا شديدا (١٣٩) . ولأبى عبد الله القزاز كتاب الجامع فى اللغة وهو من الكتب المختارة المشهورة وتوفى سنة ٤١٢ هـ بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شهدتهم مصر فى العصر الفاطمى : على بن أحمد المهلبى وكان اماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقربين اليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقربا الى كافور الاخشيدى وممن عاصر المتنبى فى مصر ، وكانت بينه وبين المتنبى بعض محاورات علمية ، يروى ياقوت أن المهلبى قال : وقع بينى وبين المتنبى فى قول العدوانى :

يا عمرو الا تدع شتمى ومنقصتى   اضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وذلك أن المتنبى قال : انهم يغلطون فى هذا البيت والصواب اسقونى من شقات الرأس بالمشقاة وهو المشط . فقلت له : أخطأت فى وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك والآخر أنه يقال شقأت بالهمزة وأيضا فانى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول فى الهامة ، انها اذا لم يثأر بصاحبها لا تزال تقول : اسقونى فاذا ثاروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم (١٤٠) وللمهلبى كتاب فى الرد على على كتاب المقصور والممدوح لابن ولاد المصرى (١٤١) ، وقيل ان المهلبى اخذ مادة

(١٣٦) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٠ — ١١١ .

(١٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٩ .

(١٣٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ .

(١٣٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١٤ .

(١٤٠) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٢٢٤ .

(١٤١) د . محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٦٩ — وما بعدها .

هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها الى نفسه ، وروى كثير من المصريين عن المهلبى، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى وابنه بهزاد وعبد الرحمن بن اسماعيل العروضى نزيل مصر وغيرهم وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ (١٤٢) .

وممن اشتهر بالنحو فى العصر الفاطمى أبو طاهر النحوى فكان يتولى ديوان الشام فى عهد الخليفة الحاكم وقد وجه أبو طاهر نظر هذا الخليفة الى ما كان يعانيه المسلمون من محاباة ابن ابراهيم النصرانى الذى اتخذه الحاكم وزيرا له مما ادى الى قتله . ولكن يظهر أن الخليفة قد ندم على قتله بدليل قتل أبى طاهر بعد ذلك بقليل (١٤٣) .

وكان أبو الفضل جعفر لغويا نحويا وند على الخليفة الحاكم فأعجب به وخلع عليه واقطعه اقطاعا ولقبه « عالم العلماء » وجعله يجلس فى دار العلم يقوم بتدريس اللغة والنحو وكان الحاكم يرجع اليه فى كثير من أمور الدولة (١٤٤) .

كما برز فى هذا العصر أبو أسامة جنادة بن محمد اللغوى الأزدى الهروى الذى اشتهر فى النحو واللغة ولد سنة ٣٧٢ هـ ثم قدم الى مصر فأصبح عظيم القدر شائع الذكر أخذ عنه أبو منصور وروى عن أبى أحمد العسكرى (١٤٥) وكان الهروى مكثرا من حفظ اللغة ونقلها عارفا بوحشيها ومستعملها . لم يكن فى زمانه مثله فى فنه . وكان بينه وبين الحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى وأبى الحسن على بن سليمان المقرىء النحوى الأنطاكى مؤانسة واتحاد كثير وكانوا يجتمعون فى دار العلم وتجرى بينهم مذاكرات ومفاوضات فى الآداب ولم يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم صاحب مصر أبا أسامة جنادة وأبا الحسن المقرىء الأنطاكى المذكورين فى يوم واحد وهو فى ذى القعدة سنة ٣٩٩ هـ واستتر بسبب قتلهما الحافظ وعبد الغنى المذكور خوفا على نفسيهما من مثل ذلك ، حكاه الأمير المختار المعروف بالمسبحى فى تاريخه (١٤٦) . كما كان الهروى مؤذنا بمصر وتوفى بها سنة ٤٣٣ هـ (١٤٧) .

---

(١٤٢) السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٢٨ — انباء الرواة جـ ٤ ص ٤٢٤ .
(١٤٣) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .
(١٤٤) المصدر السابق ص ٤٣٨ — ٣١١ .
(١٤٥) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٩ .
(١٤٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(١٤٧) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ٦ ص ١٦١ .

ومن علماء اللغة والنحو فى العصر الفاطمى أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى ولد بمصر سنة ٣٤٥ هـ وتوفى بها سنة ٤٢٣ هـ وذلك فى عهد الخليفة الظاهر . والنجيرمى أخذ عنه أبو الحسين المهلبى وجنادة اللغوى الهروى وكثير من أهل العلم وكان مقامه بمصر ، والنجيرمى نسبة الى نجيرم ويقال نجارم وهى محلة بالبصرة ، ونسب بعضهم نجيرم قرية كبيرة على ساحل بحر فارس (١٤٨) وكان من أهل البصرة وقد نشأ فى بيت اشتهر بالعلم والادب وكان النجيرمى من أمثل أهل بيته وعن طريقه روى فى مصر أكثر الكتب القديمة فى اللغة والشعر وأيام العرب وكان راوية يعتد به فى تلك الفترة حتى أخذ أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ اللغة عن أصحاب النجيرمى (١٤٩) .

ومن علماء هذا العصر أبو الحسن على بن ابراهيم الحوفى المصرى النحوى وكان من أهل الحوف (١٥٠) . أخذ عنه خلق كثير من المصريين كان عالما بالعربية وتفسير القرآن وله تفسير جيد ويذكر أنه من قرية يقال لها شبرا النخلة من اعمال الشرقية . وأنه دخل مصر وقرأ على ابى بكر الأدفوى . ولقى جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم وتصدر لافادة العربية . وصنف فى النحو مصنفا كبيرا ومصنفا فى اعراب القرآن فى عشر مجلدات ، وله تصانيف كثيرة يشتغل بها الناس(١٥١) كما كان الحوفى من أئمة اللغة والأدب فى عصره واشتغل حينا بالتدريس فى مصر والقاهرة (١٥٢) . وقد أخذ عنه العلم كثير من الطلاب وتوفى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٣٠ هـ (١٥٣) .

كما يعتبر الحوفى من أنبه تلاميذ الادفوى وقد قرأ عليه وأخذ منه وأكثر وتصدر لاقراء النحو وصنف فيه مصنفا كبيرا استوفى فيه العلل والأصول وصنف أصغر منه استفاد بها المصريون . حتى كان علماء موطنه يتنافسون فى تحصيله . وكان

---

(١٤٨) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(١٤٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٧٣ — ٧٥ .
(١٥٠) نسبة الى الحوف . وذكر ياقوت أنه ولد بشبرا النخلة من اعمال الشرقية بمصر .
(١٥١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢ .
(١٥٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ص ٥٣٢ — ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢ .
(١٥٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٦ .

يعاصر الذاكر (١٥٤) . النحوى المصرى تلميذ ابن جنى وكان يتصدر بمصر لاقراء العربية وله تعليقات قصيرة فى النحو وهى اشارة واضحة الى أن كتب ابن ضبى عرفت على الأقل منذ عصره بمصر (١٥٥) .

وهناك عالم آخر غطت شهرته على هؤلاء جميعا وهو ابن بابشاذ وهو من أشهر علماء مصر فى ذلك العصر وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد بن ادريس المصرى بابشاذ ، الذى عد امام عصره فى النحو (١٥٦) .

ويلقانا فى عصر المستنصر نحوى كبير هو ابن بابشاذ وقد رحل الى بغداد وأخذ عن نحاتها وعلمائها وبذلك اتصل مباشرة بنحو البغداديين وعاد الى موطنه فتصدر للاقراء بجامع عمرو بن العاص مع اشرافه على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الانشاء الفاطمى الى الأطراف (١٥٧) . ويقال أن أصله من الديلم لكننا نرجح انه مصرى الجنسية يدل على مصريته اسمه وهو بابشاذ ومعناه (السرور) باللغة القبطية (١٥٨) . وقد كان ابن بابشاذ رجلا رحالة يشتغل بتجارة اللؤلؤ ثم عهد اليه كما اسلفنا بمراجعة الرسائل الديوانية وتصحيحها من الوجهتين اللغوية والنحوية . ثم ختم حياته بما تختم به حياة الكثير من العلماء فكان فى آخر حياته زاهدا متقشفا . منصرفا عن الدنيا ولقد اشتهر ابن بابشاذ قارئا أكثر منه نحويا ، وله كتاب فى القراءات ومن مصنفات ابن بابشاذ المفيدة منها : المقدمة المشهورة وشرحها ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج وغير ذلك ، وجمع فى حال انقطاعه شكة كبيرة فى النحو يقال انها لو بيضت قاربت خمس عشرة مجلدة وسماها النجاة بعده الذين وصلت اليهم « تعليق الغرفة » وانتقلت هذه التعليقة الى تلميذه أبى عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى المتصدر موضعه ثم انتقلت الى ابن برى (١٥٩) النحوى ، وهكذا من بعده الى أبى الحسين اللغوى المنبوز بثلط الفيل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها

---

(١٥٤) د . شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .
(١٥٥) المرجع السابق ص ٣٣٦ .
(١٥٦) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩١ .
(١٥٧) د . شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ٣٣٣ — ٣٣٦ .
(١٥٨) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(١٥٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ .

الى أخص تلاميذه يعهد اليه بحفظها . ولقد اجتهد جماعة من الطلاب فى نسخها فلم يتمكنوا من ذلك (١٦٠) .

حقا لقد انتفع الناس بعلم ابن بابشاذ وبتصانيفه وقد عزف عن الدنيا فى اخريات حياته واستقال من عمله بديوان الانشاء وانقطع فى غرفة بجامع عمرو ، فخرج ليلة من الغرفة الى سطح الجامع فزلت قدمه فسقط واصبح ميتا فى اليوم الثالث من رجب سنة ٤٩٦ هـ (١٦١) ويروى ابن خلكان أن الخطيب التبريزى دخل مصر فى عنفوان شبابه وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحو وغيره من علوم اللغة ثم عاد الى بغداد (١٦٢) .

وممن اشتهر أبو محمد عبد الله بن ابى الوحشى بن برى المقدسى الأصل فى اللغة والنحو والرواية وكان كما وصفه ابن خلكان « علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » .

وقد اخذ علم اللغة عن ابى بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني النحوى وابو طالب المعافرى القرطبى . واخذ عن فريق من العلماء كابى موسى الجزدلى صاحب المقدمة فى النحو . وكان لا يصدر بديوان الانشاء كتاب الى ملك من الملوك الا بعد أن يتصفحه ابن برى ويصلح ما قد يجده فيه من خطأ وتوفى ابن برى بمصر سنة ٥٨٢ هـ (١٦٣) . أما مولده فكان فى رجب سنة ٤٩٩ هـ . كان ابن برى قيما بالنحو قيما باللغة وشواهدها (١٦٤) . واكبر نحاة مصر لأواخر العصر الفاطمى . وقد كان ابن برى مصرى المولد والمنشأ مقدسى الأصل ، وقد لحق الدولة الأيوبية وامتدت حياته حتى سنة ٥٨٢ هـ وهو تلميذ ابن بركات من المصريين (١٦٥) .

قرأ كتاب سيبويه على محمد بن عبدالملك الشنتريني وتصدر للاقراء بجامع

---

(١٦٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩١ .

(١٦١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٥ — بغية الوعاة — السيوطى : ص ٢٧٢ .

(١٦٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٣ .

(١٦٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٤٧٦ — نقلا عن ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٢ .

(١٦٤) د. شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ٣٣٨ .

(١٦٥) المرجع نفسه .

عمرو بن العاص وكان مع علمه وغزارة فهمه ذا غفلة (١٦٦) .

كان ابن برى شديد العناية بالنحو واللغة والشواهد حتى لقب « بأبى النحاة » (١٦٧) . وكانت عنايته موجهة الى اللغة وتصحيح أغلاط اللغويين . فوضع حاشيتين على الصحاح للجوهرى ، استدرك فيها كثيرا مما فات الجوهرى من صحيح اللغة وصوب كثيرا مما وقع فيه من الأوهام والأغلاط وكانت هاتان الحاشيتان أحد المنابع الستة التى اعتمد عليها ابن منظور فى تأليف معجمه المعروف « بلسان العرب » (١٦٨) .

وكانت فى مصر ايضا حركة فى النحو من اشهر رجالها ابو بكر الأدفوى تلميذ ابى جعفر النحاس وقد برع فى علوم القرآن والنحو له كتاب « علوم القرآن » فى مائة وعشرين مجلدا مات سنة ٣٨٨ هـ (١٦٩) .

وابو بكر الأدفوى هو محمد بن على بن احمد الامام أبو بكر الأدفوى المصرى المقرىء النحوى المفسر ، صحب ابا جعفر النحاس ولازمه وسمع الحديث من سعيد بن السكن وغيره . وكان سيد أهل عصره بمصر أخذ عنه جماعة . قال الذهبى : « منه نسخة بمصر ملكها القاضى الفاضل عبد الرحيم » (١٧٠) .

كما برز من الأسماء اللامعة فى النحو أبو عبد الله محمد بن بركات بن هلال ابن عبد الواحد السعدى المصرى النحوى شيخ مصر فى عصره فى اللغة عاش مائة سنة وثلاثة اشهر له من المصنفات « الايجاز فى الناسخ والمنسوخ » الفه للأفضل بن أمير الجيوش وكتاب « خطط مصر » (١٧١) . وكتابه الايجاز فى معرفة ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ الذى الفه للأفضل كان موسوعة فى علوم اللغة ، وله تصانيف فى النحو حتى قيل انه بحر العلوم (١٧٢) .

واحد فضلاء المصريين وأعيانهم المبرزين أخذ النحو والأدب عن أبى الحسن

---

(١٦٦) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٥٦ .
(١٦٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٩٤ .
(١٦٨) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢١٨ .
(١٦٩) د. أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٠٥ .
(١٧٠) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ١٩١ .
(١٧١) خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ٦ ص ٢٧٦ .
(١٧٢) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٥ .

ابن بابشـــاذ فأتقنه وله أيضا معرفة حســـنة بالأخبـــار والأشـــعار ، وكان يقول الشـــعر فيجيد ولد أبو عبد الله بن بركات ســـنة ٤٢٠ هـ ومات فى ربيع الآخـــر ســـنة ٥٢٠ هـ (١٧٣) .

ومن لهم اثر من علماء النحو واللغة محمد بن أحمد بن محمد أبو ســـعد العميدى اديب نحوى لغوى مصـــنف . ســـكن مصر قال أبو اســـحاق الحبـــال : أبو سعد العميدى له أدبيات مات يوم الجمعة لخمس خلون من جمادى الآخـــرة سنة ٤٣٣ هـ وكان العميدى يتولى ديوان الترتيب وعـــزل منه كما ذكر الروذبارى فى ايام الظاهر وولايه ابن معشر ثم تولى ديوان الانشاء فى مصر أيام المســـتنصر استخدم عوضا من ولى الدولة ابن خيران الكاتب فى سنة ٤٣٢ هـ وللعميدى عدة تصانيف فى الأدب منهـــا : كتاب تنقيح البلاغة فى عشر مجلدات ، وكتاب الارشاد الى حل المنظوم ، والهداية الى نظم المنثور ، وكتـــاب انتزاعات القرآن ، وكتـــاب العروض ، وكتاب التواقى ، كبير . قال على بن مشرف : أنشـــدنا أبو الحســـين محمد بن محمود بن الدليل الصواف بمصر قال انشدنا أبو ســـعد محمد بن أحمد العميدى لنفســـه :

اذا ما ضاق صدرى لم أجد لى ... مقـــر عبـــادة الا القـــرافة
لئن لـــم يرحم المولى اجتهـــادى ... وقلة ناصرى لم ألق رافه (١٧٤)

كما برع فى النحو سعيد بن سعيد الفارقى النحوى الذى اخـــذ عن الربغى ابن خالويه وكان بارعا فى العربية اديبا فاضلا له تصانيف منها : كتاب تقسيمات العوامل وعللها ، وكتاب تفسير المسائل المشـــكلة فى أول المقتضب للمبرد وغـــير ذلك . مات مقتولا بالقاهرة عند بســـتان الخندق يوم الجمعة لســـبع بقين من جمادى الأولى سنة ٣٩١ هـ .

ومن شـــعره :

من آنســـته البـــلاد لم يرم (١٧٥) ... منهـــا ومـــن أوحشـــته لم ينـــم
ومن يبيت بالهمـــــوم قادحـــــة ... فى صدره بالزناد لم ينم (١٧٦)

---

(١٧٣) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٥ . (الحاشية) .

(١٧٤) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(١٧٥) لم يفارق .

(١٧٦) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١١ ص ٢١٧ .

ومن نبغ فى العصر الفاطمى فى اللغة والأدب والنحــو : على بن نصر بن سليمان الزنبقى اللغوى ابو الحســـن احـد الأدباء كان مقامه بمصر ولعله من أهلها ، قرىء عليه كتاب الهمز لابى زيد الانصارى بجامع مصر فى سنة ٣٨٤ هـ (١٧٧) ومن مصنفاته وجدت كتب أدبية ولغوية ونحوية .

وكان مظفر بن ابراهيم العيلانى بن أحمد بن ناهض بن عبد الرزاق قـد نبغ فى النحو فى العصر الفاطمى كان نحويا عروضيا اديبا شـاعرا مجيدا صنف فى العروض ودل على حذقه فيه ، وله ديوان شعر ، ولد لخمس من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ومن شعره الذى وصل الينا قوله :

قبلته فتلظى ورد وجنتــه   وفاح من عارضـية العنبـر العبـق
وجال بينهما ماء ومن عجب   لا ينطفى ذا ولا ذا منه يحتـرق (١٧٨)

ومن اشـــتهر بالاسكندرية من علماء الفقه : ابن عبد الجبار بن على بن عبد الجبار بن سلامة بن غيدون (ولد سنة ٤٢٨ هـ وتوفى سنة ٥١٦ هـ) وكان اماما فى اللغـــة حافظا لهـــا . حتى انه لو قيـل لم يكن فى زمانه الغى منـــه لما اســتبعد . وكانت له قدرة على نظم الشعر .

قال الحافظ السلفى : « فكانت له قدرة على نظم الشعر وله الى قصــائد وقد اجبته عنها » ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها احد عشر ألف بيت على قافية واحدة فيها فوائد ادبية (١٧٩) .

ومن علماء اللغة والنحو فى دولة الفـــواطم ابراهيم بن محمـــد بن أحمـــد الهاشمى ، وهو كوفى رحل الى الشـــام ومصر ثم عاد الى موطنه وبه توفى فى شوال سنة ٤٦٦ هـ وكان له حظ من الشعر وتفوق فى النحو واللغة وهو صاحب القصيدة التى أنشدها وهو فى مصر ومنها :

فان تســـالينى كيف أنت فاننى   تنكرت دهرى والمعاهد والقربى
وأصبحت فى مصر كما لا يسرنى   بعيدا عن الأوطان منتزحا غـربا
وانى فيها كامرىء القيس مـرة   وصاحبه لما بكى ورأى الدربـا

(١٧٧) خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ٦ ص ١٦١ .
(١٧٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٩ ص ١٤٨ .
(١٧٩) د. محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ص ١٦١ .

فان انج من بابى زويلة فتـوبة　　الى الله الا مس خفى لهـا تربا

ومن الطريف أن هذا العالم الشـاعر حدثنا بانه قال هذه الأبيات وكان حصل له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية (١٨٠) . ومع ذلك فانه كان يشعر بشدة الغربة عن بلاده .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى نرى عددا كثيرا من العلماء الذين يرحلون الى الأقطار العربية فى طلب العلم أو الكسب به ، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحا من الزمان ثم تركوها الى بلادهم أو الى غيرها من البلدان ولكنهم تركوا فى مصر تلاميذ أخذوا عنهـم علومهم كمـا اسـتفادوا هم من علماء مصر ، نذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله بن محمد ابن ظفر المكى ولد بمكة وقدم مصر فى صباه ورحل عنها الى افريقية وأقام بالمهدية مدة طويلة وانتقل بعدها الى صقلية ومنها الى مصر ثم وفد على حلب وشـاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشـيعة والسنة . وفى هذه الفتنة نهبت كتبه فقصد حماة وأقام بها الى أن مات سـنة ٥٦٥ هـ فكان لغويا أكثر منه نحويا وله من الكتب « ينبوع الحياة فى التفسير ، والتفسـير الكبير ، والاشـتراك اللغـوى ، والاستنباط المعنوى ، والقواعد والبيان فى النحو ، والرد على الحريرى فى درة الغواص ، والمطول فى شرح المقامات وغيرها من الكتب » (١٨١) .

وهناك ايضا محمد بن ابى الفرج الكمانى الصقلى المعروف بالذكى النحوى . كان من صقلية فطاف العالم الاسـلامى حتى وصل الى الهند ، وكان من أئمـة النحو وتوفى باصبهان سنة ٥١٦ هـ (١٨٢) .

وكذلك محمد بن يحيى بن مزاحم أبو بكر الخزرجى تلميذ القـاضى القضـاعى وراوبته وكان نابها فى علوم العربية رحل الى مصر حيث أقام بها ردحا من الزمن ثم عاد الى مدينة بطليوس يحدث فيهـا بما رواه عن المصريين وتوفى سـنة ٥٠١ هـ (١٨٣) .

---

(١٨٠) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٨٨ .
(١٨١) السيوطى : بغية الوعاة ص ٩٥ .
(١٨٢) المرجع السابق ص ٩٠ .
(١٨٣) المرجع السابق ص ١١٥ .

ويقال أن أصله من لشبونة كما ألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات .

ونذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن ابى سعيد الأندلسى النحوى الذى كانت له حلقة فى جامع عمرو للاقراء وتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١٨٤) .

وعبد الجبار بن محمد بن على المعافرى اللغوى الذى قدم مصر ، واقرأ بها العربية ورحل الى بغداد حيث القى بها علومه ، وهو شيخ ابن برى المصرى (١٨٥) . ومنهم الحسن بن الوليد القرطبى المعروف بابن العريف النحوى ، فقد خرج الى مصر ودارس فيها ومات سنة ٣٦٧ هـ (١٨٦) .

كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسى النحوى قدم مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه الى معرة النعمان ولازم أبا العلاء المعرى وأخذ عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه وعاد الى مصر فقدمها للحاكم بأمر الله الفاطمى. وقرأه عليه فاعجبه نظم المعرى حتى قيل أن الحاكم أرسل الى عز الدولة الوالى بحلب ان يحمل المعرى الى مصر فاعتذر المعرى (١٨٧) . وظهر ايضا فى النحو والقراءات : القاسم بن فيره أبىالقاسم أبى محمد الرعينى ثم الشاطبى المترىء كان فاضلا فى النحو والقراءة وعلم التفسير .

ومن شعره :

يلومونني اذا ما وجدت ملائما ومالى مليم حين سمت الأكارما
وقالوا تعلم للعلوم نفائها بسحر نفاق تستخف العزائما (١٨٨)

وممن لهم اثر يذكر من علماء النحو واللغة على بن جلال بن جعفر بن على السعدى المعروف (بابن القطاع) الصقلى سنة ٤٣٣ هـ — ٥١٥ هـ — ١٤٠١ م — ١١٢١ م . ولد بجزيرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ثم وفد الى مصر حوالى سنة ٥٠٠ هـ واتخذها مقرا له (١٨٩) . لم يكن مصريا ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على

(١٨٤) المرجع السابق ص ٢٨٢ .
(١٨٥) السيوطى : بغية الوعاة ص ٤٩٠ .
(١٨٦) المرجع السابق ص ٢٣٠ .
(١٨٧) المرجع السابق ص ٤٠٣ .
(١٨٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٩٣ .
(١٨٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٨ .

علمائها كأبى بكر الصقلى اللغوى وامثاله (١٩٠) . عالم بالأدب واللغة من ابناء الأغالبة السعديين أصحاب المغرب انتقل الى مصر لما احتلها الفرنج فأقام بها يعلم ولد الأفضل الجمالى وتوفى بالقاهرة (١٩١) واشتهر بالتبحر فى اللغة وكان من أئمة الأدب فى عصره (١٩٢) .

وحينما وفد ابن القطاع الى مصر لقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا فى اكرامه وخصه الوزير الأفضل بالرعاية لأنه كان مؤدبا لولده فى علوم العربية وفنون الأدب. وقد روى ابن القطاع عن ابى بكر الصقلى كتاب الصحاح للجوهرى وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب فى الآفاق وله حواشى على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح . ولابن القطاع عدة تصانيف اخرى منها كتاب : « الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » اى جزيرة صقلية : اشتمل على مائة وسبعين شاعرا وعشرين الف بيت شعر ، وكتاب الأسماء فى اللغة . جمع فيه ابنية الأسماء كلها وكتاب الأفعال هذب فيه افعال ابن القوطية وافعال ابن طريف، وغيرهما فى ثلاث مجلدات، وله تاريخ صقلية وتوفى سنة ٥١٥ هـ ودفن بقرب ضريح الشافعى (١٩٣) .

ولابن القطاع أشعار ليست على قدر علمه ، من اجودها قوله :

ايـاك أن تدنـو من روضـة	بوجنتيـه نبـت الـوردا
واحذر على نفسـك من قربهـا	فان فيهـا اسـدا وودا
الا أن قلبى قد تضعضع للهجـر	وقلبى من طول الصدود على الجمر (١٩٤)
تصارمت الأجفـان منذ حرمتنى	فما تلتقى الا على دمعة تجـرى

وقد اشتهر ابن القطاع باللغة والأدب وله كتاب« لمح الملح » جمع فيه كثيرا من اشعار الأندلس (١٩٥) .

---

(١٩٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٢ .
(١٩١) خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ٥ ص ٧٦ .
(١٩٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٧٦ — معجم الأدباء : لياقوت الحموى جـ ٤ .
(١٩٣) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٢ ص ٢٧٩ — ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣٩ — السيوطى : بغية الوعاة ص ٢٣١ .
(١٩٤) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٢٨٢ .
(١٩٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١١ — ١٢ .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا فى مصر فى العصر الفاطمى امثال محمد بن احمد اليازدرى ، ومحمد بن أحمد الجرجانى ومحمد بن الحسين بن عمير اليمنى صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كليلة ودمنة وهو أستاذ القاضى القضاعى ، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة الذى اليه كانت رياسة المؤذنين بجامع عمرو ، وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ هـ الذى ولى قضاء دمياط وله تصانيف أدبية ولغوية كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو الذى أجاز لأبى عبد الله الصورى الحافظ (١٩٦) .

اذن نستطيع أن نلمس هذا النشاط فى درس علوم اللغة بمصر فى هذا العصر وكيف كثر عدد العلماء وكثر انتاجهم كما تعددت أماكن هذا الدرس ، ففى الجامع الأزهر ، كانت تقام حلقات الدرس ، وفى دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب ، وفى جامع عمرو بالفسطاط استمرت حلقات التدريس (١٩٧) .

ولم تكن القاهرة والفسطاط مراكز الدرس فى مصر فحسب بل كانت الاسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد نقلت كتب التراجم عن الحافظ السلفى تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الاسكندرية فى هذا العصر والعلماء الذين وفدوا على الاسندرية ، كما يحدثنا السيوطى ان محمد بن أحمد بن الأرقط الحسينى النحوى قرأ على القاضى الأديب بأسوان الأدب وظلت أسوان تأخذ عنه علوم القران الكريم والأدب وانتقل الى قوص وتوفى سنة ٥٤١ هـ (١٩٨) . وكانت قوص من مراكز العلم فى مصر .

ومعنى هذا كله انه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب الفسطاط والقاهرة (١٩٩) . كما كان لتشجيع الفاطميين لعلماء اللغة والنحو والقراءات بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب والفلسفة .

فلا نعجب اذا كانت الحركة الفكرية قد ازدهرت فى هذا العصر ازدهارا عظيما (٢٠٠) .

---

(١٩٦) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٢ — ٩٣ .
(١٩٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٤ .
(١٩٨) السيوطى : بغية الوعاة ص ٤٠ .
(٩٩) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٩٥ .
(٢٠٠) د . حسن أحمد محمود وآخرون : مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٧٥ .

رابعا — القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية الاسلامية انما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه . وتفسير غريبه ومعرفة أسرار اعجازه وتفهم معانيه ، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ الا بسبب القرآن ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التى كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية ومنها مصر . فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون ، فأولوها عنايتهم ورعايتهم ففى كل الحفلات التى كان يقيمها الفاطميون كان القراء فى مقدمة الحاضرين يقراون بين يدى الامام ، وكان كل مقرىء يحاول أن ينال القربى من الامام ليفوز بأكبر قسط من العطاء وكذلك كانت تختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الامامية وهم أشبه شىء بموظفين رسميين فى الدولة ولهم جاريهم الشهرى سوى الهبات والخلع وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرا جدا ، كما كثرت كتبهم التى وضعوها فى علوم القرآن الكريم (٢٠١) .

وظل القرآن منبع كثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى هذا العصر فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية كما اعتمد الفقهاء فى أحكامهم الفقهية على القرآن والفوا كتبا كثيرة أسموها « أحكام القرآن » واستعانت الفرق الاسلامية بكتاب الله واتخذوه أساسا للتدليل على صحة ماذهبوا اليه (٢٠٢) .

اما علم القراءات ، فهو يبحث فى صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة . وهو يعتمد على العلوم العربية التى تعين على تحصيل هذه الملكة ، وفائدة ذلك صون كلام تعالى من التغيير والتحريف ، وقد يبحث أيضا فى الاختلافات غير المتواترة مما وصل الى حد الشهرة (٢٠٣) .

وقد بقى أهل مصر وبلاد المغرب لا يعرفون غير ورش — وأبى يعقوب الأزرق الذى توفى بمصر فى حدود سنة ٢٤٠ هـ .

---

(٢٠١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٥ .
(٢٠٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ .
(٢٠٣) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٣١ .

لكننا نجد فى القرن الرابع الهجرى من اشتهر بالقراءات من القراء،منهم أبو بكر ابن عبد الله بن مالك النجيبى المصرى شـيخ القراء فى زمانه وهو تلميذ أبى يعقوب الأزرق (٢٠٤) . وعمر طويلا ، مات فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٧ هـ (٢٠٥) .

وممن اشتهر بالقراءة ايضـا فى هذا القرن محمـد بن على بن أحمـد الامام أبو بكـر الأدفوى المصرى المقـرىء النحوى ، قـرا برواية ورش على أبى غانم المظفر بن احمـد ولزم أبا جعفر النحاس النحوى وحمـل عنه كتبه وبرع فى علوم القرآن وكان سـيد أهـل عصره بمصر قال الدانى : « انفـرد أبو بكر بالامامة فى وقته فى قـراءة نافع مع سـعة علمه وبراعة فهمه وصـدق لهجته وتمكنه من علم العربية وبصره بالمعانى » . له كتـاب التفسـير فى مائة وعشرين مجلدا وسـماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ومات سنة ٣٨٨ هـ (٢٠٦) .

ومن العلمـاء الذين برزوا فى القـراءات أبو الحسـن على بن ابراهيم بن سـعيد الحوفى فقد كان عالما بالعربية وتفسير القرآن أخذ عن أبى جعفر النحاس وأبى بكر الأدفوى ولقى جماعة من علمـاء المغرب وأخذ عنهم وتصـدر للافادة فى العربية واعراب القرآن وتفسـيره وأخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان فى تفسـير القرآن فى ثلاثين مجلدا . وله فى اعراب القرآن كتـاب علوم القرآن فى عشر مجلدات . وصنف فى النحو كتـاب الموضـح فى النحو — وهو أسـتاذ جليل لاسماعيل بن خلف الصقلى المقرىء صـاحب كتـاب اعـراب القراءات فى تسـع مجلدات وتوفى الحوفى سنة ٤٣٠ هـ (٢٠٧) .

ونذكر كذلك عبد العـزيز بن على بن محمـد بن اسـحق أبا عدى المصرى المعروف بابن الامام سـند القراء فى زمانه قـرأ على أبى بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عدد كبير من العلمـاء المعروفين أمثـال طاهر بن غلبون ومكى بن أبى طالب وابن نفيس وغيرهم وتوفى سنة ٣٨١ هـ (٢٠٨) .

ومن العلماء كذلك عبد الجبار بن أحمـد الطرطوسى أبو القاسـم — كان شيخ القراء بمصر فى زمانه . قـرأ على أبى عدى عبد العزيز وأبى أحمـد السامرى .

(٢٠٤) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٣٢ .
(٢٠٥) السيوطى : حسـن المحاضرة ج ١ ص ٤٨٧ .
(٢٠٦) السيوطى : حسـن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٠ .
(٢٠٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٥ — ٩٦ .
(٢٠٨) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

ومن أساتذة أبى الطاهر بن خلف الصقلى وله كتاب المجتبى فى القراءات وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (٢٠٩).

وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران ابا الفتح الحمصى المقرىء الضرير ، أحد الحذاق بهذا الشأن ، ومؤلف كتاب المنشأ فى القراءات ، وهو المذكور فى باب التكبير فى الشاطبية مات سنة ٤٠١ هـ (٢١٠) .

ثم فى القرن الخامس الهجرى اشتهر من القراء رجل يقال له اسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران أبو الطاهر الأنصارى الأندلسى ثم المصرى مصنف « العنوان فى القراءات » أخذ عن عبد الجبار الطرسوسى وتصدر للاقراء زمانا ولتعليم العربية ، وكان رأسا فى ذلك ، اختصر كتاب الحجة لأبى على الفارسى مات سنة ٤٥٥ هـ (٢١١) .

كما نبغ فى العصر الفاطمى من القراء عبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف العلامة الأستاذ أبو القاسم بن الفحام الصقلى صاحب كتاب « التجويد فى القراءات » واليه انتهت رياسة الاقراء بالاسكندرية علوا ومعرفة . قال سليمان ابن عبد العزيز الأندلسى : ما رايت احد أعلم بالقراءات منه لا بالمشرق ولا بالمغرب . قرأ العربية على ابن بابشاذ ، وشرح مقدمته ، ولد سنة ٤٢٢ هـ ومات سنة ٥١٦ هـ روى عنه السلفى (٢١٢) .

وكان بارزا فى مجال القراءات أبو العباس احمد بن عبد الله بن احمد بن هشام بن الحطيئة اللخمى الفاسى . كان رأسا فى القراءات السبع ومن مشاهير الصلحاء وأعيانهم ولد بفاس سنة ٤٧٨ هـ وانتقل الى الديار المصرية فقرأ على ابن الفحام وقرأ الفقه والعربية . وسكن مصر ، وتصدر بها للاقراء . وكان صالحا عابدا . كبير القدر ، قرأ عليه شجاع بن محمد بن سيدهم وروى عنه السلفى ومات سنة ٥٦٠ هـ ودفن بالقرافة (٢١٣) .

---

(٢٠٩) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨١ .
(٢١٠) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٨٢ .
(٢١١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٩ — د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٣٢ .
(٢١٢) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ١ ص ٣٧٤ .
(٢١٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥٣ .

ومن علمـاء القراءات بمصر موسى بن الحسـين بن اسـماعيل الشريف أبو اسماعيل الحسينى المعروف بالمعدل (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) عالم بالقراءات مصرى له كتاب « روضة الحفاظ فى القراءات » (٢١٤) .

ومن أعلام القراء محمد بن الحسـين بن على بن طاهر الأنطـاكى نزيل مصر أخذ عن ابراهيم بن عبد الرزاق . وأخذ عنه عبد المنعم بن غلبون وفارس الضرير خرج من مصر الى الشام فمات فى الطريق قبل سنة ٣٨٠ هـ (٢١٥) .

وعبد العزيز بن على بن اسـحاق بن الفـرج أبو عدى المصرى يعرف بابن الامام مسـند القراء فى زمانه بمصر قـرأ عليه أئمة كطاهر بن غلبون ومكى بن أبى طالب وأبى عمر الطلمنكى وجمـاعة آخرهم موتا أبو العباس أحمد بن نفيس مات سـنة ٣٨٠ هـ (٢١٦) .

كما كان عمر بن محمـد بن عراك أبو حفص الحضرمى المصرى ، قـرأ على حمدان بن عدن وعبد الحميد بن مسـكين . وكان متبحـرا فى قـراءة ورش مات سـنة ٣٨٨ هـ (٢١٧) .

وكان عبد المنعم بن عبيـد بن غلبون بن المبـارك ابو الطيب الحلبى المقرىء المحقق ، مؤلف كتـاب الارشـاد فى القراءات . قال الذهبى : عداده فى المصريين سكنها مدة ، قرأ على ابراهيم بن عبد الرزاق . قرأ عليه ولده مكى بن أبى طالب وأبو عمـر الطلمنكى وكان حافظا للقراءة ضـابطا ، ذا عفاف ونسـك وفضـل وحسن تصنيف ولد سنة ٣٥٩ هـ (٢١٨) . كما كان أبو الحسن طاهر أحـد الحذاق المحققين وصـنف التذكرة فى القراءات وبرع فى الفن . وكان من كبـار المقرئين فى عصره بالديار المصرية قـرأ عليه الدانى . وقال : لم نر فى وقته مثله . مات بمصر فى سـن الكهولة سـنة ٣٩٩ هـ (٢١٩) . ونجد أيضـا عبد الباقى بن الحسـن بن

---

(٢١٤) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ٨ ص ٢٧٠ .

(٢١٥) السيوطى : حسـن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٩ — نقلا عن طبقات القـراء لابن الجزرى جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢١٦) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ١ ص ٣٩٤ .

(٢١٧) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ٢ ص ٥٩٧ .

(٢١٨) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ١ ص ٤٧٠ .

(٢١٩) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ١ ص ٣٣٩ .

أحمـد بن السـقا أبو الحسن الخراساني أحد الحذاق . قرأ على نظيف بن عبد الله الحلبي وقرأ عليه فارس بن أحمـد وجماعة — وكان اماما في القراءات علمـا بالعربية . بصيرا بالمعاني خيرا ، مأمونا ، قدم مصر فقامت له بها شـهرة عظيمة وكنا لا نظنه هناك ، اذ كان ببغداد ومات بالاسكندرية سنة ٣٨٨ هـ (٢٢٠) .

وخلف بن ابراهيم بن محمد بن جعفر بن خاقان أبو القاسم المصري ، أحد الحذاق في قراءة ورش قرأ على أحمد بن أسامة التجيبي قرأ عليه الداني . وقال : كان مشهورابالفضل والنسك واسـع الرواية مات بمصر سنة ٤٠٢ هـ (٢٢١) .

وقسيم بن أحمد بن مطير أبو القاسـم الظهراوي المصري من سـاكني قرية أبي البيس ، قرأ على جده لأمه محمد بن عبد الرحمن الظهراوي صاحب أبي بكر بن سيف ، وكان ضـابطا لرواية ورش يقصر فيها ، وتؤخذ عنه ، خيرا فاضـلا مات سنة ٣٩٩ هـ (٢٢٢) .

واسماعيل بن عمرو بن اسماعيل بن راشد الحداد أبو محمد المصري المقرئ الصالح قرأ على أبي عـدي عبد العزيز بن الامام وعزوان بن القاسم قـرأ عليـه أبو القاسـم الهذلي والمصريون ، وحدث عنه أبو الحسـن الخلعي مـات سـنة سـنة ٤٢٩ هـ (٢٢٣) . وابراهيم بن ثابت بن أحظل أبو اسـحق الأقليشي ، نزيل مصر قرأ على أبي الحسن طاهر بن غلبون وعبد الجبار الطرطوسي وأقـرأ الناس بمصر ومات سنة ٤٣٢ هـ . وقد شاخ (٢٢٤) .

واسماعيل بن محمود بن أحمـد أبو الطـاهر المحلي خطيب جامع المحلة من ديار مصر ، تصدر للاقراء وكان ظاهر الصلاح مات سنة ٤٣٣ هـ (٢٢٥) . والحسن ابن محمد بن ابراهيم أبو علي البغدادي المقرئ المالكي ، وصنف كتاب الروضة في القراءات ، قرأ على أبي أحمد الفرضي وأبي الحسن ابن الحمامي وسكن مصر وصار

---

(٢٢٠) ابن الجزري : طبقات القراء ج ١ ٣٥٦ .
(٢٢١) ابن الجزري : طبقات القراء ج ٢ ص ٢٧٦ .
(٢٢٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٢ .
(٢٢٣) ابن الجزري : طبقات الشعراء ج ١ ص ١٦٧ .
(٢٢٤) ابن الجزري طبقات الشعراء ج ١ ص ١٠ .
(٢٢٥) المرجـع السـابق ج ١ ص ١٦٠ .

شيخ القراء بها قرأ عليه أبو القاسم الهذلى وابن شريح صاحب الكافى مات سنة ٤٣٨ هـ (٢٢٦) . واحمد بن على بن هاشم ، وتاج الأئمة أبو العباس المصرى قرأ على عمرو بن عراك وأبى عدى عبد العزيز الامام وأبى الطيب بن غلبون ، واقرأ الناس دهرا طويلا بمصر مات سنة ٤٤٥ هـ (٢٢٧) . ونصر بن عبد العزيز بن أحمد بن نوح الفارسى الشيرازى أبو الحسن مقرىء الديار المصرية ومسندها ، وقرأ عليه ابن الفحام مات سنة ٤٦١ هـ (٢٢٨) . ويحيى بن على بن الفرج الأستاذ أبو الحسن المعروف بابن الخشاب مقرىء الديار المصرية فى وقته ، قرأ على ابن نفيس واسماعيل بن خلف وعليه ناصر بن الحسين وجماعة مات سنة ٥٠٤ هـ (٢٢٩).

والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة الأستاذ أبو الحسن القيروانى نزيل الاسكندرية . ومصنف كتاب تلخيص العبارات فى القراءات ولد سنة ٤٢٧ هـ وعنى بالقراءات وتقدم فيها وتصدر للاقراء مدة . مات بالاسكندرية سنة ٥١٤ هـ (٢٣٠) . وعبد الكريم بن الحسن بن المحسن بن سوار الأستاذ أبو على المصرى التككى المقرىء النحوى سمع من الخلعى ومن السلفى ، وقرأ على ابن الحسن على بن محمد بن حميد الواعظ وبرع فى القراءات وعللها والتفسير ووجوهه والعربية وغوامضها . وكان له حلقة اقراء بمصر ، مات سنة ٥٢٥ هـ (٢٣١) .

وناصر بن الحسن بن اسماعيل الشريف أبو الفتوح الزيدى الخطيب مقرىء الديار المصرية — قرأ على يحيى بن الخشاب وسمع من ابن القطاع اللغوى ، انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية وكان من جلة العلماء فى زمانه ، قرأ عليه غياث بن فارس ، وآخر من روى عنه سماعا القاضى أبو الكرم واسعد بن قادوس المتوفى فى حدود الأربعين وستمائة كما توفى الزيدى سنة ٥٦٣ هـ (٢٣٢) .

ويروى ياقوت عن الحافظ السلفى : ان عثمان بن على بن عمر السرقوسى

---

(٢٢٦) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٠ .
(٢٢٧) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٩ .
(٢٢٨) ابن الجزرى : طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٣٦ .
(٢٢٩) المرجع السابق ص ٣٧٥ .
(٢٣٠) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١١ .
(٢٣١) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠٠ والتككى بكسر التاء منسوب الى التكك جمع تكة .
(٢٣٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٢٩ .

الصقلى كان من العلم بمكان نحوا ولغة وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره ، وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقة للاقراء ، وقرأ على كثيرا ، وعلى من كنت أقرأ عليه كابى صادق وابن بركات القراء الموصلى، وآخـرين (٢٣٣) ».

وهكذا كان لعلوم القرآن فى مصر مكانة خاصـة وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون مما كان له اثره فى الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللمحة التى أسلفناها ان نتبين ان الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون فى تفسير القرآن مع باقى المسلمين مدعين ان للقرآن الكريم تأويلا باطنيا يخالف ما يقول به المفسرون ، وقد أفسح الفاطميون صـدورهم لتفسـير هؤلاء العلمـاء الذين كانوا بمصر ، وسمحوا لهم بالتحليق فى المساجد والقاء دروس التفسير على طلاب العلم، فهذا يدل على ان الفاطميين متسامحين مـع غيرهم من أصـحاب الفرق والنحـل الأخرى (٢٣٤) .

ومن أشهر قـراء المغرب فى ذلك العصر أبو العباس أحمـد بن عبد الله بن أحمـد بن هشام ابن الحطيئة اللخمى الفاسى وقد ولد بمدينة فاس سـنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها ، ثم هاجر مع أهله الى مصر واسـتقر بها . وقد عرف بالصـلاح والزهد وعفة النفس ، كما كان ملما بالأدب وقـد عـده المؤرخون والفقهاء اماما فى القراءات السـبع ، وقد اقام بجـامع راشـدة فى القـاهرة (٢٣٥) ، فقد ذكر ابن خلكان (٢٣٦) انه وقعت بمصر فى أيامه مجاعة فسـار اليه أعيان البـلاد وسألوه مساعدتهم فامتنع فاتفقوا على ان يخطب احدهم ابنته الوحيدة ، فتزوجها شـخص من الاثرياء يعرف بالفضـل بن يحيى الطويل الذى طلب من هذا الفقيـه ان تعيش زوجته مع ابنتها ، فوافق على ذلك وقضى ايامه ينسـخ الكتب ويعيش من اجـره القليل حتى توفى سنة ٥٦٠ هـ .

واما العلوم الدينية فلم تزدهر فى الاسـكندرية الا منذ تأسسـت بها مدرسـتا الحافظية السلفية السنيتان لتدريس الحديث وكان لهاتين المدرستين أعظم الاثـر

---

(٢٣٣) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٢ ص ١٣٠ .
(٢٣٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٩٧ .
(٢٣٥) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٤٢ .
(٢٣٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥١ — ١٥٢ .

فى النهضة العلمية التى اتسمت بها الاسكندرية فى العصر الفاطمى وساعد على ازدهار هذه العلوم شيوخ مغاربة واندلسيون نزلوا الاسكندرية واسهموا فى الحركة العلمية بها (٢٣٧) .

ويذكر الضبى ان الحافظ السلفى كان يحضر فى محفل عظيم عند بعض أهلها وكان المجلس يغص بالحاضرين (٢٣٨) وكانت الاسكندرية منذ العصر الفاطمى ملتقى علماء المغرب والأندلس والمشرق على السواء . وكانت تموج بهؤلاء العلماء الذين نذكر منهم : العالم ابا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر المبورقى وابا عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى (٢٣٩) . وابا بكر الطرطوشى وعبد الرحمن بن ابى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام وكان من شيوخ القراء بالاسكندرية (٢٤٠) وابا القاسم بن مخلوف — ثم الاسكندرى احد كبار ائمة المالكية (٢٤١) وتوفى سنة ٣٥٥ هـ وابا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الانصارى القرطبى الفقيه المحدث توفى سنة ٥٥٦ هـ (٢٤٢) . والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمه القيروانى نزيل الاسكندرية ، وكان عالما فى القراءات ، توفى سنة ٥١٤ هـ (٢٤٣) . والقاسم بن خيرة بن خلف بن أحمد الشاطبى المقرىء ، توفى سنة ٥٥٥ هـ ، وابا على بن أبى الأنصارى (٢٤٤) .

وعن هؤلاء العلماء الأجلاء أخذ كثير من أهل الاسكندرية علوم الحديث والقراءات والفقه ونبغ منهم العلامة ابن أبى مطير الذى توفى سنة ٣١٩ هـ ، ومحمد ابن ميسر فقيه الاسكندرية ، فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (٢٤٥) . وابو العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرىء ، وابو القاسم الرعينى امام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة فى علم القراءات « حرز الأمانى ووجه

---

(٢٣٧) د. عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٥٣٤ .
(٢٣٨) د. عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٥٣٥ — نقلا عن الضبى ص ٢٠٧ .
(٢٣٩) د. عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٢٤٠) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٥ .
(٢٤١) السيوطى : المرجع السابق ص ٢١٥ .
(٢٤٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ .
(٢٤٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٥ .
(٢٤٤) المقرى : نفح الطيب ج ٣ ص ٣٢٢ .
(٢٤٥) د . عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٥٣٦ .

التهـــانى » (٢٤٦) . ثم بظهور ابن بابشاذ المصرى تبدأ فى مصر مدرســـة مصرية صحيحة تجعل جل اهتمامها بالقراءات ، ونجد لزعيمها هذا كتابا بخط يده فى هــذا الموضوع . ولم تنس هذه المدرســة كذلك أن تعنى بمسائل الخلاف ، ولكنها لــم تسرف فى ذلك اسراف بغداد (٢٤٧) .

أما عالم القراءات العظيم أبو عمر الدانى توفى سنة ٤٤٤ هـ وقد تلقى قراءة ورش بمصر وقد انتهت اليه رئاسة الاقراء بمصر فى زمانه لم ينازعه فيها منازع ، وقد يكون نجاح قراءة ورش بين المصريين ما يدل على اتفاقها مع مزاجهم اللغــوى وتناغمها مع ذوقهم الفنى .

وعلى اية حال لم يكن ظهور ورش فى حقيقته سوى ظهور المدرســة المصرية ذاتها للقراءة ولئن كانت هذه المدرسة قد بدأت تابعة لمدرســة المدينة فانهــا قد استطاعت أن تجد نفســها مســتقلة شــخصيتها على يدى ذلك القارىء وليس محض المصادفة . ولم يلبث التلاميذ حتى اقبلوا على ورش من الداخل والخارج ، وكان ورش يقرىء التلاميذ فى داره بمســجد أبى عبد الله فى الفســطاط فاذا خرج للرباط بالاســكندرية لم ينقطع عن اقرائهم هناك . وحتى أخريات القرن الرابــع الهجرى كان ما يزال الفسطاط مسجدا يحمل اسم ورش لعله كان يقرىء فيــه كذلك وتخرج على ورش عدد من الرجال أصبحوا فيما بعد من كبار القراء ، وعلى كتافهم قامت مدرسة ورش أو فى الأصح — المدرسة المصرية فى القراءة .

وعلينا الآن أن نواصل السير حتى أخريات القرن الرابع الهجرى مع هؤلاء الرجال الذين يكونون فى مجموعهم مدرسة ورش فى مصر (٢٤٨) .

وقد أخذ أبو القاســم عبيد الله الســمات توفى سنة ٣٨٠ هـ قراءة نافــع عرضا عن أبيه عن يونس بن عبد الأعلى عن ورش عنه وكان شيخا صالحا تميز بانه كان يأخذ اخذا شديدا على مذهب المتقدمين من اصحاب ورش فيما يقــرر الدانى وتفســير ابن الجزرى هذا « الأخذ الشديد » بالمد المفرط على الهمزة قبــل

(٢٤٦) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٨٤ .
(٢٤٧) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢١٩ .
(٢٤٨) د. عبد الله خورشيد : القــرآن وعلــومه فى مصر ص ٢٠٧ — ٢١٤ — ٢١٥ — ٢١٦ .

حروف المد وبعده والتحقيق البالغ ، وروى القراءة عن ابن السمان جماعة من المصريين وغيرهم .

تتلمذ أبو عدى المصرى ، عبد العزيز بن على بن محمد بن اسحاق الفرج ويعرف بابن الامام توفى سنة ٣٨١ هـ على أبى بكر النجيبى واحمد بن هلال وكان شيخا ورعا صدوقا . ومقرئا ومحدثا متصدرا ضابطا وقد تفوق فى قراءة ورش واصبح شيخ القراء ومسندهم بمصر وقرا عليه أئمة القراءة (٢٤٩) .

قرا الامام ابو حفص المصرى ، عمر بن محمد بن عراك توفى سنة ٣٨٨ هـ على عدد من كبار الأساتذة وسمع الحروف منهم ويبدو أنه يوصف بالامام لانه كان أمام جامع مصر والذى يعنينا على اية حال هو انه أصبح أستاذا فى قراءة ورش وكان يقول — وهو ما لا نجد له تفسيرا معينا : أنا كنت ومن افريقية كذلك جاء المقرىء الحاذق عبد الحكم بن ابراهيم ابو الفضل القروى (من أهل القرن الرابع الهجرى) فروى رواية وش عن محمد بن سعيد الأنماطى — أبو بكر النجيبى — لم تثبت قراءته عليه فيما يذكر الدانى .

وبالرغم من أن عبد الحكم قيروانى الأصل قد نزل بجاية تلك المدينة الساحلية بين افريقية والمغرب حتى أصبح اماما فى رواية ورش (٢٥٠) . وفى سنة ٣٣٠ هـ دخل مصر القارىء الأنطاكى الامام الحاذق المسند الثقة المشهور بالفضل والعلم والضبط وصدق اللهجة أبو الحسن التميمى على بن محمد بن اسماعيل ٢٩٩ هـ / ٣٧٧ هـ . واذا كان من المحتمل انه جلس الى تلاميذ اسماعيل النحاس بمصر فانه من المؤكد انه تصدر للاقراء بها فقد كان رأسا فى القراءات لا يتقدمه احد فى معرفتها فى وقته .

ولم يزل أبو الحسن يقرىء الى أن وجه المستنصر بالله (٣٥٠ هـ / ٣٦٦ هـ) الحكم أمير الأندلس فوجه اليه بأبى الحسن فقدم الأندلس مع أمه . ودخل قرطبة فى شعبان سنة ٣٥٢ هـ ليصبح مقرىء الأندلس وشيخها ومسندها ، ولم يكن أبو الحسن عارفا بقراءة ورش فحسب بل كان له فيهما كتاب رواه عن تلميذه

---

(٢٤٩) المصدر السابق ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢٥٠) د . عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه فى مصر ص ٢٣٢ .

محمد بن عبد الله بن الصناع القرطبى . توفى سنة ٤٤٨ هـ (٢٥١) .

على أن الاندلس لم تكن البلد الوحيد فى أوروبا الذى عرفت قراءة ورش طريقها اليه . فقد استطاعت أن تعبر البحر المتوسط الى جزيرة صقلية على يدى المقرىء المنصور أبى عبد الله النحوى محمد بن خراسان ٢٩٠ هـ / ٣٨٦ هـ الذى أخذ القراء بمصر عرضا عن ابن المظفر وسكن صقلية واقرا بها .

وبالرغم من أن قراءة ورش ازدهرت فى مصر ، واصبحت تكون المدرسة المصرية فى القراءة واستطاعت ان تتخطى حدود مصر شرقا وغربا فانها لم تستقل بالميدان استقلالا تاما . اذ ظلت المدارس الأخرى وقراءاتها تجد دائما من يهتم بهما ويمثلها فى مصر سواء من المصريين او من غيرهم (٢٥٢) .

فقد نزل بمصر واقام بها المقرىء الامام ابو الفتح البغدادى احمد بن عبد العزيز بن بدهن الذى تتلمذ على كبار البغداديين وحذق ومهر . وطال عمره واشتهر وظل ابن بدهن يقرىء بمصر حتى توفى سنة ٣٥٩ هـ .

ومحمد بن عبد الله اشته : أبو بكر الأصبهانى أستاذ كبير وامام شهير نحوى محقق ثقة ، عالم بالعربية بصير بالمعانى صاحب سنة ، حسن التصنيف هو صاحب كتاب المصاحف الذى يقف على قدم المساواة مع كتاب أبى داود السجستانى ، توفى سنة ٣٢٦ هـ والذى لا يزال مفقودا تى آلآن فيما عدا فصول متفرقة منه سجلها السيوطى فى كتاب الاتقان والذى يعنينا هو أن اشته قد قرا على كبار أساتذة بغداد وصنف فى القراءات وله كتاب اسمه « المفيد » فى القراءات الشاذة . ثم أنه قدم مصر وسكنها واقرأ بها حتى توفى سنة ٣٦٠ هـ . وفى عام ٣٧٠ هـ توفى بمصر القارىء البغدادى الماهر المكثر أبو الفتح ابراهيم بن على بن ابراهيم سومخت الذى كان قد نزل مصر من قبل (٢٥٣) .

وفى سنة ٣٨٦ هـ توفى غزوان بن القاسم نزيل مصر الذى كان قد أخذ

---

(٢٥١) المصدر السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢٥٢) د. عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه فى مصر ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢٥٣) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

القراءة عرضا عن شيوخ العراق ومصر وكان مقرئا حاذقا ، محررا ماهرا ضابطا شديد الأخذ ، واسع الرواية حافظا للحروف (٢٥٤) .

وكان محمد بن احمد بن على بن حسين أبو مسلم الكاتب مسندا عالى السند ، روى عن ابن مجاهد ومحمد بن احمد بن قطن القارئين البغداديين الكبيرين ثم نزل مصر وأقرأ بها حتى مات فيها سنة ٣٩٩ هـ (٢٥٥) .

أولئك كانوا هم ، ان لم يكونوا كل القراء الذين مثلوا مدرسة بغداد فى مصر ، ويلحظ انهم جميعا فيما عدا القاسم بن سلام وعلى بن بشر الأنطاكى قد تمصروا اذ سكنوا مصر وأقاموا بها نهائيا واصبحوا ينسبون اليها . ولكنهم ظلوا فى نفس الوقت يرفعون لواء مدرسة بغداد التى تظهر ساطعة فى مصر طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين لتجذب اليها نفرا من القراء المصريين اخلص بعضهم نفسه لها اخلاصا ، وزاوج بعضهم الآخر بينها وبين مدرسة ورش المحلية . وكان قد روى القراءة عن أساتذة ينتمون الى مدارس الكوفة ومكة والبصرة .

غير أن تفاعل هذه المدارس قد ادى بدوره الى نتيجة هامة هى ظهور المدرسة المصرية نفسها كنتيجة طبيعية للاختيار بين المدارس المتصارعة . وبالرغم من أن المدرسة المصرية انبثقت من مدرسة المدينة وكانت مجرد امتداد لها فانها لم تلبث حتى استقلت بذاتها واستكملت مقوماتها على يد القراء المصريين النشطين يتزعمهم ورش ، وبلغت هذه المدرسة من النضج والحيوية حدا جعلها تغزو البيئات الأخرى منتشرة شرقا وغربا فى أرجاء العالم الاسلامى (٢٥٦) . حيث أصبحت قراءة ورش خير سفير لمصر ، غير أن هذا لم يكن كل شىء اذ بالرغم من أن مصر قد صدرت قراءتها الى الخارج فانها لم تتردد فى استقبال القراءات الأخرى ، بل كانت من رحابة الصدر بحيث استطاعت قراءات مدارس الحجاز والعراق ان تجد لنفسها مكانا على السنة أصحابها الأصليين أو السنة

(٢٥٤) د. عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه فى مصر ص ٢٥٢ .
(٢٥٥) المرجع السابق ص ٢٥٤ .
(٢٥٦) المرجع السابق ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

المصريين انفســــــهم . غير انه لــكى يكتمل تتبعنا للقراءة فى مصر بقى علينا أن نبحث فى نشاط القراءة فى غير الفسطاط فان كل ما ســبق يتعلق فى الواقع ببيئة الفســطاط التى كانت بما هى العاصمة تمثل أكبر مركز للنشاط الثقافى بما فيــه القراءات فى مصر (٢٥٧) .

وحقا ان مصر كانت وما تزال تمثل مكان الصدارة فى القراءات القرآنية وعلوم القرآن وخير شاهد على ذلك وجــود الأزهر الشريف الذى كان له دور كبــير فى الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى .

(٢٥٧) د. عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه فى مصر ص ٢٥٦ .

الدراسات الاجتماعية (التاريخ ، الجغرافية ، الفلسفة)

اولا ــ التـــــاريخ

رأينا فى عصر الولاة بمصر (١) كيف أسـهم المصريون فى تدوين التاريخ منـذ القرن الثانى للهجرة وعرفنـا بعض المؤرخين الذين نبغوا فى العصر الذى سـبق العصر الفاطمى امثال عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم وعمار بن وسيمة المصرى وابن يونس والكندى وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمى ــ فظهر عدد كبير من المؤرخين وحفظت لنا اسماء مؤلفاتهم ــ وبعض مقتطفـات من كتبهم متفـرقة فى كتب التواريخ ، ففى كتب المقريزى وابى المحاسن بن تغرى بردى والسيوطى وابن فضل الله العمرى والنويرى والقلقشندى مقتبسـات كثيرة من الكتب التى وضـعها مؤرخو مصر الفاطمية . وهذا المقتطفات تدلنا على ان مؤرخى مصر فى العصر الفاطمى كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر ، فأكثر كتبهم تدور حول مصر وان كان منها ما كتب فى التاريخ العام (٢) .

ولم تفتر هذه الروح المصرية من كتابة التاريخ بعد ابن عبد الحكم والكندى فظهرت عند مؤرخى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (٣) وهنا نلاحظ ان اوائل المؤرخين لمصر الاسلامية كانوا جميعا « أخباريين » بمعنى أنهم يكتفون بجمع الأخبار على طريقـة المحدثين فى جمـع الحديث دون أن يتعرضـوا لتحليلها أو استخراج النتائج السياسية والاجتماعية من خلالها ، كما فعل المؤرخون المسلمون فيما بعد . ومن هؤلاء الأخباريين الذين عنوا بمصر الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ .

ومهمـا يكن من شىء فالكندى الذى نتحدث عنه مصرى المولد ، ولـد بقرية من قـرى مصر سـنة ٢٨٣ هـ ودرس الحـديث على شـيخيه الكبيرين : ابن قديد

---

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ١٠٨ .

(٢) المصـدر السـابق ص ١٠٨ .

(٣) د . حسن احمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصـور الوسـطى والحديثة ص ٨٤ .

المصرى والنسائى الفارسى وهما من أجل فقهـاء الشافعية فى عصره . ولعل من أشـهر الكتب التى ألفها الكندى كتابه : الولاة والقضاة ، ويشـتمل الكتاب ، كما يدل عليه تاريخ الولاة والقضاة الذين تولوا حكم مصر منذ الفتح العربى الى قرب زمن المؤلف (٤) . والكتاب على هذا كتابان منفصلان ، أحدهما خاص بالولاة والآخر خاص بالقضـاة والمؤلف يأتى بهؤلاء وهؤلاء بحسـب الترتيب الزمنى لمجيئهم الى الديار المصرية . والمصريون بطبيعتهم يميلون فى تصنيف الكتب الى تبويبها وتفصيلها على هذا النحو ، ويخالفون فى ذلك مصنفى العراق . . ممن كانوا الى زمان الجاحظ على الأقل لا يحبون الكتب ولا تقسيمها بهذه الطريقة . والقارىء للكتب التاريخية الى عصر الكندى يخرج منها بنتيجتين هامتين :

الأولى : أن مصر منذ الفتح العربى كانت تشهد نوعين من الحياة السياسـية والاجتماعية هما حياة الجند الفاتحين وحياة القبط من سـكان مصر الأصـليين : الأولون يشتغلون بالجيش والادارة ، والآخرون يشتغلون بالحرث والزراعة .

والثانية : أن النظام الذى سـاد الحياة العربية المصرية هو النظام القبلى ، وكثيرا ما كانت الفتن بين القبائل العربية المصرية تنشب كلما عـزل وال قديم وأتى مكـانه وال جديد ، وأكثـر من هذا دلالة على النزعة القبليـة أن الولاة المصريين كانوا — وهم بمصر — لا يفكرون دائما الا فيما يعود بالخير على قبائلهم .

هذا المعلومات التاريخية والنتائج الاجتماعية وأشباهها يمكن اسـتخلاصها من كتب التاريخ المصرى عامة وكتاب الولاة والقضاة خاصة (٥) .

فكما حفل العصر الفاطمى بطائفة من المفسرين والأدباء والقراء والفلاسـفة والأطباء والمنجمين والرياضيين كذلك زخـر بطائفة من المؤرخين والرحالة لذلـك سنخص حديثنا عن هؤلاء المؤرخين وأهم مؤلفاتهم (٦) .

فمن المؤرخين الذين شـاهدوا هذا العصر أحمـد بن عبد الله بن أحمـد الفرغانى ، ولد بمصر فى ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبرى وروى عنه تصـانيفه وأخذ أحمـد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبرى

---

(٤) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٨٩ .
(٥) المصـدر السـابق ص ٢٩٠ .
(٦) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٩ .

وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه وكتاب سيرة كافور الاخشيدي وسيرة العزيز بالله الفاطمى ، وكان مقامه بمصر الى أن توفى سنة ٣٩٨ هـ (٧) .

وشهد هذا العصر المؤرخ المصرى الكبير الذى اخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر ، ذلك المؤرخ هو الحسن بن ابراهيم الليثى المصرى المعروف بابن زولاق (٨) . الذى سار فى نفس الطريق الذى سار فيه السابقون عليه من كتابته فى فضائل مصر وعجائبها ومحاسنها والأوجه التى تمتاز بها عن سائر الأمصار ، ويكفى أنه خصص كتابا من كتبه العديدة أطلق عليه اسم خطط مصر وبلغ من عنايته بأخبار بلاده وكتابته فى حوادثها أن أطلق المؤرخون عليه اسم « مؤرخ مصر » (٩) . فقد كان ابن زولاق من أعيان مصر وعلمائها ولد سنة ٣٠٦ هـ وروى الحديث واخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن وهبان وغيره وأولع بالتاريخ فروى عن الكندى وابن قديد وابن الداية (١٠) . كان مولده بالفسطاط حيث نشأ فى مهاد العلم والدرس فى أسرة نبغ فيها أكثر من عالم مفكر ، ودرس الفقه على أبى بكر الحداد أعظم أئمة عصره وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » وقد نشأ ابن زولاق فى عهد الدولة الاخشيدية ، وشهد فى فتوته ما تعاقب يومئذ على مصر وحكوماتها من حوادث وقلاقل ، ثم شهد بعد ذلك فى كهولته ذهاب ملك بنى الاخشيد ، وافتتاح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية . ونشأ بالقاهرة عاصمة الاسلام الجديدة واختار أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الاسلامية ومع أننا لم نعثر الا على القليل من تراث ابن زولاق فان ما انتهى الينا من آثاره يدل على أن مجهوده التاريخى يمتاز عن مجهود أسلافه بكثير من البراعة وحسن التنسيق (١١) ويعتبر ابن زولاق حجة فى تاريخ العصر الفاطمى فى الصدر الأول من أيام الفاطميين . لأنه كان مصريا ولأن شهرته قد ذاعت لسعة

---

(٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٣ ص ١٥ .

(٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٨ .

(٩) د. حسن أحمد محمود وآخرون : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ٨٤ .

(١٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٠٩ .

(١١) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

آطلاعه فى مادة التاريخ (١٢) زار دمشق سنة ٣٣٠ هـ وولى المظالم فى أيام الفاطميين وكان يظهر التشيع لهم (١٣) .

كان ابن زولاق فاضلا وله مصنف جيد فى التاريخ (١٤) صنف كتابا فى قضاة مصر ذيل به كتاب أبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى الى سنة ٢٤٦ هـ ، وذيل ابن زولاق من القاضى بكار بن قتيبة الى سنة ٣٨٦ هـ وهى أيام محمد بن النعمان قاضى الفاطميين الذى صنف البلاغ الذى انتصب فيه للرد على القاضى الباقلانى . وهو أخو عبد العزيز بن النعمان والله أعلم (١٥) .

يقول ابن زولاق : كان ابو جعفر أحمد بن يوسف بن ابراهيم الكاتب (أى ابن الداية) قد عمل سيرة أحمد بن طولون ، أمير مصر ، وسيرة ابنه أبى الجيش ، وانتشرتا فى الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت أنا ما فاته فى سيرتهما (١٦) .

. وابن زولاق المصرى الليثى من أعيان علماء أهل مصر ووجوه أهل العلم فيهم وله عدة تصانيف فى تواريخ مصر ومن محبته للتواريخ والحرص على جمعها وكتبها كثيرا ما ينشد :

ما زلت تكتب فى التاريخ مجتهدا حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا (١٧)

وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الأصلية عن تاريخ مصر . من أمثال كتاب « فضائل مصر » وهو عبارة عن خطط أو وصف « طبوغرافى » لمصر القديمة ، تناول فيه مؤلفه — على ما ذكر ابن خلكان (١٨) الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه . كما ألف ابن زولاق فى تاريخ مصر سير كافور وجوهر والمعز ، عليه معلومات

---

(١٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٥٢ — ٤٠١ .
(١٣) خير الدين الزركلى : الأعلام ج ٢ ص ١٩١ .
(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٠ .
(١٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٢١ .
(١٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٤ .
(١٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٦٦ (هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر فى رثاء أبى سعيد عبد الرحمن بن يونس بن عبد الأعلى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٤٧ هـ) .
(١٨) د . حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١١ نقلا عن ابن خلكان ج ١ ص ١٦٧ .

استقاها ما كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق من أمثال أبى الفرج الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م الذى عرف حفيده باسم سبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧ م والذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م (١٩) .

ومن مصنفات ابن زولاق أيضا كتاب سيرة المادرائيين ، وكتاب أخبار سيبويه المصرى وقد طبعت هذه الكتب كلها . وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار الكتب المصرية ; وكتاب التاريخ الكبير .

وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدرا هاما من المصادر التى اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده فابن خلكان والنويرى وابن حجر العسقلانى والسيوطى وابن دقماق وأبو المحاسن وياقوت والقلقشندى والعمرى وغيرهم نقلوا كثيرا من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » مما يدل على قيمة كتبه وأخباره .

ولاغرو فى ذلك فقد كان محدثا والمفروض فى المحدث أن يكون صدوقا فيما يرويه ، وقد تكون ميزة ابن زولاق الكبرى هى صدق أخباره حتى عرف بذلك بين معاصريه أنفسهم ، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة فى نفوسهم ، وتوفى ابن زولاق فى عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة (٢٠) .

وممن سار فى نفس الطريق الذى سلكه ابن زولاق مؤرخ آخر يسمى : « المسبحى » وهو محمد بن عبد الله المسبحى (٣٦٦ هـ / ٤٢٠ هـ — ٩٧٧ م / ١٠٢٩ م) عز الملك أمير مؤرخ عالم بالأدب كان على زى الأجناد وأصله من حران ومولده ووفاته بمصر (٢١) . وسمى المسبحى نسبة الى جده المسبح .

ولا غرو فقد كان المسبحى حجة فى تاريخ مصر فى الصدر الأول من أيام الفاطميين (٢٢) .

---

(١٩) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١١ — ٥١٢ .

(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٤ — ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٢٥ .

(٢١) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ٧ ص ١٤٠ .

(٢٢ ذكر تصانيف المسبحى من جاء بعده من المؤرخين كابن منجب وابن ميسر وابن خلكان ، والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى .

وكان المسبحى من أصدقاء الحاكم بأمر الله وخاصته ، عده من اقطاب المفكرين والأدباء فى عصره فهو الكاتب والمؤرخ الكبير فقد تولى ديوان الترتيب سنة ٣٩٨ هـ وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ونال المسبحى حظوة لدى الحاكم حتى كانت له مجالس ومحاضرات شائقة مع الحاكم بأمر الله الفاطمى (٢٣) .

والجدير بالذكر ان المسبحى أعظم شخصية فى الحركة الفكرية فى عصر الحاكم بأمر الله فكان من أقطاب الامراء ورجال الدولة الفاطمية حيث أخذ المسبحى بقسط وافر فى مختلف علوم عصره وشغف بتدوين التاريخ وألف عدة كتب منها تاريخه المسمى « أخبار مصر » وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والامراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والآثار . وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى . وكتب المسبحى كتبا أخرى فى التاريخ والأدب والفلك والاجتماع (٢٤) .

وكان المسبحى من المؤرخين الاخباريين شيعى المذهب صنف كتابا فى تاريخ مصر مدحه ابن خلدون ، وكتابا فى النجوم وكتابا فى التصريح والتلويح من الشعر وقد اعتمد عليه مؤرخون كثيرون ومنهم أبو شامة صاحب كتاب الروضتين ، وفى ذلك ما يدّل على أن العلم لم يعرف التفرقة بين المذاهب المختلفة . فهذا أبو شامة السنى لا يجد غضاضة على نفسه فى الأخذ عن المسبحى الشيعى ويعتمد عليه فى روايته (٢٥) .

فالمسبحى المؤلف المشهور قد عاش فى مصر متأخرا غير أن مؤلفاته كانت تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) فى مصر .

وقد كتب ثلاثين كتابا تشتمل على نحو أربعين الف صفحة تتضمن الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد وتاريخ مصر وديانتها . كما دون رسائل فى الخمر واللهو والطعام والطهو ، كما كتب فى النجوم والشياطين والأحلام والرغائب والقصص والأمثال وغير ذلك من الموضوعات التى يمكن نوصف بأنها غريبة (٢٦) .

---

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٥٣ .
(٢٤) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٩١ .
(٢٥) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .
(٢٦) د. حسن ابراهيم وآخرون : مسيرة القاهرة ستانلى بول ص ١٠١ .

ولهذا يعتبر المسبحى من أقطاب مصر فى العلم والسياسة والادارة وكان من أركان الحركة العلمية والأدبية فى مصر الفاطمية توفى ٤٢٠ هـ . وقد شهد العصر الفاطمى مؤرخا آخر له حظوة فى حركة التاريخ المصرى وهو : القضاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى وكان فقيها شافعيا تولى القضاء بالديار المصرية (٢٧) .

وكان القضاعى من المؤرخين النابهين فى العصر الفاطمى تفقه على مذهب الشافعى ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء ثم اتصل بالوزير الجرجرائى فجعله الوزير كاتب علامته ثم عمل فى ديوان الانشاء واوفده أولو الأمر بمصر الى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ رسولا من قبلهم الى الامبراطورة تيودورا لاصلاح ما فسد من العلاقات بين المصريين والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصداقة المصريين اذ ذاك . وفضلوا أن ينحالفوا مع طغرلبك . ولما عاد القضاعى من هذه السفارة اتخذه الوزير اليازورى كاتبا لانشائه وعلامته .

وهكذا كان مقدما عند الفاطميين ، بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم. الف القضاعى كتبا كثيرة نذكر منها كتابه فى مناقب الامام الشافعى وأخباره . وكتاب الشهاب ، وكتاب أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وكتاب خطط مصر وهو المنعوت بالمختار فى ذكر الخطط والآثار (٢٨) . وعيون المعارف وهما مختصران فى التاريخ . ويعتبر القضاعى استاذ مدرسة فى رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال النحوى .. وممن روى عن القضاعى ابو عبد الله الحميدى والخطيب ابو بكر احمد بن على بن ثابت صاحب تاريخ بغداد فقد قابل القضاعى فى الحج ٤٥٠ هـ وروى عنه (٢٩) .

ولهذا فان أثر القضاعى فى معاصريه ومن جاءوا بعده واضح فى رواياته وما اقتبسوه عنه . كما لا يفوتنا أن نذكر ان القضاعى كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى فهو مؤرخ ومفسر من علماء الشافعية فهو اذن شخصية علمية برزت فى العصر الفاطمى لما لقيه من الرعاية والتشجيع من الفاطميين رغم مخالفته لمذهب

---

(٢٧) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٩١ .

(٢٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦ .

(٢٩) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٦٣ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٧ — وفيات الأعيان : ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٢ .

الدولة كما اعتمد المقريزى على مؤلفاته (٣٠) .

والقضاعى ثقة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين وكان من النابغين فى الكتابة ، حتى صار من كتاب البلاط وقد عهد اليه أن يكتب العلامة (٣١) فى الوزير أبو القاسم الجرجرائى . ولكن القضاعى قد توفى فى سنة ٤٥٤ هـ .

وفى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى نبغ طائفة من المؤرخين فمن هؤلاء المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز أبو الحسن على بن محمد الشابشتى (٣٢). حاجب وشمكير بن زياد الديلمى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ / ٩٨٨ م وقد اتصل ابو الحسن بخدمة العزيز فولاه خزانة كتبه ، واتخذه من جلسائه وندمائه وتوفى فى أيام الحاكم بأمر الله ، كما أن من مؤلفات العصر الفاطمى كتاب « الديارات » لأبى الحسن على الشابشتى وقد ذكر فى كتابه أخبارا عن أديرة فى العراق والموصل وسوريا والجزيرة ومصر وما قيل عن كل منها من الأشعار وما جرى فيه من حوادث وأمور ، على أن هذا الكتاب على نفاسته لم يمدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمى ، اللهم الا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسى بابنة وزيره الحسن بن سهل (٣٣) .

ومن المؤرخين الذين ظهروا فى تلك الفترة ، أعنى فى أواخر الدولة الفاطمية ابن المأمون البطائحى ولد المأمون وزير الخليفة الآمر باحكام الله ، وقد ألف تاريخا استعرض فيه كثيرا من نظم الدولة الفاطمية ورسومها فى أواخر عهد المستنصر والآمر ، ومنه ينقل المقريزى فى مواضع كثيرة ، وابن الطوير أبو محمد عبد السلام المعروف بابن الطوير المصرى مؤلف كتاب « نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » وهو مؤلف لم يصلنا ولكن المقريزى يدلل على اهميته وطرافته بما يقتبس منه فى أخبار المواكب والحفلات الفاطمية والشريف الجوانى وقد ألف كتابا فى الخطط ينقل المقريزى عنه مواضع كثيرة وتوفى سنة ٥٨٨ (٣٤) .

---

(٣٠) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٣ .

(٣١) كانت العلامة أو الاشارة التى تذيل بها الأوراق لاعطائها الصفة الرسمية تشمل هذه الكلمات « الحمد لله شكرا لنعمته » .

(٣٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٥٢ .

(٣٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٧ .

(٣٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٧ — د . محمد كامل حسين : أدب مصر الفاطمية ص ١١٣ .

كما نبغ من المؤرخين محمد بن عبد الله بن محمد المتقى الافريقى أبو عبدالرحمن فلكى مؤرخ متفنن من أهل أفريقية سكن مصر وتقدم عند ملوكها وألف « تاريخا » ذكر فيه بنى أمية وبنى العباس وشيئا من محاسنهم فغضب علية العزيز الفاطمى ، فلزم داره الى أن توفى ، له تصانيف كثيرة منها : التاريخ الجامع باغ به بعض أيام العزيز ويقال « التاريخ الكبير » وسيرة العزيز الفاطمى والوسيلة الى درك الفضيلة وأدب الشهادة والسبب لعلم العرب فى العربية وكتب فى النجوم وأحكامها (٣٥) .

ومن المؤرخين الوافدين على مصر أبو ابراهيم بن القاسم أبو اسحاق المعروف بالرقيق القيروانى (أو بابن الرقيق) (٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) مؤرخ أديب من أهل القيروان كان يلى كتاب الحضرة فى الدولة الصنهاجية واستمر فيها زهاء نصف قرن . ورحل الى مصر سنة ٣٨٨ هـ يحمل هدية من باديس بن زيرى للحاكم وعاد الى وطنه فتوفى فيه على الأرجح ، وصفه ابن رشيق (صاحب العمدة) بانه شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع . غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس .

وقال ابن خلدون فى المقدمة : « ابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده الا مقاد » ونعته ياقوت فى معجم الأدباء بالكاتب وأورد أسماء كتبه منها : تاريخ أفريقية والمغرب عدة مجلدات ، كتاب النساء ، نظم السلوك فى مسامرة الملوك — وله قطب السرور فى وصف الأنبذة والخمور (٣٦) .

ومن مؤرخى مصر فى العصر الفاطمى ابن أبى طى توفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م ١٢٣٣ م واسمه يحيى بن حميدة (أو حافظ) ويرجع أصله الى حلب وقد طرده نور الدين محمود لخروجه فى آرائه على الدين وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية وقد اعتنق ابنه يحيى هذه العقائد حيث يؤيد ذلك كتاباه معجم « شعراء الشيعة » ورسالة فى فضل الأئمة الاثنى عشرية (٣٧) .

وكان والده أحد أشراف بلدته وكان من المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد

---

(٣٥) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ٥ ص ٩٨ .
(٣٦) خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ١ ص ٥١ — ٥٢ .
(٣٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٥٧٣ .

الشيعة التي كان الفاطميون يجدون في نشرها في البلاد السورية (٣٨) .

وقد أتى على مؤلفات ابن أبى طى فى السير والتاريخ وذلك لانتشار العقائد السنية فى بلاد الشام ، ولم يبق من مؤلفاته أيضا الا شرح لامية العرب للشنفرى وقد ألفه سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م .

ومن المؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى وقد أشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر كما برع فى الخط ، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الانشاء للخليفة الآمر بأحكام الله ، وظل فيه الى سنة ٥٣٦ هـ ومن تصانيفه كتاب « قانون ديوان الرسائل » و « الاشاره الى من نال الوزارة » الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر . وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢ هـ (٣٩) .

كما ظهر أو برز أيضا عمارة اليمنى بن على بن زيدان الحكمى المذحجى اليمنى أبو محمد نجم الدين مؤرخ ثقة وشاعر فقيه وأديب من أهل اليمن ولد فى تهامة ورحل الى زبيد سنة ٥٣١ هـ وقدم مصر فى عهد الفائز الفاطمى سنة ٥٥٠ هـ . فى وزارة طلائع بن رزيك فأحسن الفاطميون اليه وبالغوا فى اكرامه عندهم ومدحهم وبقى وفيا للدولة الفاطمية حتى شنقه وصلبه صلاح الدين بتهمة التآمر عليه (٤٠).

اما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بنى منقذ اصحاب قلعة سيزر وعلمائهم وشجعانهم وله تصانيف عدة فى فنون الأدب رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر فأقام فيها موقرا الى أيام الوزير الصالح بن رزيك سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م ثم عاد الى الشام وأخبار أسامة جليلة الخطر لانه شاهد بنفسه حال مصر فى زمنه ، وما وقع فيها من حوادث نخص منها بالذكر المعركة التى دارت بين جند الخليفة الفاطمى وانصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ . والموقعة التى دارت رحاها بين أتباع هذين الوزيرين فى السنة نفسها ، وبنى عمه سنة ٥٤٩ هـ والثورة التى أثارها الاهلون على قتلة الخليفة وبعض اهل بيته : وهم الوزير

---

(٣٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ — ٥١٨ .
(٣٩) د . أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٠٢ — الدولة الفاطمية فى مصر د. محمد جمال سرور : ص ١٨٠ .
(٤٠) خير الدين الزركلى — الأعلام جـ ٥ ص ١٩٣ .

عباس وابنه نصر اللذان لقيا حتفهما بعد ذلك بقليل — كل هذه المعلومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابها (٤١) .

ومن مؤرخي مصر في العصر الفاطمي أبو عبد الله محمد بن سعد القرطي وكان أبو عبد الله محمد بن سعد القرطي من ولد عمار بن ياسر ، وكان مولعا بالتاريخ رحل الى اليمن وبلاد الهند ، وصنف كتاب « تاريخ مصر » في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه المغرب ، ومحمد بن سعد القرطي هذا من احفاد محمد بن جعفر القرطي وكان معاصرا للاخشيديين في مصر فلده مؤنس الحسبة بمصر ثم قلد الخراج (٤٢) . وقلدها بمصر والشام في عهد تكين .

وهناك من المؤرخين المسيحيين أبو صالح الأرمني المتوفى ٦٠٥ هـ — ٦٠٦ هـ — ١٢٠٨ م — وله كتاب « كنائس وأديرة » وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد تحت قيادة شيركوه كتب أبو صالح جزءا لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيها سمعه ورآه هو بنفسه في زياراته للكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها ، والكتاب مملوء بأمثلة من الخيرات التي أغدقها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط (٤٣) .

كما أن هناك من المؤرخين الاقباط أيضا كسعيد بن البطريق ويحيى بن سعيد الأنطاكي ساويرس بن المقفع في القرنين الرابع والخامس وكأبي صالح الأرمني ، وابن الراهب ، والمكين في القرنين السابع والثامن . وكتب هؤلاء جميعا في تاريخ مصر على نمط التواريخ العربية بمعنى أنهم رتبوها على حسب السنين واعتمدوا فيها على مصادر اسلامية وكتبوا كذلك كتبا هامة في تاريخ الأديرة (٤٤) .

ومن مؤرخي مصر من أهل الذمة ساويرس بن المقفع ، بدأت اللغة القبطية

---

(٤١) ياقوت الحموي : ارشاد الأريب ج ٢ ص ١٧٣ — ١٧٦ — وفيات الأعيان: ابن خلكان ج ١ ص ٧٨ — ٨٠ .

(٤٢) ابن سعيد : كتاب المغرب في حلى المغرب ص ٩٢٨ .

(٤٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٢ .

(٤٤) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

تفقد مكانتها فى الحياة الدينية والثقافيـة ، ومع اضمحلال هذه اللغـة فى القـرن الرابع الهجرى اصبح المؤرخون المسيحيون لا يكتبون بها انما يكتبون باللغة التى يقرؤها اغلب الناس ، وقد الف بهذه اللغة الجديدة المؤرخ ساويرس بن المقفـع الذى كان اسقفا لمدينة الأشـمونين فى القرن العاشر الميـلادى او على وجـه التحقيق فى الفترة الممتدة من ٩٣٢ م / ٩٥٢ م وكان من ائمة المثقفين المسيحيين فى العصر الفاطمى . فقد كان يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة . كما ينسب اليـه أنه كان يجادل قضاة المسلمين وشـيوخهم ويقارعهم الحجة بالحجة كما كان أول مؤرخ قبطى يكتب باللغة العربية والكتاب الذى ينسـب اليه هو كتاب « سـير الآباء البطاركة » (٤٥) . الذى ترجـم فيـه لرجال الكنيسـة المصرية حتى عصره والكتاب رغم أنه تاريخ لرجال الكنيسـة الا انه يتعـرض لتاريخ مصر فى فتـرة تقرب من خمسة قرون تلك الفترة التى شـهدت ميلاد امة واتسـاع فتوحـات وتوحيـد شـعوب وقيـام حضارة زاهـرة خلفت للانسـانية حضـارة وتراثا مجيـدا (٤٦) .

ومن مؤرخى النظم الادارية الماوردى (٤٧) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م فى كتاب « الأحكام السلطانية » وهو أول من كتب بالعربيـة عن هذه النظـم فى الاسـلام ويعد من اعظم المصادر لما كتبه عن ادارة الشـئون العامة فى ايـام الفاطميين على ان الاسـلوب الذى يحيطه الغموض بما كتب الماوردي مما يزيد فى قيمة ما كتبه المتاخرون عن هذا الموضوع (٤٨) .

ثانيـا — الجغرافيـــا

كان لاتساع نطاق التجارة فى هذا العصر أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالة . فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ، ووضعوا فى وصفها الكتب والأسـفار وما شـاهدوه فى البلدان التى اختلفوا اليهـا وصفا دقيقا مبنيا على المشاهدة ، وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة — هى

(٤٥) د. أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٤٨ — ٨٩ .

(٤٦) د. حسن احمد محمود : فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ص ١١٥ — ١١٦ .

(٤٧) سمى الماوردى لانه يبيع ماء الورد ومنه عرف بهذا اللقب .

(٤٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٩ .

خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التى اكتسبوها من اسفارهم فى كثير من الاقاليم والممالك والبلدان (٤٩) .

ولكن مما يسترعى النظر ان هذه الثروة الجغرافية العظيمة التى خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهورا واضحا الا فى العصر العباسى الثانى ، ويعتبر ابن خرداذبه الفارسى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى من اقدم جغرافيى المسلمين فى العصر العباسى (٥٠) . فقد خلف لنا كتابه المسالك والممالك » .

ويعتبر بحق من اقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون فى الاهتداء الى الطريق البحرى الذى بدأ من مصب دجلة عند الابلة ، ويصل الى الهند والصين .

ومن جغرافيى هذا العصر : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح اليعقوبى المتوفى ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م صاحب كتاب « البلدان » وقد قام برحلات طويلة فى ارمينية وايران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته فى كتابه ، والهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٧٣ م وقد ألف كتابه « صفة جزيرة العرب » وكان أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٥٦ م من كبار الرحالة المسلمين وقد زار كل أرجاء العالم تقريبا فزار بلاد فارس والهند وجزيرة سرنديب ـ وصحب التجار الى بحار الصين ، كما زار زنزبار وسواحل افريقية الشرقية والسودان وقام برحلات فى اقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى (٥١) وبلاد الشام وفلسطين وزار مصر فى عهد الاخشيد سنة ٣٣٠ هـ . ومن اشهر الجغرافيين والرحالة فى القرن الرابع الهجرى شمس الدين ابو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م .

وكتابه « احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية (٥٢) . وكان البشارى المقدسى من الجغرافيين

---

(٤٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢٠ .
(٥٠) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢١ .
(٥١) د. زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦ .
(٥٢) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٢١ .

المعاصرين للخليفة العزيز بالله الفاطمى (٥٣) . وفى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٦م كتب المهلبى للخليفة العزيز بالله كتابا فى الطرق والمسالك وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا وكان علماء الجغرافيا فى القرن الرابع الهجرى لا يعرفون من أخبار السودان الا قليلا جدا . وسمى المهلبى كتابه « العزيزى » نسبة الى الخليفة العزيز بالله ، وأصبح هذا الكتاب اهم مصادر الجغرافى ياقوت الحموى عند حديثه عن السودان (٥٤) .

ومن المصادر التى عاش مؤلفوها فى الايام الأخيرة فى عهد الفاطميين كتاب سفرنامه (٥٥) . لناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٠٨ م وهو كتاب له اهمية فى تاريخ الفاطميين لانه فضلا عن أن ناصر خسرو كان اسماعيليا ينتصر للمذهب الاسماعيلى . فان هذا الوصف المسهب الذى كتبه عن زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ — ٤٤١ هـ فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ هـ — ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ م — ١٠٩٤ م) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها فى العصر الفاطمى (٥٦) . وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء وكان ناصر خسرو وزيرا فى ساسان ، ثم اعتزل الأعمال السياسية ومال الى الدين ، فحج بيت الله وأصبح داعيا اسماعيليا وانه ليقص علينا فى كتابه « سفرنامه » مالاقاه فى رحلته الى مكة ثم الى دمشق فبيت المقدس وأخيرا الى القاهرة التى وصل اليها فى السابع من صفر سنة ٤٣٩ هـ ٧ اغسطس ١٠٤٧ م فاقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ .

وبعد أن شاهد كثيرا من المدن العظيمة فى بلاد فارس والعراق ، رأى أن القاهرة تدفاقت غيرها من مدن العالم الاسلامى فى العظمة والجلال . وكان مغاليا فى عقائد الاسماعيلية ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده كما اعتقد أيضا أن الفاطميين هم الائمة حقا ، وقد عبر عن كل ذلك فى كتابه (٥٧) ، ثم اعتزل السياسة لكن الخليفة المستنصر عينه كبيرا لدعاة

---

(٥٣) المرجع السابق ص ١٢١ .
(٥٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ١٠ .
(٥٥) طبع المسيو شفير (Schefer) متنه بالفارسية وترجمته الفرنسية مع الحواشى والتعليقات .
(٥٦) استفاد ستانلى بول (Stanly-Pool) وأوليرى (O'Leary) من وصف ناصر خسرو لمصر فيما كتباه عن الدولة الفاطمية .
(٥٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢٢ .

الاسماعيلية فى خراسان بارتلد الى أن ثمة علاقة أدبية بين هذا الكتاب « كتاب بطليموس » وكتاب « الجيهانى » ويبين أيضا أن بينه وبين القسم الجغرافى من الكتاب الفارسى « زين الأخبار » لكرديزى (كتب حوالى ١٠٥٠ م) صلة أخرى . وتذكر أخيرا أنه ألف فى ذلك القرن أيضا للخليفة العزيز الفاطمى (٩٧٥ م / ٩٩٦ م) كتاب المسالك والممالك للمهلبى ولم يبق من هذا الكتاب سوى مقتطفات فى ياقوت وأبى الفدا (٥٨) . وأن وصف المقريزى الآتى لبعض المصورات الثمينة المتقنة الرسم ليدل على ما كان يجده الفاطميون من لذة فى الجغرافية والتاريخ . وتتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من ابداع واتقان اذا ما نظرنا الى مقدار ما أنفق على صنعها من الدنانير — ويقول المقريزى فى ذلك أن المعز لدين الله الفاطمى خلف لنا خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣ هـ (٩٧٤ م / ٩٧٤ م) من الحرير الأزرق التسترى (٥٩) والقرقوبى (٦٠) المنسوج بالذهب وكان مبينا عليها بالذهب كافة الأقطار للعالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . وكان مكتوبا فى أسفل هذا المصور : « مما أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا الى حرم الله اشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » وهذا المصور الذى كلف المعز اثنين وعشرين الف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الأتراك سنة ٤٦٠ هـ (٦١) . كذلك وجد فى خزائن خلفاء الفاطميين بقصورهم بالقاهرة المعزية مئات من ستور الحرير المنسوجة بالذهب فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله (٦٢) .

ولكن فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى حدث تطور جديد فى

---

(٥٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ ص ٢٢ .

(٥٩) نسبة الى تستر وهى معربة عن ششتر أشهر مدن خوزستان .

(٦٠) العرقب طائر يرى فى الغدر والمستنقعات ومن اللفظ يمثل قماش قرقبى وهو نوع من القماش كان يصنع أولا فى بلاد اليونان ثم أدخلت صناعته الى مصر فصار يصنع غالبا فى دمياط وتنيس وهذا القماش مشهور بألوانه اللامعة التى تتغير دائما لاسيما اذا انعكست عليها أشعة الشمس .

(٦١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢٢ — ٥٢٣ .

(٦٢) د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٢٤٠ .

رسم الخرائط عند المسلمين لم يعرف له مثيل من قبل وذلك على يد اشهر جغرافى معروف هو الادريسى الحموى — توفى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م فهذا الجغرافى الكبير الذى ولد فى سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م وينتمى الى الأسرة الادريسية العلوية فى مراكش كان قد اضطر للهروب الى صقلية عند الملك المسيحى النورماندى روجر الثانى وهو الذى يسميه العرب « رجار بن رجاز » وقد استضافه هذا الملك فى بالرمو وقربه منه وجعله يرسم له خرائط العالم . وقد رسم الادريسى اثنتين وثمانين خريطة تعتبر من أدق ما وصلنا من خرائط رجع فى رسمها الى المصادر الاسلامية وغيرها (٦٣) والى ما وصل اليه الغربيون فى أوربا . فلم يقتصر فى رسم خرائط على البلاد الاسلامية وانما رسم بلاد العالم على الأخص اوروبا . ونظرا للاهتمام الذى أولاه روجر الثانى للجغرافيا ، فان الادريسى أهدى اليه كتابه المعروف « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وسماه بالكتاب الروجارى . وقد بقيت خرائط الادريسى عدة قرون الأساس الذى بنى عليه رسم الخرائط فى عهد النهضة الأوروبية كما ان طبقة الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعد الادريسى لم يضيفوا خرائط جديدة يمكن أن نستدل بها على تطور جديد لرسم الخرائط (٦٤) .

وصف لنا المقريزى (٦٥) مصورا آخر تركه الحاكم ، فقال : ان ذلك العمل الفنى الدقيق كان بكتلتين من الجواهر والأحجار الكريمة وقد كلف الحاكم سبعمائة دينار غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين الفا فقط .

وكان هناك مصورات اخرى كثيرة كان حظها كحظ المصورات التى تكلمنا عنها فان المقريزى يستطرد فى الكلام فيذكر انة وجد بالقصر نحو الف مستر مزركشة بالذهب تمثل الممالك المختصة بملوكها وأسمائهم وموجزا لحياة كل منهم (٦٦) .

---

(٦٣) د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٢٤٠ .
(٦٤) المصدر السابق ص ٢٤٠ .
(٦٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٦ .
(٦٦) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٥ .

وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان يناله الصناع الحاذقون من الفاطميين وهى تبين لنا أيضا كيف كان الملم الفاطميين بممالك العالم المعروفة لهم فى القرن الثانى عشر الميلادى . ومن المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب « احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى وهو كتاب قيم من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ومن هذه المصادر أيضا كتاب « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » لأبى عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٩٤ م — وهذا الكتاب أحد أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب « المسالك والممالك » (٦٧) .

ولهذا نجد ان تراث الفاطميين فى هذا الجانب قد تعرض للضياع من قبل أعداء الفاطميين رغم ان قصور الفاطميين تشهد باهتمامهم العظيم بالجغرافيا .

ثالثا — الفلسفة (٦٨)

ان مؤيد الدين الشيرازى فى ديوانه قد صور لنا عقائد الفاطميين تصويرا تاما وكشف لنا عن تعمقه فى فلسفة الدعوة الاسماعياية من خلال محاضراته .

فقد تحدث عن الولاية والتوحيد وأشار فى قصائده الى وجوب طاعة الائمة بقوله :

وهم أولو الأمر ائمة الهدى	عصمة من لاذ بهم من الردى
مفروضة طاعتهم على الأمم	قاطبة من عرب ومن عجم
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا	ثم أولى الأمر بهم موصولا

---

(٦٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ٥٢٣ .

(٦٨) تعتبر الفلسفة فى نظر الاسلاميين — واحدا من مجموعة علوم اطلقوا عليها اسم « علوم الاوائل » أو « علوم القدماء » أو « العلوم القديمة » وهو اسم أطلقه هؤلاء الكتاب على تلك العلوم التى نفذت الى البيئة العلمية الاسلامية بتأثير المؤلفات المأخوذة عن الكتب اليونانية تأثيرا مباشرا أو غير مباشر . وهى التى يسمونها « كتب الأوائل » فى مقابلة « علوم العرب » أو « العلوم المحدثة » وفى مقابلة « العلوم الشرعية » على وجه التخصيص . وفى مقدمة علوم الأوائل : الرياضيات — الطبيعيات — والالهيات . مما اشتملت عليه دائرة معارف اليونان أى الفروع المختلفة من رياضة وفلسفة وطبيعة وطب وفلك وموسيقى وما اليها ونظرا الى أن الاشتغال بهذه العلوم قد ارتبط بالتقاليد الأفلاطونية المحدثة . فقد أدخل فى علوم الأوائل وعلوم الفلسفة ممارسة علوم السحر والطلسمات والنيرنجيات الى جانب علم التنجيم (انظر كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية — مقالة جولد تسيهر ص ١٢٣) .

ثـلاث طاعات غـدت معلومة في آية واحـدة منظـومة (٦٩)

كما عرض المؤيد لمبدأ التاويل والمجاز فى القرآن والرأى والقياس — كما عرض لنظرية المثل والمثول . فالاسماعيليون يذهبون الى القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم بتاويل ما أتى به وانه أول الراسـخين فى العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسـخين فى العلم . وكما أن النبى كان يعلم تأويل القرآن فان من قـام مقامه فى كل عصر يعلم هذا التاويل . كما يذهب الاسماعيلية الى القول بأن القرآن الكريم بحاجة الى أن يخرج كنوز معانيه ويؤولها لأن له معانى غير المعـانى التى تتداولها السنة العامة وهذه المعانى هى سير المجاز القرآنى . واعجازه . ليس فى لفظه بل فى معناه وفى ذلك يقول المؤيد :

ان كان اعجـاز القرآن لفظـا ولم ينـل معنـاه منـه حظـا
صـادفتهم معقـوده محلولا من أجل أن أنكرتم تأويلا (٧٠)

والامامة فى نظر الاسماعيلية هى قيادة العالم وحمـل معرفة الحقيقة اليه . ولابد من وجود هذا المرشد فى كل عصر حتى لا يبقى العـالم جاهلا . وان عليـا والأئمة من ذريته هم الذين اختصـوا بتأويل القرآن دون غـيرهم من النـاس . ويقول المؤيد :

وتأويله مسـتودع عنـه واحـد وان لم تسـائله فزورا تأولت
واحمد بيت النور لاشـك بابه أبـو حسـن والبيت من بابه يؤتى
للعلم قـوم به خصـوا أقامهم رب الورى للورى فى أرضه علما (٧١)

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس فى التفسير والفقه وطعنوا فى فتاوى الصحابة ، وذهبوا الى أن الفقهـاء من أهـل المذاهب الأولى حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وان فهموا لفظه ، يتضح ذلك من قول المؤيد :

وهو الذى قـد حرف الكتـابا عن وجهـه وجـانب الصـوابا
يثبت شـيئا ليس فيـه فيـه وحكم أى أحكمت ينفيـه (٧٢)

---

(٦٩) د . حسـن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٩٦ — نقلا عن ديوان المؤيد ص ٦١ .

(٧٠) ديوان المؤيد ص ١٠١ .

(٧١) ديوان المؤيد ص ١٠٣ .

(٧٢) المصـدر نفسـه ص ١٠٤ .

كما يعتقد الاسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت . وان هذه العلوم هى علوم الباطن . ولذلك سموا الباطنية . لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم قال المؤيد :

وربّ معنى ضمه كلام كمثل نور ضمه ظلام
باق بقاء الحب فى السنابل فى معقل من أحرز المعاقل (٧٣)

وان استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثول (٧٤). اى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسمية المحسوسة . وهذا الاسم مأخوذ من أقوال الفاطميين : « ان الله جعل لهم مثلا دالا على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله اذ يقول سبحانه وتعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) (٧٥) . فأخفى الله سبحانه الممثول وستره وجعل مثله طريقا الى معرفته اختبارا لعباده وامتحانا لهم .. قال المؤيد :

والذى قال فى الكتاب تعالى مثل ذاك تحته ممثول
أقصد : حما ممثوله دون المثل ذا ابر النحل وهذا كالعسل (٧٦)

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن وأنكرتها . فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين :

أحدهما محسوس . والآخر معقول وهو رؤية العقل ، فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسيمة والعقل لا يدرك الا المدركات العقلية . والرؤية اما رؤية حس أو رؤية عقل قال المؤيد :

فالعقل للمرء اداة كالبصر ذا باطن فيه وهذا قد ظهر
كلاهما يدرك بالمجانسه مقالة صحت بلا ممارسه
وليس من جنس العقول الله يا قوم : كى تدركه حاشاه (٧٧)

---

(٧٣) ديوان المؤيد ص ١٠٦ .
(٧٤) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول فالمثل الظاهر . والممثول الباطن ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطنا . والله يضرب الأمثال للناس . أما بواطن هذه الأمثال أو ممثونها فلا يعلمه الا الائمة لانهم وحدهم أصحاب علم الباطن .
(٧٥) سورة الزمر ٣٩ — ٢٧ .
(٧٦) ديوان المؤيد ص ١٠٧ .
(٧٧) يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

كما تعالى أن يكون كالصور   مجسما كيما يلاقيه البصر

فكأن المؤيد قد رفض أقوال المنبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار . كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول . وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالفوا المعتزلة الذين رفضوا الصفات . يدل على ذلك قوله :

فالفرقتان اجتمعا مشبهه   جنا له عشواء جهل وعمه (٧٨)

أما نظر المؤيد الى ما ورد فى آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية . فان للمؤيد فى ذلك رأيا يتفق مع التأويل الذى ذهبت اليه الاسماعيلية . فهو يرى أن اليد هى النعمة وهى القوة — كما يتبين ذلك من قوله :

وقائل لله وجه ويد   وقوله : هذا لديه رشد
وقائل ذلك حكم باطل   ان صح ذا فالله شخص ماثل (٧٩)

أما رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل السور كقاف ونون وكهيعص فانه يتفق مع رأى الاسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معانى مستورة خفية لا يعلمها الا خزنة علم الله (٨٠) . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا اليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الانبياء على حين يشير بعض هذا القصص الى أن الانبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : ان لهذه الآيات تفسيرا ظاهريا وظاهرها ما قال به جمهور المفسرين ، أما باطنها فانه يبعد الأنبياء عن المعاصى . كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء . لأن النطق — كما قالوا — قسمان : أحدهما ما يتميز به الانسان عن البهائم ، وهو النطق عما فى الدنيا . والآخر النطق عما فى الدار الآخرة الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب (٨١) .

ومن هذا العرض السريع يمكننا أن نقول عن فلسفة الفاطميين كما عرضها

---

(٧٨) ديوان المؤيد ص ١١٠ .
(٧٩) نفس المصدر ص ١٤٤ .
(٨٠) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٩٨ .
(٨١) مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٢ — ١٥٢ .

داعى دعاتهم وفيلسوف دعوتهم مؤيد الدين الشيرازى أنها تقوم على أسس ومبادىء أهمها :

١ — توحيد الله وتنزيهه ونفى الاشراك والقرناء له .

٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ وأن محمدا خاتم النبيين .

٣ — القول بوصاية على بن أبى طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعا .

٤ — التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهرا وباطنا .

٥ — أبطال الرأى والقياس فى كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة .

٦ — القول بالظاهر والباطن معا . بمعنى انه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر (٨٢) .

وهكذا نجد أن الدولة الفاطمية قامت على اسس الدعوة الشيعية التى اشرنا الى بعضها سابقا — وفى ظروف غامضة اتشح الخلفاء الفاطميون خلالها بثوب الامامة الدينية (٨٣) . فظهر ميلها الى الفلسفة لحاجتها اليها فى نشر عقيدة دينية شعرت يوم اذ بغرابتها كل الغرابة على الأوساط السنية فى مصر على حين أبغض المذهب السنى هذه الفلسفة لأن المذهب السنى واضح لا يحتاج الى الاستعانة بها (٨٤) . ومصر من أجل أنها أكثر استجابة لقلبها من عقلها كرهت العلوم العقلية واندفعت تتحمس للدين تحمسا قويا كما رأينا . فأما بغضها للعلوم العقلية فهو الذى حرمها من الانتفاع بفلسفة الاسكندرية قبل مجىء الاسلام ، كما حرمها من الانتفاع بفلسفة الفاطميين بعده . فأما فلسفة الاسكندرية فقد حاربتها محاربة قوية واعتبرتها فلسفة وثنية ، ومال الشعب المصرى الى مؤازرة هذه الحركة حتى ضعفت مدرسة الاسكندرية وتعرضت للتلف والضياع قبيل ظهور الاسلام .

ولما أتى الاسلام أجهز على البقية الباقية منها ومعنى ذلك أن موقف المصريين من الفلسفة والدين لم يتغير ، وأن استجابتهم للدين كانت أقوى دائما من

---

(٨٢) مقدمة ديوان المؤيد ص ١٨ .

(٨٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٢٥٢ .

(٨٤) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٣٣٣ .

استجابتهم للفلسفة (٨٥) . فلسفة الفاطميين كانت فى أول أمرها تضطر المصريين وغيرهم الى التفكير ، وبدأ الدعاة والقضاة فى قيادة هذه الحركة ومضوا فيهما شوطا لا بأس به . وكان من حق هذه الفلسفة الفاطمية مادامت بعيدة نوعا ما عن الغلو والاسراف اللذين وصفت بهما فرق شيعية أخرى أن تثبت قدمهما فى مصر وأن تتأثر مصر تأثيرا قويا بهما فى ذلك العصر ، وأن يكون من نتيجة هذا كله أن يظفر المصريون بمكانة عظيمة فى تاريخ الفكر ، فلم تكن الحركة الفكرية فى مصر عظيمة لو أن الفاطميين عاشوا فيها أقوياء من هذا الحد الذى قدر لهم ، أو لو أن المصريين آزروا خلافتها مؤازرة قوية وتحمسوا لهذه الحركة تحمسا قويا أيضا أو لو أن صلاح الدين لم يأت الى مصر لازالة هذه الخلافة ، ولكن الدولة الفاطمية عاشت بالديار المصرية أكثر من قرنين كاملين فرقت فيهما تفرقة واضحة بين علم يصلح للعامة وعلم لا يصلح الا للخاصة ، واسبغت على هذه التفرقة ثوبا من الدين . وكانت هذه التفرقة معقولة فى ذاتها ولاغبار عليها من الناحية الديمقراطية البحتة الا أن المذهب السنى بنوع خاص قد انتصر للديمقراطية العلمية انتصارا أقوى واعظم بحيث حبب فيه الشعب وكان من العوامل التى أساءت خلفه فى العلوم الفاطمية التى سميت (بعلوم آل البيت) . فهذا وذاك يدلنا بصراحة على أن مصر كانت كما قلنا لا تقوى على المضى طويلا فى حركات فكرية عنيفة تكلف عقلها عناء ومشقة وتمضى فيها مصر على نحو ما كانت تمضى المدن القديمة المعروفة (٨٦) .

ويعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الاسلامية من الناحية العلمية فقد بلغت الحياة العلمية فى مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا فى مصر أو وفدوا عليها وكثرة المؤلفات فى كل فن من فنون العلم . كما كان ائمة الدعوة الفاطمية يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، واوقفوا ارزاقا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بانشاء خزائن الكتب فى القصر وفى دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون . وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم ان القاضى النعمان سمع امامه المعز يقول : « انا لنسر

---

(٨٥) د . عبد اللطيف حمزه : الحركة الفكرية فى مصر ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .
(٨٦) المصدر السابق ص ٣٦٩ .

بمن نـراه من أوليـائنا يطلب العلم والحكمـة ويرغب فى الخـير — كمـا نسر بذلك فى الولد » (٨٧) .

ففى ظل هؤلاء الأئمة وعلى ضوء ما ذكره الامام المعـز وجد العلمـاء ملاذا يأويهم من العوز ويحميهم من الفاقة بل وجدوا ما يشـجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف (٨٨) .

فالقاهرة المعزية أصـبحت مطمع انظار العلمـاء ومحط رحال الطلاب حتى استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الاسـلامى فى الحياة العلمية وأن تبسـط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى ، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشـيعة عامة والفاطميين خاصـة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التى كانت سـائدة فيها وأقرب مثال على ذلك الامام الغزالى فقد هاجم الفاطميين فى كتبه « القسـطاس » و « المنقذ من الضـلال » و « المستظهرى » أو الـرد على الباطنية وغيرها من كتبه ولكنه وفـد على مصر فى أواخر حياته ووضـع كتـابه « مشـكاة الأنوار » متأثرا ببعض العقـائد الفاطمية ولا سـيما نظرتهم فى ترتيب العقول . ولقد شجع أئمة الفاطميين العلم والعلمـاء لأن المذهب الفاطمى نفسـه يقوم على العلم والعمل قبل كل شىء ، ومن طريق العلـم وبالجـدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر فى العالم الاسلامى واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العتيدة . فعقيدتهم كانت تقوم على العمل والعلم — والعمل هو الظاهر ، والعلم هو الباطن ، وعلم الباطن يقوم على اسـتخدام العقـل ومطابقة المحسوس للمعقول . فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذى هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية .

وقـد أثرت الفلسـفة اليونانية والمذاهب الدينيـة القديمـة فى أرباب هذه الدعوة وعلمائها فكـان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسـفية والمذهبية اما لادخال بعض عناصر منها فى عقيدتهم وآرائهم أو للـرد عليها وتهجين هذه الآراء القديمة . فعل ذلك الفاطميون فى الوقت الذى كان فيه أهـل السنة فى البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد (٨٩) .

---

(٨٧) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ورقة ١٤٦ .
(٨٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٦ .
(٨٩) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

ويصف أحد العلماء الفلسفة كوصف أهل السنة لها فيقول :

« ان الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة . ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة » (٩٠) .

فالفكر اليونانى وجد ترحيبا من الفاطميين وتوسعوا فى دراسته فقد لاحظ المستشرق أوليرى O'Leary ذلك فقال « أن الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكانتها فى جو مشبع بالفكر الهيلينى واحياء دراسة المواد اليونانية والالهام المباشر لطائفة الاسماعيلية » (٩١) .

وبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية فى اصطناعهم لكل من عرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة . فقد قيل ان العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع واستدعاه الى مصر فاعتذر (٩٢) . وأرسل الحاكم بأمر الله الى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب وكتب الوزير الفلاحى الى والى حلب واعمالها بحمل أبى العلاء المعرى الى مصر (٩٣) ليبنى له دار علم يكون متقدما فيها وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده ، وأن والى حلب صار الى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ السجل عليه فاستمهله وكتب الى الوزير الفلاحى يستعفيه من ذلك فأعفاه .

ولعل من الطريف أن الفاطميين مع انهم كانوا مقيدين بنحلة خاصة فيها تحجر عقلى واسع كانوا فى الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقريزى (٩٤) : « ان من حملة المعرفة عندهم ان الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة » .

ولعل سبب دعوتهم الى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى الى تبديلها فاحتاجوا الى اللسان والجدل المزود بالفلسفة حتى يحسن ذلك (٩٥) .

---

(٩٠) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٣٢٥ .

(٩١) O'Leary : Hist. of the Fatimid Khalifite. P. 140, London, 1923.

(٩٢) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء ص ١٠٥ .

(٩٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٨ .

(٩٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩٥ .

(٩٥) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٥٥ .

واذا درسنا الحياة العقلية فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه الآراء التى بثها دعاة الفاطميين ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا فى القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة . فابن حوقل كان متشيعا لهم حتى قيل انه من دعاتهم والفارابى مثلا فى حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ويكاد يشاركهم فى حديثه عن التوحيد (٩٦) . وابن سينا قيل انه اسماعيلى المذهب وأن أباه كان أحد دعاتهم فنشأ متأثرا بعقائدهم ، وجماعة أخوان الصفا الذى يرجح أنهم ازدهروا فى ظل البويهيين الذين كانوا يميلون الى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يراسل الخليفة الفاطمى وظهرت فى رسائل اخوان الصفا اسماعيليتهم ، وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر الله الفاطمى وعاش فى كنفه ، وأبو العلاء المعرى حكيم المعرة كان متأثرا تأثرا كاملا بهذه الآراء التى كانت تحيط به ، فقد امتد ظل الحكم الفاطمى الى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت فى كل البقاع التى خضعت أو لم تخضع لهم .

ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها فى العراق (٩٧) . ونذكر المؤيد فى الدين فهو من شيوخ الدعوه وفلاسفتها . ونبغ فى عهد العزيز بالله كثير من العلماء منهم ابو الحسن على بن رضوان الذى كان طبيبا فيلسوفا ووضع كثيرا من الكتب فى الفلسفة والمنطق وغيرهامن علوم الحكمة (٩٨) . كما ان لابن الهيثم جولات فى ميدان الفلسفة وقد وضع فيها مؤلفات عديدة لم تتناولها أيدى الباحثين .

ولكن ابن ابى اصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء يورد بعض آراء ابن الهيثم الفلسفية بصورة عامة فهو يدخل شئون الدنيا والدين فى الفلسفة ويجعل علم الحق وعلم العدل نتيجة لها . وهنا نراه يخالف رأى الفلاسفة الاسلاميين الذين سبقوه او الذين أتوا بعده . فانهم يجعلون علم الحق وعمل

---

(٩٦) د . محمد كامل حسين : راحة العقل .
(٩٧) د . محمد كامل حسين : راحة العقل .
(٩٨) على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٢٠ .

العدل شركة بين الفلسفة والدين على نحو يختلف توصيله باختلاف الفلاسفة ويقول ابن الهيثم فى هذا الشأن ما يلى : « انى لم أزل منذ عهد الصبا مرويا فى اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككا فى جميعه موقنا بأن الحق واحد وان الاختلاف فيه هو من جهة السلوك اليه . فلماكملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق فخضت لذلك دروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الدين ، فلم أحظ من شىء منها بطائل ولا عرفت منها للحق منهجا ولا الى الرأى مسلكا جديدا فرأيت انى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . فلم أجد ذلك الا فيما قرره أرسطوطاليس ، فلما تبينت ذلك افرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة : علوم رياضية ، وطبيعية ، والهيات » .

ولقد كان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة وكان لا يهمه المال والجاه بجانب ما يهمه العلم والوقوف على الحقيقة ، وما زال يلخص ويؤلف ويشرح فى حركة دائبة مستمرة ، وفى كل مرحلة من عمره يقيد أسماء ما ألف ، وعكف على عمله هذا فى قبة على باب الجامع الأزهر (٩٩) . وكان المبشر فاتك وهو أمير من أمراء مصر فى العصر الفاطمى ولعا بالعلوم الفلسفية يقتنى كثيرا من كتبهم ويتجر فيها ويستفيد ابن الهيثم من علمه فى الهيئة والرياضة وسنحاول الحديث عن بعض فلاسفة العصر الفاطمى منهم :

أولا — اخوان الصفا

من أشهر فلاسفة العصر الفاطمى هذه الطائفة التى تعرف باسم « اخوان الصفا » وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة حتى قيل انها اسماعيلية (١٠٠) .

وكانت هذه الطائفة كما يقول الأستاذ براون (١٠١) : موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة — وحلوا ردحا من الزمن محل

---

(٩٩) د . أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .

(٠٠) يرى البعض ان اخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الاسماعيلية وانهم اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم العلمى وكان لهم فرع فى بغداد .

(١٠١) Brown : Lit. Hist. of Persia. Vol.I, P. 292

العنصر التركى . واصبح لهم النفوذ الفعلى التام فى بغداد حوالى منتصف القرن الرابع (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) ، ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتمم ما بدأه المعتزلة وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية . وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف .

وكان اخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة وقد أخذوا كثيرا من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة . ولجأوا الى تأويل القرآن تأويلا مجازيا (١٠٢) .

وتعتبر رسائل اخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرف ، وتدل فى الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظا موفورا من الرقى العقلى . وتتألف دائرة المعارف هذه من احدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ولها من وراء هذا أغراض سياسية . وتبدأ فلسفة اخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات . وبالتلاعب بالأعداد والحروف . ثم تنتقل الى المنطق والطبيعيات . فترد كل شىء الى النفس وما لها من قوى وتنتهى أخيرا الى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفى (١٠٣) .

وجملة القول فى آرائهم أنها مذهب جماعة مضطهدة تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح ، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم ، ونتبين منه ما كان يختلج فى نفوسهم من أمل وما تواصوا به من الصبر ، وهم يلتمسون فى هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم أو تطهيرا لها . وهذه الفلسفة هى دينهم وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصا حتى الموت لاعتقادهم أن ملاقاة الموت فى سبيل صلاح الأخوان هى الجهاد الصحيح (١٠٤). وكانوا يؤولون الحج الى مكة بأنه مثل ضربة الله لطواف الانسان على هذه الأرض (١٠٥) . فأوجبوا أن يساعد أخاه فى هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده فيجب على ذى المال أن يجعل للفقير حظا من ماله وعلى ذى العلم أن

(١٠٢) ديبور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ــ ترجمة د . ابو ريدة ص ١٩٥ .
(١٠٣) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٥ .
(١٠٤) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٦ .
(١٠٥) رسائل اخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

يعلم أخاه الجاهل ، غير أن العلم ــ كما تراه فى رسائل الأخوان ــ حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا (١٠٦) .

من هذا نرى أن الغرض الذى كان يرمى اليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاربة التوفيق بين الدين والعلم . ولكنهم لم يستطيعوا أرضاء أهل الدين ولا أهل العلم . فان المتكلمين والفقهاء والسنيين عابوا عليهم طريقة التاويل . كما أن الفلاسفة والمتاثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر فى الشرق بفضل هذه الطائفة كما تاثرت بكتاباتهم طوائف الاسماعيلية : كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية فى فارس والشام . كما أفاد آخرون فى تاليف موسوعاتهم على غرار رسائل أخوان الصفا (١٠٧) .

وقد ذكر الشهرذورى أسماء خمسة من مؤلفى هذه الرسائل وهم :

أبو سليمان محمد بن نصر البستى ويسمى أيضا « المقدسى » وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد النهرجورى « المهرجانى » والعوفى ، وزيد بن رفاعة . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسى كما يتضح من أسمائهم وكان من بينهم أيضا ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذى انتهت بموته سنة ٤٢٨ هـ كما يقول Dietrici (١٠٨) . حركة الفلسفة فى المشرق (١٠٩) .

ثانيا ــ ومن أشهر فلاسفة الاسماعيلية : أبو حاتم الرازى سنة ٣٣٢ هـ : انجبت الدعوة الفاطمية فى المشرق فى عهد عبيد الله المهدى دعاه علماء كان لهم شأن كبير فى عالم الدعوة وفى عالم الأدب والفلسفة والتاليف حيث أخذوا على عاتقهم التفانى فى الدفاع عن الدعوة بالقلم واللسان على جذب العامة والأمراء بنفس هذا السلاح العلمى الخطير . ومن هؤلاء الدعاة : أبو حاتم الرازى ويسميه الاسماعيلية بسيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازى الورسنانى . وكان داعى الاسماعيلية فى بلاد الراى . ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية فى عهد امامه عبيد الله

---

(١٠٦) ديبور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ترجمة أبو ريدة ص ٩٨ ــ ٩٩ .
(١٠٧) المصدر السابق ص ٩٨ ــ ٩٩ .
(١٠٨) نشر رسائل أخوان الصفا وترجمها الى الألمانية بين سنتى ١٨٥٨ ــ ١٨٨٦ م ونشرت أيضا فى ثلاثة أجزاء (بمباى ١٣٠٥ هـ) تصنيف أحمد بن عبد الله .
(١٠٩) Brown : Lit. Hist. of Persia. Vol.I, P. 293

وخلافته . وقد تأثر الى حد كبير بمدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله المهدى فى شمال افريقيا . واستغل رواج هذه الدعوة فى بلاد فارس منذ ايام عبد الله ابن ميمون القداح . فدخل كثير من اهالى هذه البلاد فى المذهب الاسماعيلى (١١٠) .

وكان أبو حاتم من كبار دعاة الاسماعيلية واشتهر بدعوته الى المذهب الفاطمى ، ولعب دورا عظيما فى الشئون السياسية فى طبرستان والديلم . ولاسيما فى أصفهان والرى حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة مثل اسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار (١١١) وغيرهما .

وكان لجهود ابى حاتم أثر فعال فى اتصال مرداويج بعبيد الله ولاغرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشارقة سفراء عبيد الله المهدى الى أمراء المشرق وعامته (١١٢) .

ويرمى بعض السنيين ابا حاتم الرازى بكثير من التهم ، فيذهب بعضهم الى انه باطنى زنديق ، ويرميه البعض الآخر باعتناق مبادىء الثنوية والدهرية (١١٣) الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له . وهذه اتهامات يرمى بها السنيون جميع الدعاة الاسماعيلية تقريبا . ومهما يكن من شىء فان هذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبى حاتم فقد كان علما من أعلام النهضة العلمية الاسلامية فى فارس فى القرن الرابع الهجرى ، كما استغل هذه النهضة ذاتها فى الاشادة بامامة عبيد الله المهدى وتقديسه لذلك فكانت له نظريات كثيرة فى مبدأى الستر والظهور حتى قالوا عنه : « انه أول من وجه هذين المبدأين فى الاسلام توجيها جديدا » . وعلى الرغم من أن أخوان الصفا كثيرا ما أوردوا فى رسائلهم لفظى : الكشف والستار (أو الستر) لم يقصدوا بهما — كما قال الدكتور حسين الهمدانى — ما كان يقصده أبو حاتم — كما فعل الفلاسفة

---

(١١٠) نظام الملك — سفرنامه ج ٢ ص ٢٧٢ .

(١١١) قدم الديلم وكانوا جميعا يميلون الى الشيعيين ومن قواده على بن بويه رأس البويهيين يقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) وكان يريد قصد بغداد وانه مسالم لصالح المجوس وكان يقول : أنا أرد دولة العجم وأمحق دولة العرب . كما كان على صلة بعبيد الله الفاطمى . فهداه وعرض عليه مساعدته حيث بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدى فى شمال أفريقية واعلن رغبته فى الدخول فى طاعته ومات سنة ٣٢٢ هـ بعد أن فتح الرى واصفهان وطرد سيده أسفار .

(١١٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٧ .

(١١٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ — ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ نظام الملك — سفرنامة ج ٢ ص ٢٤٧ .

الاغريق الآخرون بذكرهم معانى الكشف والستر . بخلاف ما يقصده الاسماعيلية (١١٤) الذين ذهبوا الى أن الستر الاسماعيلى هو الدور الذى يعمل فيه الامام مختفيا فى دار هجرته والذى ينشط فيه دعاته فى نشر الدعوة ، وأما دور الظهور أو الكشف الامامى ، فهو الدور الذى تشرق فيه شمس الامامة على الكون . فيظهر الامام المستور كما ظهرت الشمس من مغيبها بظهور المهدى .

ومن أهم مؤلفات أبى حاتم الرازى : كتاب « الزينة » ويحتوى على ١٢٠٠ صفحة وقد أهداه الى الخليفة القائم الفاطمى ، وتناول فيه الأمور الفقهية ، وفلسفة ما وراء الطبيعة ، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية والمعلومات الجغرافية القيمة . ويقول الاسماعيلية ان ذلك الكتاب يبحث فى اللغة وحدها ، ولذلك لا يعدونه من كتبهم السرية (١١٥) . وكتاب « علوم النبوة » ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الاسماعيلى . وقد تناول فيه الكلام على نظريات الاسماعيلية فى الرسل وفى الله تعالى وفى النفس والهيولى والزمان والمكان وغيرها .

وفى هذا الكتاب يرد الرازى على أحد الزنادقة الملاحدة ولا يقل كتاب « الاصلاح » أهمية عن هذه الكتب وقد ذكره حميد الدين الكرمانى داعى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى فارس . ويتكون من ٥٠٠ صفحة وترجع أهميته الى ما ذكره أو أورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية . وما ذكره عن الأنبياء (١١٦) ويذكر ابن النديم (١١٧) كتاب « الجامع » وليس له الآن وجود ، كما أنه غير معروف للبهرة من الاسماعيلية .

من هذا نجد ان أبا حاتم الرازى قد أسهم فى الاشادة بعبيد الله المهدى ودولته ، وفى النهضة بالمذهب الاسماعيلى فى شرقى الدولة الاسلامية . كما أسهم فى نشر الثقافة الاسلامية عامة فتكلم فى الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما الى ذلك . وحاول فى هذا كله أن يشرح نظريات الاسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فانه لم يسلم من اضطهاد السنيين وخاصة الديالمة واضطر الى

---

(١١٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(١١٥) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٨ .

(١١٦) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(١١٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٦ .

الاختفاء فى آخريات حياته ومات على ما يقال سنة ٣٣٢ هـ وذلك بعد تولية الخليفة الفاطمى القائم بقليل (١١٨) .

ثالثا : ومن هؤلاء الدعاة أبو عبد الله بن أحمد النسفى البرذعى الذى قتل فى سنة ٣٣١ هـ فى غضون المحنة الكبرى التى المت باسماعيلية المشرق ، وكان قد تتلمذ على الداعى الأمير الحسين بن على المروروزى داعى خراسان ، وكان الحسين قد استجاب للداعى غياث كما كان من اعظم تلامذته علما ودراية . وقد نهج النسفى نهج أستاذه المروروزى فى التقرب الى امراء عصره والى كبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى فلم يتوان فى اداء مهمته على أكمل وجه . حتى استطاع ان يجذب الى الاسماعيلية كثيرين من اهالى خراسان ، ولم يكتف بما احرز من نجاح فى هذا السبيل ، بل عبر نهر جيحون واتجه الى بخارى حيث نجح نجاحا هائلا .

وكان لهؤلاء الأمراء الفضل فى معاونة النسفى ببخارى حتى تحول كثير من رجالاتها الى المذهب الاسماعيلى ، وبفضل هؤلاء وجد النسفى طريقه الى قلب نصر بن احمد السامانى الذى رحب بمبادئه وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة فريدة تمكن بها النسفى من جذب نصر بن أحمد ورجال بلاطه اليه . وكان نصر من أكبر معارضى المذهب الاسماعيلى . فقبض على استاذ النسفى وسجنه حتى مات . وقد استغل النسفى كل هذا للاشادة بزعامة عبيد الله المهدى ، فطلب دية استاذه ومقدارها ١١٩ الف دينار ليرسلها الى الخليفة الفاطمى فكانت موافقة الأمير السامانى على دفع هذه الدية دليلا على اخلاصه للمذهب الاسماعيلى أولا ثم لعبيد الله المهدى ثانيا (١١٩) .

وفى الحق ان علاقة النسفى بالبيت السامانى تكون فصلا ممتعا فى تاريخ الدعوة الاسماعيلية ببلاد المشرق فى عهد عبيد الله الفاطمى ، فقد اصبح الداعى العالم صاحب الأمر والنهى فى دولة نصر بن أحمد السامانى ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهوده فى جذب الناس الى المذهب الاسماعيلى

---

(١١٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٩ .
(١١٩) طه أحمد شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى مخطوط جـ ١ ورقة ٢٤٦ — ٢٤٨ .

سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ، وخصوصا بعض القواد والعلماء الذين اتخذوا يكيدون له ولانصار المذهب الاسماعيلي . ومما آل اليه مصير النسفي ، نستطيع ان نتبين مدى تغلغل المذهب الاسماعيلي في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع ان نشاهد لونا من ألوان اخلاص الدعاة لمذهبهم ولخليفتهم الفاطمي ، كما نستدل على مدى ما كان يعانيه الدعاة المخلصون من عنت واضطهاد (١٢٠) .

فيرى ابن النديم (١٢١) أن نصر بن أحمد الساماني ندم أخريات حياته على اندفاعه وراء النسفي . ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أفحموه قتله وقتل معه كثير من رؤساء الدعاة ووجوههم من قواد نصر الذين دخلوا في المذهب الاسماعيلي . ويرى نظام الملك أن قواد نصر من السنيين دبروا مؤامرة على العرش الساماني لانضمام صاحبه الى المذهب الاسماعيلي وتقربه من الاسماعيلية انصار هذا المذهب ، وقد استقر رأيهم على عزل نصر وتنصيب كبير قواده على العرش . وعولوا على اقامة حفل كبير يعلنون فيه بدء ثورتهم الا أن أحد المجتمعين أفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح فتحايلا على كبير القواد وقتلاه . ثم خلع نصر بن أحمد نفسه تولي بعده ابنه نوح الذى عمل على مطاردة الاسماعيلية بعد أن قتل النسفي (١٢٢).

وان ما حل بهؤلاء الاسماعيلية يعد نكبة كبرى حتى انهم أطلقوا عليها اسم « المحنة العظمى » ولاغرو فقد كان لهذه المحنة آثرها في وقف انتشار الدعوة الاسماعيلية في بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٣٣١ هـ) الى أن رفع ناصر خسرو (١٢٣) منارها بعد قرن ونصف تقريبا . ثم تبعه في ذلك الحسن الصباح (٥١١ هـ) مؤسس الدعوة النزارية في خراسان وفارس

---

(١٢٠) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٠ .
(١٢١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٢٦ .
(١٢٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٠ نقلا عن سياسة نامة جـ ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨١ .
(١٢٣) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة في عهد المستنصر الفاطمي الذى عينه نائبا له « حجة » في خراسان وبادخشان فكون جماعة يعرفون بالناصرية وهم يخضعون اليوم لأغا خان .

والشــام . وهكذا قام النســفى بدور خطير فى الناحية السياســية بتاليف جبهة قوية موالية لعبيد الله المهدى . كما قام بدور خطــير أيضــا فى الناحية المذهبيــة بنشر المذهب الاسماعيلى فى خراسان وما وراء النهر .

أمــا من الناحية العلمية : فقد فاق النســفى كثيرا من الدعــاة العلمــاء ولافرو فقد ذاعت شــهرته فى عالم الأدب وفى فلســفة المذهب الاســماعيلى كما كان من أحرار الرأى فى خراســان ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » ويظهر ان هذا المؤلف من الكتب التى تعرضــت لشرح أصــول المذهب الاســماعيلى وقد جــاء فيه مــا ذكر صــاحب كتــاب « الفرق بين الفرق » (١٢٤) : ان المبــدع الأول ابدع النفس . ثم أن الأول والثانى مدبرا العالم بتدبير الكواكب الســبعة والطبائع الأربع .

ويرى البغدادى : « ان هذا فى التحقيق معنى قول المجوس : ان اليزدان خلق اهرمن وأنه مــع اهرمن مدبران للعــالم غــير أن اليزدان فاعل الخيرات واهرمن فاعل الشرور » .

وقد لعبت يــد الدهر بهذا الكتــاب ولا نعــرف عنه شــيئا الا عن طــريق الكرمانى داعى الحاكم فى كتابه « الرياض » وكان النســفى فى هذا الكتــاب يرمى الى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله او تلميذه أبى يعقوب السجستانى .

ولم يكن هذا كل ما بذله النســفى من جهــد فى التاليف . فقد الف أيضــا كتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصــول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية »(١٢٥). وكتاب « كون العــالم » وهو خاص بالفلك ووصــف العــوالم « الكوزموجراف » لكنه مؤسس المبادىء الدينية . وقــد عثر عليه ضــمن مجموعة خاصــة . ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لاسماعيلية اليوم (١٢٦) .

رابعــا : وممن بــرز من علمــاء المذهب الاســماعيلى ودعاته : أبو يعقوب اســحاق بن أحمــد السجزى أو السجستانى — ويلقب دندان : وكان من كبــار الدعاة كمــا كان اليــد اليمنى للداعى النســفى ، وكان الجــدل والمناظرة يقومان

---

(١٢٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

(١٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(١٢٦) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature. p. 35.

على قدم وساق فى مسالة النبوة التى شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقد اولى الفلاسفة واحرار الراى هذا الموضوع كثيرا من العناية . حتى اضحى عامة الدعاة الاسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى من احرار الراى او على الاقل كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار الحرية فى الراى وقد ادرك ابو يعقوب السجزى هذه النهضة وهذه المساجلة العلمية وأدرك استاذه الرازى الداعى الأول . ورآه يناظر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى فى كتابه « أعلام النبوة » فساهم أبو يعقوب فى هذه المناظرة واتخذ من الفلسفة سلاحا شهره على نقاد المذهب الاسماعيلى فكان بهذا علما من اعلام الدعاة الاسماعيلية وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير فى النهوض بفلسفة المذهب الاسماعيلى (١٢٧) .

ولأبى يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها اثر كبير فى نهضة الفكر الاسلامى فى ذلك الحين بوجه عام وفى نهضة فلسفة المذهب الاسماعيلى بوجه خاص .

وقد ذكر البغدادى (١٢٨) بعض هذه المؤلفات فقال : « وصنف لهم أبو يعقوب السجزى كتاب « اساس الدعوة » وكتاب « الشرائع » وكتاب « كشف الأسرار » وذكر ايفانو اكثر من عشرين مؤلفا للسجزى ولا يزال اكثرها يتمتع به البهرة — وهم الاسماعيلية الحديثون اليوم — ولا نستطيع تتبع كل هذه المؤلفات بالبحث وانما نتناول أهمها واعظمها أثرا (١٢٩) .

١ — كتاب اثبات النبوة : ويقسم الى سبع مقالات وتشبه المقالة الباب وتنقسم كل مقالة الى اثنى عشر فصلا . ويتناول السجزى فى كتابه هذا موضوع اثبات النبوة من جميع النواحى ، أى من الناحية الطبيعية والناحية الروحية وغير ذلك ويتعرض لذكر الأمور التى يتفق عليها الرسل والتى يختلفون فيها . واهم من هذا كله ما ذكره السجزى هى أدوار الرسل والادلة على اثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم . وتعرض لما اسماه عجائب القرآن والشريعة (١٣٠) .

---

(١٢٧) Hamdani : Some unknown Ismaili Authors (J.A.S., 1933); p. 367.

(١٢٨) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ .

(١٢٩) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٢ .

(١٣٠) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 34, 36.

٢ ــ كتاب الينابيع : وهو فى حوزة البهرة وينقسم الى أربعين ينبوعا تناول فيه موضوعات كثيرة أهمها : « ما هية المبدع وعالم العقل والنفس ، والزمان والمكان والحيوان وسبب الخلق ، وبدء الخليقة الملائكة وعدم قابلية العقل للفناء . ومعانى الجنة والنار . ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم والوحدة والتعدد والبعث والثواب والعذاب ، والفرق بين تأييد الله وتأييد الخلق (١٣١) .

ويرى الدكتور الهمدانى أن الدعاة كانوا يترسمون فى مؤلفاتهم نظام التأليف الذى سلكه أبو يعقوب السجزى فى كتاب « الينابيع » حتى أننا اذا وازنا بين كتاب زهر المعانى القيم الذى ألفه الداعى ادريس عماد الدين عن الدعوة الاسماعيلية وبين كتاب الينابيع هذا لوجدنا ان الخطة التى انتهجها الداعى ادريس هي نفس الخطة التي انتهجها السجستانى (١٣٢) من قبل .

٣ ــ كتاب الموازين وقد قسمه السجستانى الى تسعة عشر ميزانا تكلم فى كل ميزان عن أمور تمت لأصول المذهب الاسماعيلى بصلات وثيقة : فتناول فى أحد موازينه « معرفة الحقيقة » وفى آخر وجوب معرفة « المبدع » وفى آخر « العقل » ومعرفة أسمائه كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة من الأصلين (١٣٣) (العقل والنفس) .

ومن أهم هذه الموازين ما وقفه على النطقاء والأسس والأئمة والحجج والدعاة الى غير ذلك من الموضوعات التى تفيد الباحث فى تاريخ التطور العقلى للمذهب الاسماعيلى (١٣٤) .

٤ ــ كتاب النصرة ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذى نسبناه الى النسفى وان كان بعض الاسماعيلية ينسبونه الى الكرمانى ــ داعى الدعاة الفاطميين فى فارس فى عهد الحاكم بأمر الله ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع

(١٣١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٣ نقلا عن
Ivanow : Ibid. p. 35.

(١٣٢) Hamdani : Some unknown Ismaili Authors (J.R.S., 1933). p. 267.

(١٣٣) الأصلان : هما العقل والنفس والفروع الثلاثة هى : الزمان والمكان والهيولى :

(١٣٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature. p 34.

وان الكرمانى قد اطلع عليه وأشار اليه فى كتابه (١٢٥) وأبو يعقوب مفكر عميق ألف نحو عشرين كتابا كتبت بلغة موجزة عميقة (١٣٦) .

هؤلاء هم أشهر دعاة عبيد الله المهدى فى بلاد المشرق ، وقد استطاعوا أن يرفعوا علم الدعوة هناك عاليا ، وأن يجذبوا الأمراء الى عبيد الله المهدى ، وأهم من ذلك كله أنهم أسهموا فى الحياة الثقافية التى تحيط بهم ، ويظهر أن مدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله كان لها أثر كبير فى تغذية هؤلاء الدعاة بالحيوية والمبادىء التى تساعد على جذب الناس اليهم . كما كانت تمد هذه البلاد من حين الى حين بدعاة درسوا فى تلك المدارس وتخرجوا على كبار أساتذتها (١٣٧) . وقد أسهم هؤلاء الفلاسفة فى النهضة الاسلامية العقلية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

خامسا : أبو حنيفة النعمان المغربى (٣٦٤ هـ / ٩٧٣ م / ٩٧٤ م) ينتسب أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون الى قبيلة تميم ، ويسميه الاسماعيلية « سيدنا القاضى النعمان » ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى المشهور كما يسمونه أحيانا « سيدنا الأوحد » وأحيانا « القاضى الأجل » ويعرف عندهم أيضا بأبى حنيفة الشيعى (١٣٨) .

عاصر أبو حنيفة النعمان الفاطميين فى المغرب واعترف غير مرة أنه دخل فى خدمة عبيد الله الفاطمى حوالى سنة ٣١٣ هـ / ٢٩٠ م وكان النعمان مالكى المذهب كسائر افراد أسرته ، ثم انتحل المذهب الاسماعيلى فأخلص . وكان عمله الرئيسى فى أيام المهدى والقائم والمنصور مقصورا على الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الاسماعيلى ، كما تولى القضاء فى طرابلس فى أيام القائم واتخذه المنصور والمعز قاضيا . ولما جاء الى مصر كان أحد أبنائه يتقلد منصب القضاء . وعلى الرغم من بقاء أبى الطاهر القاضى السنى فى منصبه كانت رياسة القضاء الفعلية فى أسرة النعمان (١٣٩) .

---

(١٣٥) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٤ .
(١٣٦) تاريخ الفلسفة الاسلاميه : هنرى كوربان ترجمة نصر مردة وآخرين ص ١٣٥ .
(١٣٧) د . حسن ابراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٤٥ وما يليها .
(١٣٨) Fazee : The Ismailian Law of Matia (J.B.B. AS, 1929). p. 85.
(١٣٩) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٤ .

ويعد النعمان من اهم دعائم الدعوة الاسماعيلية ويذهب الداعى عماد الدين ادريس الى أن النعمان كان مشرعا وانه كان دعامة من دعائم المذهب الاسماعيلى ، وعلى الرغم من أن كتاب « العيون » للداعى ادريس لم يذكر رتبته فى الدعوة فانه من الراجح جدا أن يكون قد وصل الى رتبة الحجة (١٤٠) . وربما كان ذلك راجعا الى أنه اشتغل بالقضاء ، ويقول ابن خلكان عن « قاضيه الواصل من المغرب معه ، أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعى » (١٤١) . والحق أن أبا حنيفة النعمان كان رئيسا للقضاء كما كان داعيا . وقد أفاد الدعوة الاسماعيلية بكثرة مؤلفات أبى حنيفة فى الفقه الاسماعيلى . وفى المناظرة والتأويل والعقائد والسير ، والتاريخ والوعظ وغير ذلك . من الثابت أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتابا بقى منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا وضاع الباقى (١٤٢) .

واهم هذه الكتب كتاب « دعائم الاسلام » واسمه الكامل : دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام « والقضايا والأحكام » ويتناول الكلام على فقه الاسماعيلية ويقع فى مجلدين ضخمين يشتمل كل منها على سبعمائة صفحة ويعتز به البهرة فى اليمن والهند . ويذهب الداعى ادريس فى كتابه « العيون » الى القول بأن الخليفة المعز هو الذى حث النعمان على تأليف هذا الكتاب . وكان قد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة فتناولوا الكلام على الأحاديث الموضوعة والاختلاف فى الرواية . فذكر لهم المعز الحديث المشهور : « اذا ظهرت البدع فى أمة ، فليظهر العالم علمه ، والا فعليه لعنة الله » . ونظر المعز لدين الله — عليه الصلاة والسلام — الى القاضى النعمان بن محمد — رضوان الله عليه — فقال : « أنت المعنى فى هذه الأوراق يا نعمان » . ثم أمره بتأليف « دعائم الاسلام وأصل أصوله وفرع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١٤٣) .

ويعد كتاب الدعائم اهم المراجع فى فقه الاسماعيلية وقد استغل النعمان

---

(١٤٠) المصدر نفسه .

(١٤١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٦ .

(١٤٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٥ .

(١٤٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٥ — نقلا عن عمادالدين ادريس : عيون الأخبار (المجلة الاسيوية الملكية ١٩٣٤ م ص ٢٢) .

ميوله المذهبية فى تاليف هـذا الكتاب حتى اننا نراه يزيد قواعد الاسـلام فيجعلها سبعا . ذلك العـدد الذى يفضله الشيوعيون عامة . فيضيف « الولاية » وهى حب أهل البيت ، ثم « الطهارة » الى القواعد الخمس المعروفة عند السنيين(١٤٤) .

وقد اخذ دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب الدعائم فى احكامهم كما اخـذ الخلفاء يشجعونهم على ذلك . فقـد أرسل الخليفة الحاكم (٤١١ هـ) فى شـهر ذى القعدة من سنة ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) الى هارون بن محمد داعيه فى بلاد اليمن رسالة جاء فيها :

« ولتكن فتواك للمستفتين فى الحلال والحرام من كتاب دعائم الاسـلام دون سواه من الكتب المتنقلة » (١٤٥) .

كما نهج الوزير يعقـوب بن كلس فى كتابه « مصنف الوزير » منهـج كتاب الدعائم وأطنب الدعاة المتأخرون فى مدح هذا الكتاب ، فذكره حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم فى فارس فى كتابه راحة العقـل وأشـاد به حتى جعله فى المرتبـة التى تلى القـرآن والحديث . وكان المؤيد فى الدين هبة الله الشـيرازى يقرأ كتاب الدعائم فى مجالسـه التى كان يلقيهـا على أبى كاليجـار البويهى .

وفى ذلك يقول المؤيد (١٤٦) : « وكان بنـاء المجالس التى تعقـد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدىء بقـراءة شىء من قوارع القـرآن ويثنى من كتاب دعائم الاسـلام » .

وقد ترك النعمـان المغربى فى مؤلفاته الرائعة ثروة ثمينة وعلى الرغـم من ضياع كثير من مؤلفاته ، لا يزال أكثر ما بقى منهـا فى حوزة البهـرة — وقد أفـاد الاسـماعيلية كثيرا من هذه المؤلفات . ولا غرو فان النعمان ضرب لهم فى جميـع النشـاط العلمى (١٤٧) .

ومن أهم كتبه « الايضاح » وكان مطولا جدا حتى قيل انه شـغل مائتين وعشرين كراسـة (١٤٨) .

---

(١٤٥) أى الزائدة والدخيلة .

(١٤٦) مؤيد الدين الشيرازى : السيرة المؤيدية ص ٦٢ .

(١٤٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٦ .

(١٤٨) Hamdani : Some unknown Ismaili Authors. (J.R.A.S. 1933). p. 369.

ومن كتب النعمان : كتاب « الينبوع » وكتـــاب « مختصر الآثار » وكتـــاب « الطهـــارة » ومن كتبـــه الفقهية التى لعبت بهـــا يد الدهـــر كتـــاب « مختصر الايضـاح » وكتاب « كيفية الصلاة » وكتاب « منهاج الفرائض » وغيرها .

ومما يؤســـف له أنه لم يعثر للنعمـــان على كتاب واحد من كتب المناظـــرة التي ألف فيها « الرســالة المصرية » فى الرد على الشـــافعى و « الرســـالة ذات البيـان » فى الرد عى ابن قتيبة . وكتاب فى الرد على احمد بن سريج البغـدادى وكتاب « اختلاف اصـــول المذاهب » وقد بقى للنعمـــان من كتب التأويـــل كتـــاب « أساس التأويل » وكتاب « تأويل الدعائم » وقد ضاع من كتبه فى هذه الناحيـــة كتاب « نهج الســبيل الى معرفة علم التأويل » .

ومما خلفه النعمـــان من كتب العقـــائد : كتاب « القصـــيدة المختـــارة » وكتاب « الهمة فى اتباع الأئمة » ومن مؤلفـــاته فى العقـــائد التى ضـــيعت كتـــاب « الدعاء » وكتاب « الشروط » وكتـــاب « التعاقب والانتقاد » وكتـــاب « الحلى والثيـــاب » .

أما كتبه فى الأخبار والســـير ، فقد بقى منهـــا كتاب « شرح الأخبـــار » وقد ضاعت الأرجوزة التى تســـمى « ذات المنن » والأرجوزة المســـماة « ذات المحن ومن أشهر كتبه التاريخية « افتتاح الدعوة الزاهـــرة » وهو من الكتب الخطيـــ المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة . وقد اقتبس منه المقريزى وغيره من المؤرخين ، وكتاب « مناقببنى هاشـــم » ولم يقف له الناس على أثر .

ومن مؤلفات أبى حنيفة النعمـــان فى الوعظ ذلك الكتاب الممتـــع « المجالس والمســـايرات » وكتاب « معالم الهدى » و « الرســالة الى المرشـــد الداعى بمصر فى تربية المؤمنين » . وقد ضاع كل منهما للأســـف . ومن الكتب التى تنســـب الى أبى حنيفة النعمان كتاب « تأويل الرؤيا » وكتاب « منامات الأئمة » . وكتاب « التقريع والتصنيف » . وكتاب « مفاتيح النعمـــة » وقد ضـاعت كلهـا ، كمـا ضاع من كتبه فى الحقائق كتاب « حدود المعرفة » وكتاب « فى الامامة » ، وكتاب « اثبات الحقائق » وكتاب « التوحيـــد والأمانة » (١٤٩) .

---

(١٤٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٧ .

ومن الكتب التى تنسب الى النعمان ولم تثبت صحة هذه النسبة بعد : كتاب « تقديم الأحكام » وكتاب « الراحة والتسلية » وكتاب « سيرة الأئمة » (١٥٠) .

ومما تمتاز به تآليف النعمان عدم الاغراق فى التأويل الذى نلمسه فى تآليف زميله جعفر بن منصور اليمن ذلك التأويل الذى اشتهر به دعاة الاسماعيلية فى الدور القداحى أو دور الستر . وقد أسرف فى هذه الناحية دعاة الاسماعيلية فى بلاد فارس خاصة ، ولا عجب فقد كان أبو حنيفة النعمان يخاطب عقولا لا تدرك جوهر الفلسفة الاسماعيلية ، ولذلك يعتبر من هذه الناحية خير من يمثل المدرسة الاسماعيلية القديمة التى التزمت عدم اثارة شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمى (١٥١) .

واذا حاولنا أن نلقى نظرة على مؤلفى النعمان القيمين « المجالس والمسايرات » والهمة وفضل الأئمة » .

فكتاب المجالس والمسايرات يقع فى ثلاثة مجلدات ، الا انه ينقسم قسمين : يطلق على القسم الأول منهما اسم « النصف الأول » ويشمل « المجلد الأول » وهو فى ٣٧٣ صفحة . أما القسم الثانى فيشتمل على مجلدين يكونان « النصف الثانى » ويشغلان ٦٧٢ صفحة . ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » خير ما الف فى وصف حياة الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة وهم : المهدى والقائم والمنصور والمعز خاصة . ويعد اهم المراجع التى تناولت تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على شىء غير قليل عن حياة الخلفاء الخاصة وعن وصف قصورهم وأوقات فراغهم ، وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم فى عهد المعز ، فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، الى اعمال يقوم بها هذا الخليفة ، ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتاميين فى دولته .

كما تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما على بن أبى طالب الى غير ذلك . هذا الى تصديه للرد على خصوم المذهب الاسماعيلى .

---

(١٥٠) نفس المصدر .
(١٥١) نفس المصدر .

ومهما يكن من شيء فان كتاب المجالس والمسايرات يكشف عن غزارة معلومات النعمان في المسائل القضائية والفقهية ويبين أن المعز لدين الله كان — على الرغم من صغر سنه — أستاذا لهذا العالم العبقري ومن نوابغ علماء عصره (١٥٢) .

ويعتبر كتاب « المجالس والمسايرات » من أجل المراجع التاريخية المعاصرة للمعز ، فقد تناول فى اسهاب علاقة المعز بالأمويين فى الأندلس . وشرح أسباب العداء الذى قام بينهما وبين الفاطميين ووازن بين قوة كل من هذين الفريقين ، كما كشف عن مخاوف عبد الرحمن الناصر الأموى من أساطيل المعز وخوفه على عرشه من أن يقع فى أيدى الفاطميين ، كما تكلم على الحملات البحرية التى شنها المعز على الناصر وخلفائه ، وعرض لجهود الأمويين فى أفريقية ولأول مرة فى تاريخ الأندلس ، يتوسل عبد الرحمن الناصر الأموى بالمعز ، ويتزلف اليه تارة ويهدده تارة أخرى ، وتعتبر الرسائل التى تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب فى الأدب والمنطق لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين فى الاثبات والنفى وما الى ذلك .

وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد الناصر الأموى على الروم فى صراعه مع الفاطميين وصور ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويرا رائعا وذكر الرسائل التى بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته .

ولأول مرة نسمع ان مسلمى جزيرة اقريطش (كريت) الذين كانوا تحت حكم العباسيين يطلبون النجدة من المعز لدين الله لحرب الروم . ويرى المؤرخون أن الوثائق التى تبودلت بين أهل اقريطش المسلمين وبين المعز لدين الله تدلنا على مدى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ (١٥٣) .

كما يصور كتاب « المجالس والمسايرات » موقف المعز لدين الله من صاحبى سجلماسة وفاس ، فيبين الأسباب التى أثارت غضب المعز على صاحب سجلماسة ، ويذكر أن ذلك الغضب كان راجعا الى تلقيبه بألقاب الخليفة

(١٥٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٨ .
(١٥٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٩ .

ومنها لقب « أمير المؤمنين » كما يعرض لحملة جوهـر الصقلى الكبرى على بلاد العرب سنة ٣٤٧ هـ عرضا يدل على صدق الرواية وتحرى الدقة .

ومن دراسة كتاب « المجالس والمسايرات » نرى كيف كان المعز يرنـو ببصره الى بلاد المشرق ويعد العدة لاخضاعها ويمنى انصاره بامتلاك الشـام الى غير ذلـك .

أما من الناحية المذهبية فان كتاب المجالس والمسـايرات يعد أهـم كتب الدعوة الإسـماعيلية لأن مؤلفه استمد مادته من الامام المعز الفاطمى وقد عـده انصار المذهب الاسماعيلى من اهم مراجعهم الدينية . كذلك يعد كتاب المجالس والمسـايرات قطعة أدبية رائعة يمتاز بأسـلوب رقيق سـهل كما يمتاز بانسجام الفاظه ومعانيه . ولا غرو فقد سـمعه النعمان عن الخليفة المعز أشهر رجـال عصره علما وأدبا . ودبجه باسـلوبه القوى الجذاب .

وصفوة القول : أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الاسماعيلى والعقائد الاسـماعيلية ولا يسـتغنى عنه الباحثون فى تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى بوجه عام وفى عهد المعز بوجه خاص (١٥٤) .

أما كتاب « الهمة وفضل الائمة » فيتكون من جزءين يشـغل كل منهما ٤٦ صفحة . وقد قسـم المؤلف الجزء الأول الى ثمانية فصول ، والقسم الثانى الى أحد عشر فصلا . وترجع أهمية هذا الكتاب الذى عثر عليه سنة ٩٢٤ هـ الى أنه من أقدم المراجع التى تمثل الأدب الاسماعيلى فى عصوره الأولى أصدق تمثيل كما يعد من أقدم كتب الاسـماعيلية التى وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفانى فى الاخلاص لمبادئها .

ويتناول هذا الكتاب بقسـميه الحدود الدينية ويهتم مؤلفه اهتماما خاصـا بشرح واجبات الاتباع نحو رؤسـائهم المباشرين ، وهم الدعاة ، ونحو الأئمـة ، كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ويرسـم لهم الخطط التى يجب عليهم أن يسلكوها فى حياتهم فنراه يعقد الفصل الثالث من الجزء الثانى (١٥٥) لنهى « أتباع الأئمة عن الحسد والبغى والشره والحقد وسـوء الظن » ويقصر

---

(١٥٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٠ .
(١٥٥) القاضى النعمان : الهمة وفضل الائمة جـ ٢ ص ٥٢ ـ ٥٥ .

الفصلين الرابع (١٥٦) والخامس (١٥٧) من هذا الجزء على « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالحلم والعفو والتواضع لله تعالى ولهم « أى الأئمة » واطراح « ترك » الكبر والأنفة ، واعطاء الحق الذى يلزمهم . وذكر الأمر لأتباع الأئمة بالحلم والعفو والوقار والسكينة » .

واهم من ذلك ان مؤلفه يعمل على تاليف قلوب الأتباع على ما نراه فى الفصل السادس (١٥٨) ويختص بما « ينبغى لأتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد والتبادل » .

ويهدف كتاب الهمة الى جذب المستجيبين الى أئمتهم فيشيد بفضل الأئمة الاسماعيليين كافة ويبين حاجة العالم (١٥٩) اليهم فى عبارات خلابة ويحتم على المستجيبين وجوب « الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها وذكر ما اخذ لهم منها » (١٦٠) . ويبين للأتباع ان اتصالهم بالأئمة والجهاد معهم جهاد فى سبيل الله (١٦١) .

ويعد كتاب الهمة من أهم واقدم كتب الاشتراع المالى عند الاسماعيليين ؛ فيبنى مؤلفه اشتراعه المالى على اسس مستمدة من القرآن الكريم تحمل المستجيب على أن يؤدى الأموال للامام وهو طائع مختار ولذلك خصص النعمان الفصل السادس (١٦٢) من الجزء الأول لما يجب للأئمة الصادقين اخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات . ونراه يقرر على الأتباع وجوب دفع خمس اموالهم لامامهم معتمدا فى ذلك على بعض الأحاديث النبوية واحاديث الأئمة الى أن يقول : « فاعلموا ايها المؤمنون — كما علمكم الله « أن ما غنمتم من شىء » أى كسبتموه « فان لله خمسه » تتقربون به اليه . وتدفعونه الى امام عصركم ثم اليه الأمر وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته ويتاماهم وابناء سبيلهم (١٦٣) . وهذا

---

(١٥٦) المصدر السابق : ص ٥٥ ، ٥٦ .
(١٥٧) المصدر السابق : ص ٥٦ ، ٥٧ .
(١٥٨) المصدر السابق : ص ٥٧ ، ٨٠ .
(١٥٩) سمى الفصل الأول من كتاب الهمة فى وجوب الأئمة ص ٨ ، ١٣ .
(١٦٠) وهو عنوان الفصل الثالث من الجزء الأول ص ١٣ — ١٩ .
(١٦١) النعمان القاضى : كتاب الهمة ج ٢ ص ٢٤ — ٣٠ .
(١٦٢) النعمان القاضى : كتاب الهمة ج ١ ص ٣٠ — ٣١ .
(١٦٣) المصدر السابق ص ٢٣ .

يفسر قوله تعالى « واعلموا انما غنمتم من شيء فان الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١٦٤) .

ويؤكد فى شرحه على وجوب دفع الخمس لامام الزمان لانه هو الذى حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته . كما يفسر اعتماد الأئمة الاسماعيلية على قرابتهم من الرسول ومحاربتهم العباسيين من هذه الناحية ، ويقولون انهم احق بوراثة الرسول من العباسيين لانهم اهل بيته المقربون .

ولم يكتف النعمان بحمل الأتباع على دفع الخمس من اموالهم للائمة فيقول : فعلى جميع المؤمنين ان يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر الى امام ذلك الزمان من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أمر عز وجل مع زكاة اموالهم (١٦٥) .

ولكى يربط النعمان بين الأتباع والخلفاء عقد عدة فصول أشاد فيها بالائمة وحتم على الأتباع تقديسهم والتادب فى طلب الحوائج منهم (١٦٦) . شارحا طرق توصيل دعاويهم الى ائمتهم كما نراه ينهى الاتباع « عن انكار افعال الأئمة » ويأمرهم بتلقيها عنهم بالقبول « ويأمر الاتباع بتحرى ما وافق الائمة صلوات الله عليهم » (١٦٧) .

وبهذا وضع النعمان دستور المذهب الفاطمى الذى يجب على المؤمنين (الاسماعيلية) ان يسيروا على هديه مع أئمتهم ، من ذلك ان المعز قد افاد من مؤلفات رجال دعوته ، وبخاصة تلك المؤلفات التى حاول أصحابها ربط الأشياع بامامهم الخليفة الفاطمى ، ويعد كتاب الهمة من الكتب النادرة التى ضربت بسهم فى دعم أواصر المحبة والوفاء بين رياسة الدعوة فى المنصورية ثم فى القاهرة وبين الأتباع فى سائر العالم الاسلامى .

وقد آهتم النعمان اهتماما بالغا بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم

---

(١٦٤) القرآن الكريم — سورة الأنفال : ٣٨ : ٤١ .
(١٦٥) القاضى النعمان : كتاب الهمة ج ١ ص ٣٢ .
(١٦٦) المصدر السابق ص ٧٨ ، ٨٠ .
(١٦٧) المصدر السابق ص ٨٠ ، ٨٤ .

من جهة وبينهم وبين الائمة من جهة اخرى فوضع الخطوط الرئيسية التى يجب على الدعاة ان يسلكوها فى جذب الاشياع وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكى يكون تاثيرهم فى النفوس كبيرا . وكذلك بين النعمان فى كتابة كيف يختار الدعاة مستجيبيهم فألزمهم ان يدرسوا حالة الأتباع النفسية والعقلية دراسة وافية حتى يوصلوا الى عقولهم المعارف التى يستطيعون تمثلها وفهمها (١٦٨) .

كما ينصح النعمان جماعة الدعاة بالتقرب الى المدعوين فيجعل الداعى من نفسه للمريدين ابا وأخا ومعلما ، ويشير على الداعى بأن يقرب اليه من حسنت نيته وصفت سريرته ، دون اعتبار للجاه أو المال « فان التقريب على الدين والتفضيل به ، والترفيع لأهله ، اقرب سببا الى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه » (١٦٩) . كما يظهر امامهم بمظهر الهيبة والوقار مع لين الجانب وحسن الصمت ، وقلة الكلام ، ومستشهدا بقول جعفر الصادق « اطلبوا العلم وتزينوا معه بالوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلمونه ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقهم .. من طلب العلم ليدافع به العلماء ويمارى به السفهاء او ليصرف به جوه الناس اليه . ويتكبر عليهم . فليتبوأ مقعده من النار . ان الرياسة لا تصلح الا لأهلها » (١٧٠) .

كذلك يحتم النعمان على الدعاة ان يكونوا قضاة نزيهين يحكمون بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم جاعلين نصب اعينهم صلاح احوال الأشياع . ولهذا قصر المؤلف الفصل العاشر من الجزء الثانى (١٧١) على « ذكر ما ينبغى لمن استرعى أمر رعايا الأئمة ، من السير بالعدل فيمن ولوا أمره من الأئمة » .

وهكذا كان للنعمان اثر لا يعدله اثر فى النهضة الثقافية للدعوة الاسماعيلية وان النعمان يكتب بعد قيام الدولة الفاطمية بقليل . فكتب فى النصف

---

(١٦٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٢ — د . على حسنى الخربوطلى : ابو عبد الله الشيعى ص ٢٢ .
(١٦٩) القاضى النعمان : كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٩ .
(١٧٠) المصدر السابق ص ٨٩ ، ٩٠ .
(١٧١) المصدر السابق ص ٨٤ ، ٨٨ .

الاول من القرن الرابع الهجرى سنة ٣٤٦ هـ أى بعد مضى نصف قرن فقط على احداث رسالته وكان النعمان مطلعا على كل اسرار هذه الدعوة فقد كان النعمان قاضى قضاة الدولة الفاطمية وهو ايضا من كبار الدعاة الفاطميين (١٧٢) .

لذلك يحق للعلماء ان يسموه « المشرع الاسماعيلى » ولاغرو فقد كان ساعد المعز الأيمن . ولسانه الناطق واستحق بهذا كله أن يتربع على عرش الدعوة الاسماعيلية فى المغرب وأن يورث ابناءه هذه الزعامة فى مصر حيث توفى فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ وصلى عليه المعز لدين الله الفاطمى .

سادسا : جعفر بن منصور اليمن (١٧٣) :

اشتهر جعفر بن المنصور (بن حوشب) (١٧٤) منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين .

وتحدث النعمان عن ابن حوشب ، فقال « انه من اهل الكوفة ، من اهل بيت علم وتشيع » . وقد درس القرآن الكريم والحديث والفقه وكان فى اول امره يعتنق تعاليم الاثنى عشرية اصحاب محمد بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق وكان يعتقد انه المهدى ثم اصبح من ابرز دعاة الاسماعيليين . فصار يدعو للامام محمد الحبيب (١٧٥) . واهتم ابن حوشب بنشر الدعوة الاسماعيلية خارج وداخل بلاد اليمن ، فأرسل دعاته الى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب (١٧٦) .

واختلف مع اخيه ابى الحسن بن منصور الذى ثار على الخليفة المهدى فى اخريات حياته وغادر جعفر بلاد اليمن حنقا على اخيه وقصد بلاد المغرب

---

(١٧٢) د . على حسنى الخربوطلى : ابو عبد الله الشيعى ص ٢٦ .
(١٧٣) د . طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى مخطوط جـ ١ ورقة ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(١٧٤) اختلف المؤرخون فى تفاصيل اسم ابن حوشب فابن الأثير (الكامل جـ ٧ ص ٣٠) وابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٣٢١ يذكر أن اسمه هورستم بن الحسن ابن حوشب بن دادان النجار) . بينما يرى المقريزى أن الجد الأكبر هو زاذان اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠ ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) أن اسمه هو (ابو القاسم الحسن بن حوشب بن زادان الكوفى) .
(١٧٥) د . على حسنى الخربوطلى : ابو عبد الله الشيعى ص ٢٢ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٤٧ — ٣٥ .
(١٧٦) المصدر السابق ص ١٨ و ١٩ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٣٣ .

فى (سـنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م) ويظهر انه كان يراسل اخـاه ويؤنبه على مـا اقترفه مع الفاطميين (١٧٧) .

وقـد تمتـع جعفر بمركز رفيع فى الدولة الفاطمية فى المغـرب ثم فى مصر . وكان موضع تقدير القائم والمنصور كما نال تقدير المعـز حتى اتخـذه « بـاب أبوابه » فى مصر وهى أعلى من رتبة قاضى القضاة ولاغرو فقد ضرب جعفر بأوفر سـهم فى التأويل الاسماعيلى ، كما كان لفراره من بلاد اليمن حبـا فى النهـوض بالمذهب الاسـماعيلى اثره فى تقـدير الخلفـاء الفاطميين له ومحبتهم اياه وعطفهم عليه . وقـد تـرك جعفر كثيرا من الآثار العامية التى لا تزال عنـد البهـرة الى اليوم . ومن أهم مؤلفاته كتـاب « تأويل الزكاة » وهو بمكتبة الجامعـة بليدن . وقد الفه على مـا يبدو فى عهد المعـز لدين الله . ومنه نقف على غلو الاسماعيلية فى تأويلهم حتى لقد ذهب هذا الفقيه الاسـماعيلى الى تأليه الأئمـة مؤيدا فى ذلك النظرية الاسماعيلية التى تقول : « من عرف امام زمانه عرف ربه » (١٧٨) .

ويقول دى غويه (١٧٩) فى كتـاب « تأويل الزكاة » ان به كثيرا من مبـادىء القرامطة الخارجة على الدين . ويذهب الأستاذ ماسينيو (١٨٠) الى القول بأن جعفر الف هذا الكتـاب فى سـنة ٣٦٠ هـ ويسـميه تأويل الفرائض . ويذهب الأسـتاذ ايفـانو (١٨١) الى ان كتـاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفـر المسـمى « الفرائض وحدود الدين » .

ولجعفـر بن منصـور اليمن من الكتب ايضـا كتـاب « سرائر النطقـاء » وكتـاب « الشـواهد والبيان » المخطوط بدار الكتب المصرية بمكتبة تيمور باشـا تحت رقم ١٨٤ عقائد . وله من الكتب كتاب « الكشـف » وهو كتـاب قيـم فى التأويل أول فيه بعض آيات من القرآن فى شىء كثير من الغلو .

---

(١٧٧) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠ .
(١٧٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٥ .
(١٧٩) Memoires sur les Carmathes du Bahram, Vol. 1, pp. 169–170.
(١٨٠) د . حسـن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٥ نقـلا عن عجب نامة ص ٣٣١ .
(١٨١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature. p. 31.

من ذلك ما ذهب اليه فى تفسير قوله تعالى « والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين » بأن التين هو الحسن والزيتون هو الحسين وطور سنين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والبلد الامين على بن أبى طالب الأمر الذى حداه على ان يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم اذاعة أسرارها .

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب « الفترات والقرانات » ويسمى « الجفر الأسود » ويظهر أن كتاب « الجفر » الذى ينسب الى جعفر الصادق . ويعتقد الاسماعيلية أن على بن ابى طالب هو الذى وضع أصوله ليستقى علم التأويل والباطن فى سلالته كما يظهر أن « الجفر الأسود » من وضع احد الدعاة المتأخرين لأنه يتناول حوادث وقعت فى القرن الخامس الهجرى ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء مع اضدادهم ويتعرض لشرح تأثير الكواكب فى الدعوة وأطوارها فهو اذن نوع من الملاحم التى أغرم بها الاسماعيلية .

ومهما يكن من شىء فان جعفرا سلك فى مؤلفاته هذه مسلك التأويل حتى انه نادى بمبدأ استمرار الأديان والحلول أى حلول الأنبياء من شخص الى آخر(١٨٢) .

وبهذا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصبا فى دراسة عقائد المذهب الاسماعيلى ، ويقص علينا الداعى ادريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » ما يشعرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الاسماعيلية ذلك أن أبا حنيفة النعمان قاضى قضاة المعز لدين الله مرض وهو بمصر فزاره كثير من علية القوم ومنهم جعفر باب أبواب المعز ، ولما أبل أبو حنيفة من مرضه سأله المعز عمن زاره فذكر اسماءهم جميعا سوى جعفر بن منصور فأخذ المعز يطرى جعفرا ثم قدم الى أبى حنيفة رسالة وطلب منه قراءتها وسأله عن مؤلفها وقد نالت هذه الرسالة اعجاب قاضى القضاة حتى أنه قال للخليفة المعز انها من تأليف مولانا الخليفة فأجابه المعز بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر ابن منصور .

وفى وصف المعز جعفرا بالرئيس والمولى ما يشعر بعلو مكانته لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور وذهب الى دار جعفر الداعى وعبر له عن احترامه وتقديره وهكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان .

(١٨٢) Hamdani : Some unknown Ismaili Authors (J.R.A.S. 1933), p. 371.

وصفوة القول ان جعفرا احد اثنين يعدان من اشهر الدعاة الذين أنجبتهم مدارس الدعوة فى بلاد المغرب خاصة ، وقد مات بعد رحيله الى مصر مع المعز (١٨٣) .

وهكذا سمت الدعوة الاسماعيلية بآدابها فى عهد هذا الخليفة وبلغت أوجها على يد الامام المعز نفسه وقاضى قضاته النعمان وباب أبوابه جعفر ابن منصور ، وكان لهذه المدرسة التى تقدمها هؤلاء الثلاثة أثرها فيما بعد . واستطاع أحد تلاميذها وهو حميد الدين الكرمانى أن يرفع منار الدعوة فى عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر ، فكان المؤيد الشيرازى والحسن الصباح اثرا من آثار هذه المدرسة (١٨٤) .

سابعا — حميد الدين الكرمانى :

ومن فلاسفة الاسماعيلية أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى شخصية علمية خارقة يكتنف تاريخ حياتها الغموض ، وفيلسوف كبير عاش فى عصر عامى زاهر ، وداع جليل خط فى صفحات الفكر اقوم البحوث وأعمق السطور وترك للأجيال عددا من المؤلفات اقل ما يقال أنها كنز ثمين وتراث خالد (١٨٥).

كما عرف الكرمانى بكثرة انتاجه وعمبق تفكيره ، داعيا للحاكم بأمر الله فكتب عدة رسائل ناقش فيها مذهب الدروز وهو الأخوان الذين تفرعوا عن الاسماعيلية (١٨٦) .

وبضع دعاة اليمن وعلماء الاسماعيلية امام اسمه كلمة « سيدنا » مبالغة فى تكريمه وتعظيما لمكانته وقدره ، ويعتبره فلاسفة العالم الاسلامى أعظم عالم أنتجته المدرسة الفكرية الاسماعيلية فى عهد الدولة الفاطمية ، أما كتابة « راحة العقل » فهو من الكتب النادرة القيمة التى قاما يوجد بين كتب الفلاسفة المعاصرين ما يعادله قوة ومتانة وعمقا . لذلك كان طلبه قليلا ورواجه

---

(١٨٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٦ .

(١٨٤) .د حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها .

(١٨٥) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين : اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٨٦) هنرى كوربان : ترجمة نصر مروه وآخرين : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٣٥ — ١٣٦ .

بطيئا محدودا أو مقتصرا على خاصة من العلماء الأفذاذ والفلاسفة المتبحرين ذكره الداعى الاسماعيلى المؤرخ اليمنى الكبير ادريس عماد الدين فى كتابه عيون الاخبار فقال : « هو اساس الدعوةالتى عليه عمادها وبه علا واستقام منارها وبه استبانت المشكلات وانفرجت المعضلات » (١٨٧) .

ووصفه الداعى الاسماعيلى السورى نور الدين احمد فى كتابه فصول واخبار فقال : « لو أن الدعوة الاسماعيلية لم تنتج غير الكرمانى لكفاها فخرا ومجدا ، ولكان ذلك كافيا . ظهر اثره وعظم شأنه فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى وكان لقبه حجة العراقين » .

اى انه كان مسئولا عن شئون الدعوة الثقافية فى فارس والعراق وفى القاهرة كان مركزه كمقام حجة جزيرة، فهو أحد الحجج الاثنا عشر المكلفين بادارة شئون الدعوة الامامية الاذاعية الفكرية فى العالم ثم انه استخدم بعد ذلك كرئيس لدار الحكمة بالقاهرة وهى المؤسسة الثقافية التى نستطيع ان نقول انها أول جامعة أنشئت فى العالم .

. وفد على القاهرة سنة ٤٠٨ هـ بناء علىطلب الصادق المأمون « اختكين الضيف » داعى دعاة الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر الله عندما حمى وطيس المعارك الدينية وقامت الدعوات الجديدة وراج سوق البدع التى كانت تهدف الى الغلو والقول بألوهية الحاكم بامر الله فالقى الدروس والمحاضرات فى دار الحكمة وقاوم الدعوات الجديدة التى تتنافى ومبادىء الفاطميين الامامية .

ومهما يكن من أمر فاننا فى حديثنا عن الكرمانى سنتعرض له كفيلسوف من فلاسفة العالم ، صال وجال على مسرح الفلسفة الكونية وعمل كل ما فى وسعه لا يجاد مدرسة ترتكز على أسس عقلية جديدة بالنسبة لعصره .

وأخيرا فان الكرمانى من الفلاسفة المغمورين فى عالمنا الفلسفى .

وفى الواقع فان دراسة مؤلفاته وانتاجه من الأهمية فهى تعطى صورة

---

(١٨٧) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين- اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

واضحة عن أثر الفلسفة فى تاريخ الفكر بالنسبة للمهتمين بالدراسات الشرقية والفلسفة الاسلامية (١٨٨) .

استطاع الكرمانى أن يضم الى المذهب الاسماعيلى والى الموصل المقلد بن يوسف حتى خطب على منبر الموصل للامام العزيز الخليفة الفاطمى فى سنة ٣٨٢ هـ .

وتورد المؤلفات الاسماعيلية أن الكرمانى استدعى للقاهرة فى سنة ٤٠٨ هـ فكان يحضر مجلس داعى الدعاة وكان أبناء الدعوة يلقون عليه المسائل التى جعلوها الى الامتحان ذريعة والى بسط الشغب شريعة . وكان يجيب عليها وكثير من رسائله هى ردود على من رآهم حادوا عن الدعوة الاسماعيلية أو ابتدعوا فيها (١٨٩) .

ومن رسائله « الرسالة الكافية » فى الرد على الشريف الهارونى الحسنى « والرسالة الواعظة » فى الرد على الفرغانى ابن الأحزم احد دعاة الدرزية ورسالة « مباسم البشارات بالامام الحاكم » ورسالة « الصبوم » وغيرها (١٩٠) .

واذا قرانا رسائل الكرمانى وكتبه وجدناه يتحدث فى الفلسفة الطبيعية والالهية كما فى « واحة العقل » الذى يعد من أقوم كتب الفلسفة فى العصر الفاطمى فهو فىهذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية المصطبغة بالصبغة الاسلامية على المذهب الفاطمى وحديثه عن ابداع العقل الكلى وصفاته وخصائصه وانبعاث النفس الكلية وصفاتها وعن العالم الروحانى وعالم الكون والفساد ، يدل على أن الكرمانى كان من أكبر الباحثين فى هذه الموضوعات الفسفية . ولاغرو أن كان لهذا الداعى اثره فى تاريخ المذهب الاسماعيلى الى اليوم فكل من جاء بعده أخذ عنه واقتبس من رسائله وكتبه

---

(١٨٨) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين اضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ٢٢٤ — ٢٢٨ .

(١٨٩) د . عبد الرحمن بدوى : مذاهب الاسلاميين جـ ٢ ص ١٩٢ — ١٩٨ .

(١٩٠) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٨٧ ، ٨٨ .
د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٨٧ — ٨٨ .

ومن أشهر كتب الكرمانى كتاب « راحة العقل » وله رسائل فى أدب الاسماعيلية وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيها محاضراته فى التأويل (١٩١) .

ويعتبر الكرمانى من أشهر الفلاسفة الفاطميين الذين تحدثوا فى الالهيات فى هذا العصر فهو يقول فى رسالته : « مباسم البشارات بالامام الحاكم » : « فانى لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا وللسدة العلوية زائرا ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم والناس تحت ابتلاء عظيم » (١٩٢) .

تلك اذن شخصية فذة لم يجد التاريخ بمثلها الا نادرا .

ثامنا : المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

وهل نستطيع أن نتحدث عن فلاسفة الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث عن هذا العالم الفيلسوف الذى بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه ذلك هو المؤيد فى الدين داعى الدعاة الذى عرف بمناظراته مع أبى العلاء المعرى فى تحريم أكل اللحم وقد اراد المستشرق مرجوليوث الانجليزى أن يعرف شيئا عن حياته فخانه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ولكن بالرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة ، فقد وفد على مصر وأقام بها زهاء ثلاثين عاما واستمع الى جمهرة من المصريين (١٩٣) الذين أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر فى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى ينادى بها وفى مصر أخذ عنه الملك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة الى اليمن . وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالأستاذية فى علوم الدعوة وفى مصر أنشد المؤيد قصائد ديوانه والقى مجالسه التى بلغت الثمانمائة مجلس .

فلا غرو أن هبة الله بن عمران موسى بن داود الشيرازى قد ولد بشيراز فى العشر الأخير من القرن الرابع من الهجرة فى أسرة اتخذت العقيده الفاطمية مذهبا لها . وكان أبوه حجة جزيره فارس أيام الحاكم الفاطمى ، فنشأ ابنه هبة الله ليأخذ مكانته فى الدعوة فى هذا الاقليم . وأخذ منذ نشأته بالالمام بكل شىء يخص

---

(١٩١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٣٣ .
(١٩٢) د. محمد كامل حسين : رسائل الكرمانى نسخة خطية .
(١٩٣) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ .

الدعوة وأسرارها . وكاتب الحاكم بأمر الله بأن يولى ابنة هبة الله أمر فارس من بعده . وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه . وما لبث أن أصبح يملك نفوس أتباعه فانقادوا له الانقياد كله . فكانوا يفشون اليه أسرارهم الخاصة حتى أهل بيته . ويضحون فى سبيله بأرواحهم وكثر أتباعه حتى خشى السلطان أبو كاليجار البويهى سطوته ونفوذه وهم أن ينفيه مرارا من شيراز ولكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد وبلغت كراهية السلطان أبى كاليجار للمؤيد أنه كان يكره سماع اسمه فى مجالسه ولكن المؤيد فى الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبى كاليجار وأن يجعل السلطان يستمع اليه وأن يعقد مجالس للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة واهل السنة . فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظريه ، فاضطر السلطان أمام قوة بيانه ودامغ حجته الى أن يخضع للمؤيد ، بل لأن يدخل فى دعوته ، وأن يعقد مجلسا خاصا يلقى فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمى من كتاب « دعائم الاسلام » للقاضى النعمان .

كان ذلك كله سببا فى غضب جمهور أهل السنة فى فارس ولاسيما القضاة والعلماء فاخذوا يوغرون صدور المقربين من أبى كاليجار وندمائه على المؤيد ، وانتهزوا فرصة واتتهم للايقاع به ، ذلك أن المؤيد زاد أتباعه فى مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت جدرانه فأمر شيعته بتجديده ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين وطلب من نقبائه الأذان فيه « يحى على خير العمل » أدان الشيعة وخطب يوم الجمعة باسم المستنصر الفاطمى فجهر بالدعوة الفاطمية دون خشيه واعلن عصيانه فى بلد يدين للعباسيين مما جعل قاضى الأهواز يرسل الى الخليفة العباسى ببغداد ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد فى الدين .

كما ثار اهل السنة على أبى كاليجار وجاء الوزير العباسى ابن المسلمة موفدا من قبل العباسيين للقبض على المؤيد وكان أبو كاليجار اذ يرنو الى ملك بغداد ، فكان أمام أمرين أما ضياع هذه الفرصة من يده فى سبيل رعاية ذمة المؤيد ، واما أن يضحى بالمؤيد فى سبيل أطماعه . وأدرك المؤيد تردد أبى كاليجار فى هذا الأمر ولا سيما بعد أن قطع السلطان مجالسه الليلية مع المؤيد ورغبته عن لقائه فلم يجد المؤيد بدأ من

النزوح عن وطنه فسار مختفيا متجنبا الطرق العامة سالكا البرارى والقفار حتى وصل الى مصر سنة ٤٣٧ هـ (١٩٤) جاء الى مصر يحدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاه السلطان وتوقيره لأنه خدم دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله . وقام بأمرها خير قيام ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر فى مصر ليس بيد امامه المستنصر بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال التسترى واليازورى وغيرهما .

ويصرح المؤيد بذلك فى سيرته بقوله : « وبلغت بشق النفس الباب الطاهر متأرجحا بين أمل ويأس ، ومتعقبا الملتقى ما يلقانى من طرفى ايحاشى وايناسى ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى حاديهما ، ونادانى بالأهل والمرحب مناديها . وأما اليأس فمن حيث عامت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ووجه نهار تبرقع بالسحاب وأن المسافة لعلها تقذفنى من الاضاعة فى يم ، وتؤدى بى من حيث أردت غنما الى غرم ... ادخلونى من باب القاهرة المعزية الى قصر الخلافة عمرها الله تعالى — فاستلمت على جارى العادة فى مثله الأبواب ولمحت الثريا ترابا تحت قدمى اذ ترشفت ذلك التراب وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى ثم أدخلونى الى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخا عليه من الوقار مسحة ، ومن الانسانية سمة ، فأدنى وقرب واكرم ورحب ، وخرجت فأخذونى الى دويرة (١٩٥) كانت فرشت لى وهى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالاكثار ولا بالاقلال » .

وهكذا استقر بمصر واتصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها ، ولكن الوشاية لم تنقطع عنه والدسائس تحاك حبالها حوله فكان يقربه الوزراء حينا ويبعدونه حينا آخر ، فعاش فى مصر بين الرضا والغضب وكثيرا ما فكر فى الرحيل عن مصر ، ولكن القوم لميسمحوا له بالرحيل ، وكان يأمل أن يولى مرتبة داعى الدعاة ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الامساك بها ، وأخيرا عينه الوزير اليازورى رئيسا لديوان الانشاء وزاد فى معاشه فتحسنت حاله ، فظل فى

(١٩٤) د . محمد حسين كامل : فى ادب مصر الفاطمية ص ٦٠ — ٦١ .

(١٩٥) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦١ — نقلا عن السيرة المؤيدية .

هذا العمل الى ان علم بقيام الأفرابك التركمانى لامتلاك بغداد ، وهنا تظهر لنـــا وهبة المؤيد وتوقد ذكائه اذ أدرك ان التركمانية خطر على الدولة الفاطمية وأنــه اذا تم أمر بغداد لطغرلبك فانه لا ينثنى عن محـــاربة أملاك الفـــاطميين فى بلاد الشـــام وأعالى الجزيرة ، فأسرع المؤيد فى الدين فى رد هذا الخطـــر عن أملاك امامه فكاتب رجال طغرلبك يستميلهم الى الدعوة الفاطمية كما راسل البساسيرى وغيره من رجال العباســـيين الذين يحقدون على التركمانية ويخشــــون تملكهم البلاد ووعد هؤلاء بامدادات الفــاطميين ان قاوموا . أما البســاســيرى ورجـــاله فرحبوا بالعمل باســـم الفاطميين على حين لم يســتجب رجال طغرلبـك فأيقـن المؤيد أن الحرب لا شــك ناشــــبة بين الفاطميين والتركمانية فنشـط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغرلبك . ووجدت دعوته قبولا منهم ، وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال . وأنفقت الدولة على هذه الحملة اموالا جمـة ذكرها المؤرخون فى كتبهم وهى الأموال التى ادت الى ضعف مصر اقتصاديا وجرتها الى ما عرف بالشـــدة العظمى وطلب من المؤيد ان يكون على راس هذه القـافلة لتسـليم هذه الذخائر الى البساسيرى فاعتذر المؤيد ولكن المســتنصر الفـاطمى أمره بأن يكون على راس الركب فلم يســع المؤيد الا الخضوع لأمر امامه وطلب من المؤيد ان يلبس خلع الوزراء فأبى وأمعن فى الاباء .

وهكذا بدأ المؤيد حيــاة جديدة ، حيــاة الرجل العســـكرى وحياة السياسى الداهية ، فقد خرج من مصر وليس معه جندى واحد وانما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربى ورسم له ان يصطنع من الاعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشـــاء ويغريهم جميعا بالأموال والخلع والألقاب من قبل الفاطميين . حقـــا كان للمؤيد دور بارز فى نشر الدعوة الفاطمية واعادة بلاد اخرى خرجت عن الدعوة وسلطانها كما نجح فى حربه مع التركمان وطردهم من العـــراق مع كثرة أنصارهم فى الكوفة وواســـط وحلب واســتجابتهم لدعوته (١٩٦) . واســـتطاع المؤيد بمـــا تجمـــع حوله ان ينتصر فى موقعة ســـنجار التى ذكرها الشـــاعر ابن حيـــوس فى قصـــيدة منهـــا :

عجبت لمدعى الآفــاق ملـكا وغايته بغـداد الركـود

---

(١٩٦) د. محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٦١ — ٦٢ .

بهذا النصر الذى أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديـــار بكر ولكن جموعه كانت تضم نفوسا متباغضة متشاحنة فسرعان ما دب بينها النفور وحـل الشـــقاق وتفرق عنه أكثر الأمراء حســدا منهم لمن قربهـم المؤيد اليه . ووصـف المؤيد حالهم بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهارش . وكان يحاول تهدئتهم واصلاح ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغرلبك بحالهم فأسرع اليهم وهزمهم وكان المؤيد اذ ذاك فى الرحبة فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يحث من تفرقوا عنه الى الرجوع اليه ويعدهم ويمنيهم ولكنها كانت صيحة فى واد . وخشى أن يدركه العــدو وهو حى فآثر أن ينســحب الى حلب واتخذها مقـرا لقيـادته وكانت حلب فى يـد المرداسيين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، فما زال المؤيد بهم حتى سلموا بلدهم الى الوالى الذى أرســله المستنصر الفاطمي وفى حلب استطاع المؤيد أن يتصـل بابراهيم بن ينال واغراه أن يخالف طغرلبك ووعده بالتلقيب والخلع الفاطمية فكانت مؤامرة ناجحة اذ انفصل ابراهيم بن ينال عن جيوش طغرلبك وخرج هذا لمحاربته فانتهز المؤيد هذه الفرصة وأمر البساسيرى بالمسير الى بغداد فتم له ذلك بسـنة ٤٥٠ هـ . ودعى على منابرها باسـم المســتنصر بالله الفاطمى لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر اسـتمعوا لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الاســلامى ولكانت هذه الحركة ســببا فى محو الخلافة العباســية منذ دخلت جيوش البساسيرى بغداد . ولكن المؤيد عاد الى مصر دون أن يحفل به احد . ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم ينفخ فيها بوق ولم يقرع فيها طبل واحد ولا غرو فى ذلك فقد كان الوزير فى مصر اذ ذاك هو الوزير المغربى الذى لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه .

وهكذا أضاع وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التى هيأها لهم المؤيد بدهائه وسياســته ، وقد كان المؤيد فى الدين من أكبر علماء عصره . وتدلنـا كتبه عـلى أنه كان واســع الثقافة ملما الماما تاما بجميع العلوم التى عرفت فى العالم الاسلامى اذ ذاك ، قوى الحجة فى مناظرته . وجداله مع مخالفيــه . وقد صدق أبو العلاء المعرى حين وصفه بقوله : « وســيدنا الرئيس الأجــل المؤيد فى الدين لا زالت حجته باهرة ودولته عالية .. ولو ناظر ارسطو طاليس اجاز أن يفحمه او افلاطون لنبذ حجته خلفه » (١٩٧) .

---

(١٩٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٣ ص ٢٠٢ .

وقد كان شيخ المعرة أبو العلاء المعرى يتهرب من المناظرة مع المؤيد لأنه كان يخشى قوة منطقه وحجته مع فصاحة بيانه فاعترف له بالتفوق فى الجدل ، وأنه ورث علم الأولين (١٩٨) .

وقد مات المؤيد سنة ٤٧٠ هـ بالقاهرة ودفن فى دار العلم بجوار القصر وصلى عليه الامام المستنصر نفسه (١٩٩) .

أما مؤلفات مؤيد الدين فقد كانت عدة كتب أهمها :

١ — المجالس المؤيدية : وهو أكبر كتاب وصل الينا فى الدعوة الفاطمية اذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التى كان يلقيهما المؤيد ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد ، وقد رتب حاتم ابن ابراهيم الحامدى الداعى اليمنى هذا الكتاب وقسمه الى أبواب حسب موضوعاته وسمى الكتاب « جامع الحقائق » وقد كان دعاة اليمن يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . وفى هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد ورده على المخالفين .

٢ — ديوان المؤيد فى الدين : كان المؤيد شاعرا كما كان اديبا عالما ، ونجد فى ديوانه مجموعة من قصائده أنشدها فى مدح الأئمة والحديث عن عقائد الفاطميين ومصطلحاتها ، وقد اشار المؤيد فى ديوانه الى تطور حياته وأحواله ، واشارات الى جهوده .

٣ — السيرة المؤيدية : ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخى يفصل لنا الحياة السياسية والاجتماعية فى فارس والعراق ومصر فى المدة من ٤٢٩ هـ حتى ٤٥٠ هـ كما يعد سجلا للوثائق التى تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب وبينه وبين الوزراء المصريين ابان الثورة التى عرفت فى التاريخ باسم ثورة البساسيرى .

وللمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ، وكتاب الابتداء والانتهاء ، وكتاب تأويل الأرواح ، وكتاب نهج العباد ، وكتاب المسألة والجواب ، وترجم الى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للقاضى الفاضل ، وهو فى تأويل قصص الأنبياء (٢٠٠) .

---

(١٩٨) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٤ .
(١٩٩) المرجع السابق ص ٦٣ .
(٢٠٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٥ .

ولا شــك أن المؤيد فى الدين الشــيرازى يعد من أخلص دعــاة الفاطميين الذين اتخذوا بــلاد المشرق مركزا لنشر دعوتهم وقــد اســتطاع بفضــــل مــا اداه من حكمة ودهاء ومــا عرف عنه من حــرص على التمســك بولائه للخــلافة الفاطمية اضعاف نفوذ العباسيين فى بعض بلاد المشرق (٢٠١) .

كما يعتبر المؤيد أســتاذ الدعوة فى اليمن والهنــد ، فعنه أخــذ القاضى لك ابن مالك علوم الدعوة وعــاد الى اليمن يلقى على المســتجيبين مــا تلقــــاه عن المؤيد ، كما يعد اســتاذ ناصر خسرو الشــاعر الفارسى المعــروف ، فقد ذكره ناصر فى اشــعاره ووصــف مجالســه .

وهكذا كان للمؤيد أثر فى الحياة السياسية والعقلية والأدبية .

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الحركة العقلية فى مصر الفــاطمية فى نمو مطرد فى كــل نواحيها والوانها وفنونها وبخاصــــة فى الدراسات الفلســفية حيث ظهر عــدد كبير من أعلامها ، وســاعد على ذلك أن الفاطميين افســحوا صدورهم لهذه الدراســـات الفلســفية حيث كانت العقائد الفاطمية ميدانا فســيحا للعقــل فكان ازدهار الحركة الفكرية ســـببا فى ازدهار الحركة الفلســفية التى كانت فى أغلبها تتبع عقــائد الفاطميين (٢٠٢) .

---

(٢٠١) د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٨٣ .
(٢٠٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١١٧ — ١١٨ .

دور الخلفاء والوزراء فى النشاط الأدبى

كان الخلفاء الفاطميون يقدرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التى تجب العناية بها ، ويقدرون كل من نال حظا من الثقافة ورقة الشعور ودقة الاحساس بل يذكر المؤرخون أن من بين الائمة من كان ينشد الشعر (١) .

وقد كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الادبى ذلك النفوذ الذى عملوا على تاييده بعطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب اثر عظيم فى نفس بعض شعراء الدولة الفاطمية من أمثال ابن هانىء الأندلسى وعمارة اليمنى (٢) .

وفى عهد المعز لدين الله الفاطمى تقدمت الثقافة تقدما باهرا وبخاصة الثقافة التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير وما اليها ، وقد نبغ فى عهده دعاة أفذاذ وشعراء وأدباء . وشارك المعز نفسه فى هذه النهضة بنصيب كبير (٣) . وشجعه على ذلك تلك البيئة التى نشأ فيها فقد اشتهر والده المنصور بسعة الاطلاع ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء الحكم عن البحث والتأليف (٤) . بل انه كثيرا ما كان يحتم على ابنه المعز أن يتوفر على الدرس ويؤلف الكتب ويقرض الشعر ، وليس هذا وحده فقد حرص على حث العلماء على الاستزادة من العلم حتى لقد اثر عنه انه كان يأمر قاضيه أبا حنيفة النعمان وغيره بالنظر فى القرآن وتأليف الكتب فى علومه (القرآن) من ذلك ما قاله لقاضيه يوما : « يا نعمان استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته » (٥) .

وكان لهذه البيئة العلمية والأدبية التى شب فيها المعز وترعرع أثرها فى تنمية مداركه وسعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية حتى أنه كان يحاضر

---

(١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٠ .
(٣) د . حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٢١ .
(٤) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات جـ أ ص ١٦٦ — ١٦٧ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم ويناقشهم مناقشة تدل علي مقدرته العلمية كما كان أبوه المنصور من قبل .

وكانت مكتبة المعز فى المنصورية ثم فى القاهرة زاخرة بالكتب وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع ما فيها من كتب وما تحويه من المعلومات ، وقد قيل ان المعز أمر خازن كتبه أن يحضر كتابا ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب .

ولاغرو فقد كان يقول : « والله ما تلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة » (٦).

حقا ان المعز يعد من أفذاذ عصره فى العلم والتصنيف ، فهو الذى دعا الى هذه الحركة العلمية المباركة حتى لقد نسب اليه تاليف كثير من الكتب مثل كتاب « الروضة » الذى يتناول الكلام على بعض النواحى الفقهية ، و « الرسالة المسيحية » (٧) .

وقد وصف المؤرخون من امثال ابن اياس وابن خلكان الخليفة المعز بانه كان عاقلا حازما لبيبا فصيحا اديبا شاعرا وله شعر جيد من ذلك قوله :

ما بان عذرى فيك حتى عذرا — وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همت بقبلته عقارب صدغه — فاستل ناظره عليها خنجرا (٨)

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر وعرف عنه قرض الشعر صغرا والشعر الذى ذكرناه سابقا يدل عليه . ولعله كان يسمو بنفسه فى عالم الأدب لو لم تستوعبه أعباء الملك (٩) .

ويذكر ابن خلكان أن المعز كان سريا اديبا شاعرا تنسب اليه هذه الأبيات :

لله ما صنعت بنا — تلك المحاجر فى المعاجر

---

(٦) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٩١ .
(٧) د . حسن ابراهيم : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٢٥ — نقلا عن عجبه نامه ص ٣٣٢ .
(٨) محمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٧ — ٤٨ .
(٩) ابراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٦ .

أمضـى واقضـى فى النفـوس من الخنـاجر فى الحنـاجر
ولقـد تعبـت بينكـم تعب المهـاجر فى الهواجر (١٠)

فهذه الأبيات ان دلت على شيء فهى تـدل قبـل كل شيء على ان الشـاعر كان من شـعراء الزينة البديعية . فقد فتن بهذه الملاءمة اللفظية بين « المحاجر ، والمعاجر » وبين أمضى واقضى وبين الخناجر والحناجر ، وبين المهاجر والهواجر ، ومع ظهور هذه الصـنعة البديعية فى هذه الأبيات فان خيـال الشـاعر كان قويا فى تعبيره عما تفعله العيون التى تختفى تحت المحاجر ولكنها تصيب هدفها وتفعل فى النفوس أكثر مـا تفعله الخناجر فى الحناجر .

ويشـير ابن خلكان (١١) عن المعـز أنه كان حسـن النظر فى النجابة ومن الشـعر الذى ينسـبه اليه القدماء هذه الأبيات :

اطلع الحسـن من جبينك شمسـا فوق ورد فى وجنتيك اظـلا
وكـأن الجمـال خلف على الـور د فمـد بالشـعر ظـلا (١٢)

هنا صـورة جميلة من شـاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن فهو يصـف جمـال المحبوب بصـورة من صـور الطبيعـة المحببـة الى النفس فهى كالورد المتفتح قـد غمرته الشـمس ولكن الشـاعر كان دقيق الحس رقيق الشـعور فخشى أن يذبل الورد من حرارة الشـمس فظلله بخصـلة من شـعر الحبيب ، فالصـورة هنا لا شـك جميلة .

وكان المعز يجيـد الشـعر وينشـده وبهذا يكون قد أتقن فنـا من فنـون العلم والأدب حيث اسـتعان المعـز بالشـعراءفى نشر الدعوة الفاطميـة وعلق عليهم أهمية كبرى وتابعه فى سـياسته من جـاء بعده من الخلفاء الفاطميين وتقاضى هؤلاء رواتب كبـيرة ، واغدقت عليهم الهبـات السـنية ، فكـانوا يختارون ممن اشـتهر بسـعة الاطلاع وامتاز بالمقدرة فى فن الانشـاد حتى يسـتطيعوا اقتنـاع النـاس بحججهم القوية ، وعباراتهم الرصـينة بما ترمى اليـه الدعوة الفاطمية . لذلك وجدنا رجال الأدب الشـعبين قد نظموا القصـائد تمدحا فى المعز

---

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٠٣ .
(١١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٥٣ .
(١٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٣ .

ومن جاء بعده من الخلفاء وجاراهم فى ذلك المضمار عدد من الشعراء السنيين ولو انهم كانوا أكثر اعتدالا من الشعراء الشيعيين الذين ينتمون الى الدولة الحاكمة .

وكان خبر تشجيع الفاطميين للشعراء المناصرين لهم بالهدايا والعطايا قد اتصل بمسامع الشعراء المقيمين فى غير مصر من الاقطار (١٣) فدفع ذلك الكثير من هؤلاء الى الهجرة الى مصر واتخاذها دار اقامة حيث استقبلوا بجميع مظاهر الترحيب وكان اكثر الشعراء رحيلا الى مصر شعراء الدولة العباسية لأن تلك الدولة لم يكن لها اذ ذاك من النفوذ والسلطان ما كان لها قبل أن تصبح تحت سيطرة قوة الاتراك فى قبضة بنى بويه والسلاجقه فلم يلقوا اى مظهر من مظاهر التشجيع فى بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد فرحلوا الى مصر (١٤).

كذلك يرجع ازدهار الشعر فى عهد المعز الى كثرة هباته وعطاياه حيث كانت قصوره كعبة العلماء والشعراء والأدباء والمفكرين ، ومما يمتاز به الشعر فى عهده ، ميل الشعراء الى الغلو المذهبى (١٥) . ويتضح ذلك من شعر ابن هانىء الأندلسى ، فهو أول من ضرب المثل فى ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده ولابد لنا أن نأتى بشىء من سيرته ، عسى أن نتبين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التى كانت تظهر لدى الخلفاء الفاطميين فى نشر دعوتهم ونجاح سياستهم.

ويلقب أبو القاسم محمد بن هانىء بأبى الحسن ايضا ، وهو من قبيلة أزد . وقد وقد ولد فى اشبيلية فى بلاد الأندلس فقضى بها ايام صباه ، وكان أبوه هانىء من من قرية من قرى المهدية فى شمال افريقية (فى بلاد تونس الآن) وقد تجلت مواهبه فى الشعر والفلسفة وانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد الذى اتصل فيما بعد بصاحب اشبيليةوحظى عنده وانهمك فى الملاذ واتهم بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل المدينة وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب هانىء ، فأشار عليه الملك بالبعد عن هذه المدينة ريثما ينسى الناس ما كان من اخباره ، فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (٣٤٧ هـ أو ٣٥٣ هـ — ٩٥٨ م / ٩٦٤ م) فلقى جوهرا القائد ومدحه ، ثم ارتحل

---

(١٣) د . على حسن ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٢٥ — ١٢٦ .
(١٤) المصدر السابق ص ١٢٦ .
(١٥) د. حسن ابراهيم : المعز لدين الله الفاطمي ص ٢٢٥ .

الى جعفر بن يحيى بن على بن احمد بن حمدان الأندلسى أمير مسيلة واقليم الزاب . ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا فى اكرامه والاحسان اليه ، فنمى خبره الى المعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه بالغ فى الانعام عليه ، ثم توجه المعز الى الديار المصرية فشيعه ابن هانىء ورجع الى المغرب لأخذ عياله واللحاق بمولاه . وقد اعد ابن هانىء معداته للرحيل وسار يريد مصر . فلما وصل الى برقة اضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجالس الأنس والطرب ، يقول ابن خلكان : انهم عربدوا عليه فقتلوه ، وفى رواية أخرى أنه خرج سكران فنام فى الطريق فوجد ميتا فى الصباح فلم يقف الناس على سبب وفاته وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ ابريل سنة ٩٧٣ م) وعمره ست وثلاثون سنة وقيل اثنتان واربعون (١٦) .

ولقد ناط المعز بابن هانىء الآمال الكبار ، عساه أن يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم ، يؤكد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر اسف عليه اسفا شديدا وقال : « هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » (١٧) .

ولا شك فى أن المعز قد اصاب فيما قاله ، لاننا اذا تصفحنا ديوان ابن هانىء الذى يقع فى مائتين وست واربعين صفحة ، الفينا ان اكثره قد نظم فى مدح المعز واسرته ، وليس لدينا دليل تاريخى على أن ابن هانىء قد اعتنق مبادىء المذهب الشيعى فى صباه ، غير أنه لابد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد ، يدلك على هذا ما كان من اظهار هذه العواطف حال وصوله الى بلاد المغرب (١٨) .

ويظهر ان ابن هانىء أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرمهم لا حبا فى عقائدهم واستمساكا بها . حتى لقد ذهب به هذا التحمس الى ان ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه الى نفسه وقد تكلم عن ذلك فى هذين البيتين :

---

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥ — المقريزى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٠١ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .
(١٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥ .
(١٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤١ .

لى صارم وهو شيعى كحامله ... يكاد يسبق كراتى الى البطل
اذا المعز معز الدين ساطه ... لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل (١٩)

ويقول الأستاذ ابراهيم جلال فى كتابه المعز لدين‌الله عن ابن هانىء وتشيعه: « ان ابن هانىء طبع نزاعا الى التشيع فمال بصره الى الجنوب حيث مقر الأئمة الذى أخلف لهم الحب وملك التشيع عليه مزاجه وملكه الأدب من نفسه فنطقت جوارحه بحبهم وتم أدبه بتمجيدهم . وما كان ابن هانىء ليتشيع على أيدى أساتذته فحول الأدب بالأندلس لأن القوم كانوا يمقتون الشيعة وأئمتها وقد اثاروا عليهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة » (٢٠) .

على أن ابن هانىء كما وصفه طبقات البحاث وحفاظ الأدب « أشعر » شعراء المغرب على الاطلاق من المتقدمين والمتأخرين حتى دعى بحق « متنبى المغرب » وما سما الى تلك المنزلة من الأدب الا بحدة ذكائه وخصب خياله واكتناز محاسن اللغة فلماذا لا يكون ميله الى التشيع اختيارا وافق ميوله ومزاجه ؟ وهو العبقرى الفذ فى وضع مختاراته فى المعز حتى قال فيه بعض منصفيه : « لقد تجاوز بسمو خياله ورقة ما نحت من جمال لغته وأدبه كثيرا من وشى المتنبى اولا أن غلا فى التشيع » ، ولكنه الحب الصادق والتشيع الظاهر هو الذى تغلغل الى قلبه وسما بنفسه كما فعل بقلب الكميت شاعر أهل البيت فى الصدر الأول وكما فعل بعمارة اليمنى فى مأتم تلك الدولة وما كان عمارة متشيعا كابن هانىء بل كان دنفا بحبهم صداحا بمدائحهم حتى لقى ربه مصلوبا فوق أنقاضهم معفرا بدمائهم يشدو برثائهم شدوا دونه رثاء الأندلس البائدة (٢١) .

وكان ابن هانىء من الشعراء الذين ظهروا فى حاشية الخليفة المعز قبل مجيئه الى مصر ومن شعره فى مدح المعز وينسب اليه صفات الالوهية فيقول :

تدعوه منتقما عزيزا قادرا ... غفار موبقة الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دعيت خليفة ... لدعيت من بعد المسيح مسيحا

---

(١٩) ابن هانىء الأندلسى : ديوانه ص ١٨٢ .
(٢٠) ابراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى ص ٣١ .
(٢١) المصدر السابق ص ٣٢ .

شـــهدت بمفخرك الســموات العلا   وتنزل القــرآن فيــك مديحــا (٢٢)

ومن قوله يتلمس السبيل الى المعز طمعا فى صلاته وعطاياه :

وطفقت اســال عن اغــر محجــل   فاذا الامــام جبــلة دهمـــاء (٢٣)
حتى دفعت الى المعــز خليقـــة   فعلمــت ان المطلب الخلفـــاء
جــود كــأن اليــم فيــه نفـــاثه   وكانما الدنيـــا عليــه غثــاء(٢٤)

ويقول ابن هانىء فى مدح المعــز بالقيروان وهى اول مــا انشــده :

النـــور انت وكــل نـــور ظلمـــة   والفــوق انت وكــل فـــوق دون
فارزق عبادك منه فضــل شــفاعة   واقرب بهــم زلفى فانت مكين (٢٥)

وايضـــا :

امام رايت الدين مرتبطـــا بــه   فطــاعته فــوز وعصـــيانه كفـــر
ارى مدحـــه كالمـــدح لله انــه   قنوت وتسبيح يحيط به الوزر (٢٦)

وايضـــا فى المـــدح :

مـــا شئت لا مـــا شاءت الاقــدار   فاحكم فانت الواحــد القهـــار
وكانمـــا انت النبى محمـــد   وكانمـــا انصـــارك الانصـــار

ولقد بلـــغ تمجيد ابن هانىء للمعــز اقصى حــد يمكن أن نتصـــوره حيث ينســب اليه القدرة على المعجزات فيقول :

فقــد شــهدت له المعجزات كمــا   شـــهدت لله بالتوحيـــد والأزل (٢٧)

---

(٢٢) د . حســـن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٢٨ نقلا عن ديوان ابن هانى ص ٣٤ — ٣٦ .

(٢٣) الأغـــر : السيد فى قومه . التحجل : بياض يكون فى قوائم الفرس ، وقيل هو أن يكون البياض فى ثلاث منهن دون الأخـــرى فى رجـــل ويدين . الجبلة بمعنى الطبيعة والخليقة والغريزة . دهمـــاء : من الدهمة وهى السواد .

(٢٤) اليم : البحر . النفاثة : البصقة . الغثـــاء الزبد .

(٢٥) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ٢١١ — ٢١٦ .

(٢٦) د. حســـن ابراهيم وطه شرف : ص ٢٢٩ نقلا عن ديوان ابن هـــانىء ص ١٤٦ .

(٢٧) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٥ — نقلا عن ديوان ابن هانىء .

ومما قاله ابن هانىء فى عيد النحر يمدح المعز ويذكر هذا العيد :

هـذا ابن وحى الله تأخـذ هديهـا   عنه الملائك بكـرة واصـيلا

ذعرت مواكبة الجبـال فاعلنت   هضـباتها التكبـير والتهليـلا

وعلمت من مكنـون سر الله مـا   لم يؤت فى الملكـوت ميكائيلا

لـو كان اتى الخلق مـا اوتيتـه   لـم يخلق التشـبيه والتمثيلا (٢٨)

كما يحدثنا ابن هانىء عن علو منزلته عند المعز وقصـور انداده من الشعراء عن اللحاق به فيقول :

فمـا تكـامل من قلبى لمرتقـب   اذن ولا لخطيب ما تكامل لى

وتوالت عليه أيادى المعز حتى أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينـار فقال له : يا امير المؤمنين ما لى موضع يسع الدسـت اذا بسط . فبنى له قصرا أنفق على بنائة سـتة آلاف دينـار وحمـل اليـه فراشـا يشـاكل الدسـت والقصر بثلاثة آلاف دينـار ، وهذا ما لم ينله شاعر قبله ولا بعده (٢٩) .

اما الأمير تميم بن المعـز فقد كان شـاعرا ماهرا لطيفـا طريفـا ولم يـل الملك لان ولاية العهد لأخيه العزيز فوليها بعد ابيه . واشعاره كلها حسنة (٣٠).

فلقد انجب المعـز اربعـة من الذكور فكان اكبرهم تميم وبه تكنى المعـز فكان مؤلده بالمهدية جـاء الى الدنيـا فى خلافة جـده المنصـور قبل مولد اخيـه العزيز بسـت سـنوات — فمولد تميم كان فى سـنة ٣٣٧ هـ / ٣٧٤ هـ / ٩٤٨م/ ٩٨٤ م . وقد صـفا للفاطميين الجو وكفاهم الله شر الثائر ابن يزيد فاسـتقروا فى مضاجعهم الى حـين . ودرج تميم فى احضـان النعمـة وغذى برقيق العيش فترعرعت فيه سـليقة الأدب التى كانت شـيمة آبائه فانحدرت اليه من اصلابهم. واذكتها كثرة المطالعة والتحصـيل ، وكان جوادا سـمحا عشـير الناس يخـالط ويداخل ويستمع الى حديث المجتمع وسمره واغانى قيانه .

وجال فى عالم الأدب قديمه وحديثه ومـا قرض ابنـاء الخلفـاء من الأمويين والعباسـيين من غـزل وشراب واغاريد فطبع بطـابع ابن المعتز العباسى ويزيد

(٢٨) ديوان ابن هانىء الأندلسى : ص ١٥٣ — ١٦٠ .

(٢٩) ابراهيم جلال : المعـز لدين الله الفاطمى ص ٣٦ .

(٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٢ .

الأموى ومن سما سموهما من أبناء خلائف الأندلس الرطيب وكان أبوه يرجو أن يراه وليا لعهده لذكائه وعلو همته وسخاء يده فأقفطه مزاج فيه دعة ومرح ونزوع الى ترف الحياة والمعاقرة وهى خلال تسمو عنها آداب الخلافة فمال الى أخيه العزيز ودخل تميم الى القاهرة فى موكب أبيه وقد أوفى على الخامسة والعشرين أنضر ما يكون الشباب وجاها وفراغا من أعباء الملك فأخذته فتنة النيل بواديه الأخضر وضياعه وبساتينه واستراقه عيش النعيم وأخلاق الأنداد من أهل البلاد وكثرة الأعياد (٣١) .

وقد نشأ تميم فى مدرسة بيته يتلقى فقه الشيعة وفنون اللغة ، فلسفة الامامة وأسرارها من أبيه ومن دعاة أبيه كانت حياته الأولى فى ظل أبيه ، دراسة وتعلم واستفادة واطلاع وكثيرا ما تدل أشعاره على حياته (٣٢) .

فهذا الأمير تميم يمدح أخاه الصغير العزيز بالله فيقول :

تهون على صغار الأمور ويصغر عنى جميع الورى

أنا ابن المعز سليل العلي وصفو العزيز امام الهوى

وما احتجت قط الى ناصر ولا رحت يوما ضعيف القوى

ولم أستشر فى ملم يثوب مشيرا أرى منه ما لا أرى

ولست بوان اذا ما أمر زمان ولا فرح أن حلا (٣٣)

فهو لم يستطع أن يخفى ما فى نفسه من آلام وشعور بحنق وغيظ ، كان يحاول اظهار تجلده وصبره ولكن عاطفته فى الشعر هى عاطفة القانط الحاقد .

ولتميم شعر فى الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق أيمان عن شعر أشد الشعراء تمسكا بالدين وأشدهم خوفا من عذاب الآخرة فهو يقول :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا فى غفلة عما وراء الممات

لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصى ثبات

---

(٣١) ابراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣٢) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين أضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٣٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٧١ — نقلا عن ديوان تميم نسخة خطية بمكتبة د . محمد كامل حسين .

من شــك فى الله فذاك الذى أصــيب فى تمييزه بالســبات
يجيئهم بعــد البلى مثــل مــا أخرجهم من عــدم للحيــاة (٣٤)

ومن اجل هذا نرى أن قســما كبيرا من شــعره الأول مــا زال مفقودا فقد قدم الى مصر فى نحو الخامسة والعشرين من عمره وليس من المعقول ان تخلو تلك السنوات الســابقة كلها من بضع قصــائد على الأقل ولا يمكن انه ولد فى مصر شــاعرا كاملا على الصــورة التى نراه بها . فان اكتمال البلاغة فى أدبه وازدهار البيان فى مدائحه لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ولا أثر المفاجاة ، وعلى أى حال فنحن نعد الأدباء الذين أجمعوا على أن افضل شــعراء الفاطميين هو تميم فقد انشــأ بها المدرســة الحديثة فى قصره يتلقى على ســلافها الندماء ويتبــارى على بســاطها الشــعراء فأجادوا وابدعوا وكان لحســن الطالع ان صادفه ، شــاعر نســيب يقاسمه مجد الحســب وتراث الأدب وذلك هو ابن الراسى فجرت بينهما المراســلات التى جرت بينهما ، واسرة الراسى كانت اصــيلة فى روض القريض (القروض) عريقة فى مضــمار البلاغة فأعانت هذه الأسرة وغيرها من الشــعراء مضافا الى ذلك ان جمال الطبيعة فى مصر ساعدت هذا الشــاعر على أن يجيــد مــا أجــاد ويفيد مــا أفــاد (٣٥) .

تلك لمحة عاجلة من أيام تميم نســوقها لتصــوير ناحية من صــور العصر الفاطمى كان فيها ديباجة المجتمع فى ســماحة خلقه وزهوه ونشــوة مرحــة فكان اروع ما نشر من أدبه ما ســار فيه على هدى ســليقة الغضب لآبائه وما أصدق تلك المشاعر فى تميم وهو يرثى جده الحســين (٣٦) فيقول :

ثوت لى أســلاف كــرام بكربــلا هم لثغور المســلمين ســداد
أصابتهم عبد شــمس عــداوة وعاجلهــم بالنــاكثين حصــاد
فكيف يلذ العيش عفوا وقد سطا وجــار عــلى آل النبى زيــاد

اما خليفتنا الثانى — الا وهو العزيز بالله الفاطمى فقد ظهر فى عهــده كثير

---

(٣٤) ديوان الأمير تميم .
(٣٥) محمد حسن الأعظمى : عبقرية الفاطميين : أضواء على الفــكر والتاريخ الفاطميين ص ١٣٥ .
(٣٦) أبراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمي ص ٨٨ .

من الشعراء – فكان هو شاعرا مجيدا (٣٧) ، كما كان أبوه المعز من الشعراء المجيدين ولذا اعتمدا على الشعراء فى الترويج والدعاية للدعوة الفاطمية واقبل الشعراء على الرحيل الى مصر من كل مكان .

يقول أبو المحاسن (٣٨) عن العزيز : « كانت لديه فضيلة وله شعر جيد » ، وروى الثعالبى فى يتيمة الدهر قول العزيز بالله الفاطمى وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن	يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا	أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم	طرا ، وأعيادنا مآتمنا (٣٩)

فالشاعر يعبر فى هذه الأبيات بعاطفة صادقة عن الم يقين وحزن مكين فهو لم يحزن لفقد ولد فحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محنة وكوارث حتى أصبحت اعيادهم مآتم (٤٠) . كما كان الخليفة العزيز غيورا على عقيدته ودينه شديدا لمن خالفه من العباسيين يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم شديد الفخر بنسبته الى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو فى ذلك لا ينسى عقائده المذهبية التى كان أمامها ، فأشار الى انه تنقل فى الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله الا من اعتقد مذهب الفاطميين . وذلك أن الفاطميين ذهبوا الى أن الله سبحانه خلق نور محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل فى الأصلاب والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب فقسم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما كن يا هذا محمدا ويا هذا كن عليا . وأن هذا النور تجمع مرة أخرى بزواج على من فاطمة بنت الرسول وتنقل فى الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكان العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذى حل به وجد قبل آدم (٤١) .

---

(٣٧) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٢٨ — ١٢١
(٣٨) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١ .
(٣٩) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٢٣ .
(٤٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣٢ .
(٤١) المصدر السابق ص ١٣٣ .

ولعل العاطفة الصادقة هى التى دفعت العزيز لأن يقول :

لما رأيت الدين رثت حباله ... واصبح ممحو الضيا والمعالم

واصبحت الأغنام من كل امة ... تسوم عباد الله خزم المخاطم

وتحكم فى أموالها ودمائها ... بغير كتاب الله عند التحاكم

غضبت لدين الله غضبة ثائر ... غيور عليها مانع للمحارم

وسيرت نحو الشرق بحر كتائب ... تموج بابطال رجال قماقم

يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا ... وبالمشرفيات الرقاق الصوارم

أنا ابن رسول الله غير مدافع ... تنقلت فى الأنوار من قبل آدم

لى الشرف العالى الذى خضعت له ... رقاب بنى جواد من كل عالم

بنا فتحت ابواب كل هدية ... ومنا بحمد الله (خير الخواتم)

فقل لبنى العباس مع ضعف ملكهم ... بانهم أسرى بايدى الأعاجم

غضبتم بنى مروان ما غضبوه من ... مواريثنا سحقا لظالم ظالم

ولم تحفظوا فينا وصايا محمد ... ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم

سنسقيكم كاسا كما قد سقيتم ... أوائلنا والله أعدل حاكم (٤٢)

وقد أضفى المؤرخون القدامى (٤٣) على العزيز بالله كثيرا من الصفات الطيبة ، فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير وحب العلم والادب وكان كابيه المعز يجيد عدة لغات ولذا شجع العلماء والأدباء كما كان مجيدا فى قول الشعر وتميز بالعفو والتسامح والكرم والشجاعة والاقدام .

وقد شهد عصر العزيز بالله نهضة ثقافية وعلمية كبيرة فقد كان العزيز شاعرا محبا للعلوم وحمل وزيره يعقوب بن كلس لواء هذه النهضة الثقافية (٤٤) .

ولذا تميز العزيز ووزيره ابن كلس بالكرم والاغداق على الشعراء مما دفعهم الى نظم القصائد العصماء ، ومن الشعراء الذين مدحوا العزيز بالله وهو ولى لعهد ابيه الشاعر محمد بن هانىء الذى أصبح مثالا يحتذى به بين

---

(٤٢) ورقة ٦٣ أ من مجموعة اشعار اسماعيلية نسخة بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٨١ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ — الثعالبى : اليتيمة ج ١ ص ٢٥٤ .

(٤٤) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١١٦ .

سائر الشعراء فى عصر العزيز بالله (٤٥) . ومن شعراء العزيز بالله ابو حامد الانطاكى وعبد اللهبن أبى الجرع .

أما الشاعر أبو حامد الأنطاكى فهو من أهل انطاكية بالقرب من حلب وكان من مشهورى الشعراء وقد تكلم عنه الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر (٤٦) . فقال : « هو نادرة الزمان وجملة الاحسان وممن تصرف بالشعر فى أنواع الجد والهزل واحرز منصب الفضل وهو أحد المداح الجيدين المحسنين هو بالشام كابن الحجاج بالعراق » .

وقد مدح الخليفة العزيز الفاطمى بقوله :

لم يدع لى العزيز فى سائر الأر ... ض عـدوا آلا واخمـد نـاره
كل يوم له عـلى ثوب الدهـر ... وكر الخطوب بالبذل غـاره (٤٧)

ومن غرر محاسنه قوله يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى صاحب مصر :

قد سمعنا مقاله واعتذاره ... واقلنـاه ذنبـه وعثـاره
والمعـانى لمن عنيت ولـكن ... بل عرضت فاسـمعى يا جاره
من تراد به انـه ابـد الدهـر ... تــراه محــللا ازاره
عـالم أنـه عـذاب مـن الله ... متـاح لأعـين النظـاره

وذكر ابن خلكان انه اقام بمصر زمانا طويلا وأن معظم شعره قد نظم فى مدح أمرائها ورؤسائها فمدح من الخلفاء الفاطميين المعز والعزيز والحاكم ، وشاد بذكر جوهر وابن كلس وغيرهما . وقد ذكره المسبحى فى كتابه « تاريخ مصر » .

ومن شعراء العزيز بالله ابو عبد الله محمد بن أبى الجرع وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن العزيز الفاطمى ولقد بلغ هذا الشاعر مرة ان الوزير كان يشكو من الم فى يده فنظم الشاعر قصيدة يظهر فيها المه الشديد لمرض الوزير

---

(٤٥) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٢١ — ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤٦) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

ويصف ما كان لمنح العزيز بالله عليه من اثر وفى ذلك يقول :

يد الوزير هى الدنيـــا فان المت رايت فى كل شيء ذلك الألمـــا
تأمل الملك وانظر فــرط ملتـــه من اجله واسأل القرطاس والقلما
وشاهد البيض فى الأغماد حائمــة الى العداء وكثيرا ما روين دمـــا
وانفس الناس بالشكوى قد اتصلت كانما اشعرت من أجله ســـقما
هل ينهض المجـــد الا أن يؤيـــده ساق تقدم فى انهاضه قـــدما (٤٨)

كما انشـــد الشاعر ابن ابى الجرع ايضا :

لولا العزيز واراء الوزير معـــا تحيفتنا خطوب تشعب (٤٩) الالما
فقل لهـــذا وهـــذا انتمـــا شرف لا أوهن الله ركنيـــه ولا انهـــدما
كلاكما لم يزل فى الصالحات يـــدا مبسوطة ولسانا ناطقـــا وفمـــا
ولا أصـــابكما احـــداث دهركمـــا ولا طوى لكما ماعشـــتما علمـــا
ولا انمحت عنـــك يا مولاى عافية فقد محول بما أوليتنى العدما (٥٠)

وللشاعر ابن ابى الجرع قصـــيدة طريفة نظمها وبعث بها الى اصـــدقائه ليقدموا على داره ليتناولوا الطعام قبل حلول شهر رمضان ومن أبياتها :

شـــــعبان قـــد صـــار نضـــوا ولـــم نفـــد فيـــه لهـــوا
وليس ذلـــك منـــــــا جهـــلا ولا كان ســـــهوا
فبالمـــــــــــــودة الا بكـــرت للتصـــف عـــدوا
حتـــى نقـــوم فنرنـــو يا خـــرق الدهـــر رفـــوا

ثم يحدد ابن أبى الجرع أنواع الطعام التى ســـيقدمها لضيوفه ومنهـــا جدى سمين مشـــوى وبقول وقهوة ، ويغريهم بالحضور فيقول أنهم سيستمعون الى اغانى شـــجية وسيقدم لهم العطور والزهور ثم يحثهم على عـــدم الاعتـــذار فيقـــول :

فمـــا اعتـــذارك فى أن تغنـــى زمانـــك صحـــوا
وأنت بعـــد قليـــل بالصـــوم والله تطوى (٥١)

---

(٤٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٣ .
(٤٩) تشعب بمعنى تصدع .
(٥٠) القريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧ .
(٥١) د. على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ١٢٣ .

يضاف الى ذلك ما أورده ابن خلكان (٥٢) وهو انه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره فرثاه مائة شاعر فأجيز كل منهم وهذا يدل على أن مجالس ابن كلس كانت تغص بالشعراء والأدباء مما ساعد على ازدهار الحياة الأدبية فى العصر الفاطمى .

فان ما أظهره الوزراء من جود وكرم لم يكن الا صورة مصغرة لهبات الخلفاء أنفسهم وعلى الأخص فى الصدر الأول من أيام الفاطميين حين كانت سطوة الخلفاء لا تزال فى اشدها ، يدلك على صحة ما نقول هذه الأبيات التى ذكرناها سابقا للشاعر المشهور ابو حامد الأنطاكى يمتدح فيها العزيز ووزيره ابن كلس (٥٣) . ولم تقتصر هذه المنح على الخلفاء والوزراء بل كان لغيرهم من كبار رجال الدولة يد فى ذلك أيضا . ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح . وكان من الأمراء الذين يسيرون فى ركاب الخليفة العزيز اذا خرج فى الموكب . ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الحاكم قصيدة يمدح فيها الفضل نذكر منها هذه الأبيات :

انما الفضل غرة ... فى وجوه المدائح
اريحى رياحه ... عبقات الروائح
كعبة الجود كفه ... بين غاد ورائح
انما تصلح الأمو ... ر برأى أبى صالح (٥٤)

ومن الشعراء الذين مدحوا الخليفة العزيز بالله عندما تولى الخلافة أبو عبد الله حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فانشده هذه الأبيات منها :

عمت خلافته مصر فصار بها ... كانه الشمس فيها حلت الحملا
ان المعز الذى لا خلق يشبهه ... الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا
فان مضى كافل الدنيا فصار لها ... من بعده كافلا يغنى بما كفلا
اضحت ملوك بنى الدنيا له خدما ... وما حوت كل دار منهم نفلا (٥٥)

---

(٥٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٣ .
(٥٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٤ .
(٥٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٤٧ .
(٥٥) محمد ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٧ — ٣٨ .

ومن الجدير بالذكر أن الأمير تميم قد مدح اخاه العزيز بقوله :

لولا العزيز أمين الله ما لجأت ... نفسى الى ملجأ منه ولا وزر
يا ابن الأئمة والهادين متصلا ... بصفوة الله أهل الوحى والسور
ما انت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس فى جسم من البشر
وأنت بالله دون الخلق متصل ... وأنت لله فيهم خير مؤتمر (٥٦)

وهناك من الشعراء الصقليين من كان يتنقل بشعره متكسبا وخاصة بعد أن اصبحت مصر دولة فاطمية أو فاطمية الدولة تجتذب اليها الشعراء من جميع أنحاء المملكة ، وصقلية يومئذ ولاية تابعة للخليفة الفاطمى وأمراؤها الكلبيون ذوو منزلة رفيعة عند ذلك الخليفة بمصر وصقلية فى آن واحد وبهؤلاء الشعراء الراحلين عرف الناس صقلية معرفة أوضح وزادها وضوحا أخبار التجار والرحالة اليها (٥٧) .

فمن الصقليين الذين هاجروا من بلدهم فى هذه الفترة المقداد بن الحسن الكلبى واخوه ميمون والأول منهما كان بمصر أيام العزيز نزار . وهو يصرح بأنه شاعر الخليفة وقد قتله الحاكم سنة ٣٩٣ هـ لقوله فى أيام العزيز :

الحمد لله حتى الخبز أعوزنى ... فى بلد أنا فيها شاعر الملك

وبرز أيضا من هؤلاء الصقليين أبو على الحسن بن على الصقلى النحوى ولا نعرف له من الشعر الا قوله :

فى سبيل الله ود حسن ... دام من قلبى لوجه حسن
وهوى ضيعته فى سكنى ... ليس حظى منه غير الحزن
يرقد الليل ويستعذبه ... واذا ما رمت طيب العرش
زارنى منه خيال ماله ... ادب فى غير أن يوقظنى (٥٨)

وقد توفى هذا الصقلى بمكة سنة ٣٩١ هـ بعد أن حج ودفن هناك .

وفى عصر الحاكم بأمر الله كانت الحركة الأدبية قد استقرت واتخذت وجهتها

---

(٥٦) د. أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٤١٢ — ٤١٣ نقلا عن ديوان تميم ص ٥١ — ٥٢ .
(٥٧) د. احسان عباس : العرب فى صقلية دراسة فى التاريخ والأدب ص ١٦٧ .
(٥٨) المصدر السابق ص ١٦٨ .

الجديدة فى ظل الدولة الجديدة وذلك لانه كان نصيرا للعلوم والتفكير والآداب .

كان الحاكم منذ صباه يتذوق الشعر الجيد وقد كان الشعراء ينشدونه القصائد فيحسن التمييز بينها ويصل الشعراء على قدر اجادتهم . بل هناك ما يدل على ان الحاكم كان أديبا يتذوق الطرائف الأدبية ومن ذلك ما رواه المقريزى نقلا عن ابن الصيرفى وهو ان الحاكم قال ذات يوم لبعض الأعيان الذين يحظون بمجالسته ومحادثته : اكلت حتى شبعت وشربت حتى رويت فالشبع والرى غايتا الأكل والشرب ، فاذا قلت ونمت حتى اذا أى تجعله غاية النوم ، فلم يحر جوابا ورغب الحاكم فى الافادة فقال : نمت حتى ربت والردب غاية النوم وانشد :

فاما تميم بن مرفا لفاهم   القوم دوب نياما (٥٩)

وكان الحاكم بأمر الله شاعرا ايضا وينسب اليه صاحب النجوم الزاهرة (٦٠):

دع اللوم عنى ليت منى بموثق   فلابد لى من صدمة المتحنق

واسقى جيادى من فرات ودجلة   واجمع شمل الدين بعد التفرق

ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة اخرى فينسبهما الى الآمر (٦١) .

ويحدثنا ابن بسام فى الذخيرة أن الشاعر الواسانى هجا يوسف بن على المشرف على دمشق ايام الحاكم وسمع الحاكم بأمر الله هذا الهجاء فقال يوما : أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن النشيد (٦٢) .

فهذا يدل على أن الحاكم كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون النشيد . كما كان الحاكم ايضا اذا جلس فى ميدان الطارمة وانشده الشعراء تناول برجوان قصائدهم فجعلها فى كمه فاذا عرض رقاع الناس وفرغ من التوقيع قرأ القصائد وقد حضر من له تمييز ومعرفة بالشعر وكان الحاكم له من الحذق بذلك ما ليس لغيره فاذا انشد الشاعر أو انشد له أبو الحسن لا ينشد ويمر بالبيت النادر أو المعنى الحسن الا نبه برجوان عليه واستعاده مرارا .

---

(٥٩) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٥٥ — ١٥٦ — نقلا عن اتعاظ الحنفا المخطوط لوحة ٣٧ .

(٦٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٩٦ .

(٦١) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٦٢) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ص ٦٩ — من القسم الرابع المجلد الأول .

ثم يوقع لكل واحد منهم بقدر استحقاقه ومبلغه من صناعة لتخرج صلاتهم بحسب ذلك (٦٣) .

ونستطيع أن نقول ان الحاكم كان له من الذوق الرفيع بحيث كانت قدرته فائقة على تذوق أبيات الشعر التى تروى عليه ثم يشير باعادتها مرة أخرى وهذا لا يتأتي الا لمن حسن ذوقه ووهب ملكة الشعر والأدب .

وقامت دار الحكمة الفاطمية يومئذ تغذى الحركة العقلية الى جانب الأزهر والمسجد الجامع (جامع عمرو) الذى كانت حلقاته العلمية والأدبية دائما عنصرا بارزا فى تكوين الحركة الفكرية المصرية فى تلك العصور ، وأولى الحاكم الحركة العقلية شيئا من رعايته فاجزل النفقة لدار الحكمة وزودها بخزائن الكتب الجليلة . وعقد مجالس لمناظرة العلماء والأدباء وغمرهم بصلاته وقرب اليه عدة من اقطاب المفكرين والأدباء فى هذا العصر مثل المسبحى الكاتب والمؤرخ الكبير ومحمد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم وجليسه وكان من اشهر شعراء العصر وابى الحسن على بن محمد الشابشتى الكاتب صاحب كتاب الديارات وقد توفى سنة ٣٩٠ هـ وابن يونس العلامة الرياضى الفلكى صاحب الزيج الحاكمى الشهير الذى الفه خصيصا للحاكم وكان ايضا اديبا شاعرا وقد كتب تاريخا لمصر ، وابى عبد الله اليمنى المؤرخ صاحب تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد ، وقد توفى سنة ٤٠٠ هـ والمهندس البصرى الكبير ابو على بن الحسن بن الهيثم وغيرهم ممن تولى قيادة الحركة الفكرية فى هذا العصر (٦٤) .

وهناك من الشعراء الوافدين على مصر فى عهد الحاكم نخص منهم أبا الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الولاء قتيل الغوانى (٦٥) . قدم الى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه ، وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التى يعارض فيها مقصورة ابن دريد وتوفى سنة ٤١٢ هـ وقد قال فى مقصورته :

---

(٦٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٤ — ١٥ .
(٦٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٤ .
(٦٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٣٧ .

من لـم يـرد أن تنقب نعـالـه يحملها فى كفـه اذا مشى
ومن اراد ان يصـون رجـلـه فلبسه خـير له من الحفـا

وقال فى آخرها :

فتاك كالدر يضـيء لونهـا وهذه فى وزنها مثل الحـذا (٦٦)

وهذا الشاعر هو الذى اشار اليه ابو العلاء المعرى فى قوله :

دعيت بصـارع فتداركتـه مبالغه فـرد الى فعيـل (٦٧)

ولكن هذا الشـاعر لم يمكث طويلا فى مصر اذ توفى فى نفس السـنة التى وفد فيها .

وابو اسـحاق ابراهيم بن القاسـم المعروف بالرقيق شـاعر المغرب وفد على مصر ايام الحاكم غيره مـرة موفدا من بلاط المغرب الى البلاط المصرى ليعمـل على توثيق الروابط بينهما ، ولقى من الحاكم واختـه سـت الملك وافـر الاكـرام والرعاية واشـاد بمصر ومحاسـنها فى عـدة قصـائد رائعـة وكانت وفاته سـنة ٤١٨ هـ (٦٨) .

ومن شـعراء الحـاكم بامر الله على بن منصـور المعروف بابن القـارح له قصيدة على وزن منهوكة ابى نواس يمدح فيها الحاكم بامر الله منها قوله :

ان الـزمان قـد نضـر بالحـاكم الملـك الأغـر
فى كفـه عضـب ذكـر فقـد عـدا على القصـر
مـن غـرة عـلى الغـرر يمضى كمـا يمضـى القـدر
فى سرعة الطـرف نظـر او السـحاب المنهمـر
بـادر بانفـاق البـدر بـدر اذا لاح بهـر (٦٩)

وقال محمد بن القاسم بن عاصم المعروف بصناجة الدوح فى مدح الحاكم .. وقد حدثت زلزلة فى مصر :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا نجل العلى وسـليل السادة الصلحا

---

(٦٦) المرجـع نفسـه .
(٦٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥٩ .
(٦٨) محمد عبد الله عنان : الحاكم بامر الله ص ٣٦٩ .
(٦٩) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٥ ١ ص ٨٥ .

ما زلزلت مصر من كيـد يراد بهـا   وانمـا رقصت من عدله طربا (٧٠)

ومن الشـعراء الذين عاشـوا فى عصر الحاكم بأمر الله أبو الفتح منصـور المعروف بالتينى الشـاعر ودفن بمقابر القاهرة ومن شعره :

شديد من الدنيـا على الحـر حاجة   يـؤم بهـا مـن ليس من نظـرائه

وقال فى أبيات أخرى :

ومـا الناس الا كالنبات مصدح   ليذوى ومخضـر لينمى ومعشـب

يسربله مـاء الشـباب نضـارة   ويفرغ عنه حسـنه حـين يغضب

ومنهـا :

تفرق أنواع المذمات فى الورى   ويجمعهـا خلق الفتى حين يكـذب

اذا كان للانسـان عقـل مخيثمـا   توجه لاتاه صـديق ومكسـب (٧١)

ينال الفتى بالخفض بلغـة عيشـة   فيسعى الى شـيئا سواها وينصب

يخرب من أخراه مـا ليس فانيـا   ويعمـر من دنيـاه مـا يتخـرب

على أن فى الأيـام للمرء واعظـا   بليغـا وفى صرف الزمان مؤدب (٧٢) .

ومن شـعراء الحاكم أبو القاسـم عبد الغفارشـاعر الحاكم وله قصـيدة يمدح فيها الفضل نذكر منها هذه الأبيات :

انمـا الفضـل غـرة   فى وجـوه المدائـح

أريحـى رياحـه   عبقـات الروائـح

كعبـة الجـود كفـه   بـين غـاد ورائـح

انمـا تصـلح الأمـو   ر بـرأى ابن صـالح (٧٣)

ولم ينس الخلفـاء الفاطميون العلوم العربية الخالصـة بـل وجهوا اليهـا اهتماما ملحوظا وعناية خاصـة وقد رأينـا كيف كان الحاكم بأمر الله يجمع علمـاء اللغة والأدب للمناظرة بين يديه (٧٤) .

---

(٧٠) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٨٥ ويقال ان الشاعر أنشدها فى كافـور .
(٧١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٧٣ .
(٧٢) المصـدر السـابق ج ٢ ص ١٧٤ .
(٧٣) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٤٧ .
(٧٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٩ .

كان تشجيع الشعر والشعراء على يد الفاطميين مما دفع بكثير من الشعراء الى هجرة أوطانهم والاستقرار فى مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم . ولاغرو فانهم لم يلقوا من تشجيع فى بلاط العباسيين فى بغداد وقد ذهب ما كان لهم من حول وطول بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يفد عليه من الشعراء النابهين سنيين كانوا أوشيعيين (٧٥) .

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكى من أهل بغداد وكان فقيها مالكيا مبرزا كما كان أديبا شاعرا وقد وصفه ابو بكر البغدادى فى كتابه : « تاريخ بغداد » فقال انه كان ثقة فى الحديث وانه لم يلق من المالكيين أحد أفقه منه (٧٦) .

وكان عبد الوهاب هذا من كبار الشعراء الذين تركوا بغداد وارتحلوا الى القاهرة .

ويروى انه فى اليوم الذى رحل فيه ابن نصر المالكى عن بغداد خرج كبار رجالها بدعوته فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير معبرا عما كان يشعر به من ألم الفراق انه ما فارق هذه المدينة « عن كره لها ، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه » . ثم ختم كلامه بهذه الكلمات : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية » (٧٧) .

ولقد أصاب بعض المؤرخين حيث يقول هذه الكلمات التى تنطوى على غاية الاحتقار : « والخبز يومئذ كل ثلاثمائة رطل بدينار » . وهذا فى غاية الذم لهم لأنه أراد أن يخبرهم بسقوط همتهم وخسة نفوسهم (٧٨) . وقد أظهر ابن نصر ما كان يخالج نفسه من حزن لمفارقة بغداد فى احدى قصائده وفيها يودع بلده ويشير الى هذه الأحوال التى أحاطت برحيله حيث يقول :

سلام على بغداد من كل منزل   وحق لها منى السلام المضاعف

---

(٧٥) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٥ — ٤٤٦ .
(٧٦) وفيات الأعيان : ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢ — ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧ .
(٧٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٢ .
(٧٨) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٦ .

فوالله مـا فارقتهـا عن قلى لهـا ... وانى بشـطى جانبيهـا لعـارف

ولكنهـا ضـاقت على برحبهـا ... ولـم تكن الارزاق فيها تسـاعف

وكانت كخل : كنت أهـوى دنـوه ... واخـلاقه تنأى بـه وتخـالف (٧٩)

ويصف لنا ابن نصر فى قصيدة أخرى معيشته فى بغداد فيقول :

بغـداد دار لأهـل المـال طيبـة ... وللمفاليس دار الضـنك والضـيق

أصبحت فيها مضـاعا بين اظهرهم ... كأننى مصـحف فى بيت زنديق (٨٠)

هكذا كان مـا عاناه هذا الفقيه الكبير والقاضى الشـاعر المشـهور . فقد بلغت معاملة الناس له الى هذا الحد من الاهمال حتى هـام على وجهه فى شوارع حاضرة العباسيين حيران لا ياوى على شىء وقد لجا فى النهاية الى القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية الشـيعية واتخذها مقـرا ووطنا ثانيا له (٨١) .

حيث كان فراره من مدينة المنصـور الى مدينة المعـز نظرا للاغداق عـلى الشـعراء بالمـال والجوائز فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن ذلك عجزا يوشـك أن يكون تاما عن شىء من ذلك (٨٢) .

رحل ابن نصر الى مصر واجتـاز فى طريقه معرة النعمان (٨٣) وبهـا يومئذ أبو العلاء المعرى فأضـافه عنـده ثم اشـار الى هذا الحادث فى قصـيدته الى خازن دار العام ببغداد حيث يقول :

والمـالكى ابن نصر زار فى سـفر ... بـلادنا فحمدنا النـأى والسـفرا

اذا تفقه حيـا مالكـا جـدلا ... وينشر الملك الضليل(٨٤)أن شعرا(٨٥)

ولـما وصـل الى مصر اسـتقبله الناس أحسـن استقبال وقد وصـف ذلك ابن خلكـان (٨٦) فى هذه العبـارة حيث يقول : « فحمـل لواءها ومـلأ أرضـها

---

(٧٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٣ .
(٨٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد .
(٨١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٧ .
(٨٢) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٣ .
(٨٣) هى مدينة من أعمـال حمص تقع بين مدينتى حلب وحماة .
(٨٤) الملك الضليل لقب لامرىء القيس الذى عده النبى (ص) اشعر الشعراء (ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧) .
(٨٥) ابو العلاء المعرى : ديوان سقط الزند ص ١٣٤ .
(٨٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٣ .

وسماءها ، واستتبع ساداتها وكبراءها وتناهت اليه الغرائب وانثالت فى يديه الرغائب » .

وقد زاد هذا الكاتب فذكر ان ذلك كان فى خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وهى نفس السنة التى مات فيها ، وذكر ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : انه ما كاد بصل حتى مات من اكلة اشتهاها . وقال وهو على فراش الموت : « لا اله الا الله ، اذا عشنا متنا » .

ومن الشعراء الذين خاطبوا الظاهر لاعزاز دين الله حين امر بالختم على جميع ماله هذين البيتين فكانا السبب فى الافراج عما اخذ منه والرضى عنه :

من شيم المولى الشريف العلى الا يرى مطرحها عبيده (٨٧)
وما جزا من جن من حبكم ان تسلبوه فضلكم عنده (٨٨)

وكان ابن خيران قد خرج الى الجيزة متنزها ومعة من أصحابه المتقدمين فى الأدب والشعر والكتابة . وقد احتفوا به يمينا وشمالا فادى بهم السير الى مخاضة مخوفة فلما رأى أحجام الجماعة من القرب عنها وظهور جزعهم منها قنع بغلته فولجها حتى قطعها وانثنى قائلا مرتجلا :

ومخاضة يلقى الردى من خاضها حتى تنال من العدا أغراضها

هكذا كان شعراء الظاهر لاعزاز دين الله يمدحونه ويشيدون به حين وفودهم الى القاهرة المعزية .

اما عن ازدهار النشاط الأدبى فى عهد الخليفة المستنصر فتكاد تجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعرا مبدعا وانه كان متمكنا من انشاد الشعر برتجله فى مناسبات ويجيب على بعض الرسائل التى كانت ترد عليه بالشعر . يروى صاحب النجوم الزاهرة أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠ هـ الى الوزير ابن كدينه . وطالبوا الوزير بالمال فقال لهم وأى مال بقى عندى بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الاقطاعات ، فطلبوا من الوزير أن يرفع الى المستنصر فكتب الوزير رقعة بما جرى وارسلها الى الامام فأجاب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه :

---

(٨٧) مطرحا : مهملا متروكا .
(٨٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ١١ ، ١٢ .

اصبحت لا ارجو ولا اتقى   الا الهى وله الفضل
جدى بنى وامامى ابى   وقولى التوحيد والعدل (٨٩)

ففى هذين البيتين يظهر الألم الشديد الذى كمن فى نفس الامام لما حـ
به وحاق بالبلاد ابان الشدة العظمى المعروفة فى التاريخ . والبيت يذكرنا
نسمعه عند دفن الموتى بما يعرف بتلقين الأموات . فلعل المستنصر اراد ان يتـ
بما جاء يطالبه بالأموال فأجاب بما يلقن به الموتى . فهو يسخر بهؤلاء الناس
وهو فى اشد حالات الالم والحزن فالعقدة النفسية التى كانت عند المستنـ
هى التى جعلته يسخر ويتهكم على هذا النحو (٩٠) .

ومما يروى عن المستنصر ايضا ان المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى
بعد أن عاد سنة ٤٥٠ هـ الى القاهرة منعه الوزير ابن المغربى من لقـ
المستنصر فأخذ المؤيد يرسل اليه الكتب والرسائل وينشد فيه الشعر حـ
بلغ المستنصر قول المؤيد فلما بلغت الرقعة التى فيها هذا الشعر الى المستنـ
أجاب عليها بخطه :

ما حجة مشهورة فى الورى   وطود علم اعجز المرتقى
ما غلقت دونك ابوابنا   الا لأمر مؤلم مقلق
خفنا على قلبك من سمعه   فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم   فى الغرب يا صاح فى المشرق
فانشر لهم ماشئت من علمنا   وكن لهم كالوالد المشفق
مثلك لا يوجد فيمن مضى   من سائر الناس ولا من بقى (٩١)

ومن اشعار المؤيد فى الدين داعى الدعاة فى الاشادة بالمستنصر بالله :

بنفسى مستنصر بالاله   جنود السماء له ناصره
شهدت بانك وجه الاله   وجوه الموالى به ناظره (٩٢)

---

(٨٩) أبو المحاسن بن تغرى بن بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٨١ — وينسبها ابن منجب الصيرفى فى كتابه الاشارة ص ٢٩ الى الحاكم بأمر الله — أما ابن خلدون فينسبها فى تاريخه جـ ٤ ص ١٧١ الى الآمر بأحكام الله .
(٩٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٩١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .
(٩٢) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية نقلا عن ديوان المؤ ص ٢٠١ .

وهكذا نجد أن الحركة الفكرية المصرية قد ازدهرت نوعا ما خلال النصف الأول من القرن الخامس . بيد أنها ضعفت فى أواخر القرن فى عهد المستنصر بالله . وكانت هذه الفترة غاصة بالمحن والأحداث والفتن الداخلية والخارجية فلم تلق الحركة الأدبية كثيرا من الرعاية أو التعضيد بيد أنها عادت فى أوائل القرن السادس فانتعشت واستمرت على انتعاشها وقوتها (٩٢) حتى نهاية الدولة الفاطمية ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م . ويمتدح المؤرخون أخلاق الآمر وسياسته فقد أحسن معاملة أهل الذمة واهتم بتشجيع الشعراء فظهرت نهضة أدبية (٩٤) ساعدت على نمو الحركة الثقافية فى الدولة الفاطمية . وقد كان الآمر بأحكام الله شاعرا مجيدا وله نظم قوى التأثير فمن نظمه قوله :

دع اللوم عنى لست منى بموثق ‏ ‏ ‏ فلابد لى من صدمة المتحقق

واسقى جيادى من فرات ودجلة ‏ ‏ ‏ واجمع شمل الدين بعد التفرق (٩٥)

ويقول صاحب النجوم الزاهرة عن الآمر بأحكام الله « كان للآمر نظم ونظر فى الأدب » (٩٦) .

ويروى له عدة أبيات منها الأبيات التى نسبها حينا الى الحاكم وحينا آخر الى الآمر كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر الى الآمر قوله :

أما والذى حجت الى ركن بيته ‏ ‏ ‏ جراثيم ركبان مقلمة شهبا

لأقتحمن الحرب حتى يقال لى ‏ ‏ ‏ ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا

وينزل روح الله عيسى بن مريم ‏ ‏ ‏ فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا (٩٧)

وخير مثال على النهضة الأدبية وتشجيع الشعراء أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الحركة منظرة من خشب مدهون فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبشى ، وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر الخركاه ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر وبجانب صورة كل منهم رف لطيف

---

(٩٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦ .
(٩٤) د . على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ص ١٧٠ .
(٩٥) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٦٠ .
(٩٦) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٣ .
(٩٧) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٣ .

مذهب فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار أمر يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته ففعلوا ذلك واخذوا صررهم وكانوا عدة شعراء (٩٨) .

كما نبغ من الشعراء فى هذا العصر ابو الحسن على بن محمد الأخفش وهو شاعر من أشراف المغاربة أجاد فى مدح الخليفتين الآمر والحافظ وغلا فى تمجيد الفاطميين واعلاء شأنهم ومن ذلك قوله فى مدح الآمر :

الى ذروة النور العلائى انه ... الى ذروة النور الالهى ينسب (٩٩) .

ومن هؤلاء الشعراء أيضا وقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر الى بغداد فى قصيده نذكر منها هذين البيتين :

وما قصدنا بغداد شوقا لأهلها ... ولا خفيت قط ابصارنا عنها

ولا اننا اخترنا على مصر بلدة ... سواها ولكن المقادير ساقتنا

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم فى نشر العقائد الفاطمية أبو الحسن بن الزيد وقد وصفه عماد الدين الاصفهانى نقلا عن القاضى الفاضل فقال : « وانه فذ لم يسمح الدهر بمثله » (١٠٠) .

وكان ابن الضيف وهو من الشعراء الفاطميين الذين عاشوا فى عهد الخليفة الآمر قد غالى فى مدح الخلفاء الفاطميين حتى أدى بهم ذلك الى الالحاد والمروق عن الدين من خلال ما ذكر فى قصائدهم معللا ابن الضيف ذلك : ابن الضيف كان من دعاه الأدعياء المغالين .. وكنت عازما على حطه لأنه أساء شرعا وان احسن سطرا بل أظهر فيه كفرا .. لكننى لم أر ان أترك كتابى منه صفرا ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ويقصده البر والفاجر (١٠١) .

ولهذا كان ابن الضيف ملحدا فى نظر عماد الدين الاصفهانى . ومن الأدباء الوافدين على مصر فى عهد الآمر أمية بن أبى الصلت بن عبد العزيز بن

---

(٩٨) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٩٩) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

(١٠٠) د . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٤٨٤ — ٤٨٦ .

(١٠١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٥ نقلا عن الاصفهانى مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٥٢ ب وما بعدها .

الصلت الأندلسى الذى وفد على مصر فى أوائل القرن السادس الهجرى (١٠٢) فى عهد الأفضل شاهنشاه ودرس الحركة الفكرية والأدبية فى مصر يومئذ وكتب عن مصر رسالته الشهيرة المعروفة « بالرسالة المصرية » وفيها يتحدث عن مصر ونيلها وآثارها . وعن علمائها وأدبائها وشعرائها ومجالسهم واجتماعاتهم مما يدل على أن الفسطاط كانت وما تزال مركزا هاما للحركة العلمية والأدبية فى العصر الفاطمى .

وكان الشعراء فى أيام الحافظ قد أطنبوا فى المديح وتناهوا فى اطالة القصائد حتى صار الانشاد يؤدى الى قصر الوقت الذى جرت العادة باستماع أشعارهم فيه ليطول مثولهم بالخدمة فخرج الأمر اليهم بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار فقال أحمد بن مفرج يخاطب الخليفة :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا   لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

والله لابد أن تجرى سوابقنا   حتى يبين لنا فى مدحك الأثر

فأمروا بالاستمرار على ما هم عليهم من الاطالة فى الانشاد .

وكان الحافظ محبا للأدب ومدحه . ثم أنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفرانى فنم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم على بن عياد الاسكندرى وأنه أنشد قصيدة يذم فيها خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم منها فى ذم الحافظ :

هذا سليمانكم قد رد خاتمه   واسترجع الملك من صخر بن ابليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عريضته طربا بهذا البيت ، فأمر الحافظ باحضار هذا الشاعر وقال أنشدنى : فأنشدها الى أن بلغ فيها الى قوله : « ولا ترضوا عن الخمس المناحيسى » يعنى الحافظ وابنيه وأباه وجده . فأمر الغلمان بلكمه فلكموه حتى مات بين يديه ، وقبض على ابن ميسر ونفى

---

(١٠٢) توفى أمية بن أبى الصلت سنة ٥٤٩ هـ وقد نشرت الرسالة المصرية محققة بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ضمن سلسلة « نوادر المخطوطات » المجموعة الأولى ويرجع ما ورد فيها من علماء مصر وأدبائها وشعرائها ص ٤٠ — ٥٦ .

ثم مثلٌ . وكان ينعت بجلال الملك وكانت علامته « الحمد لله على نعمه » (١٠٣)

ولعل من الواضح أن العقائد الفاطمية قد أثرت أيضا فى جميع الشعراء الذين ظهروا فى بلاط الأئمة فى عهد ضعف الأئمة وسطوة الوزراء وفى عهد انتقال مركز الدعوة الى اليمن ودخول الأئمة فى دور الستر الثانى ، كذلك نجد أن الحافظ والظافر والعاضد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الامام المستتر ولم يكونوا أئمة ولكن شعراء مصر أبوا الا أن يغدقوا صفات الأئمة على هؤلاء النواب بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة فالشاعر الشريف أبو الحسن على بن محمد الأخفش شاعر الآمر والحافظ قال فى مدح الحافظ :

صرف جريال يرى تحويلها	من يرى الحافظ فردا حمدا
بشر فى العين الا انه	من طريق العقل نور وهدى
جل ان تدركه أعيننا	وتعالى أن نراه جسدا
فهو فى التسبيح زلفى راكع	سمع الله به من حمدا
تدرك الأفكار فيه بانيا	كاد من اجلاله أن يعبدا

فالشاعر وصف الحافظ بهذه الصفات الباطنية التى هى من صفات الأئمة ، ولكن الحافظ كان ينوب عن الامام المستتر فطبق الشاعر صفات الامام على نائبه فالامام عن طريق العقل اى عن طريق علم الباطن هو نور اى عقل كله والعقل الأول لا يدرك الأبصار ، فهو يتعالى أن يحدد بحدود ذلك الجسد (١٠٤) . لم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألموا فى أشعارهم بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثير الذى رأينا نماذجه ، اذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يتمذهبون بمذهب الأئمة وهكذا اتخذ الشعراء الوافدون العقائد الفاطمية وسيلة للوصول الى مدح الأئمة وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب الى الأمراء والوزراء والأئمة فأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطميى المذهب ولكنهم اضطروا الى أن يمدوا الأئمة بالمعانى الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر . ويحدثنا ياقوت أن الحسين بن عبد الله الشاعر المعروف بأبى حصينة المصرى المتوفى سنة ٤٥٧ هـ وفد الى المستنصر بالله وأنه مدح المستنصر بقوله :

---

(١٠٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦٣ .
(١٠٤) د. محمد كامل حسين : أدب مصر الفاطمية ص ١٥٣ .

ظهر الهدى وتجمل الاســـلام   وابن الرسول خليفة وامام (١٠٥)

وهناك شعراء فى عصر الحافظ منهم ابو العمر محمد بن على الهاشمــى وقد كان من أعظم شعراء هذا العصر وتوفى سنة ٥٤٤ هـ .

كما ظهر فى عهد العاضد الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك الذى كان شاعرا مجيدا حماسى النزعة وفقيها بارعا فى علوم الشيعة ، وعبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالجليس لأنه كان من جلســاء الخليفة العاضد وتوفى ســنة ٥٦١ هـ كما كان الموفق بن الخلال اعظم شعراء عصره ، وأبو الفتح نصر الله بن قلاقس الاسكندرى تلميذ السلفى وصاحب الديوان المشهور باسمه توفى ســنة ٥٦٧ هـ (١٠٦) .

وهكذا كان بعض الأئمة ينشــد الشـــعر فلا غرو أن رايناهم يتربون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويلتف الشعراء حولهم كخلية النحل فى امتصاصها لرحيق الازهار ويتنافسون بين أيدى أمرائهم فى الانشاد مما دعا الى كثرة الشعر وازدهاره (١٠٧) . فقد عرف الخلفاء الفاطميون كيف ينهضون بالحركة الأدبيــة بايجاد نشاط واســع فى الشــعر عن طريق الجوائز والمكافآت (١٠٨) مما ساعد الخلفاء الفاطميين على بلوغ أغراضهم السياســية وهذا يدل على مظاهر الكرم والابهة والعظمة فى كل العصر الفاطمى مما أدى الى الكثرة فى انتــاج الشــعر والأدب فى حياة مصر الفاطمية ويجعلها تحتل المكانة الممتازة فى الحياة الأدبيــة . تلك كانت مسيرة الحركة الأدبية فى العصر الفاطمى ودور الخلفاء فيها .

ولابد أن نشير الى ان اهتمام الفــاطميين بالشــعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب كان لنشر مذهبهم واحاطة خلافتهم بالعظمة والتقديس وكان من بين الخلفاء من يجيد فن النثر كما كانوا يعرفون الشعر فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية فى المســجد الجامع ويقرأون ما يعرضه عليهم الدعاة فى مجالس الحكمة كما كان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ومن طبقة الموظفين بديوان سر

---

(١٠٥) المصدر السابق ص ١٥٥ .
(١٠٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(١٠٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣١٠ وما بعدها .
(١٠٨) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٦٨ .

الخليفة ومما شجع على ازدهار الحياة الادبية فى الشعر والنثر هو ان الخلفاء كانوا يجزلون العطايا لهم والخلع وعلى رأس هؤلاء الكتاب صاحب الانشاء وقد حرص الخليفة العزيز بالله على اختيار كتابه ممن اشتهروا بسمة الاطلاع فى الأدب والتفوق فى فن الانشاء وقد تحدثنا فى النثر عن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الكتابة .

فازدهار النثر يدل على عناية الفاطميين بديوان الانشاء مما جعل العاملين فى ديوان الانشاء ان يكونوا ممن أوتى روعة الأسلوب وبراعته وافتنانه ومن ائمة البيان والفصاحة الباهرة وكانت رسائلهم الديوانية تدل على ذلك .

ومن هؤلاء الذين برعوا فى ديوان الانشاء فى عهد الخليفة الظاهر والمستنصر ولى الدين بن خيران ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م فهو احمد بن على بن خيران أبو محمد الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الانشاء للظاهر والمستنصر بمصر . له « ديوان شعر » صغير ومجموعة رسائل (١٠٩) . وقد تولى ديوان الانشاء بعد أبيه فكان ابوه أيضا فاضلا بايفا أعظم قدرا من ابنه واكثر علما وكان أبو محمد هذا يتقلد ديوان الانشاء للظاهر ثم للمستنصر ، وكان رزقه فى كل سنة ثلاثة آلاف دينار وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شىء يحسبه ، وكان شابا حسن الوجه جميل المروءة واسع النعمه طويل اللسان جيد العارضة ، وسلم ابن أبى منصور بن الشيرازى رسول من التجار الى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله واستصحبهما الى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبى القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ويستشير فى تخليدهما دار العلم لينفذ بقية ديوان الرسائل وقد قال على لسان بعض العلويين يخاطب العباسيين :

وينطقان فضل البدار (١١٠) الى الهدى

ويخرسكم عن ذكر فضل لنار بدر (١١١)

ولو كنت فيها استطاركم الكبر   وما كانت الشورى علينا غضاضة

---

(١٠٩) خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ١ ص ١٦٥ .
(١١٠) المبادرة والاسراع .
(١١١) يريد غزوة بدر المشهورة .

ومن شعره :

انا شيعي لآل المصطفى	غير انى لا ارى سب السلف
أقصد الاجماع فى الدين ومن	قصد الاجماع لم يخش التلف (١١٢)
لى بنفسى شغل عن كل من	للهول قرظ (١١٣) أو قذف (١١٤)

كان ولى الدولى بن خيران صاحب ديوان الانشاء سنة ٤١٤ هـ ، يقول ابن خلكان عن الشاعر أبى الحسن على بن حمد بن نوبخت أنه توفى بمصر سنة ٤١٦ هـ وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة وكفله ولى الدولة ابو محمد أحمد بن على المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر وابن خيران هذا كان متولى كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم (١١٥) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان فى ديوان الانشاء سنة ٤١٦ هـ .

ويروى المقريزى ان ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » (١١٦) .

وكان ابن خيران معجبا بنفسه يكثر الاشادة بشعره ونثره وهو يقول :

ولقد سموت على الأنام بخاطر	الله أجرى منه بحرا زاخرا
فاذا نظمت نظمت روضا حاليا	واذا نثرت نثرت درا فاخرا (١١٧)

وهو القائل ايضا :

قد علم السيف وحد القنا	ان لسانى منهما اقطع
والقلم الأشرف لى شاهد	بأننى فارسه المصقع (١١٨)

من هذه الأشعار نستدل على أن ابن خيران قد فنن بشعره ونثره الى

(١١٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٥ — ٨ — ١٠ — ١١ .
(١١٣) الاطناب فى المدح .
(١١٤) القدح أو الذم .
(١١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٥٨ .
(١١٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٨ .
(١١٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٢ ص ٨ .
(١١٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ١٢ .

درجة وصف نفسه بأن منطقه فى نظمه كأنه روض جميل ، وفارس وكاتب مبدع ، وخطيب مصقع .

وبالرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة فى ديوان الانشاء وان له رسائل كثيرة جمعها فى حياته ــ فانه لم يصل الينا من نثره سوى هذه القطعة التى كتبها توقيعا عن المستنصر ويروى ياقوت عن الرئيس هلال بن الحسن « ان الرسائل صالحة سليمة ، قد انتزعت من المنظوم على خلوه الا الوزن والقافية » (١١٩) . وقد توفى ابن خيران فى رمضان سنة ٤٣١ هـ ــ وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمدبن محمد العميدى أبو سعد (١٢٠) ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م أديب من الكتاب سكن مصر وولى ديوان « الترتيب » ثم ديوان الانشاء فى أيام المستنصر بالله سنة ٤٣٢ هـ وكان العميدى نحويا لغويا صنف مدة كتب منهـا كتاب « تنقيح البلاغة » فى عشر مجلدات وكتاب « الارشاد الى حل المنظوم » وكتاب « الهداية الى نظم المنثور » وكتاب « انتزاعات القرآن الكريم » ، وكتاب « العروض » وكتاب « القوافى » (١٢١) .

فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى كان متأثرا بهذه الثقافة اللغوية والنحوية مما جعل كتاباته تتأثر بذلك من ألوان هذه العلوم التى حذقها فصنف فيها هذه الكتب مضافا اليها خصائص الكتابة فى مصر .

ولم يعمر العميدى طويلا فى الديوان اذ توفى سنة ٤٣٣ هـ ثم تولى الكتاب بعده على ديوان الانشاء ، نذكر منهم أبا الفرج الذهلى وأبا طاهر النهركى وولى الدولة موسى بن الحسن وغيرهم الى أن تولى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ديوان الانشاء سنة ٤٤٣ هـ (١٢٢) . فالمؤيد لم يكن مصريا انما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية فى الشعر والنثر ، فلم يتأثر بمدرسة الكتاب المصريين بالرغم من ان المؤيد كان يرى نفسه اقدر فى فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الانشاء قبله فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازورى وقد جرى ذكر كتاب الانشاء « معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان

---

(١١٩) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٦ .
(١٢٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٥ .
(١٢١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢١٢ .
(١٢٢) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٦ .

من الجـاه الوسـيع والرزق السـنى الكثير ولئن كانت أشـخاصهم مفقودة فان آثـارهم فى صـناعتهم حاضرة موجودة وأنت كاتب تفـرق بين الجيـد والردىء والضعيف فى الصـناعة والقوى واريد أن تعتبر من انتصـب هذا المنصـب من خمسـين سـنة الى اليوم مقابسـة الى فان كنت ممن يجرى فى حلبتهم فرسـه ، ويطول نحو أمرهم باعه ، فأنزلنى منزلتهم من الجـاه والمال وآلا فقل لى مـا انت مثلهم ولا فى آفاقهم فقد رضـيتك حكما وجئت لحكمك مستسلما » (١٢٣) .

ولكن لا ننسـى أن الذى يقـول ذلك هو المؤيـد الذى عـرف بغـروره وطموحه (١٢٤) وكان الذى ينوب عن المؤيد فى ديوان الانشـاء اثنـاء غيابه عن مصر وسـفره الى العراق فى حركة البساسيرى هو القاضى القضـاعى ولكن لم تصـل الينـا كتاباته (١٢٥) وناب عنـه ايضـا ابو الحسـن على بن الانبـارى الذى ولى الوزارة بعد سنة ٤٥٧ هـ (١٢٦) ثم اختلف على ديوان الانشـاء عدد من الكتـاب لم تصـل الينا اسـماؤهم ولم تحفظ آثارهم الى أن نلتقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر ، أما الأول فهو أبو الفرج الموفقى الذى وصفه العماد بقوله : « أحـد كتـاب مصر من الطبقة الأولى » (١٢٧) . ولكن العماد لم يحدثنا بشىء عنه سـوى هذه الجملة وأورد له بعض ابيـات من الشـعر فى وصـف ناعورة .

أما الكاتب الثانى فكان معاصرا للموفقى والمؤيد وكان بينه وبين الموفقى بعض الرسـائل وهو ابن الشخباء .

كان من فرسـان النثر وله فيه اليد الطولى ، فهو ابو على بن عبد الصمد ابن الشخباء ولقب بالمجيد ذى الفضـيلتين وصـفه العمـاد بقوله : « مجيـد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة والملح الصنيعة »(١٢٨).

وقال ياقوت عنه : « أحـد البلغاء الفصحاء الشـعراء له رسـائل مدونة مشـهورة » (١٢٩) . ووصـفه ابن خلكان بقوله : « صـاحب الخطب المشـهورة

---

(١٢٣) السـيرة المؤيدية ص ٩٤ .
(١٢٤) مقدمة ديوان المؤيد فى الدين .
(١٢٥) السـيرة المؤيدية ص ١٠٣ .
(١٢٦) ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٢ .
(١٢٧) العماد الاصفهانى : الخريدة ورقة ١٥ .
(١٢٨) العماد الاصفهانى : الخريدة ورقة ١٤ .
(١٢٩) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٩ ص ١٥٣ .

والرســـائل المحبرة ، كان من فرســـان النثر وله فيه اليد الطولى » (١٣٠) .

ويقول ابن بســـام فى ذخيرته « كان من البلغاء الأفراد وابهر نجوم تلك البلاد طلوعا من ثنايا الأدب واجتناء لخبايا لســـان العـــرب فقـــد كاشـــف حقـــائقها ، واستخرج دقائقها وأحرز مسبوقها وسابقها » (١٣١) .

اذن نكـــاد تجمع هذه المصـــادر على كعبه فى صـــناعة الكتابة وكفايته فيها حتى قيل ان القاضى الفاضـــل كان جـــل اعتماده على حفظ كلامه وانه كان يستحضر أكثره (١٣٢) ، وربما كان هذا هو الســـبب الذى من أجلة قال بعض الذين كتبـــوا عن القاضى الفاضـــل انه تلميذ ابن الشـــخباء لأنه كان يحذو حذوه فى الصـــناعة لم يكن ابن الشـــخباء مصريا بل كان من عســـقلان وبالرغم من ان الحدود الجغرافية تجعـــل عســـقلان بلدا فى فلســـطين فيجب الا ننســـى أن فلســـطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولونى واســـتمرت تابعـــة لمصر خاضـــعة لتاثيرها الســـياسى والفكرى الى عهـــد قريب فوحدة فلســـطين مع مصر اشـــــد وأقوى من وحدتها مع البـــلاد الأخرى .

فلا غـــرو أن رأينـــا ابن الشـــخباء العســـقلانى النشـــأة يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشـــأوا وترعرعوا فى مصر بهذه الخصـــائص التى كانت تســـود الكتابة المصرية . الا أن ابن الشـــخباء اســـتطاع بشخصـــيته أن يبرز ويتفوق فى هذا الفن وان يبالغ فى استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهـــر معاصريه بفنه وجعـــل المؤرخين يشـــيدون بفضـــله ولعل النص الذى ســـنورده يدلنا على أن ابن الشخباء كان على علم تام بجل ما كان يحيط بالعرب فى الجاهلية والاسلام حافظا أشعارهم وحكمهم متمكنا من لغتهم ويظهر ذلك فى رســـالته التى أرســـلها الى ابى الفرج الموفقى فذيها يقول :

« وصـــلت رقعة مولاى والصـــبح قد ســـل على الأفق مقبضـــه وازال بأنوار الغزالة غيهبه . فكانت بشـــهادة الله صبح الآداب ونهارها وثمار البلاغة وازهارها

---

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٣٣ .

(١٣١) ابن بسام : الذخيرة فى محسن الجزيرة ـ القسم الرابع ورقة ٨٣ (نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة) .

(١٣٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٣٣ .

قد توشحت بضروب من الفضل قاصية المدى ويجرى به فى مضمار الأدب مفردا » (١٣٣) .

فكان روض الحسن تنثره الصبا ‏ ‏ ‏ ‏ فاطلت من ترطاسها اتصفح

وقد أصيب هذا الكاتب (ابن الشخباء) البارع بنكبة لا ندرى سببها . اذ حبس فى خزانة البنود ثم قتل سنة ٤٨٢ هـ ويذهب ابن ميسر أنه قتل سنة ٤٨٦ هـ وانه أنشد وهو فى سجنه :

اصبحت تخرجنى بغير جريمة ‏ ‏ ‏ ‏ من دار اكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق ارذل موضع ‏ ‏ ‏ ‏ ابدا ويخرج من اغر مكان
ثقلت موازين العباد بفضلهم ‏ ‏ ‏ ‏ وفضيلتى قد خففت نيرانى (١٣٤)

وفى عهد المستنصر ايضا ولى ابو الفرج محمد بن جعفر المغربى ديوان الانشاء وبعد ان صرف عن الوزارة سنة ٤٥٢ هـ . لقد ذهب المقريزى الى ان الوزراء اذا صرفوا لم يتصرفوا فاقترح ابو الفرج المغربى لما صرف أن يتولى بعض الدواوين فولى ديوان الانشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كاتب السر وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر (١٣٥) ويبدو أن المقريزى لم يجانبه الصواب فيما ذكر وذلك لان ديوان الانشاء فى الديار المصرية اقدم عهدا من ابى الفرج بن المغربى واقدم عهدا من الدولة الفاطمية وقد ذكرنا أن ديوان الانشاء وجد بمصر منذ عهد احمد بن طولون .

ومهما يكن من شيء فان ابا الفرج احد افراد بنى المغربى الذين كان لهم شأن كبير فى الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز (١٣٦) بالله الفاطمى ولكن نشاطهم كان سياسيا اكثر منه ادبيا .

وتمر السنون على ديوان الانشاء ويتعاقب عليه الكتاب حتى نلتقى بكاتب من اكبر كتاب الدولة الفاطمية ومن احسنهم حظا . فقد انتهت الينا بقية صالحة من رسائله وسجلاته بل بقى لنا كتابان من كتبه الكثيرة التى صنفها ذلك

---

(١٣٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٢٩ .
(١٣٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٩ .
(١٣٥) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٢ .
(١٣٦) المصدر السابق .

الكاتب هو ابن الصيرفى المولود فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ ابو القاسم على بن منجب الصيرفى من اعظم الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى . وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر كما برع فى الخط وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الانشاء للخليفة الآمر بأحكام الله وظل الى سنة ٥٣٦ هـ ومن تصانيفه كتاب « قانون ديوان الرسائل » و « الاشارة الى من نال الوزارة » الذى الفه للمأمون البطائحى وزير الآمر (١٣٧) . وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه (١٣٨) ، وكان ابوه صيرفيا وجده كاتبا ومال هو الى فن الكتابة فمهر فيها على طريقة اهل عصره واعجب بصناعته فى النثر الوزير الأفضل فاستخدمه فى ديوان المكاتبات ورفع قدره وذاع ذكره منذ عهد الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٤٩٥ هـ اى فى أوائل عصر الحروب الصليبية وظل يعمل فى هذا الديوان زهاء سبعة واربعين عاما على ما ذهب اليه ابن ميسر وعاش ابن الصيرفى حياته كلها فى عصر الدولة الفاطمية (١٣٩) . واخذ صناعة الترسل من ثقة الملك ابى العلاء صاعد بن مفرج وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش ثم انتقل منه الى ديوان الانشاء ومات الشريف سناء الملك ابو محمد الزيدى الحسينى ثم تفرد (أى ابن الصيرفى) بالديوان فصار فيه بمفرده وله الانشاء البديع والشعر الرائع والتصانيف المفيدة فى التاريخ والادب ومعظم الرسائل والسجلات التى وصلتنا عن العصر الفاطمى هى من انشاء ابن الصيرفى (١٤٠) .

قال ياقوت : « الشيخ الفاضل على بن منجب بن سليمان الصيرفى : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم ذلك غير منازع فيه ، وكان ابو صيرفيا واشتهى هو الكتابة فمهر فيها » (١٤١) . وقد وصف المقريزى ابن أبى اسامة بقوله : « الشيخ الأجل ابو الحسن على بن احمد بن الحسن بن ابى

---

(١٣٧) د . محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٨٠ .

(١٣٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٧٩ — ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٨٠ .

(١٣٩) د . احمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٤٣ — ٣٤٤ .

(١٤٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٤ .

(١٤١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٤٠ .

اسسامة صاحب ديوان الانشــاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وكانت له رتبــة خطيرة ومنزلة رفيعة ينعت بالشيخ الأجــل كاتب الدســت الشريف ولم يكن احــد يشــاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه » (١٤٢) .

فنحن اذن امام كاتب اخــذ الصــنعة عن عــدد من شــيوخ الكتابة فى مصر فى العصر الفــاطمى فقد كان بين يدى الشريف ســناء الملك الذى كان كاتبــا فى أواخر ايــام المستنصر وهو الذى كتب ســجل تولية المســتعلى (١٤٣) ، واصــبح له ديوان الانشــاء فى عهــد الآمر ثم ولى الديوان بعده الشــيخ ابن ابى اســامة سنة ٥٢٢ هـ فاصــبح الديوان لابنه ابى المكارم الى ان توفى أيام الحافظ فولى ابن منجب الصــيرفى الديوان بعده .

فهذه المدة الطويلة التى قضــاها ابن منجب الصيرفى فى الديوان من اســباب شهرته فى الكتابة وذيوع عدد من رسائله وحفظها وبالرغم من أنه أصبح رئيســا لديوان الانشــاء فى عهــد الحافظ فانه هو الذى كتب سجل انتقال المستعلى وولاية الآمــر ســنة ٤٩٥ هـ (١٤٤) .

ولكن حينما اســتبد أبو على بن الافضــل الملقب بكتيفات بالأمــر وســجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ فلما قتل الوزير فى ١٦ محــرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله واتخذ هذا اليوم عيــدا أســماه عيد النصر ففى ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب الى بعض الخطباء للاستمداد لهذا العيد :

« عيد النصر وهو افضــل الأعيــاد واســناها واعلاها وادلها على تقصــير الواصــف اذا بلغ وتناهى ونحن نامرك ان تبرز فى يوم الأحــد ١٦ محرم ســنة ٥٣٢ هـ على الهيئة التى جرت العادة بمثلها فى الأعيــاد وتقرأ على الناس الخطبــة التى ســيرناها اليك تربن هذا اليوم بشرح هذا اليوم وتفصــيله وذكر مــا خصــه الله به من تشريفه وتفضــيله . وتعتمد فى ذلك مــا جرى الرســم فيه فى كــل عيــد

---

(١٤٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٥ .
(١٤٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٥ .
(١٤٤) المقريزى :الخطط جـ ٣ ص ٤٠ .

وتنتهى فيه الى الغاية التى ليس عليها مزيد ، فاعلم هذا واعمـل به ان شـاء الله تعـالى » (١٤٥) .

ولم يكن ابن الصيرفى كاتبا من كتـاب الرسائل فحسب . بـل كان مؤرخـا ومصـنفا من تصانيفه كتـاب عمـدة المحادثة وكتـاب عقائل الفضـائل وكتـاب اسـتنزال الرحمةوكتاب منائح القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب لمح الملح وكتاب فى السـكر وله اختيارات كثيرة لدواوين الشـعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن (١٤٦) .

ولابن منجب عدة مقطوعات من الشـعر ولكنه لم يعـرف بالشـعر كما عرف بالكتابة وروى له ياقوت قوله :

لمـا عددت مايكَ الأرض افضل من جلت مفاخـره عن كـل اطـراء
تغايرت أدوات النطق فيـك على ما يصنع الناس من نظم وانشـاء

وقوله :

لا يبلغ الغـاية القصـوى بهمتـه الا اخو الحـرب والجرد السلاهيب
يطوى حشـاء اذا مـا الليل عانقه على وشيج من الخطى مخضـوب

ولكن ابن منجب لم يعد بين الشـعراء بالرغم من ان شـعراء المائة الخامسة كان أكثرهم من كتاب الانشاء ولعل ذلك يرجع الى انه كان مقلا بالشـعر مكثرا فى الرسائل حتى قيل ان ديوان رسـائله يزيد على أربعـة مجلدات وتوفّى ابن منجب الصـيرفى سنة ٥٤٢ هـ (١٤٧) ولكن ياقوت يذهب الى انه توفى فى أيام الملك الصالح ابن رزيك بعد سنة ٥٥٠ هـ (١٤٨) وليس بين أيدينا شىء من النصوص التى تجعلنا نرجح احدى الروايتين .

اما ابو الفتح بن قادوس الدمياطى فهو محمود بن اسـماعيل اصـله من دميـاط ولعـل نشـأته الأولى كانت بها فان دميـاط كانت يومئذ احـدى مواطن الثقافة فى العالم الاسـلامى كله وان احتاج الطالب فيهـا الى ان يتم ثقافتـه

(١٤٥) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٣٣٥ .
(١٤٦) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٣٣٦ .
(١٤٧) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٨ .
(١٤٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩ .

العالية فى القاهرة أو فى غيرها من مواطن الثقافة العالية ، ولما جاء الى القاهرة التحق بديوان الانشاء يتدرب فيه على أحد رجالاته وعمل مع ابن الصيرفى فى هذا الديوان وتقدم به قلمه وارتقت به بلاغته حتى قدره ملوك عصره وكان ابن قادوس يكره الادعاء والاعجاب ويكره من يتصف بهما (١٤٩) .

وكان مع ابن الصيرفى فى ديوان الانشاء كاتبان شاعران من اقدر كتاب مصر الفاطمية وشعرائها . اما الأول فهو الفاضل المفضل كافى الكفاة أبو الفتح محمود بن القاضى الموفق اسماعيل بن حميد الدمياطى المعروف بابن قادوس . شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالى وامتدت به الحياة الى أن توفى فى عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك اى أنه عاصر شعراء مصر وكتابها فى النصف الأول من القرن السادس وعرف اتجاهاتهم الفنية فى الشعر والكتابة فلا غرو أن نرى امية بن ابى الصلت يتحدث فى رسالته المصرية (١٥٠) .

يصفه العماد بقوله : « أشعاره محكمة النسخ كالدر فى الدرج » (١٥١) ووصفه ابن ميسر بقوله : « كان من اماثل المصريين وكتابائهم مقدما عند ملوكهم » (١٥٢) .

لم يصلنا شىء عن حياة هذا الكاتب الشاعر فقد فقدت ترجمة حياته كما فقدت تراجم رجال مصر الفاطمية ومع ذلك فقد حفظت بعض المراجع قصته مع زميله وصفوه أبى على حسن بن زبيد الأنصارى ، وكيف كان ابن قادوس سببا فى أن يلقى زميله حتفه فان هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته فى صناعتى الشعر والنثر فانه كان ضعيف الخلق يحسد زملاءه ويوقع بهم فى المهالك . وهناك قصة أخرى يرويها القدماء عنه وهى انتصاره للجليس بن الحباب ، فقد كان ابن الصياد الشاعر مولعا بهجاء الجليس كثير الدعابة بانفه حتى قيل ان مقطعات ابن الصياد فى ذلك بلغت الف مقطوعة فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلا :

يا من يعيب انوفنا الشم التى ليست تعاب

---

(١٤٩) د . أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٤٧ .
(١٥٠) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٨ .
(١٥١) العماد الاصفهانى : الخريدة ورقة ٤٩ .
(١٥٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٩٧ .

الأنف خلقـة ربنـا وقرونك الشم اكتساب (١٥٣)

فان الذى جعل ابن قادوس ينتصر للجليس هو ضعف خلقه حتى توهم ان الجليس ربما ساعده فى الوصول الى مآربه الشخصية فى الديوان أو غير الديوان من مناصب الدولة بحكم تلك الصلة القوية التى كانت بين الجليس والخليفة الفاطمى من ناحية والملك الصالح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى فلذلك انتصر للجليس ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين .

ومهما يكن من شىء فان ابن قادوس كان من أماثل الكتاب فى القرن السادس الهجرى فالرسائل التى بقيت لنا من انشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه فى الانشاء (١٥٤) .

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ هـ وقيل ان الملك الصالح حضر من القاهرة الى مصر للصلاة عليه ومشى فى جنازته الى تربته عند مسجد الاقدام (١٥٥) .

وقد كان الشاعر الكاتب ابو على حسن بن زبد الأنصارى الذى كان ابن قادوس سبب قتله ، أما صفته الكتابية فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين فى ديوان المكاتبات (١٥٦) وقال مرة أخرى : « ومن نثره ما يدل على حسنه على رونق فرنده واثره » (١٥٧) .

حقا كان أبو على الأنصارى من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ فكان يضع اللفظ فيما خصص له ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذى قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التى رأيناها عند غيره من الكتاب ومن هنا ظهرت مواهب ابى على الأنصارى فى النثر كما ظهرت من قبل فى الشعر .

اما الموفق بن الخلال فهو يوسف بن محمد بن الحسين ابو الحجاج موفق الدين ابن الخلال — صاحب ديوان الانشاء بمصر فى دولة الحافظ العبيدى ،

---

(١٥٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٩ .
(١٥٤) المصدر السابق .
(١٥٥) تاريخ مصر ص ٩٧ .
(١٥٦) العماد الاصفهانى : الخريدة ورقة ١١٠ .
(١٥٧) المصدر السابق ورقة ١١٤ .
(١٥٨) خير الدين الزركلي : الأعلام ج ٢ ص ٤٠٧ .

وأحد كبار الكتاب المترسلين وله شعر حسن رقيق ، اشتغل عليه القاضى الفاضل فى الانشاء وتخرج به وعاش طويلا ولم يزل فى ديوان الانشاء الى أن طعن فى السن وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته ، مولده ووفاته بمصر (١٥٨) .

ولعل آخر من ولى ديوان الانشاء فى مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق وقد وصفه العماد بقوله : « هو ناظر مصر وانسان ناظرها ، وجامع مفاخرها وكان اليه الانشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء » (١٥٩) .

وان الموفق بن الخلال كان صاحب ديوان الانشاء بمصر الى أيام الحافظ وانه استمر فى مرتبته الى آخر عهد الدولة الفاطمية (١٦٠) ويعد الموفق بن الخلال الأستاذ المباشر للقاضى الفاضل فقد وفد القاضى الفاضل على مصر ومثل بين يديه بديوان الانشاء حيث تدرب بين يديه وطلب منه ان ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى الى أن أجاد القاضى الفاضل فن الترسل وبلغ هذه الدرجةالرفيعة فى هذا الفن ، لذلك يقول ابن خلكان : « ولم يزل ابن الخلال بديوان الانشاء الى أن طعن فى السن . وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته . ويقال أن القاضى الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم فكان يجرى عليه كل ما يحتاج اليه » (١٦١) .

وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليمنى فقال : « ووجدت بحضرته (أى بحضرة الملك الصالح بن رزيك) من اعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى ابن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الانشاء وأبا الفتح بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وما من هذه الحلبة أحد الا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الانسانية بأوفر نصيب ويرمى شاكله الأشكال فيصيب » (١٦٢).

---

(١٥٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٧ .
(١٦٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٩٦ .
(١٦١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٩ .
(١٦٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٣٤ .

اذن تكاد تجمع المصادر التى بين أيدينا والتى وجدناها تتحدث عنه — أى عن ابن الخلال — أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل وعلى براعته فى فن الترسل (١٦٣) .

لم يكن الموفق كاتبا فحسب بل كان شاعرا أيضا شأنه فى ذلك شأن عدد كبير من الكتاب الفاطميين ويظهر من شعره هذه الصنعة البديعية التى تظهر فى نثره أيضا فهو يقول فى قصيدة :

عذبت ليال بالتعذيب خوالى … وحالت مواقف بالوصال حوالى
ومضت لذاذات تفضى ذكرها … تصبى الحليم وتستهيم السالى
وجلت موارده الخدود فأوثقت … فى الصبوة الخالى بحسن الخال
قالوا سراة بنى هلال أصلها … صدقوا كذاك البدر فرع هلال (١٦٤)

كما روى أن بيتا أنشده كان سببا فى قطع صلة شاعر من شعراء القصر ذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانىء — وكان من سلالة الشاعر ابن هانىء الأندلسى المعروف — كان يهجو ابن الخلال فأضمر هذا له حقدا فاتفق فى بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدى الخليفة وانتهت النوبة الى ابن هانىء فأنشد وأجاد ، فسأل الخليفة الموفق بن الخلال رأيه فى قصيدة ابن هانىء فلم يسعه الا أن يثنى عليه ويبالغ فى وصفه ثم قال ولو لم يكن مما يمت به الا انتسابه الى ابن هانىء الأندلسى شاعر هذه الدولة ، ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد فقال له الخليفة : ما هو ؟ فتحرج الموفق من انشاده وأبى الخليفة الا أن ينشده . وفى أثناء ذلك صنع ابن الخلال بيتا هجا فيه الأئمة الفاطميين (١٦٥) . فعظم ذلك على الخليفة وقطع صلة الشاعر وكاد يفرط فى عقوبته (١٦٦) . وتوفى ابن الخلال فى الثالث والعشرين من جمادى الآخر سنة ٥٦٦ هـ (١٦٧) .

وبالرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من عمال ديوان الانشاء او ديوان

---

(١٦٣) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٤٥ .
(١٦٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٨ .
(١٦٥) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٤٧ .
(١٦٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٩ .
(١٦٧) المرجع نفسه .

الرسائل ولم يعرف عنه انه كان كاتبا لأحد الأمراء فاننا نستطيع أن نلمس فى رسائله الاخوانية التى حفظت لنا خصائص الكتابة التى عرفت عند كتاب الدواوين ، كما تأثر عمارة فى شعره بمصر بشعرائها فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها فى نثره ، فكان يفعل فى عهد الخلفاء الفاطميين (١٦٨) تألق الكاتب انتقاء الألفاظ واختيار الأسلوب ومضى على سنة أهل عصره فى التزام السجع لا يحيد عنه يطرزه بآى من القرآن الكريم ويستشهد به ويقتبس منه وكان من رسومهم فى كتاباتهم (١٦٩) .

ولذا نجد الكتابة فيها الصناعة اللفظية فى العصر الفاطمى الذى يعتبر مرحلة متوسطة بين طريقة ابن العميد وطريقة القاضى الفاضل ، ففى مستهل عصر الفواطم كانت طريقة ابن العميد قد ذاعت وبدأ الكتاب يترسمون نهجها ، وفى أواخره ظهر القاضى الفاضل وانتشرت طريقته التى نضجت فى العصر الأيوبى. وكل هذا انما هو حلقة من سلسلة الطريقة التى يسميها بعضهم بالطريقة (الكلاسيكية) التى تعتمد على السجع وعلى باقى المحسنات ونجد كذلك شيئا من مظاهر التضمين والاستشهاد بالآيات القرآنية . هذه هى أهم الخصائص التى نجدها فى أدب هذا العصر (١٧٠) .

وقد امتازت هذه الفترة الأخيرة من عصر الدولة الفاطمية بازدهار النثر وبراعته وروعة أسلوبه وافتنانه وتعاقب فيها ديوان الانشاء عدة من ائمة البيان الرائع الذين جعلوا من رسائلهم الخلافية والديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة والقوة والروعة والبهاء (١٧١) .

ولهذا فقد امتاز الأدب الفاطمى عن غيره « حيث كانت له وحدة امتاز به ومن خصوصياته ان أعلام الأدب الفاطمى ينطقون عن الكلم البديعية التى يعربون بها عن التخيلات النادرة ويؤدون ما فى نفوسهم من تلك المعانى بألفاظ عربية وعبارات لطيفة ويجمعون فى عباراتهم ما استطاعوا وأمكنهم كل ندرة وغرابة من

---

(١٦٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٩ ص ٢٩١ .
(١٦٩) د . احمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٠٣ .
(١٧٠) د . عبد الحميد حسن : صفحات من الأدب المصرى من العصر الفاطمى الى النهضة الحديثة ص ٣١ ، ٣٢ .
(١٧١) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣٦٧ — ٣٧٠ .

بدائع الالفاظ وتراكيب المعانى كفعل غيرهم من أهل البلاغة ، فلا يكتفون بذلك فقط ، بل أنهم مع كونهم محتوين على تلك المزايا الأدبية بشأن امتيازى يعربون عن المعقولات والحكمة والفلسفة بتلك الوحدة الامتيازية وهذا حد الأدب الفاطمى ، ولا يخفى أن الأدب الفاطمى مع كونه محتويا على تلك البدائع يحتوى على فنون ويجمع مزايا ليست فى غيره . ان الأدب الفاطمى حينا يبدى التوحيد والعدل وحينا يفصح بالشرع والعقل فانه حينا يلقى الينا الباطن والتأويل وحينا الحجة والبحث (١٧٢) .

ولم يقتصر الأمر فى تشجيع الحياة العقلية والأدبية على الخلفاء فحسب ، بل كان لكبار رجال الدولة وعلى راسهم الوزراء اثر كبير فى ازدهارها . واننا اذا استعرضنا تاريخ الوزراء لظهر لنا بجلاء الدور الكبير الذى لعبوه فى تنشيط الحركة الفكرية وازدهار النهضة الثقافية حتى اصبحت مصر مسرحا لنشاط عقلى وادبى عظيم .

ولم يقتصر كثير من الوزراء على حبهم للعلم والأدب وتشجيعهم لأهله بل كان منهم من قام بالتأليف فى مختلف انواع العلم وقرض الشعر (١٧٣) .

ولم يكن الوزراء الفاطميون اقل اهتماما بالشعر من الخلفاء بل اسرفوا فى كل ما يحقق طموحهم واحاطوا انفسهم بهالة من أبهة الملك وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله الخلفاء العباسيون والفاطميون ابان قوة ملكهم فتوافد الشعراء على قصورهم كما توافدوا على قصر ابن كلس (١٧٤) .

ولذا كان بعض الوزراء فى عهد غلبة الوزراء فى مصر ينشد الشعر ويثيب عليه ولا سيما ان الوزراء اصبحوا كل شىء فى الدولة فاصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم حتى ان الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمى

---

(١٧٢) د . على حسنى الخربوطلى : عماد الدين ادريس ص ٨٥ — ٨٨ نقلا عن : الأدب الفاطمى فى اليمن للشيخ رجب على .

(١٧٣) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٣ .

(١٧٤) د . محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٢٣١ .

كانوا يذكرون بجانبه الوزير ويطنبون فى مدح الوزير أكثر مما يقولون فى مدح الامام (١٧٥) .

هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء فى القسم الأول من العصر الفاطمى ، وهو القسم الذى كان الأئمة فيه يسيرون مرافق البلاد ويختارون الوزراء لمساعدتهم فى تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر وزراء ذلك العهد من رجال القلم أمثال الجرجرائى واليازورى وابن المغربى والبابلى وغيرهم من الكتاب (١٧٦) .

اما الشعراء والأدباء الذين امتدحوا الخليفة العزيز بالله الفاطمى فقد اشادوا بوزيره يعقوب بن كلس فهو أول وزير فى الدولة الفاطمية ، فقد اتخذه العزيز بالله الفاطمى وزيرا له سنة ٣٦٨ هـ ولقبه بالوزير الأجل فأمر الا يخاطبه احد ولا يكاتبه الا بهذا اللقب ونظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب (١٧٧) .

فكان هذا المركز الخطير الذى شغله ابن كلس فى هذه الدولة الفتية اذ ذاك أن ابن كلس كان احد العلماء المبرزين وكيف كان يلقى علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من الفقهاء والقضاة والشعراء ورجال الدولة يستمعون الى دروسه ويتناقشون بين يديه اضف الى ذلك كله انه كان كريم اليد يعطى ويجزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله ويكثرون من مدحه .

اما الشعراء والأدباء الذين حفل بهم قصر ابن كلس فكثيرون ، أذ كان الوزير اذا ما انتهى من مجالس العلم والفقه التى كان يعقدها قام الشعراء يتبارون فى مدحه ، وكان بدوره يغدق عليهم المنح والهبات فكثر حوله الشعراء حتى لقد بلغ عدد الشعراء الذين رثوه بعد موته مائة شاعر . ولقد حكى أبو حيان التوحيدى انه سأل التميمى الشاعر المصرى عن الصاحب بن عباد وعن أبى الفرج بن كلس فقال فى ابن كلس « ذكر رجل له دار ضيافة وله زواره كالقطر

---

(١٧٥) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(١٧٦) المصدر السابق ص ١٦٦ — ١٧٦ .
(١٧٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٨ — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٣ .

يعطى على القصد والتأميل والطمع والطلب ، وليس عنده امتحان فالراحل شاكر ، وما ترتفع صلات ابن عباد عن مائة درهم الى ألف درهم ، وانبسل من ورد عليه البديهى وهو شيخه فى العروض وعنه أخذ القوافى ويفتحه وهدايته قال الشاعر لم يزده فى طول مقامه الى رحيله عن خمسة آلاف درهم تفاريق وان أقل ضيف بمصر يصير اليه مثل هذا فى أول يوم». فهذه الرواية تدل على مدى التشجيع الذى كان يلقاه رجال الأدب بمصر على يدى الوزير العالم الأديب (١٧٨).

ولم يكن ابن كلس وزيرا سياسيا عظيما فقط بل كان عالما واديبا كبيرا أيضا وكان يعقد بداره مجالس علمية وادبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس . (١٧٩) . ويشترك فى أعمالها ويغدق العطاء على روادها فكان يجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء ويناظرهم ويصلهم ، وكانت موائده دائمة منصوبة معدة للوافدين وكان كثير الصلات والاحسان .

وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم والأديب علما بين رجالات عصره وقد أشاد شعر العصر الفاطمى بجلاله وجوده (١٨٠) .

وامتدح المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى الوزير يعقوب بن كلس فقال « أما ادارة الامبراطورية الفاطمية فى الداخل فالفضل فى انشائها راجع الى يعقوب ابن كلس الذى كان وزيرا للعزيز وكانت ادارته الماهرة هى التى بنيت عليها قواعد الرخاء الاقتصادى الذى شهده وادى النيل فى عهد الفاطميين الأول » (١٨١) .

وانشا ابن كلس مجالس للمناظرة فى الفقه والأدب والشعر وعلم الكلام وغيره وغرضه أثبات مذهب الشيعة ، مذهب الدولة التى قامت عليه (١٨٢) .

وكانت مكتبته الخاصة تنافس مكتبة الخليفة العزيز فى عدد كتبها كما كان

---

(١٧٨) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١١ .
(١٧٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٠ .
(١٨٠) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٤٦ — ٤٧ .
(١٨١) د . فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٨١٣ .
(١٨٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٥ ص ٦٧٩ .

انسانا ، فقد انشأ فى قصره مستشفى به عدد كاف من الأطباء يفحصون المرضى ويقدمون لهم الدواء بدون مقابل (١٨٣) .

وهذا يوضح اثر يعقوب بن كلس فى نشاط الحركة العلمية والأدبية .

ومن الشعراء الذين مدحوه عبد الله بن محمد بن ابى الجوع ، وابو الرمقمق وهو حامد بن احمد بن محمد الأنطاكى ، بل ان الأمير تميم بن المعز واخو الخليفة العزيز من الذين مدحوا ابن كلس . فمن قول ابن أبى الجوع وقد مرض الوزير من علة أصابت يده :

يد الوزير هى الدنيا فان المت ... رايت فى كل شىء ذلك الألما
تامل الملك وانظر فرط علته ... من اجله واسال القرطاس والقلما

ومنها :

لولا العزيز وآراء الوزير معا ... تحيفنا خطوب تشعب الأمما

ومن شعر الأنطاكى فى ابن كلس :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر ... ض عدوا الا وأخمد ناره
كل يوم له على نوب الدهـ ... ر وكر الخطوب بالبذل غاره

ومما يؤسف أن غالبية اشعار هؤلاء الشعراء الذين يعدون بالمئات قد فقدت فيما فقد من تراث الفاطميين (١٨٤) .

ولقد كان ابن كلس وزيرا عظيما وعالما جليلا بل كان عبقرية سياسية حقة (١٨٥) .

ومما يدل على مكانة ابن كلس عند الخليفة العزيز بالله الفاطمى انه عندما مات قال له : « وددت انك تباع فأبتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى ! » (١٨٦) .

وخرج العزيز بالله الفاطمى من القصر على بغلة والناس يمشون بين يديه

---

(١٨٣) د . على حسنى الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ص ٧٨ .
(١٨٤) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٢ .
(١٨٥) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٤٤ .
(١٨٦) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٩ .

وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه واقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ولا يحضرها من عادته الحضور . واقام الناس عند قبر الوزير شهرا وغدا الشعراء الى قبره فرثاه مائة شاعر أضيروا كلهم .. فهذا كله يدل على انه كان للوزير مكانة فى نفس امامه وفى نفوس معاصريه جميعا . وذلك لما عرف عنه من انصافه وكرمه وعلمه وما أظهره من شدة تمسكه باهداب الدين الاسلامى على مذهب القوم (١٨٧) ».

وهكذا جزع عليه العزيز أيما جزع ، وعلى الجملة فقد سما ابن كلس فى ظل الدولة الفاطمية الى ارفع مكانة وترك بوفاته أعظم فراغ وكان له أعظم الأثر فى توطيد حكمها وادارتها بمصر (١٨٨) .

وكان ابن كلس الى جانب تبحره فى علوم الفقه أديبا بارعا شاعرا ، كما أن وزراء القرن الأول كانوا من أصحاب الأقلام وكانوا على رأس دواوين الدولة لذلك كان أكثرهم أدباء بارعين (١٨٩) .

ولا شك أن أثر ابن كلس على الحركة الفكرية كان قويا حتى ظلت مزدهرة الى انتصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وقد ساعد على استمرار تقدمها وجود وزراء أقوياء يحبون العلم والأدب وأهلهما (١٩٠) .

وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوا ابن كلس بلغوا مائة شاعر فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك **أولا** : عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على محو كل أثر علمى أو أدبى للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين .. **ثانيا** : عند المؤرخين والكتاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فأبوا أن يرووا شيئا من شعراء مصر الفاطمية .. **ثالثا** : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الاسلامى مدة طويلة فأحاطوا بحضارتين من أرقى الحضارات التى شاهدها العالم وشاهدها تاريخ الفكر البشرى وهما : الحضارة الاسلامية والحضارة البيزنطية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة

---

(١٨٧) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ .
(١٨٨) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٤٨ .
(١٨٩) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٤
(١٩٠) المصدر السابق ص ١١٣ .

أخرى تقوم مقام هاتين الحضارتين . وكان الاتراك شديدى التعصب للمذهب السنى فانزلوا نقمتهم على كل ما هو شيعى . أضف الى ذلك كله المجاعات الكثيرة والاضطرابات العديدة التى سببت محنا عديدة لمصر . ووصفها المقريزى فى كتابة « اغاثة الأمة بكشف الغمة » فقد كانت من اشد العوامل فى ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم .

وهكذا تضافرت قوى عديدة لابادة العلوم والآداب فى العصر الفاطمى حتى أن الذى بقى من هذا كله أصبح ضئيلا بالنسبة لما كان فى عهدهم الزاهر (١٩١).

ويذكر ابن ظافر فى كتابه « أخبار الدول المنقطعة » أن اليازورى كان يحب اهل العلم ويرفع منهم حتى ان أبا يوسف القزوينى القاضى الفقيه لقيه يوما وهو متوجه الى ديوانه فوقف له واكرمه وسأله عن جميع حوائجه فقضاها وكان يقول فى اثناء كلامه السمع والطاعة (١٩٢) .

وبرغم انه لم يصلنا معلومات كافية عن الشعراء فى عهد اليازورى إلا أن الشواهد تدل على أن هذا الوزير كان محبا للفنون والآداب وأن مائدته كانت تحفل كل يوم بالأدباء .

ولقد امتدت المنافسة التى كانت قائمة بين اليازورى وبين المؤيد فى الدين داعى الدعاة الى الناحية الأدبية فحاول كل منهما أن يجذب اليه الشعراء . فيذكر العماد الأصفهانى ان ابن حيوس شاعر الشام لما وصل الى مصر قصد اليازورى الذى هيأ له فرصة الانشاد امام الخليفة فى حفل أقيم فى القصر . فغضب المؤيد فى الدين على الشاعر اذ قصد الوزير دونه . فأرسل الى شاعر آخر هو حظى الدولة ابو المناقب عبد الباقى وطلب منه حضور هذا الحفل. فلما حضر اعتقد الموجودون انه ابن حيوس فانشد وأطال . فلما دخل ابن حيوس وانشد اظهروا له الملالة واطلق له الف دينار اخذها حظى الدولة فاجتهد الوزير حتى قسمها بينه وبين ابن حيوس .

ولقد اخذت الحركة الفكرية — شأنها شأن كل شىء آخر فى الدولة — فى

---

(١٩١) د . محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ١٧٥ .

(١٩٢) د . محمد حمدى المنباوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٣ — ١١٤ .

الضعف فى أواخر القرن الخامس الهجرى نتيجة لضعف الخليفة والوزراء الذين أخذوا يتساقطون كأوراق الخريف . وكانت الأحداث والفتن التى تعرضت لها البلاد فى الداخل والخارج عاملا فى اهمال الحركة العلمية والأدبية حتى ان مكتبة القصر التى كانت اعظم مكتبة فى ذلك الوقت قد اصابها من المحن والتخريب الشىء الكثير ونهبت كتبها ، وعمل الجنود من جلود الكتب احذية ونعالا والقيت أوراقها خارج القاهرة حتى صارت تلالا تعرف بتلال الكتب .

ويروى أن الوزير أبا الفرج محمد بن جعفر المغربى قد اخذ من مكتبة القصر من الكتب حمولة خمسة وعشرين جملا موقرة وفاء لما يستحقه ، وسواء استولى المغربى على هذه الكتب استخلاصا لحقه او حبا فى العلم وهو العالم الأديب فانه قد استطاع بعمله هذا استنقاذ هذه الكتب من المصير الذى لحق بمثيلاتها على يد الجنود (١٩٣) .

ولما أعاد بدر الجمالى الاستقرار للبلاد عاد للحياة العلمية والفكرية ازدهارها وقوتها وظلت كذلك حتى نهاية الدولة ، وابتدأت مصر تجذب اليها من جديد العلماء والمفكرين والادباء واخذ العلماء يتجهون بمؤلفاتهم والشعراء باشعارهم الى الوزراء الذين أصبحوا أصحاب السلطة الحقيقية والقوة المسيطرة (١٩٤) .

وكان بدر الجمالى رغم انشغاله بالقضاء على أسباب الفتنة وتوحيد أركان الدولة لا يرد الشعراء عن بابه ، كما كان جوادا بسمع المديح ويثيب عليه . وقصة الشاعر الشامى علقمة بن عبد الرزاق العليمى مع بدر معروفة حيث وفد الى مصر ومدح الوزير فخرج من عنده بتسعين جملا تحمل انعامه وأمر له بعشرة آلاف درهم ويقول علقمة : « فقلت لمن ببابه من الشعراء والقصاد يا متخلفين الحقونى الى منزلى ، فلحقونى فما فيهم الا من خلعت عليه وأعطيته من جائزتى » .

وحينما وفد على مصر الشاعر علقمه بن عبد الرزاق العليمى وفد على بدر الجمالى ويقول علقمة : قصدت بدر الجمالى فرأيت اشراف الناس وكبراءهم

---

(١٩٣) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٤ .

(١٩٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٢ .

وشعراهم على بابه قد طال مقامهم فلم يصلوا اليه فبينما انا كذلك اذ خرج بدر بريد الصيد فخرجت فى أثره واقمت معه حتى رجع من صيده فلما قاربنى وقفت على تل من الرمل . وأومأت برقعة فى يدى .. وانشدت :

فوهبت ما لم يعطه فى دهره	هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس فى طلب العلا	والناس بعدك كلهم أتباع
يا بدر اقسم لو بك اعتصم الورى	ولجوا اليك جميعهم ما ضاعوا (١٩٥)

ومهما يكن من شيء فقد أصبحت الوزارة هي القوة المحركة للبلاد كلها فاتجه الشعراء الى الوزراء يمدحونهم ويأخذون هباتهم وصلاتهم . وتشبه الوزراء فى بذخهم بالأئمة فاسرفوا فى كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معا ، واحاطوا انفسهم بهالة من ابهة الملك والقابه . واتخذوا لانفسهم حاشية هي اشبه بحاشية الملوك والسلاطين وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بنى العباس والأئمة الفاطميين ابان قوتهم وسلطانهم . فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة الى مدح الوزراء (١٩٦) .

ولقد كان هؤلاء الوزراء بدورهم ذواقين للشعر محبين للأدب ، بل كان منهم من يقرض الشعر فكانوا يكرمون رجال الأدب لا حبا فى التظاهر بل حبا فى الأدب نفسه. ولذلك وفد على مصر كثير من أعلام الادب لما يجدون من وزرائها من الرعاية والتقدير، فكان لذلك اثره فى ازدهار الحركة الأدبية من جديد. فامتازت هذه الفترة بروعة الشعر وبراعة النثر وحفلت دواوينهم بائمة البيان الذين بلغوا الدرجة العالية من الثقافة وعرفوا بالمهارة فى فنون الأدب حتى أصبحت رسائلهم وكتبهم مثالا يحتذى امثال : ابى الفتح الدمياطى وابن الخلال وابن الصيرفى والقاضى الفاضل .

فظلت النهضة الأدبية فى ازدهارها وأصبح لمصر فى عهدهم الزعامة الأدبية فى العالم العربى ، والدولة الفاطمية وأن ضعف خلفاؤها ظلت متماسكة الى حد كبير بفضل وزرائها الذين استطاعوا أن يحافظوا على البلاد وان ينموا ثروتها التى جذبت العلماء والشعراء والكتاب والفنانين من البلاد الأخرى، فى حين انتاب الضعف الخلافة العباسية وانقسمت دولتهم الى دويلات صغيرة

(١٩٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٠ .
(١٩٦) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٧٧ .

كثيرة ، فاصبحت مصر قبلة كل من يسعى الى الثروة وبحبوحة العيش ، لثرائها واستقرار الأمور فيها بل لقد شجعت جهود الوزراء وعطاياهم كثيرا من الشعراء على ارسال مدائحهم وهم فى بلادهم ، وكانت هبات الوزراء بالتالى ترسل لهم في أماكنهم دون تحمل مشقة الحضور الى مصر ، وكان الوزراء بذلك قد شجعوا الحركة الأدبية في مختلف البلاد العربية لا في مصر فحسب (١٩٧) .

وكان من الوزراء من ينشد الشعر .. فالافضل بن بدر الجمالي كان شاعرا ومن شعره فى علاقة تاج المعالى :

أقضيب يميس أم هو قد	وشقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال خوفا عليه	وهو كالبدر حين وفاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه ، اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة الى الطريق فامر بضرب عنقها ، فلما وضعت الراس بين يديه أنشد :

نظرت اليها وهى تنظر ظلها	فنزهت نفسى عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها	ومن مسك لها فى الذوائب
ولى غيرة لو كان للبدر مثلها	لما كان يرضى باجتماع الكواكب

فهذه الأبيات التي بقيت لنا من شعر الافضل تدل على رقة شعره وقدرته على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة .

ومن شعره أيضا :

أما والذى حجت الى ركن بيته	جراهم ركبان مقاصده شهبا
لاقتحمن الحرب حتى يقال لي	ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم	فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا (١٩٨)

وكان الافضل بن بدر الجمالى معروفا بحبه للشعر والشعراء وكان له مجلس فى دار الملك يعرف بمجلس العطاء به ثمانية مظاريف من الديباج فى سبعة منها خمسة وثلاثون الف دينار يهب منها من يقف بين يديه من الشعراء (١٩٩) .

---

(١٩٧) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٦ — ١١٧ .

(١٩٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٣ ، ١٣٢ .

(١٩٩) د. محمد حمدي المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٧ .

كذلك تقدمت الحياة الأدبية بمصر فى عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بفضل تشجيعه للشعراء فكان بجلس اليهم يستمع الى اشعارهم ورواياتهم للشعر ، ويجزل اليهم العطاء (٢٠٠) مما جعل للأفضل شعراؤه ولذلك يعد عهد الأفضل من ازهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الاسلامية فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء نذكر منهم مسعود الدولة وابا على حسن بن زبيد والقاضى بن النضر المعروف بالاديب ، والناجى المصرى وسالم بن مفرج بن أبى حصينة . ومحمود بن ناصر الاسكندرى ومروان بن عثمان المكى وابن الرقى وظافر الحداد وأمية بن أبى الصلت ، وغيرهم (٢٠١) .

وقد توالت عليه وفود الشعرا يطمعون فى بره واحسانه وينعمون بما يغدقه عليهم من صلات ، وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه الى مصر شاعرا آخر هو ابو الحسن على بن ابراهيم الملقب بابن العلانى من اهل معرة النعمان منبت الشاعر أبى العلاء المعرى . أتى ابن العلانى الى مصر فحاز تشجيع الأفضل بما اغدقه عليه من صلات يدل على ذلك هذه الأبيات القليلة التى ننقلها من قصيدة يمدح فيها ولى احسانه ونعمه حيث يقول :

لمكة مصر والحجيج وفوده ... وبمناه ركن البيت والنيل زمزم

وشاكر ما تولى بعجزه ... ولو أنه فى كل عضو له فم

وهناك طائفة اخرى من الشعراء الذين وفدوا على مصر رجاء الحصول على ما حصل عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ومن بينهم أبو الحسن على بن جعفر بن البوين (٢٠٢) . وهومن اهل المعرة ايضا ولقد اعتمد عماد الدين الأصفهانى فى عبارته على ما ذكره اسامة بن منقذ (٢٠٣) وهو أن ابن البوين « حاز ثقة الأفضل ونال حظوته وأنه أفاض عليه من سحائب احسانه وادار عليه حلوبه وانعامه ولقبه بأمين الملك واستخلصه » .

ويحسن بنا أن ننقل بضعة أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

---

(٢٠٠) د . محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٢٣١ .
(٢٠١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٧٩ .
(٢٠٢) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٠ .
(٢٠٣) د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٠ .

يا من تنافس فيه السمع والبصر   كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكم فى الأرواح فاحتكمت   الا يحكم فيها بعده بشر

وقد سار على نهج ابن البوين شاعر آخر ، اسمه أبو على حسن ابن زبيد الذى لم تقتصر مدائحه على الخلفاء الفاطميين وحدهم بل تعدتهم الى غيرهم من الوزراء وكبار رجال الدولة فنراه يمدح الأفضل بقوله :

خلع الزمان على حلة مفخر   مشرفا بمدح الأفضل المفضال
يلقى المدائح بالمنائح واهبا   ويصدق الأقوال بالأفعال

ويمدح ابن الزبيد هذا الوزير فى قصيدة اخرى فيقول :

لولا وجودك فى الزمان وجودك الـ   محيى المكارم بعد وفاتها
لم يعرف المفروض فى الدنيا ولو   طفنا عليه فى جميع جهاتها (٢٠٤)

واقد ظهر منذ عهد الأفضل غرض جديد من أغراض الشعر علاوة على ما كان معروفا من قبل كالمدح والرثاء والوصف ، وذلك هو الشعر الذى يتعلق بالحروب الصليبية اخذ الشعراء يذكرون جهاد الوزراء لهؤلاء الصليبيين وانتصارهم عليهم ومحاولة تبرير هزائمهم . فمن ذلك قول أمية بن أبى الصلت فى قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل لحرب الصليبيين :

جردت للدين والأسياف مغمدة   سيفا تغل به الاحداث والغير
وقمت اذ قعد الأملاك كلهم   تذب عنه وتحميه وتنتصر

ولقد جاء أمية بن أبى الصلت من بلاد المغرب يجذبه الى مصر جود الأفضل ويبدو انه نال حظوة لديه أول الأمر ثم غضب عليه فسجنه ، واضطر أمية الى الرحيل سنة ٥٠٦ هـ بعد أن يئس من استعادة مكانته لدى الوزير فألف الرسالة المصرية وهاجم فيها مصر والمصريين ووصف ما لقيه فيها وما شاهده الا انه ذكر كثيرا من أدباء مصر وشعرائها الذين عرفهم ، وممن ذكرهم أمية بن أبى الصلت أيضا أبو القاسم على بن جعفر بن الأغلب السعدى

---

(٢٠٤) المصدر السابق ص ٤٥٢ .

المعروف بابن القطاع الصقلى (٢٠٥) الذى وفد الى مصر من جزيرة صقلية وقد كان من أئمة الأدب فى عصره ، صنف كتاب « الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة » (صقلية) وكتاب « لمح الملح » يتضمن الكثير من اشعار الأندلس .

ومن الشعراء الذين نعموا بجود الأفضل أبو الفتيان مفضل بن حسن ابن خضر العسقلانى ، وأبو الحسن على بن ابراهيم الملقب بابن العلانى ، وأبو الفضل جعفر بن الفضل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده فى مدح الأفضل . من شعر أبى الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلانى فى الأفضل :

اقول والنجم مرقوم بغرته	مسطرا نظرت وضوء الصبح مبتسم
امام خديه اضحى فى زجاجته	يدير ام ماؤها فى وجنتيه دم
صنع الصباح ضياء من مباسمه	فاستنبطت حلكا فى شعره العتم

وابن البوين ، وابو على حسن بن زبيد الانصارى الذى كان من المقدمين فى ديوان الانشاء والذى يقول القاضى الفاضل عنه : « انه فى فنه لم يسمع

---

(٢٠٥) على بن جعفر بن على السعدى يعرف بابن القطاع الصقلى وكان امام وقته ببلده وبمصر فى علوم العربية وفنون الأدب قرأ على أبى بكر محمد بن عبد البر الصقلى . ووصل الى مصر عندما اوشكت صقلية على الوقوع فى يد النورمانديين سنة ٥٠٠ هـ فاكرمه الأفضل ووكل اليه تأديب أولاده وكان مما روى عنه كتاب الصحاح للجوهرى ومن طريقه اشتهرت رواية هذا الكتاب فى جميع الأفاق ، ولابن القطاع عدة تصانيف منها كتاب الجوهرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة (صقلية) اشتملت على مائة وسبعين شاعرا وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء فى اللغة جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه افعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما فى ثلاث مجلدات ، وله حواش على كتاب الصحاح نفيسة . وعليها اعتمد ابن برى النحوى المصرى ، وكتاب فرائد الشذور وقلائد النحور فى الأشعار ، وكتاب العروض والقوافى ، وكتاب تاريخ صقلية ، وكتاب أبنية الأسماء والأفعال ، ولابن القطاع اشعار ليست على قدر علمه . قال الصفدى : وكان نقاد المصريين ينسبونه الى التساهل فى الرواية وقد ولد القطاع سنة ٤٣٣ هـ وتوفى سنة ٥١٤ هـ ودفن قرب ضريح الامام الشافعى (معجم الأدباء لياقوت — بغية الوعاة للسيوطى — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة) الوزارة والوزراء ص ١١٨ — ١١٩ د . محمد حمدي المنياوى .

الدهر بمثله» . ومسعود الدولة النحوى مقدم الشعراء أيام الأفضل والشريف أبو جعفر محمد بن هبة الله العلوى الحسينى الذى جاء من طرابلس وحظى من منن الأفضل بأجزلها (٢٠٦) . وغيرهم كثير امثال أبى شرف الجرجاوى والناجى المصرى وأبى الحسن على بن النضر المعروف بالاديب الذى يثنى عليه أمية بن أبى الصلت بقوله : « ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل البارع وله من سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى والرتبة الأولى » .

على أن الشاعر المصرى الذى ازدان به عصر الأفضل هو ظافر الحداد والذى أكثر من مدح الأفضل والخليفة ويصفه العماد بقوله : « ظافر بحظه من الفضل ظافر يدل نظمه على أن ادبه وافر وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما اكمله لولا انه مداح المصرى والله له غافر ، حداد لو انصف يسمى جوهريا وكان اهدى يروى شعره الروى للقلوب الصاوية ريا » (٢٠٧) .

كما وجد العلماء الاكرام والتشجيع لدى المأمون البطائحى فتقدم العلماء اليه بمؤلفاتهم ووجدوا لديه التشجيع والرعاية فعندما وفد اليه الفقيه ابو بكر محمد الطرطوشى (٢٠٨) من الاسكندرية بمؤلفه « سراج الملوك » اكرمه ايما اكرام وأمر باخلاء المجلس له واستقبله واقفا وجلس بين يديه وعند انفضاض المجلس صحبه أخو المامون بنفسه الى المكان المعد لاقامته ، وأمر مشارف الجوالى أن يحصل اليه فى كل يوم خمسة دنانير وصار المامون يستدعيه يوم راحته ويبالغ فى اكرامه ويقضى شفاعته وعندما قرر العودة الى الاسكندرية وعلم المأمون برغبته فى بناء مسجد هناك أمر والى الاسكندرية أن يتولى ذلك على نفقة الديوان المأمونى وقد اكرم المأمون يوسف بن حسداوى الطبيب الذى الف له « الشرح المأمونى » .

ولا ادل على رعاية المامون للعلوم من ظهور مؤرخ عظيم من اهل بيته هو ابنه جمال الملك موسى الذى الف كتابا فى التاريخ يعتبر من المراجع الرئيسية التى

---

(٢٠٦) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢٠٧) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٩ .

(٢٠٨) المصدر السابق ص ١٢٠ نقلا عن أعلام الاسكندرية — د . الشنيال .

استعان بها المقريزى عند تعرضه لتاريخ الدولة الفاطمية خصوصا فى الفترة من ٥٠١ الى ٥١٩ هـ وقد استعرض ابن المأمون فى تاريخه نظم الدولة الفاطمية ورسومها (٢٠٩) . وساعد على ذلك استطاعته الوصول الى كثير من أسرار الدولة ومستنداتها ويذكر ان هذا المؤلف كان فى اربعة اجزاء .

ومن وزراء العصر الفاطمى الذين أسهموا فى ازدهار الحياه الأدبية فى مصر الملك الصالح طلائع بن رزيك وكان يجيد نظم الشعر وجعل له مجلسا فى أكثر الليالى يحضره أهل الأدب (٢١٠) ومما تجدر الاشارة به أنه جاء الى مصر عندما قتل الخليفة الظافر سنة ٥٤٩ هـ حيث كتب خدام القصر الى طلائع بن رزيك والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الخليفة ويستنجدونه على القاتل وارسل نساء القصر بشعورهن اليه ، ولعب الشعر دورا هاما فى دعوة طلائع للأخذ بثأر الخليفة فقد كانت قصيدة القاضى المعالى عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس التى أرسلها الى طلائع بن رزيك من اشد الرسائل التى وصلت اليه أثرا فى نفسه (٢١١) .

جاء طلائع مع رجاله الى القاهر واستولى على الوزارة واذا قلنا الوزاره فانما نقصد أنه تولى الحكم الفعلى فى البلاد ، ولذلك لقب بالملك الصالح وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه أنه كان يحب العلم والشعر والشعراء حيث كانت مجالسه تغص بهم دائما يتناظرون فى بعض المسائل العلمية والأدبية وهذا يرجع الى أن طلائع كان شاعرا مجيدا ويصفه ابن خلكان بقوله : « كان فاضلا سمحا فى العطاء سهلا فى اللقاء محبا لأهل الفضائل ، جيد الشعر ، وقفت على ديوان شعره وهو فى جزاين » (٢١٢) .

ولذلك كان وقع القصيدة فى نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل .. فمن هذه القصيدة قول الجليس :

دهتنى عن نظم القريض عوادى   وشف فؤادى شجوه المتمادى

---

(٢٠٩) المصدر السابق ص ١٢١ .

(٢١٠) د . محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢١١) د . محمد كامل حسين : أدب مصر الفاطمية ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢١٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٢٣٨ .

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم وما من ضعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد (٢١٣)

واندثرت رفات الجود والكرم ونفقت بدولته سوق الأدب بعد ما كسدت . وهبت ريح الفضل بعد ما كسدت اذ لها الملوك بالقيان والمعازف كان لهوه بالعلوم والمعارف وان عمروا أوقاتهم بالخمر والقمر . كانت أوقاته معمورة بالنهى والأمر (٢١٤) .

ووصفه عمارة اليمنى بقوله : « فكان مرتاضا مشمم أطراف المعارف وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم الا خشونة مجردة وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه » (٢١٥) .

ولقد كان الصالح بن رزيك برغم تعصبه للمذهب الشيعى يجتمع بفقهاء السنة ويستمع اليهم وكان يعقد مجالس العلم والأدب ولم يكن يخيب امل قصاده من أهل العلم الذين يفدون اليه من سائر البلاد . فكان ممن قصده الحسن بن على بن عبد الله أبى حرارة ، أبو على ثقة الملك الحلبى الخسفى الشاعر الأديب .

كما كان الصالح كثير الاهتمام بالشعراء وقد عرف ما للشعر من أمر فاستخدمه فى تمكين دولته وتمجيد حروبه مع الصليبيين كما كان شيعيا مغاليا اتخذ من الشعر وسيلة لنشر المذهب الشيعى والحط من شأن المذاهب الأخرى ، كما حاول جاهدا أن يغرى شعراء عظاما كعمارة اليمنى باعتناق هذا المذهب كما اتخذ من الشعراء أصدقاء وجلساء ويذكر عمارة أسماء بعض الشعراء والأدباء الذين قابلهم فى حضرة هذا الوزير فيقول : « ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال (٢١٦)

(٢١٣) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٢ .

(٢١٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٢ — ١٩٥ نقلا عن الخريدة ورقة ٣٢ ب للعماد الأصفهانى .

(٢١٥) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٤٨ .

(٢١٦) هو القاضى الموفق أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف باسم الخلال رئيس ديوان الانشاء منذ اواخر عهد الحافظ عبد الله الى آخر أيام العاضد ووصفه العماد بقوله : هو ناظر مصر وانسان ناظرها وجامع مفاخرها وكان اليه الانشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء ويعد الموفق الأستاذ المباشر للقاضى الفاضل وتوفى ابن الخلال سنة ٥٦٦ هـ .

صاحب ديوان الانشاء ، وأبا الفتح محمد بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وما من هذه الحلبة أحد الا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرئاسة الانسانية بأوفر نصيب ويرى شاكلة الأشكال فيصيب » (٢١٧) .

فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون فى مجلس الملك الصالح يتناشدون الشعر ويتناظرون فى بعض المسائل العلمية والأدبية ويستمعون الى شعر الملك الصالح . وفى ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة : « وجعل له مجلسا فى أكثر الليالى يحضره أهل الأدب ونظم هو شعرا ودونه وصار الناس يهرعون الى نقل شعره وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير » (٢١٨) .

ويظهر ان الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير وعلى غير المهذب ممن يتوسم فيهم المقدرة والكناية على تثقيف الشعر . اذ يحدثنا عماره اليمنى : « ودخلت اليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط ولم أكن رأيته من أول الشهر بليلة . فأمر لى بذهب وقال : لا تبرح ثم خرج الى وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعة وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا الى الحمام سنينا ... ليت شعرى متى يكون الحمام

ثم قال لى : تأملهما وأصلحهما ان كان فيهما شىء ، قلت : هما صالحان (٢١٩) .

فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر لاصلاح شعره ، وليس فى ذلك ما ينقص من قدرته فى الشعر فالمؤرخون يحدثوننا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فلا غرو أن ابن ابى حفصة شاعر هارون الرشيد الرسمى كان يعرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى يعرض شعره على أبى تمام ، وكان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعى أو غيره من اللغويين .

---

(٢١٧) عمارة اليمنى : النكت المصرية ص ٣٥ .
(٢١٨) أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٢ .
(٢١٩) عمارة اليمنى : النكت المصرية ص ٤٩ .

فان كان الملك الصالح قد استعان بالمهذب أوبعمارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لاصلاح شعره فان ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر فلم يستبح لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه (٢٢٠) .

ولكن ياقوت ذكر فى معجم الأدباء فى حديثه عن ابن الزبير : « وقيل أن أكثر الشعر الذى فى ديوان الصالح انما هو من عمل المهذب بن الزبير » (٢٢١) .

ولعل مما يثير العجب ما ذكره ياقوت ولكن ربما اشتبه عليه الأمر فظن أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذى فى ديوان ابن رزيك بدلا من انه كان يثقف هذا الشعر وقد انتهت الينا مقطوعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح منها :

ولنار فطنته تريك شعره	عذبا يروى غلة الظمآن
وعقود در لو تجسم لفظها	ما رصعت الا على التيجان
وتنزهت عن أن يرى أفوادها	لمواضع الاقراط والآذان
من كل رائعة الجمال زهت بها	بين القصائد غرة السلطان
سيارة فى الأرض لا لقيامها	فى سيرها قيد من الأوزان (٢٢٢)

ومهما يكن منشيء فان المؤرخين اجمعوا على أن الملك الصالح كان مكثرا من قول الشعر حتى جمع شعره فى ديوان فى جزأين (٢٢٣) . ولم تكن مجالس انسه تنقطع الا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط انيسه ، وكان كرمه أقرب الى الجزيل من الهزيل . ولذلك قصده الشعراء من كل مكان فوجدوا فى رحابه ما أملوه ، كما كان يراسله على البعد غيرهم فأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء .

ولا أدل على حب الصالح للشعر ما ذكره عمارة من أنه عند وصوله الى مصر اول مرة من أمير الحرمين هاشم بن فليته لجأ الى الحسين بن ابى الهيجا

---

(٢٢٠) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(٢٢١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ .
(٢٢٢) د. محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٦ .
(٢٢٣) المصدر السابق ص ١٩٧ .

صهر الصالح ليقدمه له يقول عمارة : « فلما استدعى أبو الهيجا للغداء عند السلطان « أى الصالح » قال : عندى رسول صاحب مكة وكنت أظنه عاقلا فاذا هو ناقص قال له الصالح : وبأى شيء عرفت نقصه ؟ قال : لكونه يحسن شيئا من هذا السحت الذى تعلمه أنت والجليس وابن الزبير ، قال الصالح : لعله شاعر . قال : نعم . قال الصالح : هاته ، هات الرجل ، ثم أنشد الصالح :

ان الذى نكرهون منه   ذاك الذى يشتهيه قلبى (٢٢٤)

ويكفى أن نذكر بعض فحول الشعراء الذين حفل بلاط الوزراء وخاصة ابن رزيك لنعرف مدى ما وصل أليه الأدب من ازدهار وما بلغه الشعراء والأدباء من مراكز الصدارة فى دواوين الدولة . ومن هؤلاء : الاخوان أحمد والحسن ابنا على بن الزبير (٢٢٥) والقاضى الجليس بن الحباب (٢٢٦) والشريف القاضى سناء الملك اسعد بن على الحسينى الذى جاء من الموصل واستقر بمصر والامير المهند حسام بن مبارك العقيلى ابن أخت الصالح وكان الأمير المهند حسام بن مبارك العقيلى ابن أخت الصالح وكان مقدم عسكره ، كما كان شاعرا

---

(٢٢٤) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ١٣٢ .

(٢٢٥) وابنا الزبير هما : الحسن بن على بن ابراهيم بن الزبير المعروف بالقاضى المهذب وأحمد بن على المعروف بالقاضى الرشيد من أهل اسوان من أصل عربى ينتميان الى قبيلة غسان وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر رحلا من أسوان الى القاهرة ، وما زالا يرتقيان فى مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء وكان الرشيد أعلم من أخيه وأخوه أشعر منه . فقد ضرب الرشيد بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم . كما كان يجيد النثر وله تصانيف منها كتاب « منية الألمعى وبلغة المدعى » وكتاب « المقامات » ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب « جنان الجنان وروضة الأذهان » الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها وجعله ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد الأصفهانى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتاب الخريدة (الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى د. محمد حمدى المنياوى — حاشية ص ١٢٣) .

(٢٢٦) هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى جليس صاحب مصر ، وكان أوحد عصره فى مصر نظما ونثرا وترسلا وشعرا مات سنة ٥٦١ وقد أناف على السبعين ومن أشهر قصائده قصيدته الدالية التى كتبها للصالح طلائع يستنجده بعد قتل الظافر ودعى الجليس لكثرة مجالسته للخلفاء ومدحه اياهم .

مثل خاله الفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن من اهل الاسكندرية ، وابن الصياد (٢٢٧) الذى قال عنه عماد الدين « وكان سريع الخاطر فى النظم لا يقف قلمه ولا ينفع فيه علمه ويغريه الصالح بجلسائه يهجوهم وكانوا يتعرضون له » . وابن قادوس (٢٢٨) الذى بالغ من تكريم الصالح له أن حضر الى منزله عند وفاته ومشى فى جنازته حتى واراه فى التراب وغيرهم كثيرون . وان عمارة اليمنى خير مثال لما يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء وما كان لهذا التكريم من أثر فى أدبهم ، فان عماره برغم كونه سنيا شافعيا لم يمنع ابن رزيك من العطف عليه وتقريبه له حتى صار من الصق أصحابه به وانهالت عليه صلات الوزير مما جعل عمارة السنى ينطلق بكل قوته ومقدرته الشعرية فى ذكر الفاطميين والانتصار لهم والدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم مما أدى به الى القتل بأمر صلاح الدين وهكذا احتفظ ابن رزيك بصداقة عمارة رغم اختلافه مع عمارة فى المذهب وظل وفيا لآل رزيك حتى بعد القضاء على دولتهم ومحاولة الوزير شاور اغداق النعم عليه وتقريبه له وضمه الى حاشيته . ومن اروع ما قاله :

تنكد بعد الصالح فاغتدت ... مجالس أيامى وهن غيسوب (٢٢٩)
أيجدب خدى من ربيع مدامعى ... وربعى من نعمى يديه خصيب

وتوفى الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ . وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيك بن الصالح الذى سار على منوال ابيه فى رعاية الأدب والأدباء وكان شاعرا مثل أبيه ناقدا للشعر عارفا بجيده ويقول عمارة عنه « وأما

---

(٢٢٧) هو أبو القاسم هبة الله بن بدر المعروف بابن الصياد وكان مولعا بهجاء القاضى الجليس كثير التهكم بأنفه الكبير حتى قيل انه انشد أكثر من ألف مقطوعة فى أنف الجليس .

(٢٢٨) هو القاضى المفضل كافى الكفاة أبو الفتح محمد بن القاضى بن اسماعيل ابن أحمد الدمياطى المعروف بابن قادوس من أقدر كتاب مصر وشعرائها شاهد عصر الأفضل وامتدت به الحياة الى عصر الصالح طلائع بن رزيك وهو مصرى المحتد والنشأة ، رغم غلو كعبه فى الشوكان ضعيف الخلق يحسد زملاءه (الوزراء والوزراء — د. محمد حمدى المنياوى ص ١٢٣ — ١٢٤) .

(٢٢٩) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٢٣ — ١٢٤ .

فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويتيب عليه » (٢٣٠) .

وفى رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال :

لا يقولن جاهل بالقوافى ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع عليم بمقادر اهلهن خبير (٢٣١)

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله لأن الناصر استخدم القاضى الفاضل ، يقول عمارة « ومن محاسن ايامه وما يؤرخ عنها بل هى الحسنة التى لا توازى واليد البيضاء التى لا تجازى خروج أمره الى والي الاسكندرية بتسيير القاضى الفاضل الأجل ابى عبد الرحيم على البيسانى الى الباب واستخدامه »(٢٣٢) .

فكان دقة احساس الملك الناصر وتذوقه للشعر والكتابة الفنية ومعرفته للجيد من الشعر والنثر جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضى الفاضل الأدبية فيرفعه الى مرتبة الخدمة فى ديوان الجيش بالحضره ولولا ذلك لظل القاضى الفاضل مغمورا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الحظوة فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم (٢٣٣) .

فلا غرو أن رأينا عمارة اليمنى يرفع من شأن هذا الكشف ويعده « الحسنة التى لا توازى واليد البيضاء التى لا تجازى » ولو كان عمارة يعلم ما ستأتى به الأيام له وموقف القاضى الفاضل منه لجعل هذه اليد البيضاء سوداء وتلك الحسنة سيئة . لكن لم تمهل الأيام الملك الناصر اذ قتل سنة ٥٥٨ هـ وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام وادى الأمر الى تدخل جيوش نور الدين زنكى فى أمر هذه المنازعات والى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر

---

(٢٣٠) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٥٥ .
(٢٣١) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٢٣٢) نفس المصدر ص ٥٣ .
(٢٣٣) عبد الرحيم بن على البيسانى شافعى المذهب تقلد أبوه قضاء بيسان وهى بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (البيسانى) قدم القاهرة وخدم فى ديوان الانشاء أيام الخليفة الحافظ وتوفى حتى صار صاحب هذا الديوان ولما قدم أسد الدين شيركوه اتخذه كاتبا له ، ووزر صلاح الدين فاستعان به وجعله وزيرا حتى توفى سنة ٥٩٦ هـ .

ثم الى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبى الوزارة الى أن استطاع هو القضاء عليها سنة ٥٦٧ هـ (٢٣٤) .

ولقد دخلت البلاد بعد القضاء على آل رزيك ووزارة شاور فى دور جديد من الفوضى وسفك الدماء وتدخل القوى الخارجية نتيجة للاضطرابات التى قامت بين شاور وضرغام فأخذت دولة الأدب مثل أى شىء آخر فى الدولة فى الضعف برغم محاولات شاور فى تقريب بعض الشعراء مثل عمارة وغيره (٢٣٥) .

ولقد وصف عمارة ما صاحب وزارة شاور من سفك للدماء وما أدى ذلك الى اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار فقال :

ألا ان حد السيف لم يبق خاطرا   من الناس الا حائرا يتردد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح   على نفسه أضعاف ماخاف مفسد

وكان لذلك أثره فى انخفاض محول الشعراء ومحاولة كل منهم النجاه بنفسه حتى أن عمارة نفسه ألح على شاور فى اقالته من قول الشعر فأقاله .

ويصف عماد الدين الأصفهانى حالة الأدب والأدباء بعد الصالح بقوله :

« انكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحل نظام النظم ، وانتثر عقد درى النثر ، واستشعر الفاقه الشعراء ، وعدم المبالغة البلغاء وعد الفضل فضولا ، والعقل عقولا ، وطلب المهذب مذهبا فى الذهاب محبوبا ، ومركبا فى النجاه مجنونا ، واحتل الرشيد طريق رشده فاحترق بشرار شر شاور من بعده ، وعاد ابن الصياد الى حرفة أبيه ، وطفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين ، فلم تزل مصر بعد منحوسة الحظ ، ممسوخة الجد ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية » (٢٣٦) .

وقد كان للعناية الكبيرة التى اولاها الوزراء للعلم والعلماء والأدب والأدباء

---

(٢٣٤) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢٣٥) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٢٥
(٢٣٦) د . محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٢٥ . نقلا عن العماد الأصفهانى — الخريدة .

واغداقهم الانعامات عليهم أكبر الأثر فى ازدهار الحركة العلمية والأدبية بمصر ، ووفود العلماء والأدباء من كل صوب وحدب وان يقبلوا على التأليف فى كل فرع كما كان من عوامل ازدهار الكتابة الفنية فى العصر الفاطمى أن معظم وزراء العصر الأول كانوا من الكتاب حتى أسماهم المؤرخون أصحاب الأقلام — وبذلك كانت الكتابة عملا مرموقا ينظر اليه بتجلة واحترام ويسعى كل من يتطلع الى منصب الوزارة (٢٣٧) .

وهكذا كان للوزراء الطبق المعلى فى ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى العصر الفاطمى بما كانوا يغدقونه على الشعراء والأدباء والعلماء اسوة بالخلفاء الفاطميين ولكن للأسف الشديد أن الكثير من هذا الشعر قد ضاع ولم يبق منه الا اشلاء متناثرة فى يتيمة الدهر والخريدة وغيرها من كتب التراجم ومع هذا فان مصر استطاعت أن تنتزع زعامة العالم الاسلامى فى الحركة الثقافية والأدبية والعلمية .

---

(٢٣٧) د. محمد حمدى المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٠٩ .



قائمـــــة المصـــــادر

(أ) المخطـوطات :

١ ــ ابن أيبك (توفى بعد ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م) :

« كنز الدرر وجامع الغرر » الجزء السادس بعنوان « الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية » ــ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ.

٢ ــ بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :

« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » مخطوط بمكتبة جامعة القـاهرة ــ الجزء السادس برقم ٢٤٠٢٧ .

٣ ــ ابن ظافر (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) :

« أخبار الدول المنقطعة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ

٤ ــ سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر ــ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ.

٥ ــ أبى السرور البكرى (ت ١٠٠٥ ــ ١٠٥٩ هـ / ١٥٩٦ ــ ١٦٥٠ م) :

« عيون الأخبار ونزهة الأبصـــــار » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٢ تاريخ بمكتبة مصطفى كامل باشا .

٦ ــ « رسائل الحاكم بأمر الله » كتبها دعاة الفاطميين ولا سـيما حمزة بن على وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٣٧ ــ ٣٨ ــ ١٣٣ عقائد ونحل .

٧ ــ العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

« عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان » ــ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ــ الجزء التاسع عشر .

٨ ــ القضاعى (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

« عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ ؛

٩ — ميخائيل « الأنبا » (أسقف تنيس — عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) :
« سير البيعة المقدسة » والمعروف « بذيل سير الآباء البطاركة » . الجزء الثالث : مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٦٤٣٤ تاريخ .

١٠— النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ — معارف عامة — الجزءالسادس والعشرون .

(ب) المصادر العربية المطبوعة :

١١— الأبشيهى (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) :
« المستطرف فى كل فن مستظرف » القاهرة ١٣٨٥ هـ — جزءان .

١٢— ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :
« الكامل فى التاريخ » مصر ١٣٥٣ هـ ، الجزءان الثامن والتاسع .

١٣— ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م) :
« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » تحقيق د. نزار رضا — بيروت ١٩٦٥ م.

١٤— ابن اياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :
« تاريخ مصر » المعروف بـ « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » بولاق ١٣١١ هـ — الجزء الأول .

١٥— التطيلى (بنيامين بن يونة التطيلى الأندلسى) :
« رحلة بنيامين » (٥٦١ هـ / ٥٦٩ هـ) ترجمة وتعليق عزرا حداد — بغداد سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

١٦— ابن الجوزى (أبو الفرج ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :
« المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » حيدر اباد سنة ١٣٥٧ — ١٣٥٨ هـ — الأجزاء من ٥ — ١٠ .

١٧— ابن جبير (ت ٦١٤ هـ — ١٢١٧ م) :
« رحلة ابن جبير » تحقيق د. حسين نصار — القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م.

١٨ــ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) :
« رفع الاصر عن قضاة مصر » القسم الثانى ــ تحقيق د. حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١ م .

١٩ــ ابن حوقل (نبغ فى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :
« كتاب صورة الأرض » مطبعة دار الحياة ــ بيروت .

٢٠ــ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ ــ ١٤٠٦ م) :
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ الجزء الرابع .

٢١ــ ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ستة أجزاء ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

٢٢ــ ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ ــ ١٤٠٧ م) :
« الانتصار لواسطة عقد الامصار » الجزءان الرابع والخامس ــ بولاق ١٣٠٩ ــ ١٣١٠ هـ .

٢٣ــ ابن الراهب (رسم شماسا فى دير المعلقة بفسطاط مصر سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٢ م) :
« تاريخ ابن الراهب » نشر لويس شيخو ــ بيروت ١٩٠٣ م .

٢٤ــ رشيد الزبير (عاش فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) :
« الذخائر والتحف » تحقيق د. محمد حمد الله ــ الكويت ١٩٥٩ .

٢٥ــ ساويرس بن المقفع (أسقف الأشمونين) :
« تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المجلد الثانى ــ الجزء الثانى ــ تحقيق عبد المسيح وسوريال وبرمستمر ــ طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م .

٢٦ــ السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان ــ القاهرة ٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .

٢٧ـ أبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :
« ذيل تجارب الأمم » صححه هـ.ف. امدروز ـ طبع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .

٢٨ـ الشـــيرازى (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :
« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » تحقيق السيد الباز العرينى ـ القـاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

٢٩ـ أبو صالح الأرمنى (٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) :
« تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى » المعروف بـ « كنائس واديرة مصر » تحقيق وترجمة طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٤ م .

٣٠ـ ابن ظهيرة (عاش فى القرن العاشر الهجرى) :
« الفضــائل الباهرة فى ملوك مصر والقاهرة » تحقيق مصطفى الســقا ـ كامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ م .

٣١ـ العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :
« تاريخ مختصر الدول » بيروت ١٨٩٠ م .

٣٢ـ أبو عثمان النابلسى الصفدى (ت ٦٤١ هـ) :
« تاريخ الفيوم وبلاده » القاهرة ١٨٩٨ م .

٣٣ـ ابن العمــاد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :
« شــذرات الذهب فى أخبـــار من ذهب » القــاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥٣ هـ الجــزء الثالث .

٣٤ـ ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) :
« تاريخ المسلمين » ليدن ١٩٢٥ م .

٣٥ـ غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ) :
« كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » صححه بولس راويس باريس ١٨٩٣ م .

٣٦ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
« المختصر فى أخبار البشر » المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

٣٧ــ ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٥٩ م) :
« مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار » الجزء الأول ــ تحقيق أحمد زكى باشا ــ القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

٣٨ــ ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١٣٣١ م) :
« ذيل تاريخ دمشق » بيروت ١٩٠٨ م .

٣٩ــ القلقشندى (ت ٣٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ١٤ جزءا ــ القاهرة ١٩١٣ م / ١٩١٧ م .

٤٠ــ القفطى (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)
« تاريخ الحكماء » أو « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ليبزج ١٩٠٣ م .

٤١ــ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :
« البداية والنهاية فى التاريخ » القاهرة ١٣٥٨ هـ ــ الجزءان الحادى عشر والثانى عشر .

٤٢ــ كاتب مراكشى (من كتاب القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) :
« كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » تحقيق د . سعد زغلول نصار . الاسكندرية ١٩٥٨ م .

٤٣ــ أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزءان الرابع والخامس ــ طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥١ هـ / ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٢ / ١٩٣٥ م .

٤٤ــ جبر الدين الحنبلى (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) :
« الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » الجزء الأول .

٤٥ــ المقدسى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ليدن ١٩٠٦ م .

٤٦ـ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م
« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » الجزء الاول ـ تحقيق الشيال
القاهرة ١٩٦٧ م ـ والجزء الثانى ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد ـ القاهرة
١٩٧١ م .

٤٧ـ « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان ـ طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ

٤٨ـ « الالمام بأخبار من بأرض الحبشـــة من ملوك الاســـلام » طبع بمصر سنة
١٨٩٥ م .

٤٩ـ ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :
« تاريخ مصر » الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩١٩ م .

٥٠ـ ناصر خسرو (زار مصر بين سنتى ٤٣٩ ـ ٤٤١ هـ) .
« سفر نامة » ترجمة يحيى الخشناب ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٥٤ م.

٥١ـ ابن الوردى (ت ٧٥٠ هـ ١٣٥٨ م)
« تتمة المختصر فى اخبار البشر » جزءان ـ طبع بالقاهرة ١٢٨٥ م .

٥٢ـ ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :
«معجم البلدان » ١٠ اجزاء ـ القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩٠٦ م .

٥٣ـ يحيى بن سعيد الأنطاكى (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) :
« تاريخ » او « صلة كتاب أوتيخا » المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق » تحقيق شيخو ـ بيروت ١٩٠٩ م .

(ج) المراجـــع الحديثـــة :

٥٤ـ اريس حبيب المصرى :
« قصـــة الكنيســـة القبطية » الجـــزء الثالث ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة
١٩٧٥ م .

٥٥ـ ارنولـــد :
« الدعوة الى الاسلام » ترجمة د . حســـن ابراهيم وعبد المجيد عابدين ـ
الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

٥٦— أسد رستم :
« الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب » فى جزءين — بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م .

٥٧— بتشر (السيدة ا . ل) :
« تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » ٤ اجزاء ـ طبع بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٦ م .

٥٨— بارتولد :
« تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ـ القاهرة ١٩٥٢ م .

٥٩— البراوى (راشد — الدكتور) :
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » القاهرة ١٩٤٨ م .

٦٠— ترتون (أ . س) :
« اهل الذمة فى الاسلام » ترجمة د. حسن حبشى — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٧ م .

٦١— جاك تاجر :
« اقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى سنة ١٩٢٢ » القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٢— جروهمان (أدولف) :
« أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ترجمة د . حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن — القاهرة ١٩٣٤ م .

٦٣— حتى (فيليب — الدكتور) :
« تاريخ العرب فى جزءين — ترجمة ادوارد جرجى وجبرائيل جبور — بيروت ١٩٦١ م .

٦٤— حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :
« تاريخ الاسلام السياسى » الجزء الثالث — الطبعة السابعة — القاهرة ١٩٦٥ م ـ والجزء الرابع ـ الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

٦٥— « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » القاهرة ١٩٣٢ م .

٦٦— « تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب » الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

٦٧— حسن ابراهيم وطه شرف :
« المعز لدين الله الفاطمى ، امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر » القاهرة ١٩٤٨ م .

٦٨— حسن إبراهيم وآخرون :
« المجمل فى التاريخ المصرى » الطبعة الاولى — القاهرة ١٩٤٢ م .

٦٩— خطاب عطية على :
« التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » القاهرة ١٩٤٧م .

٧٠— ديماند :
« الفنون الاسلامية » ترجمة احمد عيسى .

٧١— زاهر رياض (الدكتور) :
« تاريخ أثيوبيا » القاهرة ١٩٦٤ م .

٧٢— « كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا » الطبعة الأولى — القاهرة ١٩٦٢ م .

٧٣— رؤوف حبيب :
« كنائس القاهرة القبطية القديمة » القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٧٤— زكى محمد حسن (الدكتور) :
« الفن الاسلامى فى مصر » الجزء الأول — القاهرة ١٩٣٥ م .

٧٥— « كنوز الفاطميين » القاهرة ١٩٣٧ م .

٧٦— « فنون الاسلام » القاهرة ١٩٤٨ م .

٧٧— سرور (محمد جمال الدين — الدكتور) :
« النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة — القاهرة ١٩٥٩ م .

٧٨ـ « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » مجموعة الألف كتاب ــ القاهرة ١٩٦٠ م.

٧٩ـ « الدولة الفاطمية فى مصر » القاهرة ١٩٦٥ م ــ ١٩٦٦ م .

٨٠ـ « سياسة الفاطميين الخارجية » القاهره ١٩٦٧ م .

٨١ـ سيد أمير على :
« مختصر تاريخ العرب » ترجمة عفيفى البعلبكى ــ الطبعة الأولى ــ بيروت ١٩٦١ م .

٨٢ـ سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :
« مصر فى فجر الاسلام » الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٧٠ م .

٨٣ـ « مصر فى عصر الاخشيديين » الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٧٠ م .

٨٤ـ حسين أحمد محمود (الدكتور) :
« حضارة مصر الاسلامية » العصر الطولونى ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٨٥ـ حسن أحمد محمود وسيدة كاشف :
« مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين » مجموعة الألف كتاب ــ القاهرة ١٩٦٠ م .

٨٦ـ الشيال (جمال الدين ــ الدكتور) :
« تاريخ مصر الاسلامية » الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٦٧ م .

٨٧ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح ــ الدكتور) :
« المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » القاهرة ١٩٦٢ م .

٨٨ـ عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) :
« فى مكتبة دير سانت كاترين » مستخرج من « مجلة أم درمان الاسلامية » العدد الأول ــ سنة ١٩٦٨ م .

٨٩ـ عبد الرحمن فهمى :
« موسوعة النقود العربية وعلم النميات » الجزء الأول بعنوان « فجر السكة العربية » ــ القاهرة ١٩٦٥ م .

٩٠— عبد الرحمن زكى (الدكتور) :
« القاهرة — تاريخها وآثارها — من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ »
القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٩١— على ابراهيم حسن (الدكتور) :
« تاريخ جوهر الصقلى » الطبعة الأولى — القاهرة سنة ١٣٥١ هـ /
١٩٣٣ م .

٩٢— على حسنى الخربوطلى (الدكتور) :
« مصر العربية الاسلامية — السياسة والحضارة فى مصر فى العصر العربى
الاسلامى ، منذ الفتح العربى الى الفتح العثمانى » القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٣— « العرب واليهود فى العصر الاسلامى » القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٤— عمر كمال توفيق (الدكتور) :
« الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة » (الاسكندرية
١٩٥٩ م) .

٩٥— عنان (محمد عبد الله) :
« الحاكم بأمر الله ، واسرار الدعوة الفاطمية » الطبعة الثانية — القاهرة
١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

٩٦— « تاريخ الجامع الأزهر » الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٧— « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » الطبعة الأولى — القاهرة
١٩٣١ م .

٩٨— عطية محمود القوصى (الدكتور) :
« بنو الكنز » دراسة تاريخية — رسالة ماجستير غير مطبوعة تحت اشراف
الدكتور احمد دراج — جامعة القاهرة ١٩٧٠ م .

٩٩— « تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة
العباسية سنة ٦٥٦ » رسالة دكتوراة غير مطبوعة تحت اشراف د . احمد
دراج — جامعة القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠٠ـ كارل بروكلمان :
« تاريخ الشعوب الاسلامية » الجزء الثاني بعنوان : « الامبراطورية الاسلامية وانحلالها » الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٥٤ م .

١٠١ـ لين بول (ستانلى) :
« سيرة القاهرة » ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين — القاهرة ١٩٥٠ م .

١٠٢ـ ماجد (عبد المنعم ـ الدكتور) :
« نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » القاهرة .

١٠٣ـ « الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه » القاهرة ١٩٥٩ م .

١٠٤ـ « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر » الاسكندرية ١٩٦٨ م .

١٠٥ـ متـز (آدم) :
« الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » فى جزءين — القاهرة ١٩٤١ م .

١٠٦ـ المنياوى (محمد حمدى ـ الدكتور) .
« الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى » القاهرة ١٩٧٠ م .

١٠٧ـ مرقص سميكة (باشا) :
« دليل المتحف القبطى ، واهم الكنائس والأديرة الأثرية » فى جزءين — طبع بمصر ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ م .

١٠٨ـ مرزوق (محمد عبد العزيز ـ الدكتور) :
« الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية » القاهرة ١٩٤٢ م .

١٠٩ـ مشرفة (عطية مصطفى ـ الدكتور) :
« نظم الحكم فى عصر الفاطميين » الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٤٨ م .

١١٠ـ مصطفى مسعد (الدكتور) :
« الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى » القاهرة ١٩٦٠ م .



(د) المراجــع الأجنبيــة :

1 — Goitein (S.D.) :

"Jews and Arabs". New York, 1955.

2 — ———— "A Mediterranean Society, the Jewish Communities of the Arabs World as Portrayed in Documents of the Cairo Geniza". Vol. I, California, 1967.

3 — Lane-Pool (S.) :

"History of Egypt in the Middle Ages" London, 1901.

4 — Mann (J.) :

"The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliph". Vol. I, Oxford, 1920.

— Stern (S.M.) :

"Fatimid Decress, Original Documents from the Fatimid Chancery". London, 1964.



الفهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٩/٤٣١١

٨ ـ ٠٣٤٨ ـ ١٠ ـ ٩٧٧

دار عطـــوه للطبـــاعة









